

بسم الله الرحمن الرحيم [رب يسّر]

الحمد لله العزيز الغفار ، القوي القهار ، المتعالى عن أن تدركه الابصار ، أو تحيط به الخواطر والافكار ، أحمده على أنعمه المتوالية الغزار ، وأصلى على رسوله محمد المنتجب من أشرف نَجَّار (١) ، المخصوص بأعظم فخار ، وعلى آله الأكرمين الاطهار ، وأصحابه البررة الاخيار .

وبعد ، فهذا كتاب أوردت فيه أخبار ملوك بني أيوب ، وجلة من محاسنهم ومناقبهم ، إذ كانوا أعظم ممن تقدمهم من الملوك شأنا ، وأجلهم سلطانا ، فتح الله تعالى بهم القدس الشريف من أبدى الكافرين ، وأذل بسيوفهم أعناق الملحدين ، وطهروا الديار المصرية من بدع الباطنية (٢) ، وشيّدوا بها أركان الملة الحنفية ، فشكر الله سبحانه سعيهم ، وقُدّس أرواحهم الشريفة ، وأنالهم من الآخرة أعلا الرتب المنيقة .

وخدمتُ به خزانة الجنب (٣) الكريم المولوى الأميرى الكبرى العضدى

(١) النجار الأصل ، ويوجد أمام هذا اللفظ فى الهامش ما يلى : « نجار : Color, Natura, Radix, Diversitas » ويبدو أن أحد المستشرقين الذين اطلعوا على هذه النسخة فى مكتبة جامعة كمبروج استعصى عليه فهم لفظ « نجار » فكتب أمامها معانيها المختلفة فى اللغة اللاتينية .
(٢) يقصد المؤلف أن الأيوبيين قضوا على الدولة الفاطمية الشيعية التى ظلت تحكم مصر نحو قرنين من الزمن .

(٣) كان للألقاب الإسلامية فى مصر المملوكى خاصة نظام دقيق عرّفه ديوان الانشاء وحذقه كتابه ، وأفرد القلقشندى الجزء السادس من كتابه صبح الأعشى للحديث عن هذا النظام ، وقسمها ابتداء من ص ١٣٠ إلى خمس درجات : الدرجة الأولى درجة المقر ، والدرجة الثانية درجة الجنب ، وأورد أمثلة مما كان يكتب لنواب الشام مما يبدأ بافظ جناب ، وهى لا تختلف كثيراً من هذه الألقاب التى لقب بها المؤلف هنا الملك المنصور صاحب حماة الذى ألف الكتاب باسمه .

النصيري الاسنهلاري^(١) العالى العادلى المظفرى المؤيدى ، ملك الأمراء ، مقّم
الجيش ، مبارز الدين ، سيد الغزاة والمجاهدين ، الملكى المصورى^(٢) أعز الله
أنصاره ، وضاعف اقتداره ؛ إذ كان الله سبحانه قد خصّه من بين سائر أمراء عصره
بالرأى الصائب ، والفكر الثاقب ، والفضل الغزير الباهر ، والعقل الرصين الوافر ،
والأخلاق الكاملة الرضية ، والمحاسن الجميلة السنية ، ومحبة العلم والعلماء ، وإيثار
الفضيلة والفضلاء ؛ وسمّيته : « مفرج الكروب فى أنفبار بنى أيوب » وبالله المستعان ،
وعليه التكلان .

(١) اسنهلار كلمة مكونة من لفظين ، أحدهما فارسي وهو « أسفَه » ومعناه المقدم ، والثاني
تركي وهو « سلار » ومعناه السكر ؛ فكأن معناها : « مقدم السكر » ، وقد استعمل هذا المصطلح
فى مصر فى عهد الدولة الفاطمية ، وكان حامله صاحب وظيفة تلى صاحب الباب وهو كما ذكر
(القلقشندى : ج ٣ ، ص ٤٨٣) : « زمام كل زمام ، وإليه أمر الأجناد والتحدث فيهم ،
وفى خدمته وخدمة صاحب الباب تقف الحجاب على اختلاف طبقاتهم » ، ثم أصبح هذا القرب
فى مصر المملوكى مما يختص به أمراء الطباخانة أو من م فى مرتبتهم ، ويذكر القلقشندى
أن الأمراء فى زمانه تركوا استعمال هذا القرب لأن العامة اعتادوا أن يقولوا لبعض من يقف
بباب السلطان من الأعوان « اسنهلار » فكرر الأمراء « مشاركة بعض الأعوان فيه ، فأضربوا
عنه لذلك ، أو لم يفهموا معناه فتركوه » . (صبح الأعشى : ج ٦ ، ص ٧ و ٨) .

(٢) هو الملك المنصور الثانى سيف الدين محمد صاحب حماة ، من نسل الملك المظفر الأول
تقى الدين عمر بن شاهنشاه — ابن أخى صلاح الدين — ؛ ولّى المنصور الثانى حكم حماة سنة ٦٤٢ هـ
وظل على عرشها إلى أن توفى سنة ٦٨٣ ، وكان عالما محبا للعلماء ، فعاش ابن واصل سنين طويلة
فى كنفه ، وله ألف كتابين من أم كتبه : مفرج الكروب هذا — كما يتضح من النص — ،
ومشرح كتاب الأغاني .

ذكر نسب بنى أيوب

لا خلاف في أن الملك الأفضل نجم الدين أيوب — رحمه الله — والد الملوك ، وأخاه الملك المنصور أسد الدين شيركوه ، وهما ابنا شاذى^(١) بن مروان ، ثم قيل إن مروان هو ابن محمد بن يعقوب ، وقيل مروان هو ابن يعقوب نفسه . واختلف في أصلهم : فذكر عز الدين بن الأثير — المؤرخ الموصلى — أن أصلهم من الأكراد الروادية^(٢) ، وهم فخذ من الهذبانىة .

وأنكر جماعة من ملوك بنى أيوب النسبة إلى الأكراد ، وقال : « إنما نحن عرب ، نزلنا عند الأكراد وتزوجنا منهم » [٢] . وادعى بعضهم النسب إلى بنى أمية . وكان الملك المزمع إسماعيل^(٣) بن سيف الإسلام ظهير الدين

(١) هكذا ضبطه (ابن خلكان : الوفيات ، ج ١ ، ص ١٥٢) ، وقال إن هذا الاسم مجمى ومعناه بالعربى فرحان .

(٢) فى الأصل : « الروادية » ، وقد صحح اللفظ بعد مراجعة : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٢٨) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٢٩) و (المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٤) و (ابن تفرى بردى : النجوم ، ج ٦ ، ص ٤) ، والحديث عن نسب بنى أيوب وأصلهم الكردى أو الأهوى العربى طويل ، أنظر لهذا ولذاك : (ابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ١٨٧) و (المسودى : التتبيه والاشراف ، ص ٨٩) و (الحنبلى : شفاء القلوب ، ص ١٣ — ب) و (Enc. Isl. Art. Kurds.)

(٣) خرج من مصر فى أوائل عهد صلاح الدين (٥٦٩ = ١١٧٣) جيش أيوبى لفتح اليمن ، وقد تولى هذا الفتح الملك المعظم تورانشاه الأخ الأكبر لصلاح الدين ، وقد تولى هذا الملك حكم اليمن بعد فتحها (٥٦٩ — ٥٧٧ = ١١٧٣ — ١١٨١) ثم خلفه أخ آخر هو سيف الإسلام طفتكين (٥٧٧ — ٥٩٣ = ١١٨١ — ١١٩٦) ، وبعد موته خلفه ابنه الملك المزمع إسماعيل (٥٩٣ — ٥٩٨ = ١١٩٦ — ١٢٠١) .

أنظر : (Lane-Poole: Nohammadan Dynasties, p. 98.) و (Zambaur: Manuel de Genealogie et de Chronologie pour l'Histoire de l'Islam. p. 98.)

وسيوخ ابن واصل فيما يلى لفتح اليمن ولكل ملك من هؤلاء فى شىء من التفصيل .

طُفَيْكِين^(١) بن أيوب — صاحب اليمن بعد أبيه سيف الإسلام ظهير الدين — يدعى ذلك ، وسمى نفسه : « المعز لدين الله » ، وخطب لنفسه بالخلافة^(٢) في اليمن ، وذلك في أيام عمه الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب ، فأنكر ذلك الملك العادل — رحمه الله — وقال : « لقد كذب إسماعيل ، ما نحن من بني أمية أصلاً » .
والذين ادَّعوا هذا النسب قالوا : « أيوب ، بن شاذي ، بن مروان ، بن الحكم ، ابن عبد الرحمن ، بن محمد ، بن عبد الله ، بن محمد ، بن عبد الرحمن ، ابن الحكم ، بن هشام ، بن عبد الرحمن الداخل ، بن معاوية ، بن هشام ، ابن عبد الملك ، بن مروان ، بن الحكم ، بن أبي العاص ، بن أمية ، بن عبد شمس ، ابن عبد مناف » ، وفي عبد مناف يجتمع نسب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ونسب بني أمية . فهذا قول من جعل نسبهم في بني أمية .

وجماعة آخرون أثبتوا نسبهم في بني مرة بن عوف ؛ ومن أثبت ذلك الحسن ابن غريب [بن عمران] الحرسي^(٣) ، فإنه أوصل نسبهم إلى علي بن أحمد

(١) ضبط هذا اللفظ بعد مراجعة : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ١ ، ص ٤٢٥ — ٢٦) ولكنه لم يعرفه وإنما قال : « وهو اسم تركي » ، وقد ضبطه صاحب (شفاء القلوب ص ٥٤ ب) : « طُفَيْكِين » وذكر أنه يقال له أيضا « طغديكين » .

(٢) ذكر هذه الحقيقة عنه كثرة المؤرخين ، فما ذكره (الحنبلي : شفاء القلوب ، ص ١٧٤) مثلاً أنه « ادعى أنه أموي ، ورام الخلافة ، ولبس ثيابها ، وكان طول الكم نحو عشرين ذراعاً ، وسمى نفسه المهدي ، وأرسل إليه عمه العادل ينهيه عن ذلك ، وينكر فعله ، وقيل إنه ادعى النبوة » . انظر أيضاً : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٤٧١ — ترجمة صلاح الدين) ، (المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٢) .

(٣) في الأصل : « حسن بن غريب الحرثي » ، وفي (شفاء القلوب ، ص ١٣ — ب) : « ابن غريب » فقط ، وقد صحح الأسم وأضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٤٧١) فهو أول من نقل هذا النسب عن هذا المؤرخ النسابة ، الحسن بن غريب حيث قال : « ورأيت مدرجاً رتبة الحسن بن غريب الحرسي يتضمن أن أيوب ابن شاذي بن مروان . . . الخ » وعن ابن خلكان نقل هذا النسب المؤرخون اللاحقون كابن واصل وغيره ، هذا ولم أعتز فيما بين يدي من مراجع علي ترجمة أو تعريف للحسن بن غريب =

المُرِّي (١) الذي امتدحه المتنبي بقوله :

شَرِيقُ الْجَوِّ بِالْغُبَارِ إِذَا سَا رَ عَلَى بَنُ أَحْمَدَ الْقَمَقَامُ
وأحضر هذا النسب إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى ، بن الملك العادل
— صاحب دمشق — ، فسمع النسب عليه ، وأسمعه ولده الملك الناصر صلاح الدين
داود ، في سنة تسع عشرة وستمائة .

والنسب هو هذا :

« أيوب ، بن شاذي ، بن مروان ، بن أبي علي ، بن عثيرة (٢) ، بن الحسن ،
ابن علي ، [بن أحمد بن علي] (٣) ، بن عبد العزيز ، بن هُدَيْبَة ، بن الحَصِين ،
ابن الحرث ، بن سنان ، بن عمرو ، بن مُرَّة ، بن عَوْف » . ثم اختلف النسابون
بعد ذلك ، فالأكثرون قالوا :

« عوف ، بن سعد ، بن ذُبْيَان ، بن بَغِيض ، بن رَيْث ، بن غَطَفَان ، بن سعد ،
ابن قَيْس [بن] عَيْلَان (٤) ، [بن إلياس] (٥) ، بن مُضَر ، بن نَزَار ، بن مَعَد ،
ابن عَدْنَان » . وبعضهم قالوا :

= الحرسي هذا . ثم قال ابن خلكان بعد أن ذكر الخبر والنسب : « هذا آخر ما ذكره
في المعرج » ، وكان قد قدمه إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق .
وسمه عليه هو وولده الملك الناصر صلاح الدين أبو المفاخر داود بن الملك المعظم ، وكتب
لها بسماعها عليه في آخر رجب سنة تسع عشرة وستمائة .

(١) لعله يقصد أنه ينتمي بنسبه إلى مرة بن عوف ، وإلا فإن نص ابن خلكان — وهو المصدر
الذي ينقل عنه ابن واصل هنا — هو : « إن علي بن أحمد بن علي بن عبد العزيز يقال إنه ممدوح
المتنبي ويعرف بالحراساني ، وفيه يقول من جملة قصيدة .. الخ » .

(٢) كذا في الأصل ، وفي (شفاء القلوب ، ص ١٣) : « عثيرة » ، وفي (ابن خلكان :
الوفيات ، ج ٣ ص ٤٧١) : « عثرة » : أنظر أيضا : (ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ،
ج ٦ ص ١٣ هامش ٣) .

(٣) في الأصل : « ابن الحسن بن أبي علي بن عبد العزيز » وقد صححت وأضيف ما بين
الحاصرتين بعد مراجعة : (ابن خلكان) و (النجوم الزاهرة) ، الأجزاء والمنفحات المذكورة
في الهامش السابق .

(٤) في الأصل : « قيس عيلان » وقد صححت بعد مراجعة : (ابن خلكان ، الوفيات)
و (ابن تفرى بردى ، النجوم الزاهرة) . (٥) ما بين الحاصرتين عن الوفيات والنجوم .

« عَوْف ، بن لُؤى ، بن غالب ، بن قَهْر ، بن مالك ، بن النَّضْر — وهو الذى ينتمى إليه نسب قريش كلهم — ابن كِنانة ، بن خُزَيْمة ، بن مُدْرِكَة ، بن إِبَاس ، بن مُضَر ، ابن يَزَار ، بن مَعَدَّة ، بن عَدْنَان . والنسابون مختلفون فيما وراء ذلك ، أى عدنان . والذى ذكره صاحب السيرة ، أنه : « عدنان ، بن أدد ، بن مُقَمَّم ، [بن ناحور]^(١) ، بن تيرح^(٢) ، بن يعرب ، بن يشجب^(٣) ، بن نابت ، ابن إسماعيل [٣] ، بن إبراهيم الخليل — صلوات الله عليهما — بن تارخ . وهو آزر ، ابن ناحور ، بن شاروخ ، بن أرغؤ ، بن فالغ ، بن عابر ، بن أرفخشذ ، بن سام ، ابن نوح — عليه السلام — بن ملك ، بن متوشلخ ، بن أخنوخ — وهو إدريس عليه السلام — بن يرد^(٤) ، بن مهليل^(٤) ، بن قينان ، بن أنوش ، بن شيث ، ابن آدم — أبى البشر عليه السلام — .

فهذا جملة ما قبل فى نسبهم^(٥) ، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك .

(١) أضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة : (السيرة لابن هشام ، ص ٥ ؛ ابن قتيبة : المعارف ، ص ٢٩ ؛ الذهبي : تاريخ الاسلام ، ج ١ ، ص ١٩ ؛ انقلاشندى : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٣٠٦ — ٣٠٧) .

(٢) فى الاصل : « نبرح » وقد صححت بعد مراجعة المراجع المذكورة فى الهامش السابق .

(٣) فى الاصل : « يشجب » ، وقد صححت بعد مراجعة المراجع السابقة .

(٤) فى الاصل : « بن البار د بن مهلايل » والتصحيح عن المراجع السابقة .

(٥) واضح من دراسة موطن الأيوبيين الاصلى ونشأتهم الاولى أنهم أكراد الجنس ؛ أما نسبتهم إلى أصل عربى فواضح أيضا أنها مسألة طارئة جدت بعد قيام دولتهم وإقامة ملكهم ، يؤيد هذا أسانيد تاريخية كثيرة ، منها ما يرويه ابن خلسكان عن شيخه وأستاذ بهاء الدين بن شداد — مؤرخ صلاح الدين — فقد ذكر أنه سمع شيخه بهاء الدين يحكى عن السلطان صلاح الدين أنه عندما سمع هذا النسب العربى أنكره ، وقال : « ليس لهذا أصل أصلا » ومنها ما ذكره (المقرئى ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٧٨) فقد سرد هذا النسب العربى المدعى ثم علق عليه بقوله : « وهذه أقوال الفقهاء لهم من أراد الحظ لديهم لما صار الملك إليهم » ؛ أنظر أيضا : (الدكتور محمد مصطفى زياده ، المؤرخون فى مصر فى القرن ١٥ ، ص ١١) .

ذكر ابتداء أمر نجم الدين أيوب

وأخيه أسد الدين شيركوه

كان أسد الدين شيركوه (١) أكبر سنّاً من نجم الدين أيوب ، وكانا من أهل مدينة دوين (٢) — وهي بلد من بلاد المعجم قريب من أخلاط (٣) — فاتفق أنهما سافرا منها ، وقصدا العراق ، وخدموا الأمير مجاهد الدين بهروز (٤) الخادم ، وكان شحنة (٥) بغداد من قبل السلاطين السلجوقية ؛ وكانت تكريت (٦)

(١) شيركوه كلمة فارسية تتكون من لفظين : شير ومعناها أسد ، وكوه ومعناها جبل ؛ فالكلمة في جماتها تعني أسد الجبل .

(٢) هكذا ضبطها (ياقوت ، معجم البلدان) وعرفها بأنها بلدة من نواحي أران في آخر حدود أذربيجان بقرب من تفليس ، ومنها ملوك الشام بنو أيوب ؛ ولكن (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٤٧٠) ضبطها دوين . وعرفها بما لا يختلف كثيراً عن ياقوت ، قال : هي بلدة في آخر عمل أذربيجان من جهة أران وبلاد الكرج .

(٣) هكذا ضبطها (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٣٥٣) ، ويقال فيها أيضاً خلّاط ، وهي إحدى مدن إرمينية الكبرى .

(٤) هكذا ضبطه (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٤٧٢) . وقال إنه لفظ عجمي معناه يوم جيد على التقديم والتأخير على عادة كلام المعجم ، وذلك أن به معناها جيد ، وروز معناها يوم ؛ وقد كان مجاهد الدين بهروز بن عبد الله الفياثي خادماً رومياً أبيض اللون ، تولى شحنة العراق من جهة السلطان مسعود السلجوقي . وكان صاحب مهمة في عمل المصالح الجليلة وسمارة البلاد ، واسع الصدر والصبر في البذل والاتفاقات والمطاولة والمراجعة إذا امتنع عليه الغرض ، وبني في بغداد رباطاً وقف عليه وفقاً جيداً ، ومات في رجب سنة ٤٠ هـ .

(٥) جاء في اللسان : « وشحن البلد بالخيّل ملأه ، وبالبلد شحنة من الخيل أي رابطة ، قال ابن بري : وقول العامة في الشحنة إنه الأمير غلط » غير أن هذا اللفظ هو ما كان يستعمله الناس دائماً ويتردد في كتب التاريخ العربية في العصور الوسطى ، فالشحنة — ويقال الشحنة — رئاسة الشرطة ، أو محافظ المدينة أو الأمير المنترف على حراستها ؛ ويجمع هذا اللفظ على : شحن ، وشحناء . انظر أيضاً : (المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٩٧٩ ، ٩٨٢ : Dozy: Sup. Dict. Arab) .

(٦) هكذا ضبطها ياقوت ، وقال : والعامة تقول : تكريت ، وذكر أنها بلدة مشهورة بين بغداد والموصل ، وهي إلى بغداد أقرب ، ولها قلعة حصينة في طرفها الأعلى وراكبة على دجلة ، وهي غربي دجلة .

إقطاعه فتقدما عند مجاهد الدين ، وفَوْضَ [مجاهد الدين] إلى نجم الدين أيوب دُزْدَارِيَّة (١) تَكَرَّيت ، فسارا إليها ، ونزلا بقلعتها ، فأقاما بها مدة .

ولما وقعت الحرب بين الخليفة المسترشد بالله (٢) والأمير عماد الدين زنكي ابن آق سنقر سنة ست وعشرين وخمسمائة — على ما سنده — وكسر الخليفة عماد الدين زنكي ، خدم نجم الدين أيوب أتابك زنكي ، وأقام له السفن حتى عبر هناك دجلة ، واتبعه أصحابه ، وأحسن نجم الدين أيوب وأخوه (٣) أسد الدين شيركوه صحبته . وكان هذا أول المرفقة بين عماد الدين زنكي وبين نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه ، ومبدأ سعادتهما ، ولكل شيء سبب .

ثم جرى لنجم الدين أيوب ما أوجب صرفه عن ولاية تَكَرَّيت ، فقيل : كان السبب أن أسد الدين شيركوه قتل إنساناً بتكريت ظلماً ، فعزل مجاهد الدين أخاه [نجم الدين] (٤) لذلك ؛ وقيل : إن نجم الدين أيوب رمى مملوكاً من ممالك مجاهد الدين بهروز بسهم فقتله ، فخشى نجم الدين ، فتوجه نحو الموصل ومعه أخوه أسد الدين ، فحدهما عماد الدين زنكي بن آق سنقر — صاحب الموصل — فأحسن إليهما ، وقربهما ، ورعى لهما خدمتهما له ، وبالع في إكرامهما ، وأقطعهما إقطاعات جليلة وَتَرَقَّتْ [٤] أحوالهما عنده ، فلما فتح عماد الدين زنكي بعلبك ، جعل نجم الدين أيوب

(١) كلمة فارسية مكونة من لفظين : دُزْ — ويقال دُزْ — أى قلعة ، ودار الحافظ أو المسك ، فكان معناها صاحب القلعة أو متوليها ؛ انظر : (الجواليقي : العرب ، ص ٢٦٧ ؛ ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٤٧٢ ؛ Dozy : Sup. Dict. Arab) .
(٢) المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن المستظهر بالله (٥١٢ — ٥٢٩) ؛ انظر تفاصيل هذه الحرب بينه وبين زنكي في : (ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٢٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٨٩ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٦ — ٢٨٧) .

(٣) في الأصل : « وأخاه » .

(٤) أضفنا ما بين الحاصرتين ليتضح المعنى .

دِرْذَاراً فيها ، فلم يزل متوليها إلى أن قُتل عماد الدين زنكى على قلعة جعبر سنة إحدى^(١) وأربعين وخمسة — على ما سند كره .

وكان صاحب دمشق إذ ذاك مجير الدين أبى^(٢) ، بن جمال الدين محمد ، ابن تاج الملوك بُورى^(٣) ، بن ظهير الدين طُغْتِكِين ؛ وكان طُغْتِكِين هذا أتابك الملك شمس الملوك دُقاق ، بن تاج الدولة تُتُش ، بن السلطان ألب أرسلان الساجوق ؛ فلما مات دُقاق استقل طُغْتِكِين بملك دمشق ، وملك بعده ابنه تاج الملوك بُورى ، ثم ملك بعد تاج الملوك ابنه شمس الملوك إسماعيل ، فقتلته والدته ، وملك أخاه شهاب الدين محمود ، بن بُورى^(٣) ؛ ثم قتل شهاب الدين ، وولى أخوه جمال الدين محمد ، ثم توفى جمال الدين ، وملك بعده ولده مجير الدين أبى^(٢) ، وكان أتابكه والقيّم بأمره معين الدين أنز^(٤) — مملوك جده طُغْتِكِين — .

فلما قُتل عماد الدين زنكى على قلعة جَعْبَر ، راسل مجير الدين وأتابكه معين الدين نجم الدين أيوب ليسلم إليهما بعلبك ، على أن يعطوه إقطاعاً جليلاً بدمشق ، فأجابهما إلى ذلك ، وسلم إليهما بعلبك ، ونزل نجم الدين أيوب بدمشق ، وتسلم الإقطاع الذى عُيِّن له ؛ وقد ذكر أن تسليم نجم الدين أيوب بعلبك

(١) فى الاصل : « أحد » .

(٢) فى الاصل : « أتق » ، وقد صحح الاسم بعد مراجعة : (Zambaur, Op. Cit. P. 225) ومجير الدين أبى هو سادس وآخر من حكم دمشق من بنى بُورى ، حكمها فى سنة ٥٣٤ ، وظل يحكمها إلى أن عزله عنها نور الدين محمود بن زنكى فى سنة ٥٤٩

(٣) فى الاصل « نورى » .

(٤) تكاد تجمع المراجع على ضبط هذا الاسم هكذا « أنز » ولكن الذهبى انفرد بضبطه كما فى المتن ونسأله « على الألف ضمة وفتح الذون » وقد توفى معين الدين أنز فى سنة ٥٤٤ ، ودفن بدمشق بقبة بين دار البطيخ والشامية ، وبنى فى دمشق مدرسته العينية لتدريس المذهب الحنفى . انظر : (النعمى : الدارس فى المدارس ، ج ١ ، ص ٥٨٨ ، Zambaur: Op. Cit. P. 30, 225)

إلى صاحب دمشق كان سببه أنه راسل الأمير سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي — وهو أكبر من أخيه نور الدين محمود — رحمه الله — ليسلم إليه بعلبك ويرسل إليه من يحفظها ، فأبطأ عليه بسبب اشتغال سيف الدين بترتيب الممالك الشرقية ، وخاف نجم الدين أن تؤخذ منه عنوة ، ويناله أذى ، فسلمها إلى صاحب دمشق بسبب ذلك .

واتصل الأمير أسد الدين شيركوه بن شاذي — أخو نجم الدين أيوب — بخدمة نور الدين محمود ، بن عماد الدين زنكي ، وصار من أخص أصحابه ، ومقدماً على سائر أمرائه ، لما عرفه من شهامته وشجاعته ، وإقدامه في الحرب على ما لا يقدم عليه غيره ، ولم يزل حاله ينمو عنده إلى أن أقطعه مدينتي حمص والرحبة .

ولما قويت أطماع نور الدين محمود بن زنكي في ملك دمشق [٥] وأخذها من صاحبها مجير الدين أبق بن محمد ، أمر أسد الدين شيركوه بمكاتبة أخيه نجم الدين أيوب ، وكان بها مقيماً ، وطلب منه مساعدته على ما هو بصدده ، فطلب هو وأخوه نجم الدين أيوب من الإقطاع شيئاً كثيراً ببلد دمشق ، فبذل لهما نور الدين ما طلبا ، وحلف لهما على ذلك فساعد نجم الدين في تسليم البلد إلى نور الدين ، فسلمه ، ووفى لهما بما حلف لهما عليه ، وصارت منزلتهما عنده في أعلا الرتب ، وصار أسد الدين شيركوه مقدم جيوشه وعساكره .

ثم كان من قصد أسد الدين الديار المصرية بعساكر نور الدين ما سنده إن شاء الله تعالى .

ولما كان ابتداء أمر نجم الدين وأخيه أسد الدين مبني على الدولة الاتابكية كان الأولى الابتداء بذكر الدولة الاتابكية .

ذكر ابتداء الدولة الأتابكية

كان قسم الدولة آق سُنْقَرُ الحاجب . جَدُّ نور الدين محمود بن زَنْبِيكى — مملوكاً للسلطان العادل عضد الدولة ألب أرْسلان ، بن داود ، بن ميكائيل ، بن سلجوق ، فربى مع ولده السلطان العادل جلال الدولة ملكشاه ، واستمر في صحبته إلى حين كبره ، وإفضاء السلطنة إليه ، فجعله من أعيان دولته ، وأكابر أمراءه ، وأخص أوليائه ، واعتمد عليه في أموره كلها ، وعلت مرتبته ومنزلته إلى أن لُقِّب : « قسم الدولة » .

وفي سنة ست وسبعين وأربعماية سَيَّر السلطانُ جلالُ الدولة [ملكشاه] فخر الدولة بن جَهِير^(١) إلى ديار بكر ليتسلمها ، وأعطاه الكوسات^(٢) ، وسَيَّر معه العساكر ، فسار إليها ، ونزل بنواحي آمد .

وفي سنة سبع وسبعين وأربعماية أُرْدَفَه السلطان بجيش كثيف من جملتهم الأمير أَرْتُقُ بن أَكْسَب^(٣) — أبو الملوك الأرتُقية — وكان صاحبها وهو ابن مروان

(١) هو أبو نصر فخر الدولة محمد بن محمد بن جَهِير ، ولي الوزارة للخليفين القائم والمقتدى ، وتوفي سنة ٤٨٣ هـ ؛ انظر أخباره في : (ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٩ ، ص ٢ وما بعدها ؛ ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٦٠ — ٢٦٤) .

(٢) عرفها (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٩ و ١٣) بأنها صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير ، يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص ، ومن يتولى ذلك يسمى الكوسى ؛ ويشبه أن يكون المقصود بها موسيقى الجيش أو (الطباخانة) — كما كانت تسمى في مصطلح العصور الوسطى — ؛ وفي (المنتظم : ج ٩ ، ص ٦) جملة توضح هذا المعنى وتؤكدده ، قال : « وعقد للوزير فخر الدولة على ديار بكر ، وخلع عليه الخلع ، وأعطى الكوسات ، وأذن له في ضربها أوقات الصلوات الخمس بديار بكر ، والصلوات الثلاث : الفجر والغرب والعشاء في المعسكر السلطاني » .

(٣) في الأصل : « أكشت » ، وقد ضبط الاسم بعد مراجعة (ابن خلكان : الوفيات ، ج ١ ، ص ١٠٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٥٤ ؛ Lane-Poole : *M. Dynasties*, P. 166) وذكر ابن خلكان أنه يقال فيه أيضاً : « أكسك » وبهذا النطق أخذ (Zambaur : Op. Cit. P. 230) فرسمه هكذا : « Ortoq b. Eksek » ؛ أنظر ترجمة حياته وبياناً بأفراد أسرته في هذه المراجع جميعاً نفس الأجزاء والملاحظات .

الكردي^(١) — لما نازلته العساكر السلطانية قد مضى إلى الأمير شرف الدولة مسلم ابن قريش بن بدران العقيلي — صاحب الموصل — راغباً في أن ينصره ويساعده على من قصده ، على أن يسلم إليه آمد ، فأجابه إلى ذلك ، واتفقا عليه ، وتحالفا ، واجتمعا على حرب فخر الدولة بن جبير .

فلما رأى فخر الدولة اجتماعها مال إلى الصلح ، وقال : « لا أوتر [٦] أن يحل بالعرب بلاء على يدي . » فلم التركان ما قد عزم عليه ، فركبوا ليلاً ، وأنشأوا إلى العرب ، واحتاطوا بهم ، وذلك في ربيع الأول من هذه السنة ؛ والتحم القتال واشتد ، وانهزمت العرب ، ولم يحضر هذه الوقعة فخر الدولة ، ولا أرتق ؛ وغنم التركان حلل العرب ودوابهم ، وانهزم شرف الدولة ، وحمى نفسه حتى دخل إلى آمد ، فأنحصر فيها ، ونازله فخر الدولة ومن معه ، فراسل شرف الدولة [مسلم بن قريش] الأمير أرتق ، وبذل له مالا ، وسأله أن يمن عليه بنفسه^(٢) ويمكنه من الخروج [من آمد^(٣)] وكان هو على حفظ الطرق [والحصار^(٣)] ، فأذن له في الخروج ، فخرج لتسع^(٤) بقين من ربيع الأول ، وقصد الرقة وأرسل إلى الأمير أرتق

(١) ابن سروان المذكور هنا هو واحد من بني مروان حكام ميفارقين وآمد في القرن الخامس الهجري ، وهو أبو الظفر منصور بن نظام الدين أبو القاسم نصر بن نصر الدولة أبي نصر أحمد بن مروان الكردي ، حكم ميفارقين وآمد في المدة بين سنتي ٤٧٢ و ٤٧٨ ، (Zambaur: Op. Cit. P. 136) .

(٢) في الأصل : « أن يمن على نفسه » ، وما هنا عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٥٤) . ويلاحظ أن المؤلف ينقل هذه الحوادث عن ابن الأثير نقلاً حرفياً في معظمه وبإيجاز يسير في أقله دون أن ينص على ذلك ؟ والرأي عندي أن ابن واصل إما أنه ينقل عن ابن الأثير لتشابه التام بين النصين وإما أنه ينقل عن المرجع الذي أخذ عنه ابن الأثير ، وذلك لأن ابن الأثير لم يكن معاصراً لهذه الحوادث .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادات عن ابن الأثير للايضاح .

(٤) في ابن الأثير : « فخرج منها في الحادي والعشرين من ربيع الأول » ، وما فعله ابن واصل في المتن نموذج لأسلوبه في الإيجاز عن ابن الأثير أو عن مرجع ابن الأثير .

ابن أكتب بما [كان^(١)] وعده [به^(١)] ، ثم سار فخر الدولة بن جبير إلى ميفارقين ، ومعه الأمير بهاء الدولة [منصور^(١)] بن مزيد — صاحب الحلة — وابنه الأمير سيف الدولة صدقة ، ففارقوه ، وعاد إلى العراق . ثم نازل فخر الدولة خلاط . ولما بلغ السلطان جلال الدولة (ملكشاه) انهزام شرف الدولة وحصره بآمد ، لم يشك في أسره ، فخلع على الوزير عميد الدولة بن فخر الدولة بن جبير ، وسيرّه في جيش كثيف إلى الموصل ، وسير معه من الأسراء : الأمير قسيم الدولة آق سنقر الحاجب — المقدم ذكره — ؛ وكان الأمير أرتق قد رجع إلى السلطان ، وعاد صحبته^(٢) عميد الدولة من الطريق ، ونازلوا الموصل وأرسلوا إلى أهلها يشيرون عليهم بطاعة السلطان ، ففتحوا البلد وسلموه إليهم ؛ وسار السلطان بنفسه إلى بلاد شرف الدولة لملكها ،^(٣) وكانت بلاده الموصل ، وديار ريعة أجمع ، ومدينة حلب ، ومنبج ، وما بينهما من البلاد الجزيرية والفراتية^(٤) ؛ فأنه انخر ببحركة أخيه تكش بخراسان ، ورأى شرف الدولة قد خرج من الحصر ، فأرسل مؤيد الملك بن نظام الملك إلى شرف الدولة — وهو مقابل الرحبة — فأعطاه العهود والمواثيق ، فحضر إلى عند السلطان — وهو بالبوازيج^(٥) — فخلع عليه ، وذلك سلخ رجب ، وكانت أمواله قد ذهبت ، فاقترض ما خدم به [٧] ، وحمل للسلطان خيلاً رائعة^(٥) ،

(١) ما بين الحاصرتين زيادات عن ابن الأثير للايضاح .

(٢) في الأصل : « واحد عن صحبه عميد الدولة » . والتصحيح عن : (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٥٤ — ٥٥) .

(٣) هذه الجملة غير موجودة في ابن الأثير ، وإنما أضافها ابن واصل للايضاح ، وهكذا اعتماد عند ذكر أسماء الأعلام والبلدان أن يضيف إليها ما يعرف بها .

(٤) في الأصل : « البوازيج » ، وقد ضبطت بعد مراجعة ابن الأثير وياقوت ، وقد عرفها الأخير في (معجم البلدان) بأنها بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب في دجلة ، ويقال لها بوازيج الملك وهي من أعمال الموصل ؛ ثم قال : وبوازيج الأنبار موضع آخر .

(٥) في الأصل : « رابعة » ، والتصحيح عن ابن الأثير .

من جملتها فرسه بشار — وهو فرسه المشهور الذى نَجَّاه من المعركة على ما هو مذكور فى أخباره — وكان لا يجارى ، فأمر السلطان أن يُسابق به الخيلُ ، فجاء سابقاً لها كلها ، فقام السلطان قائماً لما تداخله من العجب .

وأقر السلطان شرف الدولة على بلاده ، وأعاد إليه الموصل ، وهذا كله مذكور فى موضع آخر يليق به ، وإنما سقناه هنا لتتصل أخبار آق سنقر التى نحن بصدددها . وكان صاحب قونية وأقصر ما يتصل بهما من البلاد الرومية الملك سليمان ابن قطلمش — وهو ابن عم السلطان جلال الدولة ملكشاه — قصد فى هذه السنة — أعنى سنة سبع وسبعين وأربعمائة — مدينة أنطاكية وهى بيد الروم — وكان ملكوها سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة — .

وكان صاحبها الفردوس الرومى قد سار عنها إلى بلاد الشام ، ورتب فيها شحنة ، — وكان الفردوس سبي السيرة فى رعيته وفى جنده جداً — ، وكاتب (سليمان) الشحنة وابن الفردوس . لأن أباه (الفردوس) كان قد حبسه ، فكاتبهما سليمان ليسلما البلد إليه ، وركب البحر وقصدها فى ثلاثمائة فارس ، وراجل كثير ، ثم خرج من البحر ، وسار فى جبال وعرة ومضايق شديدة حتى وصل إليها للموعد . فنصب عليها السلايم باتفاق من الشحنة وابن الفردوس ، وصعد السور ، واجتمع بالشحنة ، ودخل البلد ، وذلك فى شعبان ، فقاتله أهلها ، فهزمهم (مرة) بعد أخرى ، وقتل كثير من أهلها ، ثم عفا عنهم ، وتسلم القلعة المعروفة بالقُسيَّان (١) ، وأخذ من الأموال ما يجاوز الإحصاء وأحسن إلى الرعية وعدل فيهم ، وأمر بعمارة ما خرب ، ومنع أصحابه من النزول فى دورهم ومخالطتهم ، وأرسل إلى السلطان جلال الدولة ملكشاه يبشره بذلك .

(١) هكذا ضبطها ياقوت وقال إنها واد ولم يزد .

وأرسل الأمير شرف الدولة [مسلم بن قريش ^(١)] — صاحب حلب والموصل — إلى الملك سليمان يطلب منه ما كان الفردوس يحمله من المال ، ويُخَوِّفه معصية السلطان ، فأجابه : « أما الطاعة للسلطان فهي شعارى ودنارى ، والخطبة له والسكة فى بلادى [٨] وقد كاتبته بما فتح الله على يدي بسعاده من هذا البلد [وأعمال الكفار ^(١)] ، وأما المال الذى كان يحمله صاحب أنطاكية [قبلى ^(١)] فهو كان كافراً ، وكان يحمل جزيته وجزية أصحابه ، وأنا بحمد الله مؤمن ، ولا أحمل شيئاً ، قُتِبَ شرف الدولة بلد أنطاكية ، قُتِبَ سليمان بلد حلب ؛ ووقعت بينهما فتنة ^(٢) اقتضت أنهما التقيا فى يوم الجمعة الرابع والعشرين من صفر فى سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فانهزم شرف الدولة وأصحابه بعد أن قتل بين يديه أربعمائة غلام من أحداث حلب [ثم قُتِلَ شرف الدولة مسلم بن قريش فى نفس اليوم — الرابع والعشرين من صفر ^(٣)] — .

[ولما قُتِلَ شرف الدولة سار سليمان بن قتلش إلى حلب] ، فحصرها إلى خامس ربيع الآخر ، فلم يبلغ منها غرضاً ، فرحل عنها . وكان [سليمان بن قتلش ^(٣)]

-
- (١) ما بين الحاصرتين زيادات عن ابن الأثير للايضاح .
 (٢) انظر تفاصيل هذه الفتنة فى (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٥٦) فقد تجاوز ابن واصل عنها هنا إيجازاً .
 (٣) النص هنا لا يستقيم مع المعنى ، لأن شرف الدولة قتل فى هذه السنة بعد هزيمته مباشرة ، والذى تولى حصار حلب بعد موته هو سليمان بن قتلش ؛ والراجع عندى أن المؤلف لم يلتفت إلى هذا الخاطئ وهو يوجز عن ابن الأثير ، أو أن هنا سقطاً من عمل الناسخ سبب هذا الاضطراب فى المعنى ، وقد أضفنا ما بين الحاصرتين لتصحيح والايضاح بعد مراجعة (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٥٧) ، وقد ترجم هناك لشرف الدولة بعد ذكر موته ترجمة مختصرة مفيدة تؤثر نقلها هنا إتماماً لفائدة ، قال : « وكان أحول ، وكان قد ملك من السندية التى على نهر عيسى إلى منبج من الشام وما والاها من البلاد ، وكان فى يده ديار ربيعة ومضر من أرض الجزيرة والموصل وحلب ، وما كان لآبيه وعمه قرواش ، وكان طادلاً حسن السيرة ، والأمن فى بلاده عام والرخى شامل ، وكان بسوس بلاده سياسة عظيمة بحيث يدبر الراكب =

قد أرسل إلى ابن الحنيتي ^(١) العباسي — مقدم حلب — يطلب منه تسليمها إليه ،
فأنفذ إليه مالا ، واستعمله إلى أن يكاتب السلطان جلال الدولة ملكشاه ، وأرسل
إبن الحنيتي إلى الملك تاج الدولة تثنش إبن السلطان العادل عضد الدولة ألب
أرسلان — أخى السلطان — وهو يومئذ صاحب دمشق ، يعده أن يسلم إليه حلب ،
فسار تاج الدولة [تثنش] طالبا حلب ، وذلك في ^(٢) سنة تسع وسبعين وأربعمائة ،
فسار إليه إبن عمه سليمان بن قُطْلُش ^(٣) ، ومع تاج الدولة الأمير أرتُق بن أكَسَب ،
وكان قد فارق إبن جبّير خوفاً أن ينهى إلى السلطان إطلاق شرف الدولة من آمد
— كما ذكرنا — وصار إلى خدمة تاج الدولة ، فأقطعه البيت المقدس وما يتصل به .
ثم التقى العسكران ، فانهزم أصحاب الملك سليمان ، وثبت هو في القلب ، فلما رأى
انهزام عساكره قيل إنه أخرج سكيناً [كانت] معه فقتل بها نفسه ، وقيل بل قُتل
في المعركة ، واستولى تاج الدولة على معسكره .

وكان سليمان في السنة الماضية — في صفر — أنفذ جثة شرف الدولة ملفوفة
في إزار على بغل ، وطلب من أهل حلب أن يسلموها إليه ، وفي هذه السنة — في صفر —
أرسل الملك تاج الدولة جثة الملك سليمان في إزار على بغل ، وطلب من أهل حلب
أن يسلموها إليه ، فأجابه [إبن] الحنيتي أنه يكاتب السلطان ، ومهما أمره فعل ،
فحصر تاج الدولة البلد ، وضيق على أهله ، وسلم إبن الحنيتي كل برج من أبراجها

= والراكان فلا يخافان شيئا ، وكان له في كل بلد قرية عامل وقاض وصاحب خبر بحيث لا يتعدى
أحد على أحد .

أنظر أيضاً : (Zambaur: O p. Cit. p. 135).

(١) في الأصل : « الحنيتي » والتصحيح عن إبن الأثير .

(٢) في الأصل : « وذلك في » وبها انتهى السطر ، ثم بدأ السطر التالي بقوله :

« وفي سنة تسع وسبعين الخ » وقد صححت بعد مراجعة (إبن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٦٠) .

(٣) رسم هذا اللفظ في الأصل تارة بالتاء وتارة بالطاء .

إلى رجل من أعيان البلد ليحفظه ، [٩] وسلم برجاً من أبراجها إلى إنسان يعرف بابن الراعوني (١) .

ثم إن ابن الحتيتي أوحش هذا الرجل بكلام أغلظ له فيه ، وكان شديد القوة ، ورأى ما الناس فيه من ضيق الحصار ، فراسل تاج الدولة يستدعيه ، وواعده ليلة يرفع الرجال إلى السور في الحبال ، فأتى تاج الدولة [تَنُش (٢)] للميعاد ، فأصعد الرجال في الحبال والسلام ، وملك تاج الدولة البلد .

واستجار ابن الحتيتي بالأمير أرتق فشفع فيه ، وكان بالقلعة سالم بن مالك ابن بدران العقيلي — وهو ابن عم شرف الدولة [مسلم بن قريش (٢)] — فأقام تاج الدولة يحصر القلعة سبعة عشر يوماً ، ثم بلغه وصول مقدمة أخيه السلطان ، فرحل عنها إلى دمشق .

وكان ابن الحتيتي قد كاتب السلطان [ملكشاه (٢)] ليسلم إليه حلب ، فسار إليه من أصفهان ، وعلى مقدمته الأمير برسق ، وبُزَّان (٣) ، وغيرها من الأمراء ، وجعل طريقه على الموصل ، فوصلها في رجب ، وسار عنها ووصل إلى حَرَّان فسلمها إليه ابن الشاطر ، فأقطعها الأمير محمد بن شرف الدولة بن بدران ، ثم سار إلى الرُّها — وهي بيد الروم — فحصرها وملكها ، وكانوا قد اشتروها من ابن عطير .

ثم سار إلى قلعة جَعْبَر ، فحصرها يوماً وليلة وملكها ، وقتل جمعاً من بني قُشَيْر (٤) ، وأخذ جَعْبَرًا صاحب القلعة (٥) — وكان شيخاً أعمى — وولدين له ، وكانوا يقطعون الطريق ويخيفون السبيل ، ثم عبر منها الفرات ، فملك مدينة منبج في طريقه .

(١) كذا في الأصل ، وفي ابن الأثير : « ابن الرعوى » .

(٢) أضفنا ما بين الحاصرتين للإيضاح .

(٣) كذا في الأصل ، وفي ابن الأثير : « بوزان » .

(٤) في الأصل : « بشير » ، والنصحیح عن : (ياقوت : معجم البلدان ، مادة جبر) .

(٥) ذكر (ياقوت : معجم البلدان) أن جبر قلعة على الفرات بين بلس والرقة قرب صفين ، وكانت قديماً تسمى « دوسر » فملكها رجل من بني قشير أعمى يقال له جبر بن مالك ، ولما قصد السلطان جلال الدين ملك شاه بن أرسلان ديار ريعة وهضر نازلها وأخذها من جبر ونفى عنها بني قشير .

ولما قارب حلب رحل أخوه تاج الدولة — كما ذكرنا — على البرية ،
ومعه الأمير أرتق ، وكان أشار أرتق على تاج الدولة أن يكبس السلطان ، وكانوا
قد وصلوا ، وبهم وبدوابهم من التعب ما لم يبق معه امتناع ، ولو فعل لظفر بهم ؛
فقال تاج الدولة : « لا أكسر جاه أخى الذى أنا مستظل بظله ، فإنه يعود على بالوهن
أولا » . وسار إلى دمشق .

ولما وصل السلطان إلى حلب تسلم المدينة ، وسلم إليه شمس الدولة سالم
ابن مالك^(١) بن بدران القلعة على أن يعوضه عنها قلعة جعبر ، وكان قد امتنع
بالقلعة أولاً [١٠] فأمر السلطان أن يرمى إليه بالنشاب رشقاً واحداً ، فرمى الجيش كله
عن يد واحدة ، فكادت الشمس أن تحتجب من كثرة النشاب فعوضه السلطان عنها
قلعة جعبر ، ولم تزل بيده ويد أولاده إلى أن أخذها منهم الملك العادل نور الدين
محمود بن زنكى^(٢) — رحمهم الله — على ما سند كره .

وأرسل الأمير نصير^(٣) بن على بن منقذ الكنانى — صاحب شيزر — إلى السلطان ،
ودخل في طاعته ، وسلم إليه اللاذقية ، وكفر طاب ، وفامية ، [فأجابه إلى المسألة ،
وترك قصده ، وأقر عليه شيزر^(٤)] .

(١) فى الأصل « مالك بن سالم » ، والتصحيح عن ابن الأثير و (Zambaur: Op. Cit. p. 135)

(٢) ولى شمس الدولة سالم بن مالك بن بدران العقيلي قلعة جعبر من سنة ٤٧٩ إلى ٥١٩ ،
ثم وليها من بعده شهاب الدولة مالك بن على بن سالم إلى سنة ٥٦٤ حيث ملكها نور الدين محمود ،
أنظر : (Zambaur: Op. Cit. P. 135) .

(٣) فى الأصل : « نصير » وهو الأمير عز الدولة أبو مرهف نصير بن على بن نصير بن منقذ .
(Zambaur: Op. Cit. p. 104)

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن ابن الأثير للايضاح ، وقد أسقطها المؤلف عند الاختصار ،
هذا وفى ابن الأثير فقرة أخرى — أسقطها المؤلف أيضاً — تشير إلى مصير ابن الحتيتي ،
وقد آثرنا ذكرها هنا لتمام الفائدة ، قال : « وأما ابن الحتيتي فكان واثقاً باحسان السلطان
ونظام الملك إليه ، فانه استندطامها ، فلما ملك السلطان البلد طلب أهله أن يعفيهم من ابن الحتيتي ،
فأجابهم إلى ذلك واستصعبه معه ، وأرسله إلى ديار بكر ، فافتقر وتوفى بها على حال شديدة
من الفقر ، وقتل ولده بأنطاكية ، قتله الفرنج لما ماسكوها » .

ذكر استيلاء الأمير قسيم الدولة آق سنقر

الحاجب على مدينة حلب

ولما تسلّم السلطان حلب سلمها إلى حاجبه الأمير قسيم الدولة آق سنقر في هذه السنة — أعني سنة تسع وسبعين وأربعمائة — وقيل بل سلمها إليه سنة ثمانين ، فاستولى عليها وعلى أعمالها : كنبج ، واللاذقية ، وكفر طاب ، وأقطع السلطان مدينة الرّها مجاهد الدولة بُزّان (١) ، وأقطع أنطاكية الأمير ياغى سيان (٢) ، وظهرت كفاة الأمير قسيم الدولة وحمايته ، وعظمت هيئته في جميع بلاده .

ثم إن السلطان استدعاه إلى العراق فقدم عليه في تيجل عظيم ، ولم يكن في عسكر السلطان من يقاربه ، فاستحسن ذلك منه ، وعظم محله عنده ، ثم أمره بالعود إلى حلب ، فعاد إليها ، ورخصت الأسعار في أيام الأمير قسيم الدولة ، وأقيمت الحدود الشرعية ، وعمرت الطرقات ، وأمنت السبل ، وقتل المفسدون بكل فج ، وكان كلما سمع يفسد أو يقطع طريق أمر بصلبه على أبواب المدينة .

وفي سنة إحدى وثمانين وأربعمائة جمع الأمير قسيم الدولة عسكره ، وقصد شِيزَر وحاصرها وصاحبها نصر بن علي بن منقذ ، وضايقها ونهب ريفها ، ثم صالحه صاحبها وعاد إلى حلب .

(١) هو أبو الفوارس مجاهد الدين بوزان بن مامين الكردي ، توفي سنة ٥٥٥ هـ ، أنظر أخباره وترجمته في : (ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٩ والصفحات المذكورة في الفهرس الأبجدي) .

(٢) في الأصل : « ياغى سيار » ، وقد ضبط الاسم بعد مراجعة : (ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢١٧) ، وهو في (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ١١٣) : « ياغيسيان » وفي (ياقوت : معجم البلدان ، مادة أنطاكية) : « بنيسفان » ، وعن أخباره واستيلاء الفرنج على أنطاكية أثناء حكمه لها أنظر : (حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ، ج ٤٨ وما بعدها وما به من مراجع) .

وفي سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة أسس القاضي أبو الحسن بن الخشاب (١) منارة حلب ، وكان بحلب بيت معبد نار ، قديم العمارة ، دصار بعد ذلك أتون حمام ، فأخذ ابن الخشاب حجارتها ، وبني بها المنارة ، فأنهى بعض حساده إلى الأمير قسيم الدولة خبره ، فغضب على القاضي ابن الخشاب ، فاستحضره وقال : « هدمت معبدًا هو لي وملكى » . فقال : « أيها الأمير ، هذا معبد للنار ، وقد صار أتونًا [١١] فأخذت حجارتها لأعمر بها معبدًا للإسلام ، يُذكر فيه الله وحده لا شريك له ، وكتبتُ اسمك عليه ، وجعلت الثواب لك ، فإن رسمت غرمت ثمنه لك (٢) ، ويكون الثواب لي ، فعلتُ » . فأعجب الأمير كلامه ، واستصوب رأيه ، وقال : « بل الثواب لي ، وافعل ما تريد » . فشرع في عمارة المنارة وانتهى في سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة .

منازلة قسيم الدولة حمص واستيلاؤه عليها

في هذه السنة نازل الملك جلال الدولة توتش بن السلطان ألب أرسلان ، والأمير قسيم الدولة آق سنقر ، والأمير مجاهد الدولة بُزَّان (٣) — صاحب الرُّها — حمص ، وسبب

(١) هو القاضي أبو الحسن محمد بن يحيى بن محمد بن الخشاب ؛ والمؤلف لا ينقل هنا عن ابن الأثير ، وإنما ينقل قطعا عن تاريخ حلب لابن العديم ، فقد نقل هذا النص عنه ابن الشحنة في : (الدور المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، ص ٦٦ — ٦٧) ، وعليه راجعنا النص هنا وصححناه لأننا لم نتمكن من مراجعة تاريخ ابن العديم فإنه لم يطبع بعد ؛ وأنظر ترجمة القاضي أبي الحسن في : (ابن الشحنة ، ص ٦٨) .

(٢) النص في ابن الشحنة : « فإن رسمت لي أن أعمر ثمن الأحجار ويكون الثواب لي فعلت » وأنظر هناك أخباراً تفصيلية عن هذه النار وتاريخها .

(٣) في الأصل : « مجاهد الدولة بن ألب أرسلان » وهو خطأ ، والصحيح ما ذكرناه بعد مراجعة : (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٨٣) أنظر أيضاً ما فات ، ص ١٩ ، هامش ١

ذلك أنها كانت بيد سيف الدولة خلف بن ملاعب الأشهبى^(١) ، فأساء السيرة ، ونزل على سلمية ، وأخذ الشريف إبراهيم الهاشمي ، ورماه بالمنجنيق إلى برج سلمية ، وأخذ قوماً من بني عمه مأسورين ، فمضى من بقي منهم واستغاثوا إلى السلطان جلال الدولة ملكشاه ، فخرج أمر السلطان إلى أخيه تاج الدولة — صاحب دمشق — وقسيم الدولة — صاحب [حلب — ومجاهد الدولة بُزْآن — صاحب^(٢)] الرُّها — بالتزول على حمص ، والقبض على ابن ملاعب وتسييره ، فنزّلوا على حمص وحاصروها ، وأخذوه وسبّروه إلى السلطان ، فأقام في الحبس إلى أن توفي السلطان ، فأطلقت خاتون زوجة السلطان . وتسلم آق سنقر قلعة حمص ومدينتها ، ولما خلاص ابن ملاعب من الحبس صار إلى مصر ثم عاد منها وتسلم حصن أقامية ، وبقيت في يده سبع عشرة سنة وكان مدة ملكه بحمص سبع عشرة سنة .

وفي سنة أربع وثمانين وأربعمائة تسلم قسيم الدولة حصن أقامية .

ثم سارت تاج الدولة ، ومعه قسيم الدولة آق سنقر ، إلى طرابلس ، فحاصرها ، وبها صاحبها جلال الملك بن عمار ، فرأى جيشاً لا يُدفع بحيلة ، ولم يرفههم مطعماً ، وكان مع الأمير قسيم الدولة آق سنقر وزير^(٣) فراسله ابن عمار ، فرأى فيه لينا ، فأتحفه وأعطاه ، فسعى مع صاحبه قسيم الدولة في إصلاح حاله ، ليدفع عنه ، وبجمل إليه ثلاثين ألف دينار ونحفاً بمثلها ، وعرض عليه [١٢] المناشير التي بيده

(١) كذا بالأصل ، ولم أجد أحداً من المؤرخين نعت هذا النمت غير ابن واصل ، وإنما اتفقوا جميعاً على تسميته بخلف بن ملاعب الكلابي ، أنظر : (ابن القلانسي ، ص ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٤٩) و (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٨٣ وما بعدها) و (كرد علي : خطط الشام ، ج ١ ، ص ٢٦٩ وما بعدها) .

(٢) ما بين الحاصرتين ورد بهامش الأصل ، وأشير إلى مكانه بعلامة في المتن .

(٣) في الأصل : « وزيراً » وقد ذكر (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٨٣) أن هذا الوزير كان اسمه : « زرين كمر (؟) » .

من السلطان بالبلد ، والتقدم إلى النواب بتلك البلاد بمساعدته ، والشَّدَّ معه (١) والتحذير من مخالفته ؛ فقال قسيم الدولة لتاج الدولة : « لا أقاتل مَنْ هذه المناشير بيده » . فأغلظ له تاج الدولة ، وقال : « هل أنت إلا تابع لى ؟ » فقال قسيم الدولة : « أنا أتابعك ، إلا فى معصية السلطان فلا » . ورحل من الغد عن موضعه ، فاضطر تاج الدولة إلى الرحيل ، فرحل غضبان ، وعاد بمجاهد الدولة بُزَّان إلى بلاده .

وفى سنة خمس وثمانين وأربعمائة اجتمع مع الأمير شرف الدين إبراهيم ابن قريش بن بدران العقيلي — صاحب الموصل — عرب كثير ، وكان معتقلا فى قبضة أخيه ، فلما قتل استبد بالأمْر ، وانضاف إليه خلق كثير من العرب ، وكان محبوباً كريماً ، فلقية الملك جلال الدولة ، والأمير قسيم الدولة ، فهزموه ، ونهبوا من معه من العرب ، وسبوا نساءهم (٢) .

وفى هذه السنة توفى السلطان جلال الدولة ملكشاه ببغداد ، فطمع أخوه (٣) تاج الدولة — صاحب دمشق — فى السلطنة ، واستمال قسيم الدولة — صاحب حلب — ، ومجاهد الدولة بُزَّان — صاحب الرُّها — ، وكان تاج الدولة — قبل ذلك — فى خدمة أخيه ببغداد ، فلما انفصل راجعاً إلى بلاده ، بلغته وفاة أخيه وهو بهيئت ، فسار إلى دمشق ، وتجهز وجمع العساكر ، وأنفق الأموال ، وسار نحو حلب ، فخرج قسيم الدولة إلى خدمته ، ودخل فى طاعته ، وأرسل إلى ياغيسيان (٤) — صاحب أنطاكية — ، وبُزَّان — صاحب الرُّها — وأشار عليهما بالدخول فى طاعة السلطان تاج الدولة حتى يروا ما يكون من أولاد السلطان ملكشاه ،

(١) فى الأصل : « منه » ، والتصحيح عن ابن الأثير .

(٢) أنظر أخبار إبراهيم بن قريش بن بدران العقيلي التفصيلية من سنة ٤٨٢ إلى أن تمت عليه الهزيمة فى هذه السنة ٤٨٥ فى : (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٩١) .

(٣) فى الأصل : « أخاه » .

(٤) فى الأصل : « ياغى سيار » ، أنظر ماقت ، ص ١٩ ، هامش ٢

فإنه كان بينهم يومئذ حلف كبير ، ففعلوا ذلك ، ودخلوا تحت طاعته ، واتفقوا على الخطبة له على منابر بلادهم ، ثم قصدوا الرحبة ، وحاصروها ، وملكوها في المحرم (١) سنة ست وثمانين وأربعمائة ، وخطب لنفسه بالسلطنة ، ثم سار إلى نصيبين — وبها نواب إبراهيم بن قريش بن بدران العقيلي — صاحب الموصل — فحصرها وفتحها عنوة [١٣] وقتل من أهلها خلقاً كثيراً ، ونهب الأموال ، وفعل الأفعال القبيحة ، ثم سلمها إلى الأمير محمد بن شرف الدولة بن بدران ، وسار يريد الموصل .

وكان الأمير إبراهيم بن قريش بن بدران قد استدعاه السلطان ملكشاه سنة اثنتين وثمانين ليحاسبه ، فلما حضر عنده اعتقله ، وأنفذ فخر الدولة بن جهير إلى البلاد ، فملك الموصل وغيرها ، وبقى إبراهيم مع ملكشاه ، وسار معه إلى ممرقند ، وعاد إلى بغداد ، فلما مات السلطان [ملك شاه] أطلقت زوجته تركان (٢) خاتون ، فسار إلى الموصل .

وكانت صفية — عمة السلطان [ملكشاه (٣)] وزوجة شرف الدولة (٤) ، [ولها منه ابنه (٥)] على — ثم تزوجت بعد شرف الدولة بأخيه إبراهيم ، فأقطعها

(١) يتفق هذا التاريخ مع ما جاء في (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٩١) فهو ينقل عنه نقلاً يكاد يكون حرفياً ، أما (Zambaur, Op. Cit. P. 30) فيذكر أن السلاجقة استولوا على الرحبة ونصيبين في سنة ٤٨٥

(٢) في الأصل : « بركات » ، والتصحيح عن : (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٩١) و (أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ٢٠٣) .

(٣) أضفنا ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير للإيضاح .

(٤) في الأصل : « شرف الدين » والتصحيح عن ابن الأثير ، أنظر أيضاً السطور التالية هنا .

(٥) في الأصل : « وابنه علي » وبها يفسد المعنى ، والتصحيح عن : (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٩١) حيث ينقل عنه ابن واصل هنا نقلاً يكاد يكون حرفياً .

السلطان [مدينة (١)] بلد؛ فلما مات السلطان قصدت الموصل ومعا ابنها علي ، فقصدها محمد بن شرف الدولة ، وأراد أخذ الموصل ، فافترق العرب فرقتين : فرقة معه ، وفرقة مع صفية — عمة السلطان — وابنها علي ؛ فاقتلوا بالموصل عند الكناسة ، فظهر (٢) علي ، وانهزم محمد ، وملك سعد الدولة علي بن شرف الدولة الموصل .

فلما وصل إبراهيم إلى جهبنة — وبينه (٣) وبين الموصل أربعة فراسخ — سمع أن الأمير علياً — ابن أخيه — قد ملك الموصل ، ومعه أمه صفية خاتون — عمة السلطان [ملكشاه (١)] — ، فأقام مكانه ، وراسل صفية ، وترددت الرسل بينهما ، فسلمت إليه البلد ، فأقام به ، فلما ملك تاج الدولة [تئش (١)] نصيبين ، أرسل إليه يأمره أن يخطب له بالسلطنة ، ويعطيه طريقاً إلى بغداد لينحدر إليها ، [ويطلب الخطبة بالسلطنة (١)] فامتنع إبراهيم من ذلك ، فسار إليه تاج الدولة ، وتقدم [إبراهيم أيضاً (٤)] نحوه ، فالتقوا بالمضيعة (٥) — من أعمال الموصل — في ربيع الأول ؛ وكان إبراهيم في ثلاثين ألفاً ، وتاج الدولة في عشرة آلاف ؛ وكان قسيم الدولة في الميمنة ، وبزآن في الميسرة ، فتمت الهزيمة على العرب ، وأسر إبراهيم ، وجاعة من أمراء العرب ، فقتلوا صبراً ، وأخذت أموالهم ، وسُبيت نساؤهم ، وقتل كثير من نساء العرب أنفسهن ، خوفاً من الفضيحة .

وملك تاج الدولة [تئش] الموصل ، وولاهها للأمير سعد الدولة علي بن شرف الدولة — ابن عمته — ، وأرسل إلى بغداد يطلب من الخليفة المقتدى

(١) أضفنا ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير للايضاح .

(٢) في ابن الأثير « فظهر » .

(٣) في الأصل : « وبينها » ، والتصحيح عن ابن الأثير .

(٤) في الأصل : « تاج الدولة » ولا يستقيم المعنى به ، والتصحيح عن ابن الأثير .

(٥) في الأصل : « بالمضيعة » وما هنا عن ابن الأثير ، ولم أجده لهذا المكان تعريفاً

فيما بين يدي من مراجع .

بأمر الله الخطبة [١٤] له بالسلطنة ، — وكان الشحنة ببغداد كوهرايين — (١) وقيل لرسوله : « إنا ننتظر وصول الرسل من العسكر » . وعاد إلى تاج الدولة الجواب .
ثم سار السلطان تاج الدولة تُنش فملك مياثارقين ، وديار بكر أجمع ، وقويت شوكته ، وعظم أمره ، وسار إلى أذربيجان ؛ وكان ابن أخيه — السلطان ركن الدين بركيارق بن ملكشاه — قد قوى ، وصارت بيده الرى وهذان وما يليهما ، فسار بالمساكر لينع عمه من البلاد ، فقارق قسم الدولة آق سنقر ومجاهد الدين بزان تاج الدولة ، وانحازا إلى السلطان ركن الدين بركيارق ، فعاد تاج الدولة إلى الشام .

ذكر مقتل الأمير قسم الدولة آق سنقر

ولما عاد السلطان تاج الدولة من أذربيجان لم يزل يجمع المساكر حتى عظمت جموعه ، وكثر حشده ، فسار في جمادى الأولى (٢) سنة سبع وثمانين وأربعمائة [عن دمشق (٣)] نحو حلب ، فحشد الأمير قسم الدولة والأمير مجاهد الدين [بوزان (٣)] — صاحب الرها — وأمدهما السلطان بركيارق بالأمير كربوقا (٤) ،

(١) في الأصل : « كوهراوتين » ، والتصحيح عن ابن الأثير ؛ وقد رسم هذا الاسم في (صدر الدين أبو الحسن علي بن ناصر : أخبار الدولة السلجوقية ، نشر محمد إقبال ، ص ٥١ ، ٥٤ ، ٧٢) « كهرائين » . أنظر ترجمة سمد الدولة الكوهرايين بالتفصيل في : (ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٩ ، ص ١١٥ — ١١٦) .

(٢) في الأصل : « جمادى الآخر » ، والتصحيح عن (ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ٩٥) فهو الأصل الذي ينقل عنه ابن واصل . أنظر أيضا ما يأتي ص ٢٦

(٣) ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير للايضاح .

(٤) في الأصل : « كربوقا » والتصحيح عن ابن الأثير ، وهو أبو سعيد قوام الدولة كربوقا أو كربوقا حاكم الموصل ، أنظر أخباره في : (ابن القلانسي ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ ،

١٣٤ ، ١٤٠) و (Zambaur, Op. Cit. P. 38) وقد توفي كربوقا سنة ٤٩٤

فالتقى الجمعان بمكان يعرف بنهر سبعين^(١) ، قريباً من تل السلطان^(٢) ، بينه وبين حلب ستة فراسخ ، فاقتلوا قتالاً شديداً ، فحاصر بعض العسكر الذين مع قسيم الدولة ، فانهزموا ، وتمت الهزيمة بسبب انهزامهم ، وأخذ آق سنقر أسيراً ، وأحضر بين يدي السلطان تاج الدولة ، فقال : « لو ظفرت بي ما كنت صنعت بي ؟ » قال : « كنت أرى قتلك » . قال : « فأنا أحكم عليك بما كنت تحكم علي » ، فقتله صبراً .

وسار [تاج الدولة] نحو حلب ، وكان قد دخلها^(٣) : كَرْبُوقًا ، وبُرْزَانَ^(٤) ، فحفظاها ، فحصرها تاج الدولة ، ولجَّ في حصرها ، فسلمها إليه المقيم بقلعة الشريف^(٥) ، ومنها دخل البلد ، وكانت الواقعة التي قُتل فيها قسيم الدولة يوم السبت لتسع مضين من جمادى الأولى ، وكان نزوله على حلب يوم الأحد غد هذا اليوم ، ومعه رأس قسيم الدولة ، وتسلمها العصر من ذلك اليوم ، وبات بقلعة الشريف ، وتسلم قلعة حلب يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة مضت من جمادى [الأولى] ، وأخذ بُرْزَانَ

(١) ضبط هذا اللفظ بعد مراجعة (ياقوت : معجم البلدان) ، ولكنه لم يذكر أنه نهر ، وإنما عرفه بقوله : سبعين قرية يباب حلب كانت إقطاعاً لمتني من سيف الدولة .

(٢) كان يعرف هذا المكان قبل بالمرج الأحمر ، وإنما عرف بتل السلطان بعد ذلك لأن السلطان ألب أرسلان الساجوق خيم به مدة فنسب إليه ، هكذا ذكر (ابن الشحنة : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، ص ١٣٦) .

(٣) كذا في الأصل ، ويلاحظ أن ابن واصل كثيراً ما يلتزم مذهب « أكلوني البراغيث » فيستعمل الفعل المتني والفعل الجمع مع وجود الفاعل ، ولم نشأ نحن أن نغير ما التزمه المؤلف محافظة على أسلوبه .

(٤) في الأصل : « كرنوقا ووزاب » والتصحيح عن (ابن الاثير ، ج ١٠ ص ٩٦) أنظر أيضاً ما فات .

(٥) لم أجد لهذا المكان تعريفاً في المراجع التي بين يدي ، والظاهر أنها كانت إحدى القلاع المهمة القائمة في حلب وقتذاك ، فقد قال (ابن القلانسي ، ص ١١٨) في حوادث سنة ٤٧٨ : « وفيها شرع في هجارة القلعة الشريف بحلب وترميم ما كان مدم منها وإعادتها إلى ما كانت عليه في حال هجارتها » .

وَكَرْبُوقًا [١٥] أُسِيرِينَ ، وَبُعِثَ إِلَى حَرَانَ وَالرُّهَا ، — وَكَانَتَا لِبَزَانَ —
أَنْ [يَسْلُمَهَا مِنْ بَيْهَا (١)] إِلَيْهِ ، فَامْتَنَعَ أَهْلُهَا مِنَ التَّسْلِيمِ ، فَقَتَلَ بُزَانَ ، وَأَنْفَذَ
رَأْسَهُ إِلَيْهِمْ ، وَتَسَلَّمَ الْبَلَدَيْنِ ، وَبُعِثَ كَرْبُوقًا إِلَى حَمَصَ ، فَخَبَسَ بِهَا ، وَكَانَتْ لَأَقِ
مَنْقَرٍ ، فَقَسَلَهَا ، وَسَلَّمَهَا إِلَى جَنَاحِ الدَّوْلَةِ حُسَيْنِ أَتَابِكِ وَلَدِ الْمَلِكِ فَخْرِ الْمَلِكِ رِضْوَانَ ،
فَلَمَّا قُتِلَ تَاجُ الدَّوْلَةِ أَخْرَجَ الْمَلِكُ رِضْوَانَ كَرْبُوقًا مِنَ الْحَبْسِ .

ذِكْرُ سِيرَةِ الْأَمِيرِ قَسِيمِ الدَّوْلَةِ (٢) — رَحِمَهُ اللَّهُ —

[كَانَ] أَمِيرًا عَادِلًا ، حَسَنَ السَّيَرَةِ ، جَمِيلَ السِّيَاسَةِ ، وَكَانَ شَرْطَ عَلَى أَهْلِ
كُلِّ قَرْيَةٍ مِنْ بِلَادِهِ أَنْهُمْ مَتَى أَخَذَ عِنْدَهُمْ قَتْلَ أَوْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ ، غَرَّمَهُمْ جَمِيعَ
مَا يَتَّخِذُونَ مِنَ الْأَمْوَالِ — قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا — ، فَكَانَتِ السَّيَّارَةُ إِذَا بَلَغُوا قَرْيَةً
مِنْ بِلَادِهِ ، أَلْقَوْا رِحَالَهُمْ ، وَنَامَوْا ، وَحَرَسَهُمْ أَهْلُ تِلْكَ الْقَرْيَةِ إِلَى أَنْ يَرْحَلُوا ،
فَأَمِنَتِ السَّبِيلَ .

وَكَانَ عِنْدَهُ وِفَاءٌ عَظِيمٌ وَحَسَنُ عَهْدٍ ، وَمَرْوَةُ غَزِيرَةٍ ، وَإِنَّمَا كَانَ قَتْلُهُ وَفَاءً
لِسُلْطَانِهِ وَرَبِّ نِعْمَتِهِ جَلَالِ الدَّوْلَةِ ، وَحَفِظَا لَوْلَاهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَإِنَّمَا صَارَ مَعَ تَاجِ
الدَّوْلَةِ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ خَوْفًا مِنْهُ ، وَلَئِنْ بَنَى صَاحِبُهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ اتِّفَاقٌ ، فَلَمَّا اسْتَفْجَلَ
أَمْرَ السُّلْطَانِ بَرْكِيَارِقَ — وَلَدَ صَاحِبِهِ — انْهَازَ إِلَيْهِ وَقَتْلَ فِي هَوَاهُ .

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَكَانَتْ لِبَزَانَ أَنْ يَسْلُمَهَا إِلَيْهِ » ، وَهُوَ خَطَأٌ فَضَّلَ عَنْ أَنَّهُ اخْتِصَارٌ مَخْلُوعٌ
بِالْمَعْنَى ، وَقَدْ صَحَّحَتِ الْعِبَارَةُ وَأَضْيَفَ مَا بَيْنَ الْحَاصِرَيْنِ بِعَدِّ مَرَاةِ ابْنِ الْأَثِيرِ .
(٢) أَنْظَرَ تَرْجَمَتَهُ فِي : (ابْنُ خُلْكَانَ : ج ١ ، ص ١٣٩) .

ذكر أخبار عماد الدين زنكي

ابن قسيم الدولة آق سنقر — رحمه الله —

لم يخلف [آق سنقر] من الولد غير أتابك زنكي ، وكان عمره حين توفي والده عشر سنين ، فاجتمع عليه ممالك والده وأصحابه ، وفيهم الأمير زين الدين علي كوجك بن بكتكين^(١) ، وهو صبي أيضاً ، ولما تخلص كزبوقا من سجن حمص — بعد مقتل تاج الدولة تئش — توجه إلى حرّان ، واجتمع إليه جماعة ، فملكها ، وملك نصيبين ، ثم ملك الموصل وماردين ، وعظم شأنه وأحضر ممالك قسيم الدولة آق سنقر ، وأمرهم بإحضار عماد الدين زنكي ، وقال : « هو ابن أخي ، وأنا أولى الناس به وبتريته » . فأحضروه عنده ، وأقطعهم الإقطاعات السنية ، وجمع عماد الدين زنكي ممالك أبيه ، واستعان بهم في حروبه ، وأقام عماد الدين في صحبة كزبوقا إلى أن توفي في سنة أربع وتسعين وأربعمائة .

وملك الموصل موسى التركماني^(٢) ، ثم شمس الدولة جِكِرْمِش^(٢) — أحد ممالك السلطان [١٦] جلال الدولة ملكشاه — قهرّب عماد الدين زنكي ، واتّخذه ولماً إلى أن توفي جِكِرْمِش في سنة خمسمائة .

ثم ولي بعد جِكِرْمِش جَاوَلِي سَقَا ، واتصل به عماد الدين زنكي .

(١) في الأصل هنا وفيما يلي دائماً « علي كوجل بن بكتكين » وقد ضبط الاسم بعد مراجعة : (ابن القلانسي ، ص ٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٣٠٧ ، ٣٣٧ ، ٣١٦) و (Zambaur, Op. Cit.) P. 38 وسنوّالي ضبط الاسم كما بالمتن كلما ورد ذكره بعد ذلك دون الإشارة .

(٢) ملك الموصل ستة شهور من سنة ٤٩٥ هـ ، ثم أخذها منه جِكِرْمِش (Djekermish) في ذي الحجة من نفس السنة وظل يتولاها إلى سنة ٥٠٠ هـ ؛ انظر : (Zambaur, Op. Cit.)

ثم ولي الموصل الأمير مودود^(١) — من نسل السلطان غياث الدين محمد ابن ملكشاه — وصحبه عماد الدين زنكي ، وحضر معه حروبه .

ثم قُتل مودود بدمشق ، فأقطع السلطانُ الموصل لجيوش بك ، وسيرَ معه الملك مسعود — ولده — ، وسيرَ قسم الدولة اسباسلار^(٢) البرُسُقي^(٣) آق سنقر في الجيوش لقتال الفرنج^(٤) ، وكانوا قد ملكوا سواحل الشام وفتحوا البيت المقدس ، فسار وصحبه عماد الدين زنكي ، فحاصروا الرُّها ، وأخربوا بلاد سروج وسنجار وسميساط ، ثم عادوا ، وأقام عماد الدين زنكي بالموصل في صحبة الملك مسعود بن السلطان محمد ، والأمير جيوش بك .

وفي سنة إحدى عشرة وخمسة وألنور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ، وفيها توفي السلطان محمد ، فأقر ولده السلطان محمود بن محمد أخاه مسعوداً^(٥) بالموصل مع جيوش بك .

وفي سنة أربع عشرة وخمسة خرج مسعود عن طاعة أخيه السلطان محمود ، فخطب لنفسه بالسلطنة ، ثم التقى الاخوان ، فكسر مسعود ، وأمنه السلطان ، وأمن جيوش بك ، وأقطع الموصل قسم الدولة آق سنقر البرُسُقي سنة خمس عشرة

(١) وإيها من سنة ٥٠٢ إلى سنة ٥٠٧ ، أنظر المرجع بالهامش الثاني من الصفحة السابقة .

(٢) أنظر ماكات ص ٢ هامش ١

(٣) في الأصل هنا وفيما يلي : « البرسقي » وقد ضبط الاسم بعد مراجعة : (ابن خلكان ، الوفيات ، ج ١ ، ص ١٤٠) ، وهو أبو سعيد سيف الدين قسم الدولة آق سنقر البرسقي : صاحب الموصل ، ملكها بعد قتل الأمير مودود سنة ٥٠٧ ، وقتل البرسقي سنة ٥٢٠ فلك الموصل بعده ابنه عز الدين إلى أن مات في سنة ٥٢١ فملكها بعده عماد الدين زنكي ، وسيضبط الاسم فيما يلي دون الإشارة إلى ذلك في الهوامش .

(٤) في الأصل : « لقتال آق سنقر الفرنجي » وهو لاشك خطأ من الناسخ .

(٥) في الأصل : « مسعود » .

وخمسمائة ، وأمر السلطانُ آق سنقر [البرُسُقي] بحفظ عماد الدين زنكي وتقديمه والوقوف عند إشارته ، ففعل ذلك .

وفي سنة ست عشرة وخمسمائة أقطع عماد الدين زنكي شُحْنَكِيَّة (١) البصرة وواسط ، وعظم شأنه ، وهابه الأمير دُبَيْس بن صدقة — صاحب الحلة — وهم دُبَيْس بقصد بغداد ، فسار إليه آق سنقر البرُسُقي بنفسه ، وتبعه الخليفة المسترشد بالله ، فانهزم عسكر دُبَيْس ، وقتل منهم وأسر خلق كثير ، وكان لعماد الدين أثر حسن في هذه الواقعة ، وذلك في أول المحرم سنة سبع عشرة وخمسمائة

ولحق دُبَيْس بالسلطان طغرل بن السلطان محمد ، [١٧] وكان معه عاصياً على السلطان محمود ، وأمر السلطان لآق سنقر البرُسُقي أن يرجع إلى الموصل فعاد ، فقال عماد الدين لأصحابه : « قد ضجرتنا مما نحن فيه ، كل يوم يملك البلد أمير ، ويؤمر بالتصرف على اختياره وإرادته ، فتارة نحن بالعراق ، وتارة بالشام ، وتارة بالموصل ، وتارة بالجزيرة » . فسار من البصرة إلى السلطان محمود ، وأقام عنده ، فكان يقف إلى جانب تخت الملك عن يمينه ، لا يتقدم عليه أحد ، وهو مقام والده قسيم الدولة [آق سنقر] من قبله ، وبقي لعقبه من بعده .

ثم بلغ السلطان أن العرب قد اجتمعت ، ونهبت البصرة ، فأعلم عماد الدين زنكي بالمسير إليها ، وأقطعه إياها ، لما بلغه عنه من الحماية لها في العام الماضي وقت اختلاف المساكر والحروب ، ففعل ذلك ، فعظم عند السلطان ، وزاد محله عنده ، وكان جرى بين برتقش (٢) الزكوى — شُحْنَة (١) بغداد — وبين الخليفة المسترشد بالله نفرة ، فتهدهه المسترشد ، فسار عن بغداد إلى السلطان شاكياً

(١) أنظر ماقات ، ص ٧ ، هامش هـ

(٢) كذا في الأصل ، وفي (ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٩ ، ص ٢٤٩) : « برتقش » .

من المسترشد ، وحذر السلطان جانبه ، وأعلمه أنه قد جمع العساكر عازماً على منعه من العراق ، فسار السلطانُ إلى بغداد ، وجرت حروب ووقائع ، ليس هذا موضع (١) ذكرها .

ذكر تولى الأمير عماد الدين زنكى (٢)

شحنكية (٣) بغداد

ثم نظر السلطان محمود بن محمد فيمن يصلح لشحنكية العراق ، بحيث يأمن معه من الخليفة ، ويضبط الأمور ، فرأى أن زنكى أصلح الناس لذلك ، فولاه الشحنكية — مضافاً إلى ما بيده من البلاد والإقطاع — وسار السلطان من بغداد .
وفي سنة عشرين وخمسة قُتل آق سنقر البرُستى ، قتله الباطنية (٤) ، وكانت بيده الموصل وحلب .

ذكر استيلاء عماد الدين زنكى على الموصل

لما توفى البرُستى فوض السلطان الأمر بعده بالموصل إلى ولده الأمير عز الدين مسعود بن آق سنقر [البرستى] ، فلم تطل أيامه ، وتوفى في سنة إحدى وعشرين وخمسة ، وولى بعده أخ له ، وقام بتدبير أمره مملوك لأبيه ، يقال له جاولى ، فأرسل إلى السلطان محمود [١٨] يطلب تقرير البلاد على ولد آق سنقر البرُستى ،

(١) أنظر تفاصيل هذه الحروب والوقائع في (ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٩ ، ص ٢٤٩ وما بعدها) .

(٢) أنظر ترجمته في : (ابن خلكان : الوفيات ج ١ ، ص ٣٤٣ — ٣٤٤) و (أبوشامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧ وما بعدها) .

(٣) أنظر ما فات ، ص ٧ ، هامش .

(٤) أنظر تفاصيل قتله في : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ١ ، ص ١٤٠) .

وبذل الأموال الكثيرة على ذلك ، وكان الرسول في ذلك القاضي بهاء الدين أبو الحسن على بن القاسم الشهرزوري ، صلاح الدين محمد الباغيساني (١) — أمير حاجب البرسقي — فحضرا دركاة (٢) السلطان ليخطباه في ذلك ، وكانا يخافان (٣) جاولي ولا يرضيان بطاعته ، فاجتمع صلاح الدين [محمد الباغيساني] ونصير الدين جقر (٤) ، وكانت بينهما مصاهرة ، وذكر له صلاح الدين ما ورد فيه ، وأفشى (٥) إليه سره ، فخوفه نصير الدين [من (٦)] جاولي ، وقبّح عنده طاعته ، وقرّر في نفسه [أنه (٦)] إنما أبقاه وأمثاله لحاجته إليهم ، ومتى أجيب إلى مطلوبه لا يبقى على أحد منهم .

وتحدث معه صلاح الدين في أن يخاطب السلطان في ولاية عماد الدين زنكي ، وضمن له الولايات والإقطاع الكثير ، وكذلك للقاضي بهاء الدين بن الشهرزوري ، وخاطباه في ذلك ، وضمننا له كلما أراد ، فوافقهما على ما طلبا .

وركب هو وصلاح الدين إلى دار الوزير شرف الدين أنوشروان [بن (٧)] خالد ، فقالا : « إنه قد علمت أنت والسلطان أن ديار الجزيرة والشام قد تمكن الفرنج منها ،

(١) في الأصل : « الباعناني » ، أنظر ماقات ص ١٩ ، هامش ٢

(٢) الدركاة — والجمع دركاوات — عرفها (Dozy, Supp Dict Arab.) فقال إنها لفظ فارسي معناه القضاء أو للمر المؤدى إلى مدخل قصر أو بناء كبير : (Cour devant un palais, vestibule, portique, porte)

(٣) في الأصل : « يخافا » .

(٤) هو نصير الدين جقر بن يعقوب نائب عماد الدين زنكي على الموصل إلى سنة ٥٣٩ حيث قتل ، وقد رسم هذا الاسم في (Zambaur, Op. Cit. P. 38) هكذا : « نصير الدين تشغرا Nasiraddin Tschaghra » ، أنظر بعض أخباره في : (ابن القلائسي : ص ٢١٧ ، ٢٦٣ ، ٢٨٠ ، ٢٨١) .

(٥) في الأصل : « وأفشا » بالألف .

(٦) أضفنا ما بين الحاصرتين عن : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٧٤) وذلك للايضاح .

(٧) ما بين الحاصرتين عن ابن الاثير ، نفس الجزء ، والصفحة ، وهو شرف الدين أنوشروان ابن خالد بن محمد الكاشاني ، ولي الوزارة لسلطان محمود السلجوقي في العراق من ويصح الثاني سنة ٥٢١ إلى رجب سنة ٥٢٢ ، أنظر : (Zambaur, Op. Cit. P. 225) .

وقد قويت شوكتهم فاستولوا على أكثرها ، وقد أصبحت ولايتهم من حدّ ماردین إلى عریش مصر — ما عدا البلاد الباقية بيد المسلمين — ، وقد كان البرُسُقي — مع شجاعته — يكفّ بعض عاديّتهم ، فمذ قُتل زاد طمعهم ، وولده ظفل ، ولا بد للبلاد من رجل شهم شجاع ذی (١) رأى وتجربة يذب عنها ويحمي حوزتها ، وقد أنهيّا الحال إليك لئلا يجرى خلل أو وهن على المسلمين ، فيختص اللوم بنا ، ويقال لنا : لم لا أنهيتم إلينا جليلة الحال . فأنهى الوزير ذلك إلى السلطان ، فشكرهما عليه ، وأحضرهما ، واستشارهما (٢) فيمن يصلح للولاية ، فذكر (٣) جماعة ، منهم : عماد الدين زنكى ، وبذلا عنه — تقربا إلى خزانة السلطان — مالا جليلاً ، فأجاب [السلطان] إلى ذلك ، لما يعلمه من كفايته لما يليه ، وولاه البلاد كلها ، وكتب منشوره بذلك (٤) وضم إليه ولده الملك ألب أرسلان — المعروف بالخفاجى — وجعله أتابكه ، فمن ثم قيل لزنكى : « أتابك (٥) » ، فسار أتابك زنكى (٦) .

(١) في الأصل : « ذو » .

(٢) في الأصل : « واستشاره » والتصحيح عن ابن الأثير حيث ينقل عنه هنا ابن واصل نقلاً يكاد يكون حرفياً مع تغييرات طفيفة في اللفظ دون المعنى .

(٣) في الأصل : « فذكروا » والتصحيح عن ابن الأثير .

(٤) هذه الجملة لا توجد في ابن الأثير وإنما أضافها ابن واصل من عنده للإيضاح ، وهو إيضاح له أهميته لتحديد التاريخ الذى لقب فيه عماد الدين بلقب أتابك وهو اللقب الذى ميز الدولة التى حكمت من نسله .

(٥) « أتابك » لقب يتكون من لفظين تركيبين : أطا بمعنى أب ، وبك بمعنى أمير ؛ وذكر صاحب (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٨) أن أول من لقب بهذا اللقب هو نظام الملك وزير ملكشاه بن ألب أرسلان الساجوق (٤٦٥ — ٤٨٥ هـ) حين فوض إليه ملكشاه تدبير المملكة ؛ ثم أصبح ملوك السلاجقة يطلقون هذا اللقب على كبار قواد جيشهم الذين يولونهم الوصاية على أبنائهم القاصرين . وكثيراً ما كان الأمير الأتابك يتزوج أم الطفل الموصى به ، وبذلك تصبح العلاقة بينه وبين هذا السلطان القاصر علاقة شبه أبوية . أنظر أيضاً : (Demombynes: *La Syrie à l'Époque des Mamlouks*, Pref P. XXVII, LVI) و (دائرة المعارف الإسلامية : مادة أتابك) .

وبدأ بالبوازيج^(١) [١٩] فلكها ، وتقوى بها ، وجعلها وراء ظهره ،
 لأنه خاف من جاولي أنه ربما صدّه عن البلاد ، ثم سار من البوازيج إلى الموصل ،
 فلما سمع جاولي بقربه من البلد ، خرج إلى تلقّيه ، ومعه سائر العسكر ، فلما رآه
 جاولي نزل عن فرسه ، وقبل الأرض بين يديه ، وعاد في خدمته إلى الموصل ،
 فدخلها في رمضان ، وأقطع [عماد الدين زنكي] جاولي الرحبة ، وسبّره إليها ،
 وأقام بالموصل يصلح أمورها ويقرر قواعدها ، وولّى نصير الدين جقر دزدارية^(٢)
 [القلعة^(٣)] بالموصل ، وجعل إليه دزدارية سائر القلاع ، وجعل صلاح الدين محمداً
 أميراً حاجباً^(٤) ، وبهاء الدين قاضي القضاة في البلاد جميعها .

ذكر استيلاء عماد الدين

على جزيرة ابن عمر^(٥)

ثم سار عماد الدين إلى جزيرة ابن عمر ، وبها ممالك البرّسقي ، فامتنعوا
 من التسليم ، فحصرهم وراسلهم ، وبذل لهم البذول الكثيرة على أن يجيبوه ،
 فلم يجيبوا ، فجدّ في قتالها ، وبينه وبين البلد دجلة ، فأمر الناس بالقاء أنفسهم
 في الماء ، ليعبروا إلى البلد ، ففعلوا ، وعبر بعضهم سباحة ، وبعضهم في السفن ،

(١) عرفها (ياقوت : معجم البلدان) بأنها بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل
 حيث يصب في دجلة ، ويقال لها بوازيج الملك ، وهي الآن (أي في زمن ياقوت) من أعمال
 الموصل ، ثم قال : وبوازيج الأنبار موضع آخر .

(٢) أنظر باقات ص ٨ ، هامش ١

(٣) ما بين الحاصرتين عن (ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ٢٧٥) .

(٤) في الأصل : « أمير حاجب » والتصحيح عن ابن الأثير .

(٥) عرفها (ياقوت : معجم البلدان) بأنها بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام تحيط
 بها دجلة إلا من ناحية واحدة شبه الهلاك ، ثم قال : وأحسب أن أول من عمرها الحسن بن عمر
 ابن الخطاب التغلبي وكانت له امرأة بالجزيرة .

وبعضهم في الأكلاك (١) ، وتكاثروا على أهل الجزيرة ، وكانوا قد خرجوا من الجزيرة إلى أرض بين الجزيرة ودجلة ، تعرف بالزلاقة ، ليمنعوا من يريد عبور دجلة ، فلما عبر العسكر إليهم قاتلوهم ومانعهم ، فتكاثر عسكر عماد الدين عليهم ، فانهزم أهل البلد ، وتحصنوا بأسواره ، واستولى عماد الدين على الزلاقة ، فلما رأى ذلك أهل البلد علموا أن لا خلاص لهم منه ، فسلموا إليه البلد بالأمان ، فدخل إليه هو وعسكره ، وزادت دجلة في تلك الليلة زيادة منكرة ، بحيث لحقت (٢) سور البلد ، وامتلات الزلاقة ماء ، ولو أنهم أقاموا ذلك اليوم ، ولم يتفق لهم الدخول للبلد ، لغرقوا ولم يسلم منهم أحد ، فلم الناس أن ذلك بداية سعادة ، وأن أمر هذه الدولة لعظيم .

استيلاء عماد الدين زنكي على نصيبين

ثم سار عماد الدين زنكي إلى نصيبين ، وكانت للأمير حسام الدين تيمرتاش ابن إيلغازي ابن أرتق (٣) — صاحب مardin — فلما نازلها سار حسام الدين إلى ابن عمه ركن الدولة (٤) داود ابن معين [٢٠] الدين [سُقمان (٥)] بن أرتق

(١) الكَلَك — والجمع كلكات أو أكلاك — لفظ فارسي معناه السفينة الصغيرة وجاء في (محيط المحيط) : « الكلك مركب يركب في أنهر العراق ويعرف بالطوف » أنظر أيضاً : (Dozy : Supp. Dict. Arab.) حيث ذكر أن هذا اللفظ استعمل في قصة السندباد البحري ، وللإيضاح كذلك أنظر : (قاموس الدجيلي في مجلة لغة العرب ، الأجزاء ١ و ٢ و ٣ سنة ١٩٠١) و (Kindermann : Schiff im Arabischen) وما به من مراجع . وراجع أيضاً : (البطريق أغناطيوس أفرام الأول : الألفاظ السريانية في المعاجم العربية . بحث نشر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، أعداد سنة ١٩٥٠) حيث يرى أن اللفظ من أصل سرياني .

(٢) في س « أخفت » ، وما هنا من ابن الأثير .

(٣) في الأصل « يرتق » ، وقد صححت بعد مراجعة (Zambaur , Op.cit. p. 228, 230)

وقد حكم حسام الدين هذا مardin من سنة ٥١٦ إلى ٥٤٧ هـ .

(٤) في الأصل : « الدين » والتصحيح عن : (ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ٢٧٥)

و (Zambaur. p. 228)

(٥) في الأصل : « شهاب الدين بن أرتق » والتصحيح عن المرجعين المذكورين

في المأتم السابق . وقد حكم ركن الدولة داود هذا حصن كيفا من سنة ٥٠٢ إلى سنة ٥٥٣٩ هـ .

صاحب حصن كيفا ، فوعده النجدة ، وجمع العسكر ، وعاد حسام الدين إلى ماردين ، وأرسل رقاعا على جناح طائر إلى نصيبين ، يعرف من بها من العسكر أنه وابن عمه سائران إليهم في العسكر الكثير ، ويأمرهم بحفظ البلد خمسة أيام ؛ فسقط الطائر على خيمة عماد الدين ، فقرأها ، وأمر أن يكتب بطاقة غيرها ، مضمونها : إني قصدت ابن عمي ركن الدولة (١) ، وقد وعدني النصرة ، وجمع العساكر ، وما نتأخر عن الوصول أكثر من عشرين يوماً ، ويأمرهم بحفظ البلد هذه المدة إلى أن يصل ، وجعل البطاقة في الطائر وأرسله ، فوقع بنصيبين ، فلما وقف أهل البلد على البطاقة أسقط في أيديهم ، وعلموا عجزهم عن حفظ البلد هذه المدة ، فسلموا البلد إلى عماد الدين ، فتسلمه ، وهذا من غرائب الاتفاق .

استيلاء عماد الدين زنكي على سنجار والخابور

ثم سار إلى سنجار ، فامتنع من بها عليه ، ثم صالحوه ، وسلموها إليه ، وسير منها الشَّحْن إلى الخابور ، فملكه جميعه ، ثم سار إلى حرَّان .

استيلاؤه على حرَّان

ولما قاربها ، خرج أهلها مدعين له بالطاعة ، لأنهم كانوا في ضرر عظيم وضيق من الفرنج — لعنهم الله — فإنه كانت بأيديهم يومئذ الرُّها وسرُّوج والبيرة ، وتلك البلاد ، وتلك النواحي جميعها .

ولما ملك حرَّان أرسل إلى جوساين — صاحب الرُّها وتلك البلاد — وهادنه مدة يسيرة ، ليتفرغ لإصلاح البلاد ، وتجنيد الأجناد ، وكان أهم الأمور إليه أن يعبر الفرات ويملك البلاد الشامية .

(١) في الأصل : « الدين » أنظر ما فات ص ٣٥ ، هامش ٤

ذكر استيلاء الشهيد عماد الدين زنكي

على مدينة حلب

وكان آق سنقر البرسقي قد ملك حلب ، فلما قُتل آق سنقر [هذا (١)] بالموصل كان ولده عز الدين مسعود بقلعتها (٢) فسار إلى الموصل وملكها ، واستناب بقاتلها رجلاً يقال له : « قومان (٣) » ، ولما استتب أمره (٤) سار إلى الرحبة ليحاصرها . وورد إلى حلب غلام السلطان محمود ، يقال له : « خُتلُغُ أبه (٥) » أتى بتوقيع من الأمير عز الدين يتضمن تسليم حلب إليه ، وصحبته سنقر [٢١] الطويل الملقب عمدة الدين — صاحب حرّان — المعروف بدران (٦) ، فسلم التوقيع إلى قومان (٣) ، فلم يقبل واحتج بعلامة بينه وبين عز الدين لم يتضمنها التوقيع ، واعترف بالخط ، وكان بينهما العلامة صورة غزال ، لأن عز الدين كان أحسن الناس نقوشاً وتصاور ، وكان مفرط الذكاء ، وطال الأمر على خُتلُغُ أبه ، ولم يسلم إليه البلد ، فأشير إليه بالعود ، فعاد ، وكان عز الدين محاصراً الرحبة ، فوصل [ختلغ (١)] في خمسة أيام ، فوجد مسعوداً قد مات ، وهو مطروح على قطعة بساط ، والعسكر مشغولون عن دفنه ،

(١) أضفنا ما بين الحاصرتين للإيضاح .

(٢) الضمير هنا يعود على حلب .

(٣) في الأصل : « نومان » ، والتصحيح عن (ابن الأثير) و (Zombaur: Op. Cit. p. 34)

(٤) الضمير هنا طائد على عز الدين مسعود بن آق سنقر البرسقي صاحب حلب .

(٥) كذا في الأصل ، ويرسم أيضاً « قتلغ » أنظر المرجعين بهامش ٣

(٦) كذا في الأصل ، ولم أستطع تحقيق الاسم بعد مراجعة المراجع المتداولة هنا في الحواشي ، ويلاحظ أن ابن واصل لا ينقل في هذا الجزء عن ابن الأثير ، وفيما أورده هنا عن الاستيلاء على حلب تفاصيل كثيرة لا توجد في الكامل لابن الأثير أو ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي أو المختصر لأبي الفدا . وأغلب الظن أنه ينقل هنا عن تاريخ حلب لابن المديم وإن كنت لم أطلع عليه فهو لا يزال مخطوطاً ، وهذا الاختلاف جيناً والاتفاق جيناً آخر بين النصين يؤكد ما ذهبنا إليه من أن المؤرخين يأخذان عن مرجع واحد .

وقد نهب بمضهم بعضا ، فماد خُتْلُغُ أبةً إلى حلب في ثلاثة أيام ، وعَرَفَ الناس موته ، فأدخله الرئيس فضائل بن بديع — رئيس حلب — المدينة ، واستنزلوا قومان من القلعة بعد ماصح عنده وفاة صاحبه ، فصائعهم على ألف دينار ، وسلم القلعة إلى خُتْلُغُ أبةً ، واستحلفه الحلبيون ، واستوثقوا منه .

وطلع [خُتْلُغُ] إلى القلعة لست بقين من جهادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وخمس مائة ، فبقى أياماً يظهر منه شر عظيم وفسق كبير ، فتشوشت قلوب الرعايا منه ، وحمله قوم على الطمع ، فصار يختم على تركة من يموت ، ويرفعها إليه ، ولا يكشف : هل له ورثة أم لا ؟ فاشتدت نفرة الناس منه وعرف الرئيس فضائل والأمير بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرْتُق — الذى كان قبل ذلك صاحب حلب — أنه قد عزم على قبضهما ، فتحالفا ، واتفقا ، واتفق معهما أحداث حلب ، فتأروا ليلة الثلاثاء ثانى شوال من هذه السنة ، وكان خُتْلُغُ أبةً وحجابه وخواصه فى قلة ، وكلهم يشربون فى البلد عند أصحابهم ، لأنه عشية يوم العيد ، فقبض عليهم الحلبيون ، وملأوا منهم الحبوس والمساجد ودار ابن الاقريطشى ، وقيدوهم ، وزحف الناس إلى باب القلعة ، وحاصروها ، فقاتلهم النهار أجمع ، ولما كان الليل نزل وأحرق القصر ، فتلفت سقوفه وأبوابه ، وذهبه وأخشابه ورخامه .

وهجم الناس [٢٢] صبيحة تلك الليلة ، وأخذوا منه ماقدروا عليه ، وقتل خلق كثير من الناس ، ووصل الأبرار حسن وحسان — ابنا البعلبكي صاحب منبج — من بُزاعة ^(١) سابع شوال ، فساماه الخروج ، فأبى ، ثم وصل الجوسلين — ملك الفرنج — فى مائتى فارس إلى بانقوسا ، ونفذ رسوله يصائعوه فدفعوه .

(١) فى (ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ٢٢٦) : « فوصل إلى حلب حسان صاحب منبج وحسن صاحب بزاعة » .

وفي آخر شوال وصل الملك إبراهيم بن رضوان بن تاج الدولة تَنْسُ ، فأدخله أهل حلب البلد ، ونادوا بشعاره ، ثم وصل بيمند الأفرنجي — صاحب أنطاكية — وضايق البلد ، فركب الملك إبراهيم وبدر الدولة سليمان بن أرتق والرئيس فضائل ابن ربيع في خلق من الحلبيين ، وزددت الرسل بينهم حتى استقر الأمر على الهدنة مدة ، وحمل إلى بيمند ما اقترحه بعد أن أشرف البلد على الهلاك .

وطال الحصار على خُتْلُغْ أْبَه إلى نصف ذي الحجة ، فوصل الأمير سنقر دراز والأمير حسن قراقوش ، ومع سنقر وحسن توقيع^١ سلطاني لعماد الدين زنكي بالموصل والجزيرة والشام ، ومعهما جماعة من الأمراء ، واتفق الأمر على أن يسير خُتْلُغْ أْبَه وبدر الدولة [بن عبد الجبار] إلى الأمير عماد الدين زنكي فلمن ولي استقر الأمر^(١) ، فمضيا إلى باب عماد الدين ، وبقي في البلد حسن قراقوش والياً ولاية مستعارة .

ولما مضى بدر الدولة وخُتْلُغْ أْبَه إلى عماد الدين أصاح بينهما ، ولم يقع لأحد ، وطمع في البلد ، وسير جيشاً مع الأمير صلاح الدين الياغيساني — حاجبه — فصد إلى قلعة حلب ، ورتب الأمور فيها .

ثم سار الأمير عماد الدين إلى الشام — في جيوشه وعساكره — فملك بزاغة ومنبج في طريقه ، وخرج أهل حاب إليه ، فالتقوه واستبشروا بقدومه ، ودخل البلد ، واستولى عليه ، ورتب أموره ، ثم قبض على خُتْلُغْ أْبَه ، وسلمه إلى ابن بديع ، فكحله^(٢) بداره بحاب ، فمات ، فاستوحش ابن بديع ، فهرب إلى قلعة جعبر ، واستجار بصاحبها فأجاره .

(١) كذا في الأصل ، والمعنى غير واضح ، والمقصود أن أي الرجلين يولي عماد الدين يستقر له الأمر .

(٢) في الأصل : « قعله » والتصحيح عن (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٧٧) حيث يعود النص هنا فيتنق ونص ابن الأثير اتفاقاً كبيراً .

وولّى عماد الدين رياسة حلب أبا الحسن علي بن عبد الرزاق ، وكان دخول
عماد الدين مدينة حلب واستقراره بها في [٢٣] جمادى الآخرة من سنة اثنتين
وعشرين وخمسة .

ثم صار من حلب إلى خدمة السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه — في نجمل
عظيم — ، وعاد من عنده إلى الموصل في سنة ثلاث وعشرين وخمسة ، ومعه
منشوره بالجزيرة والشام وما اتصل بهما ، بعد أن يحمل إلى السلطان وأصحابه ما يزيد
على مائة ألف وعشرين ألف دينار .

وفي مستهل رجب سنة أربع وعشرين وخمسة وصل عماد الدين زنكي
إلى الفرات ، وفتح قلعة السن (١) ، وسير عسكرياً أغاروا على بلد عزاز (٢)
— وهي للفرنج — وعاثوا في بلد جوسلين ، وذلك للبلتين بقيتا من رجب ؛
ونخيم عماد الدين ظاهر حلب ، وترددت الرسل بينه وبين الفرنج ، واصطاحوا
مدة ؛ ولعشر بقين من شعبان تزوج الأمير عماد الدين خاتون بنت الملك رضوان
ابن تنش .

(١) كذا في الأصل ، ولم أستطع تحقيق هذا الموقع لأن أخبار استيلاء عماد الدين على هذه
القلعة وعلى عزاز ثم خبر زواجه لم ترد جميعاً في حوادث سنة ٥٢٤ في المراجع السكينة المتداولة
في هذه الحواشي ، ولعل المقصود قلعة البيرة فهي واقعة على الفرات .

(٢) عزاز — وربما قيل بالألف في أولها — بليده فيها قلعة ولها رستاق شمال حلب ، بينهما
يوم . (ياقوت : معجم البلدان) .

ذكر استيلاء الأمير عماد الدين

على مدينة حماة

وكانت حماة للأمير ظهير الدين (١) أتابك طُغْتِكِين — صاحب دمشق —
قد تسلمها عقيب موت صاحبها شهاب الدين محمود بن قَراجا (٢) سنة سبع عشرة
 وخمسة ، ثم سلَّها الأميرُ ظهير الدين إلى الأمير بهاء الدين إبراهيم بن سوار ،
 ثم توفي إبراهيم بعد موت ظهير الدين ، فولَّى تاجُ الملوك بوري بن طغتكين
 — صاحب دمشق — حماة ووالده بهاء الدين سيونج بن بوري .

ولما كانت هذه السنة — أعنى سنة أربع وعشرين وخمسة — أرسل عماد الدين
 زنكي إلى تاج الملوك بوري بن طغتكين — صاحب دمشق — يستنجد به على الفرنج ،
 وأظهر العزم على الجهاد ، فأجابه إلى ذلك ، وأرسل من أخذ له العهود والمواثيق ،
 ثم جرَّد عسكراً من دمشق مع جماعة من الأمراء ، وأرسل إلى ابنه سيونج — صاحب
 حماة — يأمره بالتقدمة على العسكر والمسير بهم إلى خدمة عماد الدين زنكي ، فساروا
 بأجمعهم إليه ، فأكرمهم وأحسن ملتقاهم ، وكان عنده الأمير صمصام الدولة خترخان (٣)

(١) هو أبوسعيد سيف الاسلام ظهير الدين معتمد الدولة طغتكين — أتابك دُقاق بن تَنْش —
 توفي في صفر سنة ٥٢٢ هـ (Zambour, Op. Cit. p. 225) .
 (٢) ترجم لهذا الحاكم (ابن القلانسي ، ص ٢١٠) في شيء من التفصيل ، قال في حوادث
 سنة ٥١٧ هـ : « وفي هذه السنة ورد الخبر بأن محمود بن قراجة (كذا) وإلى حماة خرج
 في رجاله ، وقصد ناحية أقالمية وهجم ربضها ، فأصابه سهم من الحصن في يده ، ولما قلع منه
 عملت عليه وتزايد أمرها فمات منه ، وكان طاهراً ظالماً متبرداً ، وقتل جماعة من أعيان حماة
 ظالماً وتمدياً بسعاية بعضهم على بعض ، ولما عرف ظهير الدين ذلك أنهض إلى حماة من تسلمها
 وتولى أمرها من ثقاته .

(٣) كذا في الأصل ، وقد أورد (ابن القلانسي ، ص ١٨٢ ، ١٩١ ، ٢٠٩ ، ٢٢٨ ،
 ٢٥٢) هذا الاسم على أشكال ثلاث : (خترخان ، خيرخان ، قرخان) ، وهو في (ابن الأثير :
 ج ١٠ ، ص ٢٨١) : « قرخان » ، ولقبه صمصام الدين أو الدولة ، وقد ولي حمص بعد وفاة أبيه
 قراجا في سنة ٥٠٥ هـ .

ابن قُرَاجَا — صاحب حصص — فحسَنَ إمام الدين الغدر بهاء الدين سُونُج، والقبض عليه وعلى أصحابه، وأخذ حماة (١)، ففعل ذلك، وارتكب أمراً قبيحاً أنكره الناس عاينه، ولا شيء أقبح من الغدر؛ [٢٤] ولما عزم على تلك الفعلة الشنعاء استفتى الفقهاء في ذلك، فأفتاه منهم من لا دين له، وجوز له ما لا يحل ولا يحسن شرعاً وعرفاً، فقبض على بهاء الدين وعلى جماعته، وأتعب الخيل والخيم، وقبض على جميع أصحابه، واعتقل الأمراء بالقلعة والجند بحلب.

ثم سار في العشر الأول من شوال إلى حماة وتسلمها، ثم غدر بضمصام الدين خترخان، وسيره إلى حلب، وحبس بقلعتها.

وسار إلى حصص فنارلها، وطلب عماد الدين من أولاد ضمصام الدين خترخان تسليم قلعة حصص، فامتنعوا، فألح في حصارها، ونقب النقاؤون القلعة، فبطل عليهم النقب، وأمر بنصب المجانيق عليها فبطلت، وطالت مدة الحصار، وهجم الشتاء، فعاد بالسكر إلى حلب، وترددت الرسل بين تاج الملوك بوري — صاحب دمشق — وعماد الدين زنكي في إطلاق ولده بهاء الدين سُونُج وأصحابه، فاستقر الأمر على خمسين ألف دينار، فأجاب تاج الملوك إلى حماها، ولم ينظم بينهم أمر.

وفي منتصف ذي الحجة من هذه السنة سیر عماد الدين زنكي إلى فارس، وهجمت مَعْرَة مَضْرِين (٢) — وهي للفرنج — ونهبت وقتل من فيها، وشن الغارة على تل

(١) حديث ابن وأصل هنا عن أخذ عماد الدين حماة فيه إسهاب وتفصيل أكثر مما ورد في المراجع المختلفة المتداولة في هذه الحواشي كابن القلانسي وابن الأثير وأبي الفدا . . . الخ ولا عجب لحماة وطن ابن واصل ومسقط رأسه، وسنلاحظ عنايته الدائمة بذكر تاريخها مفصلاً كلما ورد ذكرها فيما يلي.

(٢) ضبطت بعد مراجعة (باقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنها بليدة وكورة بنواحي حلب ومن أعمالها، بينهما نحو خمسة فراسخ؛ أنظر أيضاً: (ابن الشحنة : الدر المنتخب، الصفحات المذكورة بالفهرس).

بأشر (١) والآثارب (٢) ، وأوقع بنخيل من الآثارب ، قتل منهم جماعة كبيرة ، وذكر ابن الأثير (٣) أنه فتح في هذه السنة حصن الآثارب .

وفي المحرم سنة خمس وعشرين وخمسمائة توجه الأمير عماد الدين زنكي راجعاً إلى الموصل ، وفي ربيع الآخر من هذه السنة رد السلطان محمود أمر العراق إلى عماد الدين مضافاً إلى ما بيده من الشام والموصل والجزيرتين ؛ وفي هذه السنة فتح الأمير عماد الدين قلعة للأكراد حصينة يقال لها مجيبر (٤) .

ذكر قبض الأمير عماد الدين

على دُبَيْس بن صَدَقَةَ المَزِيدِي (٥) صاحب الحِلَّة (٦)

وكان السلطان محمود قدم بغداد سنة ثلاث وعشرين من عند عمه السلطان سنجر بن ملكشاه — صاحب خراسان — ، ومعه الأمير دُبَيْس بن صَدَقَةَ ، ليصاح

(١) ذكر (ابن الشعنة ، ص ١٦٩) أنها كانت من أعمال حلب ولها قلعة مسمورة وبساتينها كثيرة .

(٢) ذكر (ياقوت : معجم البلدان) أنها كانت قلعة معروفة بين حلب وأنطاكية ، بينها وبين حلب نحو ثلاثة فراسخ ، ثم قال : وهذه القلعة الآن (القرن السابع الهجري) خراب وتحت جبلها قرية تسمى باسمها .

(٣) هذه ثاني مرة يشير فيها ابن واصل إلى مرجع من المراجع التي أخذ عنها ، انظر ما فات هنا ص ٣ ، وفي (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٨٢) تفاصيل وافية عن فتح عماد الدين زنكي لحصن الآثارب في سنة ٥٢٤ هـ .

(٤) لم تشر المراجع المختلفة إلى استيلاء عماد الدين على هذه القلعة ، ولهذا لم أتمكن من ضبطها .

(٥) في الأصل : « الزيدى » ، وقد ضبط الاسم كما بعد مراجعة : (ابن الفلانى ،

ص ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ — ٢٣٠ ، ٢٥١) و (Zambour. Op. Cit. p. 137) وقد حكمت أسرة مزيد الأسدَى مدينة الحلة ابتداءً من سنة ٤٠٣ هـ ، أما دُبَيْس المذكور هنا فهو نور الدولة دُبَيْس الثانى أبو المز بن سيف الدولة صدقة الأولك المزيدى ، حكم الحلة من سنة ٥٠١ هـ إلى ذى الحجة سنة ٥٢٩ هـ ، وقد قتل في أوائل سنة ٥٣٠ هـ ، قتله السلطان مسعود بن محمد السلجوق .

(٦) عرفها (ياقوت : معجم البلدان) بقوله : الحلة علم لعدة مواضع ، وأشهرها حلة بنى مَزِيد ، مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد ، كانت قبل تسميها الجامعين ، وكان أول من عمرها ونزلها سيف الدولة صدقة بن منصور بن دُبَيْس بن على بن مزيد الأسدَى .

بينه وبين الخليفة المسترشد بالله ، فتأخر دُبَيْس عن السلطان ، ثم وصل دُبَيْس ، ونزل بدار السلطان ، فاسترضى السلطانُ الخليفةَ عنه ، فامتنع أن يُؤَلَّى دُبَيْس [٢٥] شيئاً من الأعمال ، وبذل الخليفة للسلطان مائة ألف دينار لأجل ذلك ، وبلغ الأمير عماد الدين أتابك زنكي أن السلطان قد عزم على تولية دُبَيْس الموصل ، فسافر إلى خدمة السلطان — كما قدمنا — ، ولم يشعر السلطان به إلا وهو عند الستر ، وبذل الجملة العظيمة التي ذكرناها ، وخلع عليه ، وأعيد إلى بلاده — كما ذكرنا — .

ثم رحل السلطان عن بغداد ، ومرض ، وبلغ دُبَيْساً (١) مرضه ، فطعم وجمع جمعاً كثيراً ، وقصد الحلة ، وكان بها يهروز — شحنة بغداد — ، فهرب ، ودخلها دُبَيْس ، فعاث في البلاد ، فسير إليه السلطان [آق سنقر (٢)] الأحمد بلي ليكف شره ، فأرسل دُبَيْس يستعطف الخليفة ، وقال : « إن رضيت عني رددت أضعاف ما أخذته » ، وترددت الرسل في ذلك ، ودُبَيْس يجمع ويحشد ، فاجتمع إليه عشرة آلاف فارس ، ثم سار السلطان إلى بغداد فأهدى له دُبَيْس هدايا جليلة ، من جملتها ثلاثمائة حصان منقولة بالذهب ، ومائتا ألف دينار ليرضى عنه الخليفة والسلطان ، فلم يُجَبَّ إلى ذلك .

ولما دخل السلطان بغداد قصد دُبَيْس البصرة ، وأخذ منها أموالاً جليلة ، فسير إليه [السلطان] عشرة آلاف فارس ، ففارق البصرة ، ودخل البرية ، وسار متوجهاً إلى الشام ، فقليل إنه قصد قلعة صرخد ، لأن سرية (٣) لصاحبها

(١) في الاصل : « ديبس » .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين من (ابن القلائس ، ص ٢٣٨) .

(٣) ذكر (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٨٤) أن صاحب صرخد توفي في هذه السنة وكان خصياً ، وخلف جارية سرية له فاستولت على القلعة وما فيها ، وعلمت أنها لا يتم لها ذلك إلا بأن تتصل برجل له قوة ومجدة ، فوصف لها ديبس بن صدقة وكثرة عشيرته ، وذكر لها حاله وما هو عليه بالعراق ، فأرسلت تدعوه إلى صرخد لتزوج به وتسلم القلعة وما فيها من ماك وغيره إليه ، فأخذ الأدلاء معه وسار من العراق إلى الشام ، ففضل به الأدلاء بنواحي دمشق .

كتبت إليه وأطمعته فيها ، وضلَّ به الأدلاء الطريق بنواحي دمشق ، فنزلت (١) بناس من كلب كانوا شرقي القوطة ، فقبضوا عليه ، وحملوه إلى تاج الملوك بوري ابن طفتكين — صاحب دمشق — فحبسه عنده ، وبلغ ذلك عماد الدين زنكي ، فأرسل إلى تاج الملوك يطلب دُبَيْنًا ، على أن يطلق ولده بهاء الدين سُوَيْج وَمَنْ عنده من المأسورين ، فإنه إن امتنع من تسليمه سار إلى دمشق وحصرها ، فأجابه تاج الملوك إلى ذلك ، فأرسل دُبَيْنًا ، وأرسل إليه عماد الدين بهاء الدين سُوَيْج وأصحابه ، وتسلم عماد الدين دُبَيْس بن صَدَقَة ، فأحسن إليه عماد الدين ، ودفع إليه من الأموال والسلاح ما لم يكن في ظن دُبَيْس .

فأرسل [٢٦] الخليفة المسترشد بالله لما سمع بالقبض على دُبَيْس سديد الدولة ابن الأنباري (٢) وأبا بكر بن بشر الجزري (٣) ، يطلبان من تاج الملوك دُبَيْنًا ، لما بينه وبين الخليفة من العداوة ، فسمع سديد الملك — وهو في الطريق — بمصير دُبَيْس إلى عماد الدين ، فسار إلى دمشق ولم يرجع ، ووقع في عماد الدين وذمّه ، واستخف به ، وبلغ ذلك عماد الدين فأرسل إلى طريقه من يأخذها إذا عادا ، فلما رجعا من دمشق قبضوا عليه (٤) وعلى ابن بشر ، وحملوها إليه فأطلق ابن بشر ، وسجن ابن الأنباري ثم أطلقه .

وكان مصير دُبَيْس إلى عماد الدين سنة خمس وعشرين وخمسمائة . وفيها مات السلطان محمود بن محمد .

(١) الضمير هنا يعود على الأدلاء .

(٢) هو سديد الدولة أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن الأنباري ، كان كاتباً للخليفة المسترشد ، أنظر : (ابن القلانسي ، ص : ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٦٠) .

(٣) ذكر (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٨٥) أنه سمي هكذا نسبة إلى موطنه جزيرة ابن عمر .

(٤) الضمير هنا عائد على ابن الأنباري .

وكان الأمير عماد الدين زنكي قد عبر الفرات (١) ، ووصل إلى مدينة حلب في أول شوال ، ثم توجه إلى حمص ، فحاصرها يوماً واحداً ، وتوجه نحو أطراف الشام ، وتسلم دُبَيْسًا ، وأطلق سِوَيْج — كما ذكرنا — وبلغه وفاة السلطان وهو بالقرية (٢) — من عمل حمص — لأربع عشرة بقية من شوال ، فسمع عماد الدين ودُبَيْسُ بن صدقة — (٧) وكان عنده ولدان للسلطان (٣) محمود — أحدهما ألب أرسلان الخفاجي ويكنى أبا طالب وهو الذي جعله (٤) السلطان أتابكه — وقد ذكرناه (٥) — والآخر (٦) عند دُبَيْس (٧) .

فأرسل الأمير عماد الدين إلى الخليفة المسترشد بالله يسومه أن يخطب ببغداد لأبي طالب ألب أرسلان بن السلطان محمود ، فاعتذر المسترشد بالله بأنه صبي ، وأن السلطان عهد بالسلطنة لولده داود بن محمود — وهو بأصبهان — وقد وردت رسل الأطراف بالخطبة له ، ونحن منتظرون كتاب السلطان سنجر بن ملكشاه ، فإنه عمُّ القوم .

(١) في الأصل « الفرات » .

(٢) « القرية » قرية كبيرة من أعمال حمص في طريق البرية بينها وبين سُخَّة وأرك ، أهلها كلهم نصارى (ياقوت : معجم البلدان) .

(٣) في الأصل : « السلطان » وقد صححت كما بالمتن ليتضح المعنى .

(٤) الضمير هنا طائد على عماد الدين زنكي ، والانصود أن السلطان جعل عماد الدين أتابكاً لابنه أبي طالب ألب أرسلان الخفاجي .

(٥) أنظر ما فات ، ص ٣٣

(٦) لم يذكر اسم الابن الثاني ، والمعروف أن السلطان محمود كان له أولاد خمسة : ألب أرسلان وفروخ زاد ، وداود ، وملك شاه الثاني ، وعبد . أنظر القوائم الملاحقة بكتاب (Zambaur) .

(٧) هذه الجملة لازالت مضطربة المعنى ، ولم أستطع تقويمها أكثر من ذلك ، فهي مما اعتاده ابن واصل زيادته عند النقل عن غيره رغبة في التعريف والابضاح .

ذكر الوقعة الكائنة بين الخليفة المسترشد بالله

وبين عماد الدين زنكي

١١ مات السلطان محمود فُخطب بهمدان وأصفهان والجلال وأذربيجان لولاه السلطان داوود ، وسار من همدان إلى رَمَكان (١) ، وكان عمه السلطان مسعود ابن محمد قد سار من جرجان ووصل إلى تبريز (٢) ، فاستولى عليها ، فسار إليه داوود في ذي [٢٧] القعدة من هذه السنة — أعني سنة خمس وعشرين وخمسمائة — ، وحصره بها ، وجرى بينهما قتال إلى سلخ المحرم سنة ست وعشرين وخمسمائة ، ثم اصطَلَحوا وتأخر داوود مرحلة ، وخرج السلطان مسعود من تبريز (٣) واجتمعت إليه العساكر ، وسار إلى همدان .

وكانت رسل داوود تقدمت في طلب الخطبة ، فأجاب الخليفة : «إِنْ [الحكم في (٢)] الخطبة للسلطان سَنَجَر ، من أراد خُطِبَ له » وأرسل السلطان سَنَجَر : أن لا يأذن لأحد في الخطبة ، وأن الخطبة ينبغي أن تكون له وحده ، وأرسل السلطان مسعود إلى عماد الدين زنكي يطلب مساعدته ، فوعده النصر .

وسار السلطان سلجوق شاه — ومعه أتابكه قراجا الساقى صاحب بلاد فارس وخوزستان — في عسكر كثيف إلى بغداد ، ونزل بدار السلطنة ، فأكرمه الخليفة ،

(١) ضبحت هكذا بعد مراجعة ياقوت ، ولم يعرفها بأكثر من قوله إنها موضع ، وفي (ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ٢٨٧) أنه سار إلى زنجان لارمكان .

(٢) في الأصل : «تورين» ، والتصحيح عن (ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٢٨٧) .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين عن (ابن الأثير) للابضاح ، ويلاحظ أن النص هنا يعود فيتنق كثيرا ونس ابن الأثير .

واستحلفه لنفسه ؛ ثم وصل السلطان مسعود يطلب الخطبة ، ويتهدده إن منيها ، فلم يُجِبْ إلى ما طَلَبَ ، فَنَزَلَ عَبَّاسِيَّة (١) الخالص .

وبرز الخليفة وسلجوق شاه وقراجا الساقى عازمين على قتال مسعود ، وتوجه عماد الدين زنكى إلى بغداد — ومعه دُبَيْسُ بْنُ صَدَقَةَ — ، وكانت رسل السلطان سَنَجَرُ قد وردت إلى عماد الدين بتوليته شَحَنَكِيَّةَ بغداد ، وإقطاع الحِلَّةَ لدُبَيْسَ ، وبلغ الخليفة وقراجا الساقى وصول عماد الدين إلى المَعشُوق (٢) ، فمهر قراجا إلى الجانب الغربى ، وتقدم إلى الملك سلجوق شاه بمرافقة أخيه السلطان مسعود إلى أن يفرغا من حرب عماد الدين ، وسار الخليفة فى يوم وليلة إلى المعشوق ، فواقع عماد الدين زنكى فهزمه ، وأسر كثيراً من أصحابه .

وسار عماد الدين إلى تكريت ، وعبر منها دجلة ، وكان الدزدار بتكرت يومئذ نجم الدين أيوب بن شادى — والد صلاح الدين يوسف — فأقام لعماد الدين المعابر (٣) ، فلما عبر أمن الطلب ، وسار لإصلاح بلاده ، فكان هذا الفعل من نجم الدين سبباً

(١) فى الأصل : « عباسية » والتصحيح عن ابن الأثير ، وقد ذكر ياقوت جملة مواضع تحمل اسم العباسية إحداها كانت محلة ببغداد بين الصراطين قرب المحلة المعروفة بباب البصرة وتنسب إلى العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، وقد كنت أحسبها هذه ، لولا أن الأستاذ المحقق الدكتور مصطفى جواد تفضل فكتب إلى : أن « عباسية الخالص » قرية على نهر الخالص فى الجانب الشرقى من دجلة ، وقد ذهب اسم القرية مع كثير من قرى الخالص ، أما النهر فلا يزال من أنهار المقاطعات فى شرق بغداد ، وإني أتهنى هذه الفرصة لأشكر الدكتور مصطفى جواد لتفضله بتعريف بعض المواقع المراقبة التى استغفرت منه عنها .

(٢) عرفه (ياقوت : معجم البلدان) بأنه قصر عظيم بالجانب الغربى من دجلة قبالة سامراء فى وسط البرية ، بينه وبين تكريت مرحلة ، عمره المعتمد على الله ، ولا تزال بقاياه قائمة حتى العصر الحاضر .

(٣) المَعْبَرُ والمَعْبَرَةُ — والجمع معابر — من أسماء السفن العربية ، وقد عرفه صاحب اللسان بأنه ما عُبر به النهر من فُلٍّ أو سفينة أو قنطرة أو غيره . راجع كذلك : (ابن سيده : المخصص ، ج ١٠ ، ص ٢٦) ومخطوطتنا التى لم تطبع بعد (معجم السفن العربية) و (Kindermann ; Schiff im Arabischen. pp. 62, 102.)

للسعادة التي آلت به إلى أن صار ولده ملوك الأرض ، فليُنظر العاقل إلى ثمرة الجليل .
وفعل الخير .

وسار السلطان مسعود من البامية إلى الملكية (١) ، ووقعت الطلائع بعضها على بعض ، وآل الأمر [٢٨] إلى أن اصطلح الأخوان مسعود وسلاجوق على أن تكون السلطنة لمسعود ، وسلاجوق ولي عمده ، وأن العراق يكون للخليفة (٢) ، ونحالفوا على ذلك واتفقوا .

وعاد السلطان مسعود إلى بغداد ، ونزل بدار السلطنة ، ونزل سلاجوق بدار الشحنة ، وكان ذلك في جمادى الأولى سنة ست وعشرين وخمسة .

وأما السلطان سنجر فإنه سار من خراسان إلى همدان — وصحبته ابن أخيه السلطان طغرل بن محمد — مریداً تملسكه ، لأنه كان قد لازمه ، فوصلا إلى الري — ثم إلى همدان ، فلما بلغ ذلك الخليفة والسلطان مسعود ، تجهزا وسارا إلى لقائه ، ومعهما قراجا الساقى وسلاجوق شاه ، ثم تأخر عنهما الخليفة خوفاً من عماد الدين زنكى ، لما بلغهم أنه على قصد بغداد ، فاستعد للمدافعة ، وجند الأجناد ، ومضى الباقون ، فكانت الوقعة بينهم وبين السلطان سنجر بقولان (٣) بقرب الدينوز ، فانكسر السلطان مسعود وأخوه سلاجوق شاه ، وأخذ قراجا الساقى أسيراً ، فقتله السلطان سنجر صبراً ، وأحضر ابن أخيه السلطان مسعود ، فأكرمه ، وعاتبه على مخالفته .

(١) لم أجدها تعريفاً في المراجع الجغرافية ، وإنما ذكر لي الدكتور مصطفى جواد في خطاب منه أن « الملكية » ضيعة من ضياع الخالص بشرق دجلة قرب بغداد ، وقد ذكرها ابن الأثير أيضاً في حوادث سنة ٦١٤ مع مواضع الجانب الشرقى التي أغرقها دجلة .

(٢) في (ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ٢٨٨) : « وأن يكون العراق لوكيل الخليفة » .

(٣) في الأصل « بنولان » وفي (ابن الأثير) : « بولان » ، ولم يشر ياقوت إلى أيهما ، وإنما ورد فيه « بقولان » وعرفنا بأنها موضع ولم يزد .

وأعادته إلى كَنْجَة (١) ، وأجلس ابن أخيه السلطان طغرل بن محمد في السلطنة ، وأمر بالخطبة له في جميع البلاد ، وكانت هذه الواقعة في ثامن رجب سنة ست وعشرين وخمسمائة .

ثم عاد السلطان سَنَجَر إلى نيسابور ، وكان السلطان سَنَجَر قد كاتب الأمير عماد الدين ودُبَيْس بن صَدَقَة ، وأمرهما بقصد العراق ، فقصدا بغداد ، وبلغ الخليفة المسترشد ذلك ، فأمرع العود إليهما ، وعبر إلى الجانب الغربي ، وسار فترزل بالعباسية ونزل عماد الدين زنكى بالمنارية من دُجَيْل ، ثم التقيا في السابع والعشرين من رجب بمكان يقال له عَقْرَقُوف (٢) ، واقتتلوا قتالا كبيرا ، فحمل الأمير عمادُ الدين على ميمنة الخليفة ، — وفيها جمال الدين (٣) إقبال — فانهزموا ، وحمل نظر الخادم — وكان في ميسرة الخليفة — على [ميمنة] (٤) عماد الدين ودُبَيْس ، وحمل [٢٩] الخليفة بنفسه ، واشتد القتال ، فانهزم دُبَيْس ، ورأى الأمير عماد الدين تفرق الناس عنه ، فانهزم ، وقُتِل من المسكر جماعة ، وأسر جماعة ، وبات هناك الخليفة ليلة ، وعاد إلى بغداد .

حكى الأمير مؤيد الرولة أسامة بن مرشدر بن علي بن سنقر في كتاب ألفه ، وذكر فيه شهامة الخليفة المسترشد بالله وشجاعته ، قال : « كان الإمام المسترشد بالله يلحق بالصدر الأول من سلفه في علو الهمة ، وحسن السياسة ، والإقدام العظيم ، فإنه لما التقى هو وعماد الدين زنكى بن آق سنقر في المصاف بعقرقوف وأنا حاضر المصاف ، ضرب له خيمة أطلس أسود ، ووضع له فيها تخت ، وجلس عليه ،

(١) عرفها (ياقوت) بأنها مدينة عظيمة وهي قصبة بلاد أرمغان ، وهي من نواحي لرستان بين خوزستان وأصبهان ، وأهل الأدب يسمونها جنزة .

(٢) قرية من قرى دجيل بينها وبين بغداد أربعة فراسخ (ياقوت) . والذي ذكره (ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ٢٨٩) أنهما التقيا بحصن البرامكة . أنظر خريطة العراق الحديث

(٣) في ابن الأثير : « جمال الدولة » .

(٤) ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير .

والخيل تطرد، فكسر عسكر أتابك، وذلك يوم الاثنين السابع والعشرين من رجب سنة ست وعشرين وخمسمائة، فاستولى على كل ما فيه، وانهزم أتابك زنكي إلى الموصل، وذلك الإقدام العظيم كان سبب تلفه.

قلت: إن الخلفاء كان قد ضعف أمرهم من أيام المتقي بالله (١)، واستولت عليهم الملوك، خصوصاً في أيام المستكفي بالله (٢)، فإن بني بويه الديلم ملكوا العراق وغيرها من الممالك، وصارت الخلفاء تحت حجرهم، ثم ظهرت السلاطين السلجوقية، فتغلبوا أيضاً وتحكموا، وهلم جرا إلى أيام المسترشد، فاتفق وقوع الخلفاء بين السلاطين السلجوقية، واغتتم ذلك الخليفة المسترشد، فكانت نفسه أية، وشجاعته عظيمة، فجند الجنود، وياشر القتال بنفسه، وأدى ذلك إلى أن أسره السلطان مسعود، وقُتل في معسكره — كما سند كره إن شاء الله تعالى —.

وبويع ببغداد لولده الراشد، ووصل السلطان إلى بغداد، فهرب الراشد، وأقعد السلطان عمه المقتنى، وحكم عليه إلى أن مات السلطان مسعود، ثم بعد ذلك قوى المقتنى، وملك العراق، وقامت حشمة الدولة العباسية، واستمرت قوتها إلى أن زالت بالتار الملاعين سنة ست وخمسين وستمائة، والمسترشد بالله شعر بدل [٣٠] على قوة نفسه وبعد همته، وهو:

أَنَا الْأَشَقْرُ الْمَوْعُودُ بِي فِي الْمَلَا حِمٍ وَمَنْ يَمْلِكُ الدُّنْيَا بَغَيْرِ مُزَاحِمٍ
سَتَبْلُغُ أَرْضَ الرُّومِ خَيْلِي وَتَنْتَهِي (٣) بِأَقْصَى (٤) بِلَادِ الصِّينِ بَيْضُ صَوَارِمِي

(١) حكم بين سنتي ٣٢٩ و ٣٣٣ (٩٤٠ — ٩٤٤).

(٢) ولي بعده من ٣٣٣ إلى ٣٣٤ (٩٤٤ — ٩٤٦).

(٣) في (السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٨٧) : « وتنتهى ».

(٤) في الأصل : « بأقصا ».

وكان الأمير إبراهيم^(١) بن سُقْمَانَ بن أَرْثُتُقْ — صاحب حصن كيفا — لما سمع بقصد عماد الدين بغداد قد خرج من حصن كيفا نجدة للخليفة ، في جمع كثير ، وأغار على نصيبين .

ذكر منازلة الخليفة المسترشد بالله مدينة الموصل

وفي العشرين من رمضان سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، حصر الإمام المسترشد بالله مدينة الموصل ، وكان السبب في ذلك ما تقدم من الفتنة بينه وبين عماد الدين ، فقصد باب الخليفة المسترشد — رحمه الله — جماعة من الأمراء السلجوقية ، وخدموه ، وقوى بهم لا سيما واتفق اشتغال السلاطين بالخلف الواقع بينهم ، فأرسل الخليفة الشيخ بهاء الدين أبا الفتوح الأسفراييني — الواعظ — إلى عماد الدين برسالة فيها خشونة ، وزادها أبو الفتوح — زيادة في الحجة — ثقة بقوة الخليفة وتأموس الخلافة ، فقبض عليه عماد الدين زنكي ، وأهانته ولقاه ما يكره .

ولما كان في شعبان سار الخليفة عن بغداد في ثلاثين ألف مقاتل ، فلما قرب من الموصل فارقها عماد الدين زنكي ببعض عسكره ، وترك الباقي بها مع نائبه نصير الدين جُفَرٍ — دزدارها والحاكم في دولته — فنازلها الخليفة ، وضيق على من بها ، وسار عماد الدين إلى سنجار ، وكان يركب في كل ليلة ، ويقطع الميرة عن العسكر ، ومتى ظفر بأحد من العسكر أخذه ونكّل به ، فضاقت على العسكر الأمور ، وتواطأ جماعة من الجصاصين^(٢) بالموصل على تسليم البلد ، فسعى بهم ،

(١) حكم حصن كيفا بعد أبيه سُقْمَانَ ، وذلك من سنة ٤٩٨ إلى سنة ٥٠٢ ؛ وقد ظل حصن كيفا تحت حكم الأرتقيين إلى أن استولى عليه الملك الكامل محمد الأيوبي في سنة ٦٢٩ ، أنظر : (Zambaur, Op. Cit. P. 228, 230) و (ابن القلانسي ، ص ١٣٧ — ١٣٨ نقلًا عن الفارقي) .

(٢) في (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢) : « الجصاصين » .

فأخذوا وُصِّلوا ، ودام الحصار نحو ثلاثة أشهر فلم يظفر الخليفة منها بشيء ، فعاد إلى بغداد ، وقيل كان سبب رحيله أنه بلغه أن السلطان مسعوداً (١) قصد بغداد ، فعاد لذلك ، والله أعلم .

استيلاء شمس الملوك صاحب دمشق على حماة وأخذها من عماد الدين

وفي هذه السنة — أعني سنة [٣١] سبع وعشرين وخمسة — قصد شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك بوري — صاحب دمشق — مدينة حماة ، وكان والده تاج الملوك قد توفي سنة ست وعشرين ، وجلس [هو] في الأمر مكانه .
وكنا قد ذكرنا أن حماة كانت لبهاء الدين سيونج — أخى شمس الملوك — وأن عماد الدين قبض عليه وأخذ منه حماة ، فلما نزل شمس الملوك على حماة حاصرها ، وذلك في العشر الآخر من رمضان من هذه السنة ، وكان الوالى بها ، وهو سنقر — غلام صلاح الدين محمد بن الياغسياني (٢) — مقطوعاً قد سمع الخبر ، فاستكثر من الرجال والدخائر ، فرحف إليها شمس الملوك يوم العيد ، ثم عاد عنها ذلك اليوم ، وزحف إلى البلد من جميع جوانبه ، فملكه قهراً ، وأمن أهله ، وحصر القلعة ، ولم تكن يومئذ حصينة على ما هي اليوم ، وإنما عمرها بعد ذلك الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، فعجز الوالى عن حفظ القلعة ، فسلمها إليه ، ثم رحل عنها إلى شيزر فحصرها ، ونهب بلدها ، فصانعه صاحبها ابن منقذ (٣) بمال ، فرجع .

(١) في الأصل : « مسعود » .

(٢) في الأصل : « الياغستاني » ، أنظر ما سبق هنا ، ص ١٩ ، هامش ٢

(٣) كان صاحب شيزر في تلك السنة هو مجد الدين أبو سلامة مرشد بن علي بن منقذ بن نصر ابن منقذ — والد المؤرخ الشهير أسامة — ولد سنة ٤٦٠ وتولى سنة ٥٣١ ؛ انظر : محمد أحمد حسين : أسامة بن منقذ ، ص ٧ وما بعدها) و (Zambaur, Op. Cit, p, 104)

ذكر الوقعة بين عماد الدين وصاحب حصن كيفا

سنة ثمان وعشرين (١) وخمسمائة

اجتمع الأمير عماد الدين أتابك زنكي والأمير حسام الدين تيمرتاش بن إيلغازي ابن أرْتُق [صاحب ماردین (٢)] وقصدا مدينة آمد وحاصراها ، فأرسل صاحبها — وهو [سعد الدولة أبو منصور ايكلدي بن فخر الدولة إبراهيم (٣)] إلى الأمير ركن الدين [داود (٤)] بن سُقْمَان بن أرْتُق يستنجده ، فجمع العساكر ، وسار ليرحباها عنها ، فالتقوا على باب آمد ، واقتتلوا ، فانهزم ركن الدين ، وعاد مغلولا ، وقتل من أصحابه جماعة كثيرة ، وأقام عماد الدين [زنكي] وحسام الدين [تيمرتاش] على آمد محاصرين لها ، وقطعا الشجر ، وشعثا البلد ، ثم عادا عنها من غير بلوغ غرض .

٥) استيلاء عماد الدين على قلعة الصور

ثم قصد عماد الدين قلعة الصور من ديار بكر ، فحاصرها وضايقةا ، ثم ملكها في رجب من هذه السنة (٥) .

(١) في الأصل : « وخمسين » وهو خطأ واضح .
 (٢) في الأصل : « يرتق » ، وقد صححت وأضيف ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير .
 (٣) في الأصل : « ابن إبراهيم بن كيكلدي » وقد صحح الاسم بعد مراجعة (Zambaur, Op. Cit. P. 139) وقد حكم سعد الدولة هذا حصن آمد من سنة ٥٠٣ إلى سنة ٥٣٦ .
 (٤) أضيف ما بين الحاصرتين عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٥) للإيضاح .
 (٥) ما بين القوسين ورد في الهامش وأشير إلى مكانه في المتن بعلامة .

استيلاء عماد الدين على قلاع [الأكراد^(١)] الحميدية^(٢)

وفي هذه السنة تملك عماد الدين قلعة المقر^(٣) ، وقلعة شوش^(٤) ، وغيرها ، وكان عماد الدين قد أقرَّ الأمير عيسى الحميدى — صاحب هذه القلاع — عليها ، لما ملك البلاد ، فلما نازل الخليفة المسترشد بالله الموصل ، نزل عيسى إلى خدمة الخليفة ، وحشد له [٣٢] الأكراد ، فلما رحل الخليفة أمر عماد الدين بمنازلة القلاع ، فنوزلت وملك في هذه السنة .

استيلاء عماد الدين على قلاع الهكارية^(٥)

كان صاحب هذه القلاع الأمير أبا الهيچاء بن عبد الله وكانت له آشب^(٥) والجديدة^(٦) وتوشى^(٧) وجبل لهيجة ، فأرسل عماد الدين من استحلغه وحمل إليه مالا ، ثم سافر عماد الدين ، وأخرج معه من آشب ولده أحمد — وهو والد الأمير سيف الدين على بن أحمد المشطوب الذى سنذكره فى أخبار صلاح الدين رحمه الله —

(١) أضيف ما بين الحاضرتين عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٥) للإيضاح .
(٢) بغير ضبط فى الأصل ، وقد ذكر (ياقوت) أكثر من مكان كان يسمى بالمقر ، أحدها هو المقصود هنا ، وعرفه بقوله : المقر قلعة حصينة فى جبال الموصل أهلها أكراد وهى شرقى الموصل ، تعرف بمقر الحميدية ، أى أنها تنسب إلى الحميدية وهم طائفة من الأكراد .
(٣) شوش قلعة عظيمة عالية جداً قرب مقر الحميدية من أعمال الموصل ، قبل هى أعلى من المقر وأكبر ولكنها فى القدر دونها . (ياقوت : معجم البلدان) .
(٤) طائفة من أكبر طوائف الأكراد . (انظر عباس المزوى : المشارع الكردية) .
(٥) بدون ضبط فى الأصل ، وهى قلعة قديمة للأكراد ، عمرها عماد الدين زنگى فى سنة ٥٣٧ فلبست إليه وسميت منذ ذاك بالهادية . وهى — كما وصفها ياقوت — قلعة حصينة مكينة فى شمالى الموصل ، ومن أعمالها .

(٦) ضبطت بعد مراجعة ياقوت حيث عرفها بأنها قلعة فى كورة بين النهرين التى بين نصيبين والموصل ، وأكثر ما تكون لصاحب الموصل ، وأعمالها متصلة بأعمال حصن كيفا .
(٧) فى الأصل : « بوشى » وفى (ابن الأثير) : « نوشى » ، وقد ضبطت بعد مراجعة : (محمد أمين زكى : خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ، ص ١٥٤) .

وإنما فعل ذلك خوفاً من أن يتغلب عليها ، وأعطاه توشي ، واستخلف أبو الهيجا بأشْب كرديا يقال له باو الأرجبي^(١) .

ولما قدم أبو الهيجا على عماد الدين توفى عنده بالموصل ، فسار من توشي إلى آشْب لملكها ، فمنعه باو وأراد حفظها لولد صغير لأبي الهيجا اسمه علي ، ثم نازل عماد الدين آشْب فملكها ، وذلك أنه استجرحهم^(٢) لما نازلهم ، وانهزم من بين أيديهم حتى أبعادوا عن القلعة ، ثم عطف عليهم فانهزموا ، فوضع السيف فيهم ، وأكثرت القتل والسبي ، ثم سار عنها .

وفي غيبته استولى نائبه نصير الدين [جَقر^(٣)] على جبل لهيجة وتوشي وقلعة الجَلَّاب^(٤) ، وحاصر جميع حصون الهَذْبَانِيَّة^(٥) : وهي قلعة الشعباني^(٦) ، وقرح ، وكوآشي^(٧) ، والزعفراني ، وغيرها^(٨) فملك الجميع ، واستقام الجبل ، وأمنت الرعايا بأمن الأكراذ ، فإنهم كانوا معهم في ضر عظيم .

-
- (١) في الأصل : « باد » وما هنا عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٥) .
 (٢) الضمير هنا عائد على أهل آشْب ، وصيغة ابن الأثير أكثر وضوحاً وهي : « وسبب ملكها أن أهلها نزلوا كلهم إلى القتال فتركهم زنكي حتى قاربوه واستجرحهم حتى أبعادوا عن القلعة ثم عطف عليهم فانهزموا . . الخ » .
 (٣) أضيف ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير للايضاح .
 (٤) ضبطت بعد مراجعة ياقوت ، قد ذكر أن جلاب اسم نهر بمدينة حران التي بالجزيرة مسمى باسم قرية يقال لها جلاب .
 (٥) فرقة أخرى من أكبر فرق الأكراذ .
 (٦) ذكرها (محمد أمين زكي : خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ، ص ١٥٤ و ٣٩٠) وذكر لي الدكتور مصطفى جواد في خطابه أن مؤلف (إجابة السائل) المخطوط بيناريس ذكرها باسم « الشعبانية » .
 (٧) في ابن الأثير : « كوشر » ، وما هنا هو الصحيح ، والضبط عن ياقوت ، حيث ذكر أنها قلعة حصينة في الجبال التي في شرق الموصل ليس إليها طريق إلا لأرجل واحد وكانت قديماً تسمى « أَرْدُمَشْت » .
 (٨) أردف ابن الأثير هذه الاسماء بقوله : « وهي حصون الهرانية » ، والمهرانية قبيلة من قبائل الأكراذ .

وباقى بلاد الهكَّاريَّة فتحها قَرَّاجًا نَجْنًا^(١) صاحب المادية بعد قتل عماد الدين وهذا قراجا أقطعه الأمير زين الدين بلاد الهكَّاريَّة بعد زنكى ، ولما فتح عماد الدين آشِب بنى قلعة المادية ، وهى التى كانت تسمى قليعة الجُلاب ، وإنما سميت المادية^(٢) نسبة إلى عماد الدين .

منازلة عماد الدين دمشق

وسبب ذلك أن صاحب دمشق شمس الملوك إسماعيل بن بورى بن طغتكين كان ظالماً سيئ السيرة إلى الغاية القصوى ، مع بخل زائد ودناءة نفس ، فكرهه أصحابه وأهله ورعيته ، ولما استشعر بغض أصحابه له ، وخاف منهم راسل الأمير عماد الدين زنكى بحثه على سرعة [٣٣] الوصول إلى دمشق ليسلمها إليه ، وأُخْلِى^(٣) المدينة من الذخائر والأموال ، وحملها إلى صرخد ، وتابع الرسل إلى عماد الدين بحثه على الوصول ، ويقول : « إن أهملت المجئ سلمت المدينة إلى الفرنج » .

وتحقق ذلك أصحابه ، فواطأوا أمه على قتله فقتلته وانضاف إلى ذلك سبب^(٤) آخر هو مذكور فى أخباره ، ولما قتله أمه أقامت فى الأمر بعده أخاه شهاب الدين محمود بن بورى ، وحلفت الناس له .

ووصل عماد الدين زنكى إلى دمشق ، ونازلها فى جمادى الأولى [سنة تسع وعشرين وخمسة] ^(٥) ، وكان لما عبر الفرات أرسل رسلاً فى تقرير

(١) كذا فى الأصل ، وهو فى ابن الأثير : « قراجا » فقط ، ولم أتمكن من ضبط الاسم الثانى .

(٢) هذا يختلف مع تعريف ياقوت للمادية وآشِب ، انظر ما فات ، ص ٥٥ ، هامش هـ .

(٣) فى الأصل : « اخلا » .

(٤) ذكر هذا السبب الآخر (ابن الأثير : ج ١١ ، ص ٨) وخلاصته أن أم شمس الملوك

اتهمت باتصالها بأحد القواد فأزعم شمس الملوك قتلها فأسرعت هى بقتله .

(٥) أضيف ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير للايضاح .

قواعد التسليم ، فأروا الأمر قد فات فسار إلى دمشق فحصرها ، وكان نزوله أولا من شمالها ، ثم انتقل إلى ميدان الحصى^(١) ، وزحف وقاتل ، فرأى قوة ظاهرة وشجاعة عظيمة ، وكان القائم بأعباء هذه الحروب معين الدين أئثر^(٢) مملوك طفتكين ، قام في حفظ البلد قياما مشهودا .

وبينا عماد الدين يحاصر البلد إذ ورد عليه أبو بكر بن بشر الجزدي رسولا من الراشد بالله بن المسترشد ، ليمتوجه إليه وينجده على السلطان مسعود ، ويأمره بصلح صاحب دمشق ، والرحيل عنها ، فصالحهم ، وخطبوا بدمشق للملك ألب أرسلان بن السلطان محمود ، وكانت الخطبة له في جميع بلاد عماد الدين .

ذكر مقتل المسترشد وخلافة الراشد بالله

حكى الأمير مؤيد الدين بدير الدولة أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم ابن الأثيري^(٣) — كاتب الانشاء — قال :

كان وقع بين السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وبين الخليفة المسترشد بالله خلف ، وخرج الخليفة لقتاله مرتين وكُسر ، فلما مات السلطان محمود وولى السلطنة أخوه السلطان مسعود بن محمد ، استطال نوابه بالعراق ، وعارض الخليفة في إقطاعه ، فوكت بينهما وحشة ، فتجهز المسترشد بالله وعزم على الخروج ، وجد في ذلك ،

(١) في الأصل : « الحصا » .

(٢) في الأصل : « أئثر » ، انظر ماقات ص ٩ ، هامش ٤ .

(٣) طاش ابن الأثيري بين سنتي ٤٦٩ و ٥٥٨ (١٠٧٦ — ١١٦٣) ، وأقام كاتبا للانشاء نيفا وخمسين سنة ، وناب في الوزارة ، وبعث رسولا إلى الملك سنجر وغيره ، وكان بينه وبين الحريري صاحب المقامات مكاتبات ومراسلات . انظر ترجمته في : (ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٢٠٦ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٤٧ ؛ وابن تفرى برهى : النجوم ، ج ٥ ، ص ٥٦٤ ؛ والزركلى : الأعلام ، ج ٣ ، ص ٩١٩) ، ولا يعرف عن ابن الأثيري أنه ألف في التاريخ أو غيره ، وأغلب الظن أن هذا الخبر روى عنه شفاها .

فدخل إليه الوزير شرف الدين على بن طراد الزينبي^(١) وكال الدين^(٢) صاحب
الخرن^(٣)، وأنا معهما، وكان المسترشد قد طرد نواب السلطان عن البلاد، ورتب
صاحب الخرن للنظر في المظالم^(٤)، فقال له الوزير شرف الدين: «يا مولانا، في نفس
المملوك [٣٤] شيء، فهل يؤذن له في المقال؟» فقال: «قل»، فقال: «إلى أين
نمضي وبمن نعتصد وإلى من نلتجئ ومقامنا ببغداد أمكن لنا، ولا يقصدنا أحد،
والعراق فيه لنا الكفاية، فإن الحسين بن علي — عليها السلام — لما خرج
إلى العراق جرى عليه ما جرى، ولو أقام بمكة ما اختلف عليه أحد من الناس؟»
فقال لي الخليفة: «ما تقول يا كاتب؟» فقلت: «يا مولانا، الصواب المقام،
وما رآه الوزير فهو الرأي، ولا يقدم علينا أحد، وليت العراق يبقى لنا».

فقال لصاحب الخرن: «يا وكيل، ما تقول؟» فقال: «في نفسي ما في نفس
مولانا». فأنشد الخليفة قول المتنبي:

وإذا لم يكن من الموت بدءٌ فمن العجز أن تموت جيانا
ثم إنه تجهّز وجمع وحصل في خدمته جماعة من أمراء الأتراك، فأعطاهم مالا
عظيما، ثم خرج، وخرجنا معه، فلما قاربنا همدان، وقع المصاف بين الخليفة

(١) هو وزير المسترشد والقتبي، انظر ترجمته في: (ابن طباطبا: الفخرى، ص ٢٧١، ٢٧٥).

(٢) في الفارقي (بهامش ابن القلانسي، ص ٢٥٠): «جمال الدين طالحة».

(٣) لم أذكر على تعريف لهذه الوظيفة، وإنما سمى متواليها في (ابن الساعي: الجامع المختصر)
بصدر الخزن الممور وذكر هناك في أكثر من موضع أنه عند توليها كان يخلع عليه قميص أطلس
نظفي وبقيار بمغربي، ويحمل وراءه ثلاثة أسياف على أيدي مماليك ترك رجالة ويركب في جمع كثير
من حجاب الديوان العزيز وحاشية الخزن الممور (المرجع المذكور ص ١٤٣، ١٤٤، ٢٢٠).
ويبدو من النص هنا أنها كانت وظيفة كبيرة تلي في الأهمية وظيفة الوزارة وكتابة الإنشاء.

(٤) للتعريف بهذه الوظيفة انظر: (الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٦٤، والفتوشندي:
صبح الأعشى، ج ٣، ص ٢٧٧).

المسترشد بالله والسلطان مسعود بن محمد بمكان يسمى وادي مرك (١) — وهو قريب من جبل بهستون (٢) بالقرب من همدان — ، فلما اصطفت العساكر فرًا من معسكرنا جميع الأتراك ، ومالوا إلى ناحية السلطان ، ثم وقع القتال ، فانهزم الخليفة ومن بقي معه ، ونهب عسكره ، وقبض على الخليفة وأرباب المناصب ، وحمل الوزير وصاحب الخزن وأنا ونقيب العلويين إلى قلعة سرجهان (٣) — بالقرب من قزوین والرى — وبقي الخليفة مع السلطان وسار معه في بلاد أذربيجان إلى أن وصلوا إلى مراغة ، وهجم على الخليفة ثلاثة نفر من الملاحدة الباطنية ، وهو في خيمته ، فقتلوه ، وقتلوا معه [أبا عبد الله (٤)] ابن سكينه — وكان يصلى به — ، وذلك يوم الخميس لأربع بقين من ذى القعدة (٥) سنة تسع وعشرين وخمسمائة (٦) .

(١) كذا في الأصل ، وفي (ابن الأثير : ج ١١ ، ص ١٠) : « دايمرج » ولم يرد لها ذكر في ياقوت .

(٢) هكذا ضبطها ياقوت وقال إنها قرية وجبل ، أما القرية فبين همدان وحلوان ، تبعد عن همدان أربع مراحل ، أما الجبل فترتفع ممتنع لا يرتقى إلى ذروته لأنه أملس كأنه منحوت .
(٣) هكذا ضبطها ياقوت وقال إنها قلعة حصينة على طرف جبال الديلم تشرف على قاع قزوین وزنجان وأبهر ، ونس على أنه رآها فوجدها من أحسن القلاع .
(٤) ما بين الحاصرتين عن ابن الأثير وابن الجوزي .

(٥) كذا في الأصل ، وفي (ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٤٩) : (وابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٠) أنه قتل يوم الخميس سابع عشر ذى القعدة .

(٦) انفرد ابن واصل بنقل هذا الحديث — هنا وفيما يلي — عن ابن الأنباري كاتب إنشاء المسترشد ، ولهذا الحديث أهمية خاصة لأن ابن الأنباري كان شاهداً عياناً لهذه الحوادث جميعاً كما أنه شارك فيها ، ولم يرد لهذا الحديث أي ذكر أو إشارة في كل المراجع الهامة التي كتبت عن هذا العصر والتي أشير إليها دائماً في هذه الحواشي ، وهي المنتظم لابن الجوزي ، والكامل لابن الأثير ، والبداية والنهاية لابن كثير ، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ؛ وإنما استطعت أن أحقق أنه نقله عن تاريخ الفارقي ، فقد نقل نصه عنه آمديروز في هوامش كتاب (ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ، ص ٢٥٠ — ٢٥١) وعليه طارحنا نص ابن واصل لتصحيحه ، وقد نص الفارقي على أن هذا الحديث جرى بينه وبين ابن الأنباري ، قال : « ولقد سألت السيد مؤيد الدين أبا عبد الله محمد بن عبد الكريم الأنباري رحمه الله في سنة ٥٣٤ بينداد حين نزلت إليه في هذه السنة عن حال المسترشد والوقعة وما جرى ، فقال رضى الله عنه : إلخ » ثم روى الحديث كما جاء هنا .

قلت (١) : وصل في اليوم الذي قتل فيه الخليفة رسول إلى السلطان مسعود من عمه السلطان سنجر شاه بن ملكشاه — صاحب خراسان — برسالة ظاهرها التقدم إليه بتعظيم الخليفة ورده إلى سرير ملكه ، وباطنها التدمير عليه والراحة منه ، ووردت الملاحظة صحبة الرسول ، فلما قتل الخليفة أظهر [٣٥] السلطان مسعود الجزع العظيم والحزن الكثير ، ودفن الخليفة بمراغة .

ووصل الخبر بذلك إلى العراق ، فحزن الناس عليه حزنا عظيما وبويع بالخلافة ولده الراشد بالله ببغداد ، واستقرت خلافته بها ، ثم قدم السلطان وضرب عنق دُبَيْس ابن مَزِيد صاحب الحلة .

قال مؤيد الدين سرير الدولة بن الأنباري : (لما قُتل الخليفة المسترشد بالله أحضرنا السلطان مسعود — وكان نقيب العلويين قد مات بقلعة مَرْجَهَان ، ودُفن هناك — فلما حضرنا عنده ، قال : « ما الرأي وما التدبير في أمر الخلافة ، ومن ترون ؟ » فقالوا : « يامولانا ، الخلافة لولى العهد — يعنى الراشد بالله — ، وقد يايعه الناس ببغداد ، وجلس واستقر ، وبويع له من قبل قتل أبيه بولاية العهد ، وبويع له الآن بالخلافة » . فقال السلطان : « ما إلى هذا سبيل ، ولا أقره عليها ، فإنه يحدث نفسه بالخروج مثل أبيه المسترشد ، ومن حين تولى أبيه لم يترك الخروج علينا ، كان قد خرج على أخى محمود مرتين ، وعلى مرة ، وهذه أخرى ، وتم عليه ما تم ، وبقيت علينا شناعة عظيمة وسبة إلى آخر الدهر ، فإنه يقال : قتلوا الخليفة ، وهم كانوا السبب في عود الخلافة إلى هذا البيت ، ولا أريد بلى الأمر إلا رجل لا يدخل نفسه في غير أمور الدين (٢) ، ولا يجند ، ولا يجمع ولا يخرج على

(١) هذا تعليق من المؤلف قطع به حديث ابن الأنباري ، وسيعود إليه مرة ثانية .
(٢) هذا نص واضح يدل على مبلغ ما وصلت إليه مكانة الخليفة العباسي في ذلك العهد السلجوقي أن « لا يدخل نفسه في غير أمور الدين » .

ولا على أهل بيتي ، وفي دار الخلافة جماعة ، فاعتمدوا على شيخ منهم صاحب عقل ورأى وتدير ، يلزم نفسه ما يجب من طاعتنا ، ولا يخرج من داره ؛ ولا تُعَرَّجُوا عن هارون بن المقتدي بأمر الله ، فهو شيخ كبير ، ولا يرى الفتنة ، وقد أشار به عمي سَنَجَر .

وكان في دار الخلافة في ذلك الوقت سبعة من أولاد المقتدي بأمر الله ، وهم أعمام المسترشد بالله بن المستظهر بالله بن المقتدي بأمر الله ، وبقى من السبعة من هو حي إلى سنة نيف وخمسين وخمسمائة ؛ وكان في الدار من أولاد المستظهر بالله — أخوة المسترشد بالله — سبعة ، وهم : الأمير أبو عبد الله محمد ، وأبو طالب ، وأبو نصر ، وأبو القسم ، وأبو علي ، وإسماعيل ، ويحيى ؛ ولهم أولاد جماعة ؛ وكان للمسترشد أولاد جماعة ، منهم الراشد بالله ؛ وللراشد نيف وعشرون ولداً ، أكبرهم [٣٦] حملت أمه به وعمر الراشد تسع سنين ، وهذا من أعجب الأشياء ؛ فحكى عن من كان يدخل إلى دار الخلافة ، ويطلع على أسرارهم أن الخليفة المسترشد أعطى لولده الراشد — وعمره أقل من تسع سنين — عدة جوارٍ ، وأمرهم أن يلاعبنه ويمكِّثه من أنفسهن ، وكان فيهن جارية صفراء حبشية ، فحملت من الراشد ، فلما ظهر الحمل ، وبلغ ذلك المسترشد أنكره ، فأحضرها وتهدها ، فقالت : « والله ما تقدم إلى سواه ، وأنه قد بلغ الحلم » ، فسأل عن ذلك بقية الجوارى ، فقلن مثل ذلك ؛ فأمر أن تُحمَل الجارية قطناً ، ثم وطئها الراشد ، فلما قام عنها أخرج القطن والمنى عليه ، وفعل ذلك ببقية الجوارى ، فخرج وعليه المنى ، ففرح المسترشد بذلك ، ووضعت الجارية ابناً ، فسماه المسترشد « أمير الجيش » ، وسر به سروراً شديداً .

وهذا لم يسمع بمثله إلا في الحجاز ، فإنه قيل إن نساء تهامة يَحِضْنَ لتسع ، وتبلغ صبيانها لتسع ، وروى أن عمرو بن العاص كان أكبر من ابنه عبد الله بإثني عشر .

قال ابن الأثير : « وأرسل السلطان مسعود إلى عمه السلطان [سنجر] (١) يستشيريه فيمن يولى الخلافة ، فأرسل إليه يقول : « لا تولى إلا من يضمنه الوزير وصاحب الخزن وابن الأثير » ، فلما وصل السلطان إلى همدان اجتمع بنا ، وأشار بهارون بن المقتدى ، وعرفنا ما أمر به عمه السلطان سنجر ، فقال الوزير : « إذا كان الأمر يلزمنا ، فنحن نولى من نريد ، وهو الزاهد الدّين الذى ليس فى الدار مثله » ، فقال السلطان : « من هو ؟ » فقال : « الأمير أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله » ، فقال : « وتضمن ما يجرى منه ؟ » فقال الوزير : « نعم » ، وكان الأمير [أبو] (١) عبد الله صهر الوزير على ابنته ، فإنها دخلت يوما الدار فى خلافة المستظهر بالله ، فرآها الأمير أبو عبد الله ، فطلب من أبيه تزويجها ، فزوجه بها ، فدخل بها وبقيت عنده ، ثم توفيت ، فقال السلطان : « ذلك إليكم » ، وكتبوا الحال لثلاث أشهر الأمر ، فيقتل الراشد بالله عمه الأمير أبا عبد الله ، ثم رحل السلطان والجماعة نحو بغداد (٢) .

وأما الراشد فإنه لما بويغ له ببغداد بالخلافة [٣٧] بعد مقتل أبيه المسترشد بالله . أرسل إلى الأمير عماد الدين زنكى بن آق سنقر يستدعيه لنجدته ، وضمن له أن يكون السلطنة والملك للملك ألب أرسلان بن محمود بن محمد بن ملكشاه الذى عند أتابك ، وأن تكون أتابكية السلطنة والخلافة بحكم عماد الدين ، فوردت الرسالة على عماد الدين زنكى بذلك ، وهو بظاهر دمشق محاصرها ، وبها شهاب الدين محمود بن بورى ، فصالحه عماد الدين زنكى ، ورحل عنها ، ووصل إلى حماة ، وبها شمس الخواص اليتاش (٣) — نائب صاحب دمشق — وكان قد نزع يده من طاعة صاحب دمشق ،

(١) ما بين الحاصرتين عن الفارق (ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٥١ ، الهامش) .

(٢) بهذا اللفظ ينتهى حديث ابن الأثير كما رواه الفارق وعنه ابن واصل .

(٣) كذا فى الأصل ، وهو فى (ابن القلانسي ، ص ٢٤٨) : « شمس الخواص » فقط .

فالتجأ إلى عماد الدين ، فقبض عليه عماد الدين ، وأخذ منه حاة ، وسلمها إلى صاحبه صلاح الدين الياغيساني ، فاستناب فيها ولده شهاب الدين أحمد .

ثم توجه عماد الدين زنكي إلى بغداد لنصرة الراشد بالله ، وورد إلى بغداد جماعة من ملوك الأطراف متفقين على قتال السلطان مسعود ، ونصرة الراشد ، وهم : السلطان داود بن محمود (١) بن ملكشاه — صاحب أذربيجان — ، وبرنقش — صاحب قزوین — ، والبقش الكبير — صاحب أصفهان — ، وصدقة بن دبئس — صاحب الحلة — الذي قتل السلطان أباه دبئساً ، ومعه عنتر بن أبي العسكر ، يدبره — لصباه — وورد أيضاً ابن الأحمدي ، وانضاف إلى هؤلاء مقدمو (٢) عساكر بغداد ، وهم : كج أبه ، وطرنتاي ، وغيرهما ، واضطربت بغداد ، ونقلوا أموالهم إلى دار الخلافة .

وأمر الخليفة أن يخطب بالسلطنة بعده للسلطان داود ، وتحالف الخليفة والسلطان داود والأمير عماد الدين زنكي ، وأرسل الخليفة الراشد إلى عماد الدين ثلاثين (٣) ألف دينار ، ووصل بعد ذلك سلجوق شاه بن محمد — أخو السلطان مسعود — إلى واسط ، وقبض على الأمير بك أبه ، ونهب ماله ، فأنحدر إليه عماد الدين زنكي ، فدفعه عنها ، ثم اصطالحا ، وعاد عماد الدين إلى بغداد .

(١) في الأصل : « محمد » والصحيح ما ذكرناه .

(٢) في الأصل : « مقدمين » .

(٣) في (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٤) : « مائتي ألف دينار » . ولاحظ أن نص

ابن واصل يسوء فيتفق ونص ابن الأثير ، وأغلب الظن أن المؤرخين ينقلان عن الفارق .

ذكر قدوم السلطان محمود بن مسعود بن محمد إلى بغداد

وهروب الراشد بالله وعماد الدين زنكي إلى الموصل

ثم عبر الأمير عماد الدين زنكي إلى خراسان ، وحث على جمع العساكر للقاء السلطان مسعود ، وسار السلطان داوود [٣٨] نحو طريق خراسان ، وأظهر أنه يمضي إلى مراغة ، ثم عاد عماد الدين إلى بغداد ، ^(١) وبرز الراشد بالله إلى ظاهر بغداد أول شهر رمضان سنة ثلاثين وخمسمائة ، وسار على طريق خراسان ثلاثة أيام ، ثم عاد ونزل عند جامع السلطان ، ثم دخل بغداد ، وراسل العسكر وسائر الأمراء ، وأمرهم بالعود ، فعادوا ، ونزلوا في الخيام ، واتفقت كلمتهم على قتال السلطان مسعود .

ثم قدم السلطان مسعود في العساكر الكثيرة إلى بغداد ، ونزل بالملكية ، وشارف بعض العسكر البغدادى عسكره ، وطاردهم ، ثم نزل السلطان بغداد ، وحاصرها نيفا وخمسين يوماً ، فلم يظفر بطئيل ، فعاد إلى التهروان عازماً على العود ، فوصله طرنتاي — صاحب واسط — ، ومعه سفن كثيرة ، فعاد إليها ، وعبر إلى غربي دجلة ، واختلفت كلمة العساكر الذين ببغداد ، وعاد السلطان داوود إلى بلاده .

ولما أحس الخليفة الراشد بالله بقوة السلطان مسعود ، وعلم أنه لا بد أن يولى الخلافة غيره جمع الأمراء من أهل بيته — الذين هم في الدار — ، وجمعهم في سرداب ،

(١) هنا تبدأ نسخة س ، فقد نص كاتبها على أنه سيبدأ الكتاب بالتأريخ لحوادث سنة ٥٣٠ هـ ، غير أن نص س في أوله مختصر كثيراً عن نص ك . وفيما يلي نص السطور الواردة في (ا ب) من نسخة س وهي القابلة لفقرة المذكورة هنا بين الرقبن : « سنة ثلاثين وخمسمائة ، وما وقع فيه (كذا) من الحوادث والاختبار : استهلك هذه السنة والخليفة هو المقتي بأمر الله ابن المستظهر بالله ، وسلطان الوقت هو السلطان مسعود زنكي (كذا) ؛ قال بدر الدين بن الأنباري : « في هذا العام برز الراشد بالله لظاهر بغداد ، وسار على طريق خراسان ثلاثة =

وتقدم بأن يطبق عليهم ؛ فحكى أبو القاسم^(١) على — المعروف بحاجب الباب^(٢) — :
 « أنه لما جمعهم الراشد في السرداب استدعاني ، وأشار إلى سيف بين يديه ، وقال :
 « يا علي ، خذ هذا السيف » وأخذ بيده سيفاً آخر ، وقال : « إحدرك أن يسبق سيفي
 سيفك ، فإني أريد أن أخرج كل من في السرداب ، وأقتل الجميع ، حتى لا يبقى
 من يصلح للخلافة ، فإن هؤلاء ربما دخلوا وولوا غيري » ؛ ثم أمر بفتح السرداب ،
 وإذا الخبر قد جاءه أن عماد الدين أتابك زنكي قد هرب ونهب الحرم الطاهري^(٣) ،
 وتوجه إلى الموصل ، فرمى السيف من يده ، ودخل الدار ، وأخرج معه من الجواهر
 ما لا يعرف قيمته ، وأعطاني مثل ذلك ، وأخرج معه [قاضي القضاة^(٤)] الزينبي ،
 وجلال الدين أبا الرضا بن صدقة ، — وكان قد استوزره — وخرجتُ معه ، ولحقنا
 بعماد الدين زنكي على طريق الموصل ، ووصل الراشد ، وصحبته عماد الدين زنكي
 إلى الموصل .

— أيام ، وزجع ثانياً ، وكاتب الماسكر ، وأمرهم فنادوا ، وجاء السلطان مسعود إلى بغداد
 وحاصرها سبع (كذا) وخمسين (؟) ، ثم رجم إلى النهر وان واستعد ، وطادوفل بها الدجب ،
 فلما أحس به الراشد ، قام وجمع الأمراء في سرب (كذا) وقتلهم ، قال أبو القاسم الفاروق
 بحاجب الباب : « وكنت عنده إذ ذاك — فأحلفني ، ومضيت إلى منزلي ، وأرسل ثانياً وطلبني »
 وقال : أما تدري أن المقتي غلباً في بيت الرجل لذي كان عندنا ؟ »

هذا هو نص س المقابل لهذه الفقرة هنا ، والفرق واضح بينهما إيجازاً وتصيلاً ، وبنيابة
 النص تنتهي س (اب) ، وهناك سقط بينها وبين أول س (١٢) فان الذي غير متصل ،
 أنظر مايلي ، ص ٦٩

(١) مما يؤكد ترجيحنا السابق أن تاريخ الفارقي هو الرجم الذي يأخذ عنه كل من ابن
 الأثير وابن واصل أن هذه القصة لم ترد في ابن الأثير ، وإنما نقلها آمدرود عن الفارقي
 في (ابن اللاتني : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٥٩ — ٢٦١ ، الهوامش) . ولقد نص الفارقي
 على أن هذه القصة مما حدثه به زين الدولة أبو القاسم على حاجب الباب .

(٢) في الأصل : « الظاهري » وفي الفارقي (الطاهر) ؛ وما هنا عن (ياقوت : معجم
 البلدان) حيث ذكر أنه بأعلى مدينة السلام بغداد في الجانب الغربي ، منسوب إلى طاهر بن الحسين .
 وبه كانت منازلهم ، وكان من لجأ إليه آمن ، فلذلك سمى الحرم وكان أول من جعلها حريماً
 عبد الله بن طاهر بن حسين .

(٣) ماين الحاصرتين عن الفارقي .

ذكر البيعة بالخلافة

للمقتنى لأمر الله بن المستظهر بالله

[٣٩] قال مؤيد الدين بن الأثير^(١) . كاتب الانشاء : — « لما كان هذا اليوم — وهو يوم الأحد سابع عشر^(٢) ذى القعدة — من هذه السنة — أعني سنة ثلاثين وخمسمائة — مضى الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي إلى دار السلطان ونحن معه ، وأخذ السلطان خط الوزير وخطوطنا بالضم ، ثم صرنا إلى دورنا ، وأصبحنا يوم الاثنين فحضرنا عند الأمير أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله ، وتحدث الوزير معه ، وتحدثنا معه ، وشرطنا عليه القيام بأمر الخلافة وطاعة السلطان ، وأعلمناه أننا قد ضمنا للسلطان جميع ما اقترحه علينا ، فرضى بذلك ، وانفصلنا عنه ، ومضينا إلى السلطان ، وأعلمناه ما جرى ، وأنه رضى بما اشترطنا عليه ، فقال السلطان : « إذا كان كما قلتم فبايعوه » ، فلما كان الغد صعدنا إلى الدار فأخرجنا منها أشياء من الآلات التي تصلح للفناء ، وأشياء لاتليق ، وشهد جماعة من أهل الدار أن الراشد كان يشرب الخمر ، فأفتى العلماء بخلمه ، وحكم القضاة بذلك ، فخلعوه من الخلافة .

ودخلتُ إلى الأمير عبد الله محمد ، أنا والوزير وصاحب الخزن ، وتحدثنا معه ، وناولته رقعة^(٣) مما يلقب به ، فكان فيها : المقتنى بأمر الله ، والمستضى بنور الله ،

(١) هذا الحديث منقول أيضاً عن الفارق .

(٢) في الفارق : « طائر ذى القعدة » ، وهو خطأ واضح لأنه قال بعد ذلك : « وأصبحنا يوم الاثنين سابع عشر ذى القعدة . . » .

(٣) الفارق : « رقعة فيها ما يسمى به من القتب » .

والمستجير بالله^(١)، فقال الخليفة : « ذلك إليكم » ، ثم قال لى الخليفة : « ماذا ترى ؟ »
 فقلت : « المقتنى لأمر الله » فقال : « مبارك » ثم مد يده ، فأخذها الوزير وقبلها ،
 وقال : « بايعتُ سيدنا ومولانا الإمام المقتنى لأمر الله أمير المؤمنين على كتاب الله
 وسنة رسوله — صلى الله عليه وسلم — واجتهاده » ، ثم أخذها صاحب الخزن وقبلها ،
 وبأيه على مثل ذلك ، ثم أخذت يده ، وقلت بعد أن قبلتها : « بايعتُ سيدنا ومولانا
 الإمام المقتنى لأمر الله أمير المؤمنين على ما بايعت عليه أباء وأخاء وابن أخيه فى ولاية
 عهده — ، وكنت بايعت الإمام المستظهر بالله لما خدمته فى وكالة الدار سنة اثنتين^(٢)
 وتسعين وأربعمائة ، وبقيت إلى سنة سبع وخمسمائة^(٣) وبايعت المسترشد ، وبايعت
 الراشد بولاية العهد — [٤٠] قال : ثم قمت من عنده ، ودخل أمراء الدار وبايعوه ،
 ودخل العلماء والقضاة والفقهاء وأكابر الناس أجمع فبايعوه ، ثم حضر السلطان مسعود
 عنده ، وكلمه المقتنى بالله بكلام وعظه فيه وعرفه ما يلزمه من طاعة الخلافة ،
 وأمره بالرفق بالرعية ، والإحسان إليهم ، وخوفه عاقبة الظلم ، فبايعه السلطان ،
 وقبل يد الخليفة ، ورجع إلى دار السلطنة .

وأما الراشد بالله فإنه أقام بالموصل مع عماد الدين أتابك زنكى ، والخطبة
 بالموصل وسائر بلاد عماد الدين للراشد بالله ، ثم أرسل عماد الدين زنكى إلى بغداد
 القاضى كمال الدين محمد بن عبد الله بن الشهرزورى وصحبته رسول الراشد بالله ،
 فأما رسول الراشد فلم تسمع رسالته ، وأما كمال الدين فأحضر فى الديوان وصممت رسالته ،

(١) كذا فى الأصل ، وفى الفارق : « والمستجد بالله » .

(٢) الفارق : « سنة ٩٠ » فقط .

(٣) فى الأصل : « وخمسين » والتصحيح عن الفارق .

فُحِى عن كمال الدين (١) أنه قال : « لما حضرت الديوان قيل لى : « تبائع أمير المؤمنين ؟ » فقلت : « أمير المؤمنين عندنا بالموصل (٢) ، وله فى أعناق الخلق بيعة متقدمة » . وطال الكلام وعدت إلى منزلى ، فلما كان الليل جاءتنى امرأة عجوز سرّاً (٣) ، فاجتمعت بى وأبانتنى رسالة عن الخليفة المتتقى لأمر الله ، مضمونها (٤) عتابى على ما قلت ، واستنزالى عنه ، فقلت : « غداً أخدم (٥) خدمة يظهر أثرها » ، فلما كان الغد أحضرت (٦) الديوان ، وقيل لى فى معنى البيعة ، فقلت : « أنا رجل فقيه قاضى ، ولا يجوز لى أن أبائع لخليفة إلا أن يثبت عندى خلع المتقدم » . فأحضروا الشهود وشهدوا عندى بالديوان بما أوجب خلعهم ، فقلت : « هذا ثابت لا كلام (٧) فيه ، ولكن لا بد لى فى هذه الدعوة من نصيب ، لأن أمير المؤمنين قد حصل له خلافة الله فى أرضه ، والسلطان قد استراح ممن كان يقصده ، فنحن بأى شيء نمود ؟ » فرفع الأمر إلى الخليفة فأمر أن يُقطع عماد الدين زنكى صريفين (٨)

(١) هذا الحديث يرويه ابن واصل عن ابن الأثير ، فقد ذكره الأخير مروياً عن أبيه حيث قال (ج ١١ ، ص ١٧) : « حكى لى والدى عنه — أى عن كمال الدين — » .
(٢) عند هذا اللفظ يبدأ الاتفاق ثانياً بين نصي (س) ، (ك) ، فان ص (١٢) من نسخة س تبدأ بهذين اللفظين : « عندنا بالموصل ... الخ » ، ويلاحظ هنا أيضاً أن الخلاف لا زال واضحاً بين نصي النسختين ، فان ما هنا — أى نصي ك — منفصل ، وما فى س ما يخص عنه .
(٣) فى (س) : « شريفة » ، وما هنا هو الصحيح لاتفاقه مع نص ابن الأثير وهو المرجع الذى ينقل عنه المؤلف هذا الحديث .
(٤) فى (س) : « تتضمن » وهذا مثل يدل على الطريقة التى يتبعها كاتب هذه النسخة عند الاختصار .

(٥) فى (س) : « أخدمه » ، وما هنا هو الصحيح لاتفاقه مع ابن الأثير .
(٦) فى (س) : « أحضرت إلى الديوان » ، وفى (ابن الأثير) : « حضرت إلى الديوان » .
(٧) فى (س) : « لا كلام لأحد فيه ولا بد » ، وما هنا يتفق ونص ابن الأثير .
(٨) فى (س) : « مدرّس » بدل نقط ، وصريفين — أو صريفون كما رسمها ياقوت — فى سواد المراق فى موضعين : أحدهما قرية كبيرة قرب عكبراء وأرانا على ضفة نهر دجيل والثانية من قرى واسط ، أنظر (ياقوت : معجم البلدان) .

ودرب^(١) هرون وحزمي^(٢) مالكا — وهي من خاص الخليفة — وأمر بأن يزاد في ألقابه^(٣) ، وقال : « هذه قاعدة لم يسمح لأحد بها من زعماء الأطراف أن يكون له نصيب [٤١] في خاص الخليفة » .

فبايعت وعدت مقضى الحوائج ، وقد حصلت^(٤) على جملة صالحة من الأموال والتحف ، وكانت بيعة القاضي كمال الدين للخليفة المقتنى لأمر الله^(٥) سنة إحدى وثلاثين وخمس مائة .

ولما عاد كمال الدين [الشهرزوري]^(٦) سُيِّر على يده المحضر بخام الراشد ، فحكم به قاضى القضاء الزينبي بالموصل — وكان عند عماد الدين^(٧) — وخطب للمقتنى بالموصل وسائر البلاد العمادية ، ثم فارق الراشد بالله الموصل ، وسار نحو الري ، ثم توجه نحو همدان ، ولم تزل الأحوال تتراعى به إلى أن عرض له مرض شارب به التلف ، ثم وثب عليه جماعة من الباطنية في يوم الثلاثاء سادس شهر رمضان سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة ، فقتلوه ودفن بشهرستان في جامعها^(٨) .

(١) في الأصل : « وصرف » والتصحيح عن (ابن الأثير) ، (س) ، هذا ولم يوفق الناشر لتحقيق موضع هاتين المهمتين ، وإنما عاد ابن الأثير إلى ذكرهما مرة ثانية في حوادث سنة ٥٦٨ هـ ، وذلك في (ج ١١ ، ص ١٤٨) ، قال : « وبها أرسل نور الدين محمود رسولا إلى الخليفة ... يطلب تقليدا بما بيده من البلاه ... وأن يهطى من الاقطاع بسواد العراق ما كان لأبيه زنكى وهو : صريفين ودرب هارون ، والتمس أرضا على شاطئ دجلة يبنها مدرسة للشافعية ويوقف عليها صريفين ودرب هارون .. » .

(٢) كذا في الأصل ، وفي (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٧) : « وجرى ملكا » وفي (س) : « وحرص مالكا » .

(٣) في (ابن الأثير) : « ويزداد في ألقابه » وفي (س) : « وأمر أن يزاد في القاب » .

(٤) في (س) : « خلصت » .

(٥) في الأصل : « بالله » وما هنا عن (س) وهو الصحيح .

(٦) ما بين الحاصرتين عن : (ابن الأثير) .

(٧) هنا ينفصل ابن الأثير عن ابن واصل ، ويورد تفاصيل مختلفة عن حوادث أخرى .

(٨) ورد تاريخ قتل الراشد في نسخة (س) متأخراً عن الخبر ومكان الدفن ، وهو هنا متقدم .

وفي (١) سنة إحدى وثلاثين وخمسة نازل عماد الدين دَقُوقًا (٢) وملكها
بعد أن قاتل على قلعتها قتالاً شديداً .

منازلة عماد الدين مدينة حمص (٣)

قد ذكرنا أن حمص كانت لصمصام الدين خترخان بن قراجا، وأن عماد الدين
قبض عليه سنة أربع وعشرين وخمسة، وحبسه في قلعة حلب، ثم نقله إلى الموصل
فحبسه بها، وقتل في الحبس سنة تسع وعشرين وخمسة، فولى حمص بعده
ولده عين الدولة إيلخان (٤) بن خترخان، والمدير لأمره اسباسلار خرتاش
— مملوك أبيه — .

ولما كان في سنة ست وعشرين وخمسة وثب على عين الدولة مملوكه [ومملوك
أبيه (٥)] يزغش قتلته، وكان بالقلعة زوج لجارية خترخان، ومعه ابن لخترخان،
قتل يزغش، وأجلس في الأمر قریش بن خترخان (٦)، والمدير لأمره اسباسلار
خرتاش، ثم سلم خرتاش حمص الأمير شمس الملوك إسماعيل بن بوری — صاحب
دمشق — وأخذ منه عوضاً اقترحه عليه، فلما قُتل شمس الملوك، وولى أخوه

(١) قبل هذا الخبر في (س) ورد هذان اللفظان : « قال الراوى » دون أن يحدد من
هو وأغلب الظن أن كاتب نسخة (س) كتبها بالاملاء عن غيره، وأن هذين اللفظين كانا من
مستلزمات المولى .

(٢) في الأصل : « دقوقا » وقد ضبط اللفظ بعد مراجعة ياقوت حيث ذكر أنها مدينة
بين إربل وبغداد .

(٣) هذا العنوان غير موجود في (س) والكلام هناك متصل .

(٤) رسم هذا اللفظ في الأصل هكذا : « أى لخان » وهو في (س) : « أبى طان » .

(٥) ما بين الحاصرتين عن : (س) ص ٢ ب .

(٦) في الأصل : « ختلخان » ، والتصحيح يقتضيه النص .

شهاب الدين محمود بن بوري^(١) سلم حصص للأمير معين الدين أنر^(٢) — مملوك جده طغتكين — ، فلما كانت هذه السنة — سنة إحدى وثلاثين وخمسة — توجه الأمير عماد الدين من الموصل إلى حصص ، وحصرها ، وقبل وصوله إليها نازلها حاجبه [٤٢] الأمير صلاح الدين محمد بن أيوب الباغيساني — صاحب حماة ، وهو أكبر أمراءه — ، وكان ذا مكر وحيل ، أرسله عماد الدين^(٣) ليتوصل مع من فيها ليسلموها إليه ، فوصل إليها وفيها الأمير معين الدين أنر^(٢) — وهو أكبر أمراء دمشق وإقطاعه حصص — ، فلم ينفذ فيه مكره ، ثم وصل عماد الدين فحصرها ، وعاد معين الدين في تسليم البلد غير مرة ، تارة بالوعد وتارة بالوعيد ، فاحتج بأنها ملك شهاب الدين ، وأنها بيده أمانة لا يسلمها إلا عن غلبة^(٤) ، فأقام عليها إلى العشرين من شوال ، ثم رحل عنها من غير بلوغ غرض .

ذكر فتح قلعة بارين^(٥) وكسر الفرنج — لعنهم الله —

ثم سار الأمير عماد الدين من حصص ونازل بارين — وهي للفرنج بالقرب من مدينة حماة — ، وزحف إليها ، فحشد الفرنج فارسهم وراجلهم ، وساروا إلى عماد الدين

(١) هذه الفقرة السابقة لهذا الرقم كلها استطراد من ابن واصل لتفصيل هذه الحقبة من تاريخ حصص ، وهو استطراد هام للغاية إذ لا يوجد له شيء في كل المراجع التي تؤرخ لهذا العصر . وهذه ميزة لابن واصل ولكتابته فقد اعتاد أن يقف طويلاً وأن يتحدث تفصيلاً كلما ورد ذكر مدينة من مدن الشام النهائية ، وخاصة المدن الهامة الثلاثة : حماة — وطنه الأصلي — وحمص ، وحلب .

(٢) في الأصل : « أنر » أنظر ما فات هنا ، ص ٩ ، هامش ٤

(٣) في (س) : « عماد الدين إليها ليسلموها » ، وما هنا يتفق ونص ابن الأثير

(ج ١١ ، ص ١٩)

(٤) في (س) : « عن إذنه » وما هنا يتفق ونص ابن الأثير .

(٥) في الأصل : « بارد بن » وهو خطأ ، والتصحيح عن : (س) و (ابن الأثير) ؛

أنظر أيضاً النص فيما يلي . وهي في (ابن الأثير ، ج ١١ ص ٢٠) : « بمرين » ؛ والريمان صحيحان ، وإنما بمرين هو ما تستعمله العامة ، وبارين تقع بين حماة وحلب ، (ياقوت : معجم البلدان) .

في ملوكهم وقامصتهم (١) وكنودهم (١) ليرحلوه عن بارين فلقبهم وقاتلهم أشد قتال ، وصبر الفريقان ، فهزم الفرنج ، وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب ، فاحتس ملوكهم وفرسانهم بحصن بارين — لتربه منهم — ، فحصرهم المسلمون ، ومنع عماد الدين منهم كل شيء ، وتغذرو وصول الأخبار إليهم ، ودخلت القسوس والرهبان بلاد الروم والفرنج وما والاها من بلاد النصرانية ، مستنصرين على المسلمين ، وأعلموهم أن زنكي إن أخذ حصن بارين ومن فيها من الفرنج ملك جميع بلادهم في أسرع وقت لعدم المحامي عنها ، وأن همة المسلمين مصروفة إلى فتح بيت المقدس ، فحشدت النصرانية وجمعت ، وقصدوا الشام مع ملك قسطنطينية .

وجد عماد الدين في حصار بارين ، وعدمت عندهم الذخائر حتى أكلوا الدواب ، فأذعنوا بالتسليم ليؤمنهم ليعودوا إلى بلادهم ، فلم يجبههم [إلى ذلك (٢)] فلما سمع بقرب ملك الروم واجتماعه بمن بقي من الفرنج أعطاهم الأمان ، وتسلم منهم الحصن ،

(١) يتردد ذكر « القومس » كثيراً في الكتب العربية التي أرخت للحروب الصليبية كالـ: ضنين لابي شامة والكامل لابن الأثير . وهو تعريب حرفي لفظة اللاتينية « Comes » أي الأمير ، ومعناها الأصلية في اللاتينية « الرفيق » لأنه كان في بادئ الأمر يرافق الملك في حروبه وتقلباته ، ثم سمي بالأمير ، وقد تختلف الراجع في رسم هذا اللفظ ، فهو القمس ، أو القومس أو القمس ، أو القومس ، وم تارة يؤثثونه فيقولون : القومصية ، أو القومصة ، وكما اختلفت الراجع في رسم المفرد اختلفت أيضاً في رسم الجمع ، فهو عندهم : قامس ، وقامسة ، وقامصة ، وقوامس ، ولفظة (Comes) هي التي حورت في لانة الفرنسية إلى (Comte) وهذه هي ما اعتادت بنفس الراجع أن تعربها إلى « كند » ، واختلفوا في رسم هذا اللفظ أيضاً فهو عندهم : كند ، وقند ، وم يجمعونهم على كنود . وهو عين اللفظ الذي اعتاد الكتاب المحدثون أن يسموه هكذا « كنت » أو « كونت » ، ومعنى اللفظين واحد وهو الأمير ، وإنما الأول مأخوذ عن اللاتينية (Comes) والثاني عن الفرنسية (Comte) أنظر : (الأب انستاس ماري الكرملي : ألقاب الشرف والتعظيم عند العرب ، مجلة الرسالة ، العدد ٤١١ ، ١٩ مايو سنة ١٩٢١) .

(٢) ما بين الحاصرتين عن (س) و (ابن الأثير) .

وقرر عليهم خمسين ألف دينار [٤٣] يحملونها^(١) إليه ، ووقت الإجابة إلى ذلك ، فلما طارقوا الحصن وتحققوا خروج ملك الروم لنصرتهم ندموا حيث لم ينفعهم الندم^(٢) .

ذكر فتح المعرة وكفر طاب

وفي مدة حصار بارين تسلم عماد الدين — رحمه الله — المعرة وكفر طاب من الفرنج^(٣) ، وكان الضرر ياحق المسلمين بالفرنج الذين فيها لتوسطهما البلاد الإسلامية^(٤) ، ولقد سلك الأمير عماد الدين من العدل في أهل المعرة لما استنقذها من الفرنج طريقة لم يسلكها أحد قبله ، سمعت^(٥) والدي — رحمه الله — يقول — ونحن بالبيت المقدس سنة ثلاث وعشرين وستمائة ، وكان الملك المعظم شرف الدين عيسى بن أبي بكر بن أيوب قد قدم إليها فاجتمع به والدي بالحرم الشريف — قال : « سألتني اليوم الساطقان الملك المعظم : هل كان للمعرة سور ؟ قلت : « نعم » ، قال : « فمن هدمه ؟ » قلت : « أتأبى زنى لما ملك المعرة واستنقذها من الفرنج » ، ثم ذكرت له عدل أتأبى زنى ، وقلت له : إنه كان حنفي المذهب ، ومن مذهب أبي حنيفة — رحمه الله — أن الكفار إذا استولوا على بلد وفيه أملاك للمسلمين خرجت تلك الأملاك عن ملك أصحابها^(٥) لصيرورة البلد دار حرب^(٥) ، فإذا عاد البلد

(١) في الأصل : « يحملوها » وما هنا عن : (س) و (ابن الأثير) وهو الصحيح .

(٢) هذه الحوادث رواها ابن الأثير أكثر تفصيلاً ، والنصان متفقان في اللفظ في أكثر

من موضع .

(٣) نص (س) يختلف عما هنا بعض الشيء وهو : « وكان الضرر بالفرنج الذين نهجا

على المساهين عظمها لتوسطهما البلاد الإسلامية » .

(٤) هذه فقرة من الفقرات الكثيرة الهامة التي يشير فيها ابن واصل إلى أبيه وإلى نفسه ،

ومن هذه الفقرات استطعنا أن نعرف الشيء الكثير عن حياة ابن واصل وحياة أبيه مما لم تتضمنه

كتب التراجم .

(٥) هذه الجملة ساقطة من (س) .

بعد ذلك إلى المسلمين كانت تلك الأملاك لبيت المال ، فلما فتح أتابك المرة جاءه (١) المعريون يطلبون تسليم أملاكهم إليهم ، فاستفتى أتابك الفقهاء [على] (٢) ذلك ، فافتود بما يقتضيه مذهبهم ، وهو أن الأملاك لبيت المال ، ولاحظ لأصحابها فيها ، فقال رحمه الله : إذا كان الفرنج يأخذون أملاكهم (٣) ، ونحن نأخذ أملاكهم ، فأى فرق بيننا وبين الفرنج ؟ كل من أتى (٤) بكتاب يدل على أنه مالك لأرض فليأخذها ، فرد إلى الناس جميع أملاكهم ، ولم يعترض لشيء منها . وقال : « فاستحسن [السلطان] (٥) الملك المعظم هذه الفعلة » . قلت (٦) : وأما ابن الأثير (٧) فإنه في تاريخه روى ذلك على غير هذه الصورة ، وقال : « إن الفرنج لما ملكوا المرة أخذوا أملاك أهلها ، فلما فتحها [عماد الدين] (٨) زنكى ، حضر من بقى من أهلها ومعهم أعقاب من هلك ، فطلبوا [٤ ٤] أملاكهم ، فطلب منهم كتبها ، فقالوا : إن الأفرنج أخذوا كل ما لنا ، وذهبت الكتب التى للأملاك (٩) ، فقال لأصحابه : « اطلبوا دفاتر ديوان حلب ، فكل من عليه خراج على ملك يسلم إليه » ، ففعلوا ذلك ، وعاد الناس إلى أملاكهم (١٠) ، وهذا من أحسن الأفعال وأعدلها » — رحمه الله وقدس روحه — .

(١) فى الأصل : « جاءوا » وما هنا عن س .

(٢) ما بين الحاصرتين عن (س) .

(٣) فى (س) : أملاكهم ولا نرد ما نحن ، فأى فرق ... الخ .

(٤) فى الأصل : « أنا » بالألف .

(٥) ما بين الحاصرتين عن (س) .

(٦) مكان هذا اللفظ فى س : « قال صاحب الكتاب القاضى جمال الدين بن واصل قاضى

القضاء بحماه » .

(٧) هذا مثل من أمثلة كثيرة ستأتى فيما بعد تدل على أن ابن واصل لم يكن يقنع بالرواية

الواحدة حتى ولو كان راويها أبوه نفسه ، بل كان يقارن بين روايات المؤرخين المختلفين كلما وجد

خلافاً بين هذه الروايات .

(٨) ما بين الحاصرتين عن (س) و(ابن الأثير : الكامل ، ج ١٩ ، ص ٢٠) .

(٩) نص ابن الأثير : « كل ما لنا والكتب التى للأملاك فيها » .

(١٠) نص ابن الأثير : « وأعاد على الناس أملاكهم » .

ذكر خروج ملك الروم إلى بلاد الإسلام

لما مضت القسوس والرهبان إلى بلاد الروم واستنفروهم على المسلمين بسبب عماد الدين ومنازلته بارين ، وخوفوهم من أخذها واستئصال من فيها ، فتجهز الروم وركبوا في البحر من قسطنطينية ، وساروا إلى أنطاكية ، وهي لهم يومئذ ، فأرسوا بها منتظرين المراكب التي فيها الأثقال والسلاح ، فلما وصلت ساروا إلى مدينة نيقية فنارلوها وحاصروها ، ثم صولحوا على مال يؤدي إليهم ، ثم ساروا إلى مدينة أذنه والمصيصة ، — وهما لابن ليون^(١) الأرميني — فحصرهما ملك الروم وملكهما ، ثم نازل عين زربي^(٢) ، فملكها عنوة ، وملك تل حمدون ، وحمل ملك الروم أهله إلى جزيرة قبرس ، ثم وصل إلى الشام فحصر مدينة أنطاكية في ذي القعدة من هذه السنة — أعني سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة — ، وضيق على أهلها ، وبها يميند الأفرنجي ، ثم اصطلحا ، ورحل إلى بغراس ، ثم دخل بلد ابن ليون ، فبذل له ابن ليون مالاً ، ودخل في طاعته .

ذكر استيلاء عماد الدين على حمص^(٣)

ولما فرغ عماد الدين من بارين سار إلى حماة ، ثم سار إلى بقاع بعلبك ، فملك حصن المجدل — وهو لصاحب دمشق — وأطاعه مستحفظ بانياس

(١) هو ليون الثاني Lion II ملك أرمينية في تلك السنة . وتسببه مراجع المعصر العربية أيضاً « ابن لاون » ، أنظر : دائرة المعارف الإسلامية ، مادة « أرمينية » .

(٢) في الأصل : « عين زربة » ، وفي س « عين زربة » ، وفي (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٠) : « عين زربة » والتصحيح من معجم البلدان لياقوت حيث عرفها بأنها بلد بالشعر من نواحي المصيصة ، ثم ذكر أنها بقيت بيد المسلمين إلى أن استولى عليها الروم في أيام سيف الدولة الحمداني ، ثم قال : « وهي في أيديهم إلى الآن ، وأهلها اليوم أرمن ، وهي من أعمال ابن ليون » .

(٣) هذا العنوان غير موجود في س .

— وهي لصاحب دمشق أيضاً^(١) — ، ثم سار إلى حمص فحصرها ، فلما نازل ملك الروم حلب — على ما تذكره — رحل عن حمص ونزل على سلمية ، ثم نزل على حماة — على ما تذكره — ، فلما انحلت قضية الروم عاد إلى حمص فنزلها ، ثم وقعت بينه وبين شهاب الدين [صاحب دمشق^(٢)] مراسلة ، فانتهى الأمر إلى الصلح ، وسلم إليه حمص ، وخطب زمرد خاتون — أم شهاب الدين^(٣) — [٤٥] وهي التي ذكرنا أنها قتلت ولدها شمس الملوك ، وزفت إليه في رمضان سنة اثنين وثلاثين وخمسةائة واعتقد [عماد الدين] أنه إذا تزوجها كان ذلك طريقاً إلى تملكه دمشق ، فلما لم يحصل له ذلك أعرض عنها .

ذكر منازلة الروم حلب ثم شيزر^(٤)

ثم لما صالح ملك الروم ابن ليون قصد بزاعة^(٥) فحصرها ، فبصر عماد الدين جماعة من العسكر إلى حلب لينضموها من الروم إن قصدوها ، ثم ملك الروم بزاعة

(١) هذه الجملة في س مضطربة الألفاظ والمعنى ، ونصها : « وأطاعه وهو مستعظم بإياس وهو لصاحب دمشق أيضاً » .

(٢) أضفنا ما بين الحاصرتين من : (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢١) وذلك للإيضاح .

(٣) هذان المظان لم يذكر في س ، وقد أضاف ابن الأثير لتعريف بهذه السيدة قوله : « وهي التي بنت المدرسة بظاهر دمشق المطلة على وادي شقرا ونهر بردى » .

وهذه المدرسة هي المعروفة باسم « المدرسة الخاتونية البرانية » ، بنتها العنيفة ، وأوقفت عليها الأوقاف في سنة ٥٢٦ ؛ وزمرد خاتون هي صفوة الملوك ابنة الأمير جباري ، أخت دقاق لأمه ، وزوجة تاج الملوك بوري ، وأم ولديه : شمس الملوك إسماعيل ، ومحمود ، وقد تزوجها فيما بعد أتابك عماد الدين زنكي ، فبقيت معه تسع سنين ، فلما قتل حجت وجاروت بالمدينة المنورة إلى أن ماتت ودفنت هناك بالبقيع في سنة ٥٥٧ ، أنظر أيضاً : (التبعي : الدارس في المدارس ، نشر جعفر الحنفي ، ج ١ ، ص ٥٠٢ - ٥٠٧) .

(٤) هذا العنوان غير موجود أيضاً في س ، ويلاحظ أن النص متصل دائماً في نسخة س ، وأن النواوين الموضحة قليلة ، وسنكتفي بهذه الإشارة وما سبقتها إلى هذه الظاهرة ثم نسكت عنها بعد ذلك لتكرارها في معظم الصفحات والموضوعات .

(٥) نص (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢١) فيه زيادة لتعريف بالمدينة ، قال : « وهي مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب » .

بعد أن نصب على أهلها المنجنقات ، وضيق عليهم ، فسلموها إليه بالأمان في الخامس والعشرين من رجب سنة اثنين وثلاثين وخمسة ، وقتل وأسر وسب ، وكان عدة من خرج إليه من أهلها خمسة آلاف وثمانمائة نفس ؛ وتنصر قاضيها وجماعة من أعيانها — نحو أربعمائة نفس — وأقام الروم عشرة أيام يطلبون من اختفى ، فقبل لهم : « إن جماعة نزلوا في المغارات » ، فدسّخوا عليهم ، فهلكوا في المغائر .

ثم ^(١) رحل ملك الروم إلى حلب ، فنزل على نهر قويق ومعه الفرنج الذين بساحل الشام ، وزحفوا إلى حلب بخيلهم ورجلهم ، فخرج إليهم أحداث حلب ، فقاتلهم قتالاً شديداً ، فقتل من الروم وجرح خلق كثير ، وقتل بطريق عظيم التدر عندهم ، فأقاموا [على حلب ^(٢)] ثلاثة أيام ؛ ولم يظفروا بطائل ، فرحلوا إلى قلعة الأثارب ، فهرب من بها من المسلمين ، فملكوها الروم تاسع شعبان وتركوا ^(٣) بها سبي بزاغة والأسرى ، ثم رحلوا عنها ، فلما سمع برحيلهم ابن سوار — نائب عماد الدين بحلب — رحل فيمن معه من العسكر ، فأوقع بمن في الأثارب من الروم ، وخلص الأسرى والسبي ، وعاد إلى حلب .

ونزل عماد الدين سلمية — كما ذكرنا — وعبر ثقله الفرات ، وأقام بسلمية جريدة ، ليتبع الروم ويقطع عنهم الميرة .

ثم قصد الروم قلعة شيزر — وصاحبها الأمير أبو العساكر [سلطان بن علي ابن مقلد بن نصروين منقذ الكنانى ^(٤)] — فنازلوها ونصبوا عليها ستة عشر منجنقا ، فسار عماد الدين ونزل على التهر المعروف بالمصا [٤٦] — بينها وبين حماة —

(١) قبل هذا اللفظ في س (ص ٤ ب) عنوان كبير هو : (ذكر منازلة ملك الروم حلب) .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س .

(٣) في الأصل : « ونزلوا » والتصحيح عن س (ص ٤ ب) و (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٢) .

(٤) ما بين الحاصرتين عن : (س ، ص ٤ ب) ، (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٢) .

وكان [عماد الدين] كل يوم يركب هو وعسكره ويسرون إلى شيزر ، ويتفوق
بحيث يرام الروم ، ويرسل السرايا فتأخذ من ظفر به منهم .

ذكر توجه القاضي كمال الدين بن الشهرزوري

إلى السلطان مسعود في معنى الروم واستنجاده [به (١)] عليهم

ولما كان الروم على بُزَاعَةٍ أرسل الأمير عماد الدين زنكي القاضي كمال الدين
أبا الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري إلى السلطان مسعود بن محمد بن
ملكشاه يستنجده ويطلب منه العساكر ، فقال [القاضي (١)] لعماد الدين حين أرسله :
« أخاف (٢) أن تخرج البلاد من أيدينا ويجعل السلطان هذا حجة [علينا (١)] ،
وينفذ العساكر ، فإذا توسطوا البلاد ملكوها » . فقال الأمير عماد الدين :
« إن هذا العدو قد طمع في البلاد ، وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام ،
وعلى كل حال فالمسلمون أولى من الكفار بها » . قال كمال الدين : [فسرت طالب
بغداد ، وجديت في السير (٣)] ، فلما وصلت بغداد [وحضرت قدام السلطان (٣)]
وأديت الرسالة بإنفاذ العساكر ، وأنا مخاطب ولا أزداد على الوعد [شيئاً (٣)] ،
فلما رأيت قلة اهتمام السلطان بهذا الأمر العظيم أحضرت فلانا — وهو فقيه
كان ينوب عني في القضاء — فقلت [له] : « خذ هذه الدنانير وفرقها في جماعة
من أوباش بغداد والأعاجم ، وإذا كان يوم الجمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع
القصر قاموا وأنت معهم واستغاثوا بصوت واحد : « وا إسلاماه ! وا دين محمداه ! »

(١) ما بين الحاصرتين عن س (ص ٤ ب) .

(٢) هذا الحديث بين القاضي وعماد الدين غير مثبت في (ابن الأثير) ويلاحظ أن نصي
ابن واصل وابن الأثير يفتقان في معظمهما ، وقد يختلفان إيجازاً وإطناباً ، وسقوط هذا الحديث
مثل ذلك . والأمثلة بهذا كثيرة مما يرجح رأينا أن المؤرخين ينقلان عن مرجع آخر لا نعرفه .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادات عن : س (ص ١٠ أ) .

ويخرجون من الجامع ويتصدون دار السلطان مستغيثين ؛ ثم وضعت إنسانا آخر فعل ذلك في جامع السلطان ؛ فلما كانت الجمعة وصعد الخطيب المنبر قام ذلك الفقيه وشق ثوبه وألقى عمامته عن رأسه ، وصاح ، وتبعه ذلك النفر بالصياح والبكاء ، فلم يبق في الجامع إلا من قام وبكى ، وبطلت الخطبة ، وسار الناس كلهم إلى دار السلطان ؛ وقد فعل أولئك الذين يجامع السلطان مثلهم ، فاجتمع أهل بغداد وكل من بالعسكر عند دار السلطان يبكون ويصرخون ويستغيثون ، وخرج الأمر عن الضبط ، وخاف السلطان في داره [٤٧] وقال : « ما الخبر ؟ » فقيل : « إن الناس قد تاروا حيث لم ترسل العساكر إلى الفزاة ^(١) » ، فقال : « أحضروا [القاضي] ابن الشهرزوري » ، قال : فحضرت عنده وأنا خائف منه ، إلا أنني قد عزمت على صدقه وقول الحق .

فلما دخلت قال : « يا قاضي ، ما هذه الفتنة ؟ » فقلت : « إن الناس قد فعلوا هذا خوفاً من الفتنة والشر ، ولا شك أن السلطان لم يعلم كم بينه وبين العدو ، وإنما بينكم نحو أسبوع ، وإن أخذوا حلب انحدروا إليكم في الفرات وفي البر ، وليس بينكم بلد بينهم عن بغداد » ، وعظمت الأمر عليه حتى كأنه ينظر إليه ؛ فقال : « اردد هؤلاء العامة عنا ، وخذ من العساكر ما شئت ، والامداد تابعك » . قال : « فخرجت إلى العامة ومن انضم إليهم ، وعرقهم الحال ، وأمرتهم بالعود ، فعادوا وتفرقوا ، وانتخبت ^(٢) من عسكره عشرة آلاف فارس [من خيار العسكر ^(٣)] ، وكتبت إلى الشهيد أعرفه الخبر وأنه لم يبق غير المسير ، وأجدد استئذانه في ذلك ، فأمرني بتسييرهم والحث على ذلك ، وعبرت بالعساكر الجانب الغربي ، فبينما نحن

(١) في س (س ه ب) : « العراق » وهو خطأ واضح .

(٢) في الأصل : « وانتخب » ، وما هنا عن س .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (س ه ب) .

نتجهز للحركة ، وإذا قد وصل نجّاب من الشهيد يخبر بأن الروم والفرنج رحلوا عن حلب خائبين لم ينالوا منها غرضا ، ويأمرني بترك استصحاب العساكر ؛ فلما خاطبت السلطان في ذلك أصرّ على إنفاذ العساكر إلى الجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها ، وكان قصده أن تطأ عساكره البلاد ويملكها ، ولم أزل أتوصل مع الوزير وأكابر الدولة حتى أعدت العساكر إلى الجانب الشرقي ، وسرت إلى الشهيد .

ذكر تحذيل^(١) عماد الدين

بين الفرنج والروم حتى رحلوا خائبين

قد ذكرنا منازلة الروم والفرنج شيزر ، ونزول عماد الدين زنكي — رحمه الله — على العاصي بالقرب منهم ، ثم إنه أرسل إلى ملك الروم يقول له : « إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال ، فانزلوا منها إلى الصحراء حتى نلتقي ، فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم ، وإن ظفرتم بي استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها » ؛ ولم يكن لعماد^(١) الدين بهم طاقة ولا قوة ، وإنما كان يوهّمهم بهذا القول وأشباهه ، فأشار الفرنج على ملك الروم بمصافقته^(٢) [٤٨] وهوّنوا أمره عليهم ، فلم يفعل ، وقال : « أتظنون أنه ليس له من العسكر إلا ما ترون ؟ وإنما يريد أنكم تلقونه فيجىء إليه من [نجادات] ^(٤) المسلمين مالا حد عليه .

وكان أيضا عماد الدين يرسل إلى ملك الروم يوهّمه بأن فرنج الشام خائفون منه ، فلو فارق مكانه لتخلّوا عنه ، ويرسل إلى فرنج الشام يخوّفهم من ملك الروم ، ويقول لهم :

(١) في س : « محدد » .

(٢) في الأصل : « بهاد » ، وما هنا عن س (ص ١٦) .

(٣) في (اللسان) : « أصفقوا على الأمر اجتمعوا عليه ، وأصفقوا على الرجل كذلك » .

(٤) ما بين الماصرتين عن : س (ص ١٦) ، (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٢) .

« إِنْ مَلَكَ بِالشَّامِ حَصَنًا وَاحِدًا مَلَكَ بِبِلَادِكُمْ جَمِيعًا » ؛ فاستشعر كلٌّ من صاحبه ، فرحل ملك الروم^(١) من شيزر في هذه السنة ، وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها ، فاتبع عماد الدين ساقية العسكر ، فظفر بجماعة منهم ، وأخذ جميع ما تركوه ، ورجع ملك الروم خائبًا إلى بلاده .

وفي خروج ملك الروم إلى الشام وحلب وعوده عنها خائبًا يقول المسلم^(٢) ابن خضربن قسيم الحموي قصيدة يمدح بها الأمير عماد الدين زنكي — رحمه الله —
أولها :

بِعَزْمِكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الرَّحِيمُ تَذُلُّ لَكَ الصَّعَابُ وَتَسْتَقِيمُ
[ومنها يقول^(٣)] :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ كَلْبَ الرُّومِ لَنَا تَبَيَّنَ أَنَّكَ الْمَلِكُ الرَّحِيمُ
فَجَاءَ يُطَبِّقُ الْفَلَوَاتِ جَيْشًا^(٤) كَانَ الْجَحْفَلَ اللَّيْلُ الْبَهِيمُ
وَقَدْ نَزَلَ الزَّمَانُ عَلَى رِضَاهُ وَكَانَ^(٥) لَخَطْبِهِ الْخَطْبُ الْعَظِيمُ
فَحِينَ رَمَيْتَهُ بِكَ^(٦) فِي خَمِيسٍ تَيَقَّنَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَدُومُ

(١) كان امبراطور الدولة البيزنطية في هذه السنة (٥٣٢ = ١١٣٨) هو الامبراطور يوحنا الثاني كالوجوهانيز Calojohannes [١١١٨ — ١١٥٤] ؛ انظر كتاب (الامبراطورية البيزنطية ، تأليف نورمان بينز ، وترجمة الدكتور حسين مؤنس ، والأستاذ محمود يوسف زايد ، ص ١٤٠١ .

(٢) لم أعثر على ترجمة مفصلة لهذا الشاعر ، وإنما ذكر (الصابوني ، تاريخ حماة ، ص ١٠٠) أنه كان من الشعراء المجيدين ، وأنه توفي سنة ٥٣٤ ، ثم استشهد بهذه الأبيات المذكورة هنا .
(٣) مابين الحاصرتين عن : س (ص ١٦) ، (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٣) .
(٤) كذا في الأصل ، وهي في : س (ص ١٦) : « جيناً » ، وفي (ابن الأثير) : « خيلا » .

(٥) كذا في الأصل وفي س ، وهي في (ابن الأثير) : « ودان » .

(٦) كذا في الأصل وفي ابن الأثير ، وهي في س : « ك » .

وَأَبْصَرَ فِي الْمَفَاضَةِ مِنْكَ لَيْثًا (١) فَأَخْرَقَ لَا يَسِيرُ وَلَا يَقِيمُ
كَأَنَّكَ فِي الْمَجَاجِ شِهَابٌ نُورٌ تَوَقَّدَ وَهُوَ شَيْطَانٌ رَجِيمٌ
أَرَادَ بَقَاءَ مُهْجَتِهِ قَوْلِي وَلَيْسَ سِوَى الْحَمَامِ لَهُ حَمِيمٌ

ولما رجع ملك الروم وصل إلى عماد الدين زنكي رسول الخليفة الإمام المقتفى
لأمر الله أمير المؤمنين ، وهو مؤيد الدين سديد الدولة بن الأنباري — كاتب الإنشاء
ورسول السلطان مسعود — بالخلع ، فلبس خلعة الخليفة والسلطان وركب بهما ،
وذلك بظاهر مدينة حمص يوم عرفة [٤٩] من هذه السنة — أعني سنة اثنين
وثلاثين وخمسمائة — ودخل بزمرد خاتون أم الأمير شهاب الدين محمود ، صاحب
دمشق — كما تقدم — .

وفي المحرم سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة وصل الأمير عماد الدين — رحمه الله —
إلى حلب ، واستقر أهلها وأهل حماة وأهل منبج على حصن بزاعة حتى فتحه بالسيف
[وقتل كل من فيه من الروم والفرنج (٢)] وجمعت رؤوس القتلى وبنيت منها منارة
أُذِّنَ عليها ، ثم تحول بالسكر إلى حصار قلعة الأتاب ففتحها في صفر ، ثم توجه
إلى البلاد الشرقية .

وفي هذه السنة نازل عماد الدين قلعة دارا ، وهي للأمير حسام الدين تمرناش
[ابن] ايلغازي بن أرتق (٣) [فلم ينل منها طائلا ، وخاف على المسلمين ، ثم رحل منها
إلى حران (٤)] .

(١) لى س : « لىث » ومعظم الكلمات الأخرى غير منقوطة ، أما فى (ابن الأمير)
فالنص يختلف ، وهو :

وَأَبْصَرَ فِي الْمَفَاضَةِ مِنْكَ جَيْشًا قَا حَرْبَ لَا يَسِيرُ وَلَا يَقِيمُ

(٢) ما بين الحاصرين زيادات عن س (ص ٦ ب) .

(٣) فى الأصل : « يرتق » والتمحيص عن س ، وحسام الدين ثانى أمير من فرع الأراقة
الدين حكوا ماردين ، وإياها من سنة ٥١٦ . إلى سنة ٥٤٧ . أنظر : (Zambaur. Manuel de
Genealogie et de Chronologie pour l'Histoire de l'Islam. P. 228).

ذكر استيلاء عماد الدين زنكى على حرّان ثانيا

كنا قد ذكرنا أن عماد الدين ملك حرّان سنة اثنتين وعشرين وخمسة ، ولما ملكها أقطعها سودكين الكرجى ، فعصى عليه وانضاف إلى عسكر الخليفة المسترشد بالله لما نازل الموصل ، وسار معه حين رحل عن الموصل ، وترك فيها والياً من قبله ، ثم مات [بعد ذلك] (١) سودكين فنارزها في هذه السنة عسكر عماد الدين ، فتسلم المدينة ، وبقيت القلعة وفيها الوالى ، ثم تسلم عماد الدين القلعة في منتصف ذى القعدة من هذه السنة — أعنى سنة ثلاث وثلاثين وخمسة — .

ذكر استيلاء عماد الدين زنكى

على شهرزور وأعمالها

كانت شهرزور (٢) وما يضاف إليها من الأعمال في يد قفجاق بن أرسلان باش التركمانى ، وكان نافذ الحكم على قاصى التركمان ودانبيهم ، وكان الملوك يتحامون قصد ولايته لحصانتها ، فعظم شأنه وازداد جمعه ، فقصد عماد الدين ، وهزم عسكره ، وملك بلاد شهرزور وغيرها ، وأضافها إلى ولايته ، وأصلح أحوالها ، وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان .

وفى ذى الحجة من هذه السنة رجع عماد الدين إلى الشام ، ووزل بظاهر حلب على قويق ، ثم رحل إلى أرض حماة ، واستصحب من أهل حماة تسعة آلاف راجل يخدمون الركاب .

(١) ما بين الحاصرتين زيادات عن س (ص ٦ ب) .

(٢) هكذا ضبطها ياقوت في معجم البلدان ، وقال إنها كورة واسعة في الجيباك بين أربيل ومهذان ، أحدثها زور بن الضحاك ، ومعنى شهر بالفارسية المدينة .

وفي هذه السنة قُتل الأمير شهاب الدين محمود^(١) بن بوري بن طفتكين صاحب دمشق ، وذلك في ليلة الجمعة [٥٠] لثلاث بقين من شوال ، قتله [ثلاثة من غلمانه]^(٢) : البقش ، ويوسف الخادم ، والفراش الخركاوي^(٣) ، وصبيحة قتله وصل أخوه الأمير جمال الدين محمد بن بوري ، وملك دمشق ، وقام بتدبير دولته الأمير معين الدين أئز^(٤) ، مملوك جده طفتكين .

ذكر استيلاء عماد الدين زنكي على بعلبك

كان السبب في ذلك أن شهاب الدين محموداً^(٥) لما قُتل بدمشق حزنت عليه أمه زمرد خاتون حزناً شديداً ، فحملت عماد الدين على قصد دمشق والطلب بثأر^(٦) ولدها شهاب الدين ، فتحرك لنصد دمشق ، فاستعد معين الدين بدمشق ، واستكثر

(١) حكم دمشق من سنة ٥٢٩ هـ إلى سنة ٥٣٣ هـ ؛ أنظر : (Zambaur, Op. Cit. P. 30)

(٢) في الأصل وفي س : « غلامه » وما هنا عن : (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٦)

فان النص فيما يلي يقتضيه .

(٣) فصل (ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٦٨ — ٢٦٩) الحديث عن قتل شهاب الدين محمود بن بوري وعن قتله ، وقد آثرنا نقل حديثه هنا للايضاح ، قال : « وفي يوم الجمعة الثالث والعشرين من شوال من السنة في غداته ظهرت الحادثة المدمرة على الأمير شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بن ظاهر الدين أتابك ، وقتله في فراشه وهو في نومه في ليلة الجمعة المذكورة ، بيد غلمانه الملاءين . البقش الأرميني الذي اصطنعه وقربه إليه واعتمد في أشغاله عليه ، ويوسف الخادم الذي وثق به في نومه لديه ، والخركاوي الفرّاش الراقده حواله وكان هؤلاء الثلاثة نفر الجناة الملاءين يبيتون حول سريره ، وتحققوا نومه ووثبوا عليه فقتلوه في فراشه على سريره ، وصاح فرّاش آخر كان معهم فقتلوه أيضاً ، ودبروا أسرم بينهم وأخفوا أسرم بحيث خرجوا من القلعة ، وظهر الأمر ، وطلب البقش لعنه الله فهرب ونهب بيته ، وممسك الآخرين فصلبوا على سور باب الجابية إلخ » .

(٤) في الأصل ، وفي س ، وفي ابن الأثير : « أئز » والصحيح ما أثبتناه هنا ، وهكذا ضبطه الذهبي . انظر : (النعماني ، الدارس في تاريخ المدارس ، ذكر جعفر الحسني ، ج ١ ، ص ٥٨٨) .

(٥) في الأصل « محمود » .

(٦) أنظر تفصيل ذلك في (ابن القلانسي ، ص ٢٦٩) .

من الذخائر والعدد والرجال ، ولم يتركوا شيئاً يحتاجون إليه إلا وبذلوا الجهد في تحصيله ، وأقاموا ينتظرونه ، ووصل عماد الدين إلى بحيرة قدس ، ثم سار منها إلى بعلبك فنازلها .

وكان الأمير جمال الدين محمد بن بوري لما ملك دمشق بعد أخيه شهاب الدين قد أقطع بعلبك لمعين الدين ، فاستناب فيها معين الدين [بن يثق إليه] (١) ، فجدّ عماد الدين في محاصرتها ، ونصب عليها أربعة عشر منجنيقاً ترمى ليلاً ونهاراً ، فأشرف من بها على الهلاك ، فطلبوا الأمان وسلموا إليه المدينة ، وبقيت القلعة وفيها جماعة من الشجعان ، فقاتلهم فلما يئسوا من النصر طلبوا الأمان ، فأمنهم ، فسلموا إليه القلعة ، فلما سلموها إليه عذبهم ، وأمر بصلبهم فصلبوا ، ولم ينج منهم إلا القليل ، فاستقبح الناس منه ذلك ، واستعظموه وخافوه وحذروه ، ولا سيما أهل دمشق ، فإنهم قالوا : « لو ملكنا لفعل بنا كذلك » ، فجدّوا في محاربته .

وكان لمعين الدين جارية يهاها ، فلما تزوج أمّ جمال الدين محمد بن بوري صاحب دمشق سيّرها (٢) إلى بعلبك ، فلما ملك عماد الدين بعلبك أخذ الجارية [فنزوحها] (٣) بحلب ، فلم تزل بها إلى أن قُتل [عماد الدين] (٤) فسيّرها ابنه نور الدين محمود — رحمهم الله تعالى — إلى معين الدين ، وهي كانت سبب الود بينهما ، وكان فتح بعلبك رابع صفر (٥) سنة أربع وثلاثين وخمسمائة .

(١) ما بين الحاصرتين عن س (ص ١٧) .

(٢) الضمير هنا عائد على الجارية .

(٣) في الأصل ، وفي س : « وتركها » ، والصحيح وما يستقيم به المعنى ما ذكرناه هنا .

نقلا عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٧) .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س (ص ٧ ب) .

(٥) لم يذكر اليوم والشهر في س .

ذكر منازلة عماد الدين زنكى دمشق^(١)

ولما فرغ عماد الدين من بعلبك سار إلى دمشق ، وذلك في ربيع الأول^(٢) من هذه [٥١] السنة — أعنى سنة أربع وثلاثين وخمسة (٣) — فنزل بالبقاع وسير إلى جمال الدين محمد يبذل له بلداً يقترحه ليسلم إليه دمشق ، فلم يجبه إلى ذلك ، فرحل [عماد الدين] إلى دمشق ، ونزل داريا ثالث عشر ربيع الأول^(٤) ، والتقت الطلائع واقتتلوا ، فكان الظفر لعماد الدين ، فانهزم الدمشقيون وأخذهم السيف ، وقتل جمع كثير ، ثم تقدم عماد الدين زنكى إلى المصلى ، فنزل هناك ، ولقيه جند دمشق وأحدائها ورجالة الغوطة ، فقاتلوه ، فانهزموا ، وقتل منهم وأسر وجرح جماعة ، وأشرف البلد ذلك اليوم على التسليم ، فأمسك عماد الدين عن القتال عدة^(٥) أيام وراسل جمال الدين صاحب دمشق ، وبذل له بعلبك وحمص وغيرها مما يختار من البلاد ، فامتنع أصحابه من ذلك ، وخوفوه عاقبة غدره كما فعل بأهل بعلبك ، ثم عاود [عماد الدين] الزحف ، واستمر القتال والحصار إلى شعبان من هذه السنة .

ولما كانت ليلة الجمعة ثامن شعبان توفى جمال الدين محمد بن بورى صاحب دمشق — وعماد الدين محاصر البلد — فأجلس في الملك بعده ولده الأمير بجير الدين آبق^(٦) بن محمد — وهو آخر ملوك دمشق من بيت طغتكين — ، وقام بتدبير

(١) هذا العنوان غير موجود في س ، وإنما مكانه هناك هذان اللفظان : (قال الراوى) .

(٢) في س : « ربيع الآخر » ، أما ابن الأثير فتفق مع المتن هنا .

(٣) لم ينص على السنة في س .

(٤) كذا في الأصل وفي ابن الأثير ، وفي ابن القلانسي : « ربيع الآخر » .

(٥) في س « مدة » ، وفي (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٨) : « عشرة » .

(٦) في الأصل : « اتق » ، وقد صحح الاسم بعد مراجعة : (ابن القلانسي ، ص ٢٧١

و (ابن الأثير ج ١١ ، ص ٢٨) و (Zamban, Op .Cit. P. 30) .

دولته معين الدين أنر ، قطع عماد الدين في البلد وزحف إليه زحفاً شديداً ظناً منه أنه ربما يقع بين المقدمين والامراء اختلاف ، فيملك البلد ، فخاب أمله ، وراسل (١) معين الدين الفرنج ، واستدعاهم إلى نصرته ، وبذل لهم بذولا ، ومن جملتها أنه يحصر بانياس ويأخذها ويسلمها إليهم ، وخوفهم من عماد الدين أنه إن ملك دمشق يملك البيت المقدس ، ولا يترك لهم بلداً بالساحل ؛ فأجمع (٢) الفرنج وعزموا على السير إلى دمشق ليجتمعوا مع صاحبها على قتال عماد الدين زنكي ، وعلم عماد الدين ذلك ، فسار عماد الدين إلى حوران — خامس رمضان — عازماً على لقاء الفرنج قبل أن يجمعوا مع الدمشقيين على قتاله ، فلما سمع (٢) الفرنج خبره لم يفارقوا بلادهم ، فعاد عماد الدين إلى حصر دمشق ، قتل بعذرا (٣) ، وذلك سادس (٤) شوال من هذه السنة ، وأحرق عدة قرى من المرج [٥٢] والغوطة ، ورحل عائداً إلى بلاده ، ووصل الفرنج إلى دمشق ، واجتمعوا بصاحبها .

وسار معين الدين بعسكر دمشق إلى بانياس — وهي في طاعة عماد الدين — ليحصرها ويسلمها إلى الفرنج ، وكان صاحبها قد جمع جمعاً ، وسار إلى صور للغارة على بلاده (٥) ، فصادفه صاحب أنطاكية وهو قاصد إلى دمشق نجدة لصاحبها

(١) كان رسول معين الدين إلى الفرنج هو أسامة بن منقذ الشاعر المعروف ، أرسله إلى فولك الخامس ملك بيت المقدس (١١٣١ — ١١٤٢) ، وقد تقدم هذا الملك وحده أول الأمر لمساعدة معين الدين والدماشقة ، فلما هزموا انضم إليهم ريمون صاحب أنطاكية وجوسلين الثاني صاحب الرها . أنظر : (حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ، ص ٢٩ — ٣٢ ، وما به من مراجع) .

(٢) في س (١٨) : « فاجتمعوا » و « سمعوا » .

(٣) ذكر (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٨) أنها ثمانك دمشق .

(٤) كذا في الأصل وفي ابن الأثير ، وفي (ابن القلانسي ، ص ٢٧٢) : « يوم الأربعاء »

لست بقين من شوال » .

(٥) في الأصل ، وفي س : « بلدها » ، وهذا خطأ يعكس المعنى ، وقد صحح به مراجعة

(ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٨) ونصه هناك واضح مفهوم وهو : (وكان واليها — أي وإلى

نياس — قد سار قبل ذلك منها بجمة إلى مدينة صور للاغارة على بلاده) .

على عماد الدين ، فاقتتلا ، فانهزم المسلمون ، وأخذ صاحب (١) بانياس ، فقتل من قُتل ، ونجا من نجا إلى بانياس (٢) ، وجمعوا جمعاً كثيراً من أهل البقاع ، وحفظوا القلعة ، فنار لها (٣) معين الدين — ومعه الفرنج — فتسلمها وسلمها للفرنج ، ولما سمع عماد الدين حصر بانياس عاد إلى بملكك ليدفع عن بانياس من يحصرها ، فأقام فيها .

فلما عاد عسكر دمشق — بعد ملك بانياس وتسليمها للفرنج — فرّق عماد الدين عسكره في الإغارة على حوران وأعمال دمشق ، وسار جريدة ، فنزل على دمشق سحراً (٤) ، ولم يعلم به أحد ، فلما أصبح الناس ورأوا عسكره ، خافوا وارتج البلد ، واجتمع العسكر والعامة على السور ، وفتحت الأبواب ، وخرج أهل البلد إليه ، وقاتلوه ، فلم يمكن الأمير عماد الدين عسكره من الإقدام عليهم ، لغيبة أكثر عسكره في الإغارة وتفرقهم .

ثم توجه عماد الدين إلى مرج راهط ، وقد أقام ينتظر عود عسكره ، فعادوا إليه وقد ملؤوا أيديهم من الغنائم ، فلما اجتمعوا عنده رحل عائداً إلى بلاده (٥) . وفي سنة خمس (٦) وثلاثين وخمسمائة جرت وقعة بين عماد الدين والأمير ركن الدين داوود بن سقمان بن أرتق — صاحب حصن كيفا — فانهزم ركن الدين ، وملك عماد الدين بهمد (٧) ، وأدركه الشتاء فعاد إلى الموصل .

(١) كان صاحب بانياس هو (إبراهيم بن طرغت) ، انظر : (ابن القلاندي ، ص ٢٧٢) .

(٢) في س (١٨) : « فقتل جميع من نجا إلى بانياس » .

(٣) في س (١٨) : « فنادى معين الدين » .

(٤) في الأصل : « سجر » ، وفي س (١٨) : « سجر » ، والنصحیح عن : (ابن الأثير

ج ١١ ، ص ٢٩) .

(٥) المعنى متفق في الفصول السابقة بين النص هنا وبين الأثير ، واسكن المؤرخين — كما سبق

أن ذكرنا — مختلفان إيجازاً وإطناباً ، تقديماً للحوادث وتأخيراً لها .

(٦) في الأصل ، وفي س (٨ ب) : « خمسة » والنصحیح ما أثبتناه .

(٧) كذا في الأصل ، وفي س (٨ ب) : « بهمد » وفي (ابن الأثير ، ج ١١ ،

ص ٣٠) : « بهمود » .

وفي سنة ست وثلاثين وخمسمائة ملك عماد الدين الحديثة ، ونقل من كان بها [من آل مهران] ^(١) إلى الموصل ، ورتب أصحابه بها .

وفي هذه السنة خطب لعماد الدين بآمد ، وصار صاحبها في طاعته ، وكان قبل ذلك موافقا لركن الدين داود — صاحب الحصن — على عماد الدين ، فلما رأى قوة عماد الدين صار معه .

وفيها أغار عسكر عماد الدين — المقيمون بحلب — على بلد الفرنج [٥٣] فنهبوا وظفروا بسرية للفرنج ، فقتلوا منهم نحو سبعمائة رجل ^(٢) .

وفي سنة سبع وثلاثين وخمسمائة ملك عماد الدين قلاع الهكارية ، وقد ذكرناه لتعلقه بما كان قبله .

ذكر الاتفاق بين السلطان مسعود بن ^(٣) محمد

وبين عماد الدين زنكي

كان السلطان مسعود قد حقد على عماد الدين حقداً شديداً ، وكان ^(٤) ينسب خروج أصحاب الأطراف عليه إلى ذلك بمواطاة من عماد الدين ، وأنهم إنما يصدر عن رأيه ، وكان عماد الدين يفعل ذلك لئلا يخلو السلطان مسعود فيتفرغ لقصد ^(٥) .

(١) ما بين الحاصرتين عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٢٤) .

(٢) في س : « فارس » .

(٣) في الأصل : « مسعود وبين محمد » .

(٤) كذا في الأصل . وفي س (٨ ب) : « لأنه كان ينسب خروج أصحاب الأطراف عليه بمواطاة من عماد الدين ، بينهم إنما يريدون عن رأيه » .

(٥) في الأصل ، وفي س (٨ ب) : « لئلا يزال السلطان مسعود مشغولاً عنه فلا يتفرغ

لقصد » وهو نص مضطرب المعنى ، وقد صحح بعد مراجعة : (ابن الأثير ، ج ١١ ص ٣١) .

ففي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة رحل السلطان إلى بغداد ، وجمع المسكر ،
ونجهز لقصد عماد الدين زنكي ، فأرسل إليه عماد الدين يستعطفه ويستميله ، فأرسل
إليه السلطان أبا عبد الله بن الأنباري في تقرير القواعد ، فاستقرت القاعدة على
مائة ألف دينار يحملها عماد الدين ، فحمل إليه عشرين ألف دينار ، أكثرها
عروض ، وتنقلت الأحوال بالسلطان إلى أن احتاج إلى مدارة عماد الدين ،
فأطلق له الباقي مدارة واستمالة له ، وحفظا لقلبه .

وكان عماد الدين عنده من الدهاء والمكر شيء كثير ، فمن جملة ما فعله :
أنه كان ولده الأكبر سيف الدين غازي لا يزال في خدمة السلطان مسعود — سقياً
وحضراً — نائباً عن أبيه في الخدمة ، فأرسل إليه يأمره بالهرب (١) من السلطان
[مسعود] إلى الموصل ، وأرسل إلى نائبه نصير الدين جعفر بالموصل يأمره بمنع
سيف الدين من الدخول إلى الموصل والوصول إليه ، فهرب سيف الدين غازي
ووصل إلى الموصل ، فمنعه نصير الدين من الدخول إلى الموصل (٢) ، ولما بلغ الخبر
إلى والده أرسل إليه يأمره بالعود إلى السلطان ، ولم يجتمع به ، وأرسل معه رسولاً
إلى السلطان يقول له : « إن ولدي هرب [خوفاً] (٣) لما رأى تغير السلطان عليّ ،
وقد أعدته إلى الخدمة ، ولم أجمع به ، فإنه مملوكك ، والبلاد لك » . فحل هذا
عند السلطان محلاً عظيماً .

(١) في س (١٩) : « بالقرب » ، وما هنا هو الصحيح .

(٢) في الأصل بمد لفظ « الموصل » : « إلى والده » وما لفظان زائدان لا يستقيم بهما
المعنى ، لخذقناهما ، ولا وجود لهما في س ؛ وفي (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٦) : « الدخول
إلى الموصل الوصول إليه » .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن : س (ص ١٩) ، وابن الأثير .

وفي هذه السنة سار عماد الدين إلى ديار بكر ، ففتح طَنْزَةَ (١) ، وأُسَيْرِدَ (٢) ،
والمَعْدَنَ (٣) ، وِحِيزَانَ (٤) ، وحصن [٥٤] الروق (٥) ، وفطليس (٦) ، وباناسا (٧) ،
و حصن ذى القرنين (٨) ، وغير ذلك ؛ وملك من [بلد ماردين مما هو بيد] (٩) الفرنج
يومئذ جملين ، والمُوزَزَ (١٠) ، وتل موزن ، وغيرها من حصون شَبَخْتَانَ (١١) ،
وقصد مدينة آمد ، وحانئ (١٢) ، وحصرهما ، فلم ينل غرضاً فرحل عنهما .

وفيها سبّر عماد الدين عسكرياً إلى عانة ففتحوها .

-
- (١) هكذا ضبطها ياقوت ، وقال إنها بلد بجزيرة ابن عمر من ديار بكر ، وهي عند (الفارقي ، هامش ص ١٣٧ من ابن القلانسي) : « طنزي » .
- (٢) كذا في الأصل وفي ابن القلانسي وابن الأثير ، وقد رسمها ياقوت : « إسمرت »
و « سمرت » وقال إنها مدينة بديار بكر قرب أرزن الروم وِحِيزَانَ .
- (٣) لم يذكرها ياقوت ، وإنما أشار (الفارقي ، هامش ص ٢٧٤ من ابن القلانسي)
إلى أنها إحدى مدن ديار بكر .
- (٤) هكذا ضبطها ياقوت ، وقال إنها بلد قرب إسمرت من ديار بكر .
- (٥) كذا في الأصل ، وفي (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٦) : « حصن الدوق » .
- (٦) كذا في الأصل وعند الفارقي (هامش ص ٢٧٤ من ابن القلانسي) ، وهي في (ابن
الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٦) : « مطليس » ؛ ولم يستطع الناشر تحقيق اللفظ أو التعريف به .
- (٧) كذا في الأصل ، وفي (ابن الأثير) : « حصن بانسية » .
- (٨) في الأصل : « ذى المرقين » ، وقد صححت بعد مراجعة (ياقوت) و (ابن الأثير)
و (الفارقي) ، وقد ذكر ياقوت أنه حصن بقرب آمد .
- (٩) في الأصل : « وملك من بلاد الفرنج » ، وما هنا صيغة ابن الأثير وهي أوضح .
- (١٠) هكذا ضبطها ياقوت وقال إنها كورة بالجزيرة منها نصيبين الروم .
- (١١) ضبطت بعد مراجعة ياقوت ، فقد قال عند تعريف « تل بسمه » إنه بلد له ذكر
من نواحي ديار ريصة ثم ناحية شَبَخْتَانَ .
- (١٢) ذكر ياقوت أنها مدينة معروفة بديار بكر فيها معدن الحديد .

ذكر فتح الرها

كان الفرنج — لعنهم الله — قد عظم^(١) شرهم بالبلاد الجزرية ، وامتدت غاراتهم إلى أقاصيها وأدانيها ، وبلغت إلى آمد ورأس عين ونصيبين والروقة ، وكانت لهم الرها وسروج والبيرة وغير ذلك ، وكانت جميع هذه الأعمال لجوسلين ، وكان صاحب رأى الفرنج والمقدم على عساكرهم ، وكان عماد الدين يعلم أنه متى قصد حصن الرها اجتمع بها من الفرنج من يمنعه ، فيتعذر فتحها لما هي عليه من الحصانة ، فاشتغل بقصد ديار بكر ليوم الفرنج أنه غير متفرغ لقصدهم ، فاطمانوا لذلك ، وفارق جوسلين^(٢) الرها ، وعبر الفرات إلى بلاده الفريية — وكانت له تل باشرو وغيرها — وجاءت عيون^(٣) الأمير عماد الدين إليه بذلك ، فنادى في العسكر بالرحيل وأن لا يتخلف عن الرها أحد من غد يومه ، وجمع الأمراء عنده ، ومدَّ السباط ، وقال : « لا يأكل معي على مائدتى هذه إلا من يطعن معي غداً باب الرها » ، فلم يتقدم إليه غير أمير واحد وصبي لا يُعرف ، لما يعلمون من إقدامه وشجاعته ، وأن أحداً لا يقدر على مساواته في الحرب . فقال الأمير لذلك الصبي : « ما أنت وهذا المقام ؟ » فقال [عماد الدين] : « دعه ، فإنى أرى والله وجهها لا يتخلف عنى^(٤) » .

(١) كذا في الأصل . وفي س (ص ١٩) : « عبر » ، وفي (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٧) : « مم » .

(٢) هو جوسلين الثاني صاحب الرها في ذلك الحين ، وكان على جانب كبير من الرعونة منكبا على ملذاته الخاصة ، مما دفعه إلى إثارة الإقامة في تل باشرو وترك الرها في حامية جماعة من الأرمين والسوريين غير القادرين على حمايتها .

(٣) كان على رأس هؤلاء العيون فضل الله بن جعفر نائب عماد الدين على حران ، أنظر (حبشي : نور الدين والصليبيون ، ص ٣٥) .

(٤) النص هنا وفيما يلي من حوادث استعادة الرها يتفق مع نص (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٧ وما بعدها) اتفاقا يكاد يكون تاما .

وسار عماد الدين في العساكر — وذلك في جمادى الأولى سنة تسع وثلاثين وخمسة — فكان عماد الدين أول من حمل على الفرنج — ومعه ذلك الصبي — ، وحمل فارس من خيالة الفرنج على عماد الدين عرضاً ، فاعترضه ذلك الأمير فطعنه فقتله ، وسلم عماد الدين ، ونازل البلد محاصراً له ثمانية وعشرين يوماً ، وزحف إليه عدة دفعات ، ونقب النقبابون سور البلد فسقطت البدنة ، وملك البلد عنوة وقهراً ، وحصر القلعة فملكها وذلك لأربع عشرة بقية (١) من جمادى الآخرة من هذه [٥٥] السنة ، ونهب الناس الأموال ، وسبوا الذرية ، وقتلوا الرجال .

ورأى الأمير عماد الدين البلد فأعجبه ، ورأى أنه لا يجوز في السياسة (٢) تخريب مثله ، فنودي في العسكر برد ما أخذ من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم وإعادة ما اغتنموا من أثاثهم وأمتعتهم ، فردوا الجميع عن آخره ، ولم يفقد إلا النادر ، وعاد البلد إلى حاله ، ثم تسلم سروج (٣) وسائر الأماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي الفرات ما عدا البيرة ، ثم سار إلى البيرة (٤) فحصرها ، وكان الفرنج قد أكثروا ميرتها ورجالها .

(١) في س (١٠٩) : « خلت » ، وعن تحقيق التاريخ انظر : (ابن القلانسي : الدبل ، ص ٢٧٩) حيث يذكر أن المدينة سقطت في السادس والعشرين من جمادى الآخرة .
(٢) في س (١٩) : « ورأى الناس يدرو في السياسة . . إلخ » .

(٣) هكذا ضبطها (ياقوت : معجم البلدان) وقال إنها بلدة قريبة من حرّان من ديار مصر .
أنظر أيضاً : (R. Dussaud, Topographie Historique de la Syrie Antique et Médiévale.. Paris, 1927. P.P. 241, 480, 519, 522).

(٤) إلى هنا تنتهي ص ٩ ب من نسخة س وبناهايتها ينتهي الاتفاق بين النسختين ، وبين ص ٩ ب وص ١٠ سقط يتضمن الحوادث التالية . والبيرة المشار إليها هنا بلد قرب ميساط بين حلب والثغور الرومية وهي قلعة حصينة . أنظر : (ياقوت : معجم البلدان) و (ابن الشحنة : الدر المنخب ، ص ١٥٧ ، ٢١٧) .

(١) ذكر مقتل نصير الدين جَقَر النَّائِبِ بِالْمَوْصِلِ

كان الملك ألب أرسلان بن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه عند عماد الدين بالموصل وهو (٢) أتابكه ، وقد تقدم ذكر ذلك ، وكان عماد الدين يظهر للخلفاء والولاة وأصحاب الأقطار أن البلاد للملك ألب أرسلان ، وهو نائبه بها ، والخطبة له في جميع بلاده ، وكان ينتظر وفاة الملك مسعود ليخطب له (٣) بالسلطنة ، ويملك بغداد وسائر الممالك باسمه ، وكان نصير الدين النائب كل يوم يقصده ليقوم بخدمة إن عرضت له ، فحسن بهض المفسدين للملك ألب أرسلان قتل نصير الدين ، وقال : « إن قتلتَه ملكت الموصل وغيرها ، ولا يبقى مع أتابك زنكي فارس واحد » . فصَدَّقَ هذا القول ووقع في نفسه ، وواطأ على ذلك جماعة من الأجناد ، فلما دخل نصير الدين عليه للعادة وثبوا عليه فقتلوه ، وألقوا رأسه إلى أصحابه ، ظناً منهم أن أصحابه إذا رأوا ذلك يتفرقون ، ويخرج الملك ألب أرسلان ويملك البلاد .

فلما رأى أصحاب نصير الدين الرأس قاتلوا من بالدار ، واجتمع عليهم خلق كثير من أصحاب عماد الدين وأكابر دولته ، ثم دخل القاضي تاج الدين بجي ابن الشهرزوري إلى الملك وخذعه ، وقال له : « يامولانا ، لم تحرد من هذا الكلب ؟ هو وأستاذه مماليكك ، والحمد لله الذي أراحنا منه ومن صاحبه على يدك ، وما الذي يقعدك في هذه الدار ؟ قم لتصعد إلى القاعة وتأخذ الأموال والسلاح ، وتملك البلد ، وتجمع لك الجند ، وليس دون البلاد بعد الموصل مانع » . فقام معه وركب ، وصعد

(١) ما يقابل هذه الصفحة وما يابها مفقود في س ، ولتصحح النص سنقارن بينه وبين ماورد في ابن الأثير .

(٢) الضمير هنا يعود على عماد الدين أي أن عماد الدين كان أتابكا للملك ألب أرسلان والمكن السلطنة الحقيقية كلها كانت بيد عماد الدين .

(٣) الضمير هنا يعود على الملك ألب أرسلان .

إلى القلعة ، وتقدم تاج الدين إلى النقيب بها والأجناد أن يفتحوا الباب ويتسلموه ،
[٥٦] ويعتقلوه ، ففتحوا الباب ، ودخل الملك والقاضي إليهم ، ومعهما من أعان
على قتل نصير الدين ، فسُجنوا ، واعتُقل الملك ألب أرسلان بالقلعة .

ذكر رحيل عماد الدين عن البيرة

وتملك المسلمين لها

ولما بلغت الأخبار إلى عماد الدين زكى بقتل نائبه نصير الدين وهو يحاصر
قلعة البيرة وقد أشرف على أخذها ، خاف أن تختلف عليه البلاد الشرقية بعد قتل
نصير الدين ، فرحل عن البيرة ، وأرسل الأمير زين الدين على كوجك (١) بن
بكتكين (٢) إلى قلعة الموصل نائباً عنه بها موضع نصير الدين ، وأقام عماد الدين
ينتظر الخبر ، فخاف من البيرة من الفرنج أن يعود (٣) إليهم ، وكانوا يخافونه خوفاً
شديداً ، فكاتبوا صاحب ماردين ، وسلموها إليه ، فملكها المسلمون ، ولم يبق شيء
مما هو شرقي الفرات بيد الفرنج ، ولما تولى زين الدين على كوجك الموصل عدل
في الناس وأحسن السيرة ، وسلك غير طريقة نصير الدين ، فاطمأن الناس ، وأمنوا ،
وازدادت البلاد عمارة ، وكانت بيده مدينة إربل ، فلنذكر صبرورثها إليه .

(١) في الأصل هنا وفيما يلي : « على كوجل بن بكتكين » ، وقد صحح الاسم بعد مراجعة
(ابن القلانسي : الذيل ، ص ٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٣٠٧ ، ٣٣٧ ، ٣٥٨) و (أبو شامة : الروضتين ،
ج ١ ، ص ٤١) و (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٩) . وسيدأب الناشر على تصحيح
الاسم فيما يلي دون الإشارة إلى ذلك . وقد ذكر (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٢٧٠)
أن زين الدين كان قصيرا ، ولهذا قيل له « كجك » وهو لفظ عجمي معناه بالعربي صغير ،
أي صغير القدر .

(٢) ضبط هذا اللفظ بعد مراجعة (ابن خلكان : الوفيات ، طبعة محي الدين عبد الحميد ،
ج ٣ ، ص ٢٧٧) .

(٣) في الأصل : « أن يعودوا إليهم وكانوا يخافون خوفاً شديداً » ولا يستقيم المعنى
بهذا النص وقد صحح بعد مراجعة (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٩) .

ذكر استيلاء زين الدين على كَوْجَك على إربل

كانت إربل وأعمالها لأبي الهيجا الكردي الحذباني ولورثته من بعده ،
ثم تغلبت دولة الأتراك السلجوقية عليها وعلى غيرها من البلاد ، وتنقلت إلى أن
صارت للسلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه ، وهو يومئذ صاحب مراغة ، قبل أن
تصير السلطنة إليه ، وله فيها نائب من قبيلة فزار إليها الأمير عماد الدين زنكي
ونازلها في سنة ست وعشرين وخمسمائة ، وهجم البلد وامتنعت عليه القلعة ، فأقام
يحاصرها ، فسار إليه السلطان مسعود من مراغة ، فرحل عنها عماد الدين ونزل الزاب ،
واندفعت الأتقال إلى الموصل ، وأقام غربي الفرات ، وثوابه يحفظون الخايض ،
فترددت الرسل بينهم إلى أن استقر أن يسير عماد الدين في خدمة السلطان ليجلسه
في السلطنة ، ويكلف الإمام المسترشد بالله أن يخطب له في بغداد ، وفي البلاد ،
ويسلم إليه إربل ، فلما تقررت القاعدة ، وجرت بينهما الأيمان سلم إليه إربل ،
فقدسها الأمير عماد الدين ، وسلمها إلى الأمير زين الدين على كَوْجَك ، [٥٧] ثم سار
عماد الدين إلى بغداد غربي الماء ، وسار السلطان مسعود شرقي الماء ، وتواعدا
أن يلتقيا ببغداد ، فوصل من بغداد قراجا الساقى وكبس عماد الدين ، فكسر
السكر وأسر كل من فيه ، ولم ينج سوى عماد الدين ، قطع الشط في زورق وهو
مجروح ، ووصل إلى الموصل ، ولم تزل إربل في يد زين الدين على وولده بعده إلى آخر
أيام الملك المعظم مظفر الدين كوكبوري (١) بن زين الدين .

(١) ضبط الاسم بعد مراجعة (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٢٧٧) وهو لفظ
تركى معناه الذئب الأزرق . انظر ترجمته في نفس المرجع ، وللاستزادة من أخبار الدولة التي
أنشأها زين الدين على كَوْجَك في إربل وما حولها والتي حكمها أولاده من بعده انظر : (دائرة
المعارف الإسلامية ، مادة « إربل ») .

ذكر منازلة عماد الدين قلعة جعبر

قد ذكرنا أن السلطان جلال الدولة ملكشاه لما تسلم حلب عوّض صاحبها عنها — سالم بن مالك بن بدران العقيلي ابن عم شرف الدولة مسلم بن قريش — قلعة جعبر ، وكان قد ملك قلعة جعبر — كما تقدم ذكره — ، فتسلم سالم بن مالك قلعة جعبر ، وبقيت في يده ويد ولده .

فلما كانت سنة إحدى وأربعين وخمسة مائة قصد عماد الدين قلعة جعبر — وصاحبها يومئذ مالك بن سالم بن مالك بن بدر العقيلي — وحاصرها ، وسير جيشا إلى قلعة فنك (١) فحصرها — وصاحبها يومئذ الأمير حسام الدين الكردي البشنوي ، وكانت بيد البشنوية من مدة تزيد على ثلثمائة سنة — وكان قصد عماد الدين بأن لا يترك قلعة في أعماله متوسطة في بلاده إلا ويستولى عليها مبالغة في الحزم والاحتياط ، وطالت مدة حصره لقلعة جعبر ولم يتيسر له فتحها ، فسير إلى صاحبها رسولا الأمير حسّان صاحب منبج لمودة كانت بينهما في معنى تسليمها ، وقال : « تضمن له الإقطاع الكبير والمال الجليل الجزيل فإن أجاب إلى التسليم ، وإلا قل له : والله لأقيم عليها إلى أن أملكها عنوة ، ثم لا أبقى عليك ، ومن الذي يمنعك مني » . فصعد حسّان إلى القلعة ، وأدى رسالة عماد الدين إليه ، ووعدته التعويض عنها وأرغبه ، فامتنع من التسليم ، فقال له حسّان إلى قوله : « وهو يقول لك من يمنعك مني ؟ » ، فقال : « يمنعني منه الذي منعك من الأمير بك (٢) » . ويشير إلى منازلة بك

(١) هكذا ضبطها ياقوت ، وقال إنها قلعة حصينة منيعة للأكراد البشنوية قرب جزيرة ابن عمر بينهما نحو من فرسخين .

(٢) هو نور الدولة بك بن بهرام بن أرئق ، وقد ضبط هكذا « Balyg » في : (Zambaur, p. Cit. Op. 230) ، ولكنه عند (Amedroz) في (مقدمة ابن القلانسي) « Bulak » .

ابن بهرام بن أرثق منبج بعد أن أسر حسان صاحبها ولم يبق إلا أخذها ، فجاء
سهم غريب^(١) فوقع في نحر بك فاهلكه ، وخلص حسان منه ، وكانت واقعة
عماد الدين شبيهة بواقعة بك [٥٨] ومن تعالى^(٢) على الله تعالى أكذبه ، وقد ورد
حكاية عن الله تعالى : « أنا الله رب مكة لا أئمت لمقدّر أمراً » .

فعاد حسان إلى عماد الدين وأخبره بامتناعه ، ولم يذكر له حديث بك .

ذكر مقتل الشهيد عماد الدين أتاك زكي

ابن آق سنقر — رحمه الله —

ولما كانت ليلة الأحد لست مضين من ربيع الآخر من هذه السنة — أعني سنة
إحدى وأربعين وخمسة — دخل على أتاك عماد الدين صبي من غلمانه أفرنجي
— اسمه برنقش^(٣) — وجماعة من المماليك ، فقتلوه على فراشه ، وهربوا إلى قلعة
جعبر ، وأخبروا أهلها بقتله ، ففرحوا بذلك ، وصاحوا على شرافات القلعة ، وأخبروا
بقتله العسكر ، فدخل أصحابه إليه وبه رمق ، فحكى ابن الأثير — رحمه الله^(٢) —
عن أبيه ، عن بعض خواص عماد الدين ، قال : « دخلت إليه في الحال وهو حي ،

(١) جاء في اللسان : « أصابه سهم غريب وغريب إذا كان لا يدري من رماه ، وقيل إذا أتاه
من حيث لا يدري ، وقيل إذا تمعد به غيره فأصابه » .

(٢) في الأصل : « تالي » وما هنا قراءة ترجيحية .

(٣) كذا في الأصل ، وهو في (ابن القلانسي ، ص ٢٨٤ و ٢٨٨) : « برنقش » ؛

وفي (أبو شامة : الروضتين ، ص ٤٦ و ٤٢) : « برنقش » ؛ أما ابن الأثير وسبط ابن الجوزي
فلم ينصا على اسمه . أنظر أيضاً : (حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ، ص ٤٠) . ويبدو

أن صاحب جعبر هو الذي حرض على قتله بدليل أن قتله فروا إلى قلعة جعبر بعيد قتله مباشرة .
(٤) لهذا الدعاة أهمية خاصة ، فهو يحدد تاريخ البدء في تأليف هذا الكتاب ويجمله

بعد سنة ٦٣٠ هـ وهي السنة التي توفى فيها ابن الأثير المؤرخ .

حين رآني ظن أنني أريد قتله ، فأشار إليّ بأصبعه السبابة يستعظفني ، فوقفت (١)
من هيئته ، وقلت يا مولانا : من فعل بك هذا ؟ فلم يقدر على الكلام ، وفاضت
نفسه لوقته .

قال الأمير مؤيد الدولة بن منقر : « فكأن الشاعر — وهو المتنبي —
عنا بقوله :

وقد قابل الأقران حتى قَتَلْنَهُ بأضعفِ قَوْنٍ في أذلِّ مكانٍ

ذكر (٢) سيرته وصفته — رحمه الله —

كان حسن الصورة ، أسمر اللون ، حسن العينين ، قد وخطه الشيب ، وكان
عمره قد زاد على ستين سنة ، وكان صارما حازما شجاعا شهاما مقداما ، عظيم الهمة
أبى النفس ، قد خافه الملوك ، وارتاع لذكركه أصحاب الاطراف ، وكان الخليفة
والسلطان يجاور بلادها بلاده ، وكان يجاوره ابن سكران صاحب خلاط ، وداود
ابن سكران صاحب حصن كيفا ، وصاحب آمد ، وصاحب ماردن ، والفرنج ، وصاحب
دمشق ، وقد أحاطت هذه الممالك بمملكته من سائر جهاتها ، ومع هذا مرة يقصد
هذا ، ومرة يأخذ من هذا ، ومرة يصانع هذا إلى أن ملك من كل من (٣) يليه طرفا ،
وكان الكل يتقونه ويدارونه ، ويخافون منه ، وكان شديد الهيبة على رعيته
وعساكره ، عظيم الهيبة في صدورهم حسن السياسة ، لا يقدر القوى على ظلم

(١) نص (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٢) وهو الذي ينقل عنه هنا : « فوقفت »
وهي أكثر اتساقا مع المتن .

(٢) هنا يلتقي النص مرة أخرى مع نسخة س ، وإنما في ص (١١٠٨) من تلك النسخة .

(٣) في الأصل : « في كل ممن يليه » ولا يستقيم بها المعنى ، والتصحيح عن (ابن الأثير :
الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٢) .

الضعيف ، وكانت البلاد [٥٩] خراباً قبل أن يملكها فتمها العدل^(١) ، وعمرت لما ملكها ، وقد ذكر أنه كان عنده في مبدأ أمره ظلم ، فسمع ليلة وهو نازل بجمة شخصاً يغنى على شط العاصي :

« اعدلوا ما دام أمركم نافذا في النفع والضرر

واحفظوا أيام دولتكم إنكم منها على خطر »

فبكي وتبدلات نيته في الظلم ، وأخذ نفسه من حينئذ بالعدل .

ومما يحكى عنه : أنه دخل مرة الجزيرة في الشتاء ، ومعه أمير من أكبر أمرائه

يقال له عز الدين الديبسي^(٢) ، كان من جملة إقطاعه مدينة دقوقة^(٣) ، فنزل

في دار إنسان يهودي من أهل الجزيرة ، فاستغاث [اليهودي] إلى عماد الدين ،

وأنهى حاله إليه ، فنظر إلى الديبسي ، فتأخروا دخل البلد وأخرج برّكه^(٤) وخيامه ،

قال الحاكي لهذه الحكاية « فلقد رأيت غلماناً ينصبون خيامه في الوحل ، وقد جعلوا

على الأرض تبناً يقيهم^(٥) الطين ، وخرج قزلها . »

وكان [عماد الدين] ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ، ويقول : « مهما كانت

البلاد لنا فأى حاجة لكم إلى الأملاك ؟ فإن الإقطاعات تغنى عنها ، وإن خرجت

البلاد عن أيدينا فإن الأملاك تذهب منها ، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السطان

ظلموا الرعية ، وتمدوا عليهم ، وغصبوهم أملاكهم . »

(١) في س (ص ١٠٨) : « فلما ملكها عمها بالمدن ، وعمرت لنا ملكها » .

(٢) في الأصل : « الديبسي » ، وهي كذلك في س (١٠٨) وإنما بدون نقط ، وقد

ضبط الاسم بعد مراجعة مصدر هذه القصة وهو (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٤٢) .

(٣) هكذا ضبطها ياقوت ، ويقال لها أيضاً « دقوقة » ، وهي مدينة بين إربل وبنداد .

(٤) البرك الناع الخاص من ثياب وقاش . انظر : (Dozy : Supp. Diet. Arab)

(٥) في الأصل : « يقيها » والتصحيح عن ابن الأثير .

وكان شديد العناية بأخبار الأطراف وما يجري لأصحابها حتى في خلواتهم ، وكان له في دركاه (١) السلطان من يطالعه ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره من حرب وسلم وهزل وجد ، وكان يغرم على ذلك الأموال الجميلة ، وكان يصل (٢) إليه كل يوم من عيونه عدة قاصدين ، وكان مع اشتغاله بالأمور الكبار من أمور الدولة لا يهمل الاطلاع على الصغير ، وكان يقول : « إذا لم يُعرف الصغير لمُنْع صار كبيرا » ، وكان لا يمكن رسول ملك يعبر في بلاده بغير إذنه ، وإذا استأذنه رسول في العبور في بلاده أذن له ، وأرسل إليه من يُسيره ، ولا يتركه يجتمع بأحد [٦٠] من الرعية ولا غيرهم : فكان الرسول يدخل بلاد ويخرج منها ولا يعلم من أحوالها شيئاً البتة .

وكان يتمهد أصحابه ويمتحنهم ، فسلم يوماً خُشْكُنَانِيكَه (٣) إلى طشت دار (٤) له ، وقال : « إحفظ هذه » . فبقي نحو سنة لا تفارقه الخُشْكُنَانِيكَه خوفاً أن يطلبها منه ، فلما كان بعد ذلك ، قال له : « أين الخُشْكُنَانِيكَه ؟ » فأخرجها من منديل وقدمها

(١) دركاه - والجمع دركاوت - من أصل فارسي « دركاه » وقد عرفها (Dozy : Supp. Dict. Arab) بأنها : الساحة أمام قصر السلطان أو الدهليز أو الرواق أو المدخل (C'our devant un palais, vestibule, portique, porte, etc).

(٢) في س (١٠٨ ب) : « وكان ينهى إليه » .

(٣) خشكناك أو خشكناج من أصل فارسي ، نوع من الأطعمة عرفة (Dozy : Supp. Dict. Arab) بأنه نوع من الفطير المصنوع من الزبد والسكر والجوز أو الفستق ، ويكون على هيئة الهلال . أنظر أيضاً : (الجواليقي : العرب ، ص ١٣٤) و (الجاحظ : البغلاء ، طبعة الدكتور طه الحاجري ، ص ١١٠ و ٣٣٣) .

(٤) الطشت لفظ طامي ، وصوابه الطشت ، وهو مغرب عن اللفظ الفارسي « تست » والطشت دار أحد الغلمان الشرفين على الطشت خاناء ، وهي كما عرف (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٠ - ١١) « بيت الطشت ، سميت بذلك لأن فيها يكون الطشت الذي تفصل فيه الأيدي ، والطشت الذي يفصل فيه القماش السلطاني . . وفيه ما يلبسه السلطان من الكلوته والأقبة وسائر الثياب ، والسيوف والخف والرموزة . . الخ » أنظر أيضاً : (نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٤٦٩) و (محيط المحيط) .

بين يديه ، فاستحسن ذلك منه ، وقال : « مثلك ينبغي أن يكون مستحفظاً بحصن » ، وأمر له بدزدارية قلعة كَواشَى (١) ، فبقى فيها إلى أن قتل عماد الدين .

وكان لا يمكن أحداً (٢) من خدمه من مفارقة بلاده ويقول : « إن البلاد كبستان عليه سياج ، فمن هو خارج السياج يهاب الدخول ، فإذا خرج منها من يدل على عورتها ويُطعم العدو فيها زالت الهيبة ، وتطَرَّقَت (٣) الخصوم إليها » .

ومن جميل سيرته أنه أسكن الأمير بهاء الدين ياروق التركمانى وأصحابه (٤) بولاية حلب ، وأمرهم بجهاد الفرنج ، وملَّكهم ما استنقذوه من البلاد التى للفرنج ، فكانوا يراوون الفرنج القتال ويفادونهم ، وسَدُّوا ذلك الثغر (٥) ، ولم يزالوا على ذلك إلى سنة ستمائة .

وكانت تضرب بشجاعته الأمثال ، ومما يحكى عنه : أنه حضر مع الأمير مودود صاحب الموصل — قبل أن يملك — حصار طبرية وهى للفرنج ، ووصلت طعنته إلى باب البلد وأثَّرت فيه ، وحمل أيضاً على قلعة عَقْر الحميدية (٦) ، وهى على جبل عالٍ ، فوصلت طعنته إلى سورها .

(١) هكذا ضبطها ياقوت ، وقال إنها قلعة حصينة فى الجبال التى فى شرق الموصل ليس إليها طريق إلا لراجل واحد ، وكانت قديماً تسمى « أَرْدُمُشت » وكَواشَى اسم لها محدث .

(٢) فى الأصل ، وفى س (١٠٨ ب) : « أحد » ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٣) .

(٣) فى س : « تفرقت » ، وما هنا أصح ، وهو متفق مع ما فى الروضتين .

(٤) كذا فى الأصل ، وفى س ، وفى (الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٣) جملة توضح من هم هؤلاء الأصحاب وهى : « ومن صائب رأيه وجيده أن سير طائفة من التركمان الإيوانية مع الأمير المبارك (؟) إلى الشام ، وأسكنهم بولاية حلب . . إلخ » .

(٥) فى الأصل : « وشددوا ذلك » وقد صحح بعد مراجعة س (١٠٩ ب) و (الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٤) .

(٦) ذكر ياقوت أنها قلعة حصينة فى جبال الموصل أهلها أكراد وهى شرق الموصل .

وكان شديد الغيرة، لا سيما على نساء الأجناد، وكان التعرض إليهن من الذنوب التي لا تُغتفر، وكان يقول: « إن جندي لا يفارقوني في أسفاري، وقل ما يقيمون عند أهلهم، فإن نحن لم نمنع من التعرض إلى حرمهم هلكن وفسدن »، وكان قد ولى قلعة الجزيرة دزدارا يقال له نور الدين حسن البربطي^(١)، وكان من خواصه، وكان غير مرضى السيرة، فبلغه أنه يتعرض للحرم، فأمر حاجبه صلاح الدين محمد ابن أيوب الباغيساني^(٢) — صاحب حماة — أن يسير مجداً، ويدخل الجزيرة بغتة، فإذا دخلها أخذ البربطي وقطع ذكراه [٦١] وقلع عينيه، عقوبة له لنظره بهما إلى الحرم، ثم يصلبه؛ فسار صلاح الدين مجداً، فلم يشعر البربطي^(١) به، إلا وهو على باب البلد، فخرج إلى لقائه، فأكرمه صلاح الدين ودخل معه البلد، وقال له: « المولى أتابك يسلم عليك، ويريد أن يُملى قدرك ويرفع منزلتك، ويسلم إليك قلعة حلب، ويوليك جميع البلاد الشامية، لتكون هناك مثل نصير الدين، فتجهز^(٣) وتحدّر مالك في الماء إلى الموصل، وتسير إلى خدمته، ففرح بذلك، ولم يترك له من أمواله شيئاً إلا نقله إلى السفن ليحدرها إلى الموصل في دجلة، فحين فرغ من جميع ذلك أخذ صلاح الدين وأمضى فيه ما أمر به، وأخذ جميع ماله، ولم يجسر أحد بعده على أفعاله القبيحة.

(١) كذا في الأصل وفي (الروشتين، ج ١، ص ٤٤) وهو في س (١١٠٩): « البوطي ».

(٢) في الأصل: « الباغيساني »، وفي س (١١٠٩): « الباغيشاني »، وفي (الروشتين، ج ١، ص ٤٤): « الباغيسالي »، وما هنا عن: (ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١٧)، وهو في ذيل تلك الصفحة نقلاً عن (الفارقي): « البغصاني ». أنظر أيضاً: *Ibn Al-Qalanisi ; Traduction Francaise par : Roger Le Tourneau. PP. 20.*

23, 35, 41, 129، انظر أيضاً ما فات هنا ص ١٩، هامش ٢

(٣) في س، وفي الروشتين: « فتجهز ». وحدر السفينة يحدرها أرسلها إلى أسفل (السان).

وكان — رحمه الله — كثير الصدقات ، وكان يتصدق في كل جمعة بمائة دينار أميري [ظاهراً^(١)] ويتصدق فيما عداه من الأيام سراً مع من يثق به ، وركب يوماً فعثرت به دابته ، فكد يسقط عنها ، فاستدعى أميراً كان معه ، وقال له كلاماً لم يفهمه ، ولم يجسر أن يستفهمه عنه ، فعاد إلى بيته ، وودّع أهله عازماً على الحرب ، فقالت زوجته : « ما ذنبك وما حملك على الحرب ؟ » فذكر لها الحال ، فقالت له : « إن نصير الدين له بك عناية ، فاذكر له قصتك ، وافعل ما يأمر بك به » . فقال : « أخاف أن يمنني من الحرب وأهلك » . فلم تزل به زوجته تراجعها ، وتقوى عزمه إلى أن عرّف نصير الدين حاله ، فضحك منه ، وقال له : « خذ هذه الصرة الدنانير واحملها إليه ، فهي التي أراد » . فقال : « الله ، الله^(٢) في دمي ونفسي » . فقال : « لا بأس عليك ، فإنه ما أراد غير هذه الصرة » . فحملها إليه ، فحين رآه قال : « أمدك شيء ؟ » قال : « نعم » ، فأمره أن يتصدق [به] ، فلما فرغ من الصدقة ، قصد نصير الدين وشكره ، وقال : « من أين علمت أنه أراد الصرة ؟ » فقال : « إنه يتصدق بمثل هذا القدر كل يوم ، يرسل إلى يأخذه من الليل ، وفي يومنا هذا لم يأخذه ، ثم بلغني أن دابته عثرت به حتى كاد يسقط إلى الأرض ، فأرسلت إلى ، فعلمت أنه ذكر الصدقة » .

ولقد حكى من هيئته ما هو أشد من هذا : أنه خرج يوماً من قلعة الجزيرة [٦٢] من باب السر خلوة وملاحه نائم ، فأيقظه بعض الجاندارية ، وقال له : « إقعد » . فحين رأى عماد الدين سقط إلى الأرض ، فخرّكوه فوجدوه ميتاً .

(١) ما بين الحاصرتين إضافة عن الروضتين .

(٢) ذكر لفظ الجلالة في الأصل مرة واحدة ، ولكنه كرر في س (١٠٩ ب) ، وفي

(الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٤) .

ومن جميل أوصافه وحسنها أنه كان بطيئ التلون بعيد التغير،^(١) لم يتغير على أحد من أصحابه منذ ملك إلى أن قُتل [إلا] بذنب عظيم يوجب التغير^(٢)، وأن الأمراء الذين كانوا معه أولاً [هم الذين]^(٣) بقوا معه إلى آخر وقت، إلا من اخترمه الموت منهم، ولهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له، وكان يخطب الرجال ذوى الهمم العالية، والآراء الصائبة، ويوسع عليهم في أرزاقهم، فيسهل عليهم فعل الجميل، فلهذا كان إذا قدم إنساناً عسكرياً لم يكن غريباً: إن كان جندياً اشتمل عليه الأجناد وأضافوه، وإن كان صاحب ديوان قصد أهل^(٤) الديوان، وإن كان عالماً قصد القضاة والفقهاء من أصحابه فيؤانسونه^(٥) ويحسنون إليه.

ذكر ما كان من الملك ألب أرسلان الخفاجي^(٦)

ولد السلطان بعد قتل عماد الدين

قد تقدم ذكرنا أن الملك ألب أرسلان بن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي — الذى كان عماد الدين أنابكة — قتل نصير الدين فى الموصل، وطمع فى الاستيلاء على البلاد، وأن القاضى تاج الدين بن الشهرزورى خدعه حتى صعد

(١) ما بين الرقبن ساقط من س، وقد أضيف ما بين الحاصرتين ليستقيم به المعنى بعد مراجعته على: (الروضتين، ج ١، ص ٤٤).

(٢) فى س: «أصحاب».

(٣) فى الأصل: «فيؤانسونه»، وما هنا عن س (١١١٠) و (الروضتين، ج ١، ص ٤٤).

(٤) يذكر صاحب الروضتين (ج ١، ص ٤١) تصحيحاً لهذا الاسم فيقول: «وتدوم (أى ابن الأثير) فى قوله: ألب أرسلان المعروف بالخفاجى، فالحفاجى غير ألب أرسلان على ما ذكره الهامد الكاتب فى كتاب السلجوقية، فانه قال: كان مع زنى ملكان من أولاد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه، أحدهما يسمى ألب أرسلان وهو فى معقل من معقل سنجار، والآخر يسمى فرخشاه ويعرف بالملك الحفاجى وهو بالموصل... إلخ».

إلى القلعة واعتقل بها ، فلما قُتل عماد الدين كان في صحبة الملك ألب أرسلان فركب واجتمعت العساكر عليه وخدموه ، فأرسل الوزير جمال الدين الأصفهاني إلى الأمير صلاح الدين الياغيساني^(١) يقول : « المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنا — وكان بينهما مشاحنة — ونسلك طريقاً تبقى به البلاد والملك في أولاد صاحبنا ، فإن الملك ألب أرسلان قد طمع في البلاد ، واجتمعت عليه العساكر ، وإن لم تتلاف هذا الأمر في أوله ونتداركه في ابتدائه اتسع الخرق ، ولم يمكن رقعته »^(٢)

فأجابه صلاح الدين إلى ذلك ، وحلف كل واحد منهما لصاحبه ، فركب الوزير جمال الدين [٦٣] إلى الملك [ألب أرسلان]^(٣) ، وضمن له فتح البلاد ، وأطعمه فيها ومعه صلاح الدين ، وقال له : « إن [عماد الدين] أتاك كان نائباً عنك في البلاد ، وباسمك كنا نطعمه . فصدقهما ، وقريبهما طمعا في أن يكونا عوناً له على تحصيل غرضه ، وأرسل إلى الأمير زين الدين على كوجك بن بكتيكين صاحب إربل — وهو النائب عن عماد الدين بالموصل — يعرفانه قتل الشهيد عماد الدين ، ويأمرانه أن يرسل إلى الأمير سيف الدين غازي بن زنكي وهو ولده الأكبر — وكان بشهرزور وهي إقطاعه من أبيه — ليجهر إلى الموصل ويملكها^(٤) ، ففعل زين الدين ذلك ، وأرسل إلى سيف الدين واستقدمه ، فقدم إلى الموصل وتسلمها^(٥) .

وكان نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي لما قُتل أبوه في العسكر^(٥) أخذ خاتمه من يده ، وسار إلى حلب فملكها ، واتفق صلاح الدين الياغيساني — صاحب حماة — والوزير جمال الدين محمد بن علي الأصفهاني على حفظ دولة ولد عماد الدين ،

(١) في الأصل : « الياغيساني » ، أنظر ما فات ، ص ١٠٤ ، هامش ٢

(٢) في س (١١١٠) : « رفوه » .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س (١١٠ ب) .

(٤) هذا اللفظ ساقط من س .

(٥) في س (١١٠ ب) : « العسكر » .

والمكر بالملك ألب أرسلان الساجوقى ، وحسنا له الاشتغال بالشرب والمغنيات ، وقال جمال الدين للملك [ألب أرسلان^(١)] : « إن من رأى أن تسير الصلاح إلى مملوكك نور الدين بحلب يدبر أمره » ، فأذن له [فسار^(١)] ، وبقي جمال الدين وحده مع الملك فأخذه وقصده [به^(١)] الرقة ، واشتغل فيها بشرب الخمر والخلوة بالنساء والمغنيات ، وأراد أن يعطى الأمراء شيئا فمنعه خوفاً أن تميل قلوبهم إليه ، وقال^(٢) : « لهم منك الإقطاع الجزيل والنعم الوافرة » .

وشرع جمال الدين يستميل العسكر^(٣) ويحلفهم لسيف الدين غازى بن عماد الدين واحداً بعد واحد ، وكل من حلف يأمره بالمسير إلى الموصل هارباً من الملك ، وأقام الملك بالركة عدة أيام ، ثم سار إلى ماكسين ، فتركه^(٤) بها عدة أيام مشتغلاً بلذاته عن طلب الملك ، ثم سار به نحو سنجار ، ولما استقر قدم سيف الدين بالموصل قوى جنان جمال الدين ، ووصل هو والملك ألب أرسلان إلى سنجار ، وأرسل إلى دزدارها وقال له : [٦٤] « لا تسلم البلد ، ولا تمكن أحداً من دخوله ، ولكن أرسل إلى الملك وقل له : « أنا تبع الموصل ، فتى دخلت الموصل سلمت إليك » . ففعل الدزدار ذلك .

وقال جمال الدين للملك [ألب أرسلان] : « المصاحبة أنا نسير إلى الموصل ، فإن مملوكك غازى إذا سمع بقربنا منه خرج إلى الخدمة ، فحينئذ نقبض عليه ونتسلم البلاد » ، فساروا عن سنجار ، وكثر رحيل العسكر إلى الموصل هاربين من الملك ،

(١) ما بين الحاصرتين عن س .

(٢) كذا في الأصل ، وفي (الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٧) ، أما نص س (١١٠ ب فختلف قليلاً وهو : « ... قال : فطلبوا الأمراء من الملك ألب أرسلان ماك (كذا) » ، قال : وجعل يقول للأمراء : لكم الإقطاع والنعم الوافرة » .

(٣) في س : « قلوب الساكر » .

(٤) في س (١١١) : « فذل » .

فبقى في قلعة من العسكر ، فساروا (١) إلى [مدينة (٢)] بَلَد ، وعبر الملك ألب أرسلان دجلة من هناك ، ودخل الوزير جمال الدين الموصل ، وأرسل الأمير عز الدين أتابك الديسي (٣) في عسكر إلى الملك ألب أرسلان — وهو في نهر يسير — فأخذه وأدخله الموصل ، فكان آخر العهد به ، فذكر أنه خُفِيَ بوترقوس .

واستقر الملك بالموصل لسيف الدين غازي بن زنكي ، وأقر الأمير زين الدين علي كوجك (٤) على ما كان عليه من ولاية الموصل ، ومعه جمال الدين محمد بن علي — وزيره — ، وأرسلوا إلى السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه ، فاستحلفوه لسيف الدين [غازي] ، فحلف له وأقره على البلاد ، وأرسل إليه الخلع ؛ وقد ذكرنا أنه كان في خدمته في حياة أبيه ، وكان السلطان مسعود يحبه ويأنس به ، فلم يتوقف في تقرير البلاد له والحلف له .

ذكر أخبار الأيام النورية

قد ذكرنا مقتل الأمير عماد الدين وتملك والده سيف الدين غازي الأكبر الموصل ، وتملك والده نور الدين محمود حلب ، وكانت بعلبك قد ملكها الشهيد ، واستتاب بها الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي والد الملك الناصر [صلاح الدين (٥)] ،

(١) في الأصل : « سار » ، وقد صححت ، بمراجعة س (١١١١) و (الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٧) .

(٢) ما بين الحاصرتين من الروضتين ؛ والنس في س : « إلى بلد الموصل » وهو خطأ ، وبَلَد — ويقال بَلَط — مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل بينهما سبعة فراسخ ؛ (ياقوت : معجم البلدان) .

(٣) في الأصل ، وفي س : « الديسي » ، أنظر ماقات ، ص ١٠١ ، هامش ٢

(٤) في الأصل : « كوجل » ، أنظر ماقات ، ص ٢٨ ، هامش ١

(٥) ما بين الحاصرتين عن س .

فلما بلغه وفاة الشهيد كاتبه الأمير مجير الدين آبق^(١) بن محمد بن بوري بن طفتكين — صاحب دمشق — في تسليمها ، وبذل له أموالا [كثيرة^(٢)] وقرايا من أعمال دمشق ، فسلمها إليه ، وانتقل نجم الدين أيوب إلى دمشق ، وأقام بها ، وذلك لأربع بقين من ربيع الآخر من هذه السنة — أعني سنة إحدى وأربعين [٦٥] وخمسة — وتسلم نور الدين من حاجب أبيه صلاح الدين محمد بن أيوب الياغيساني^(٣) حماة ، وعوضه عنها مدينة حمص وقلعتها ، قلت : وهكذا ذكر ابن منقز ، وذكر ابن الأثير : أن حمص كانت بيد الأمير سيف الدين غازي ، وإنما تسلمها نور الدين بعد ، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر عصيان الرُّها^(٤) وعودها إلى المسلمين

وكنا قد ذكرنا افتتاح الرُّها ، افتتحها الأمير عماد الدين زنكي من الإفرنج ، وكانت لجوسلين بن جوسلين^(٥) ، وكانت له أيضا من غربي الفرات تل باشر ، فلما قتل الشهيد راسل جوسلين^(٥) أهل الرُّها ، وعامتهم من الأرمن ، وحملهم على العصيان على المسلمين وتسليم البلد إليه ، فأجابوه إلى ذلك ، وواعدهم^(٦)

(١) في الأصل : « أتق » وصحة الاسم « آبق Abaq » . أنظر : (ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٨١) ، (Zambaur, Op. Cit. P. 225) وقد حكم مجير الدين آبق مدينة دمشق من سنة ٥٣٤ إلى سنة ٥٤٩ حيث انتقل ملكها إلى نور الدين محمود بن زنكي وتوفي مجير الدين سنة ٥٦٤ وهو آخر من حكم دمشق من الأسرة البورية . هذا ويصحح اسمه فيما يلي دون الإشارة إلى ذلك .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س .

(٣) في الأصل ، وفي س : « الباغيساني » ؛ أنظر ماكات ، ص ١٠٤ ، هامش ٢

(٤) في س (١١١ ب) : « أهل الرها » .

(٥) في س (١١١ ب) : « لجوسلين الفرنجي » .

(٦) في س : « وواعدوه يوما » .

يوما يصل إليهم فيه ، وصار في عساكره إلى أثرها ، فملك البلاد ، وعصت عليه القلعة
 بمن فيها من المسلمين ، فقاتلهم ، وباع ذلك نور الدين — رحمه الله — وهو بحلب ،
 فسار مجدا إليها بعسكره ، فلما قاربها خرج جوسلين منها هاربا إلى بلدة ، ودخل
 نور الدين المدينة قهيبها وسبي أهلها (١) ، فخلت منهم ولم يبق بها إلا القليل ، ولما بلغ
 خبر الفرنج إلى سيف الدين بالموصل (٢) جهز العساكر إلى الرها فوصلت وقد ملكها
 نور الدين ، فبقيت في يده ، ولم يعارضه فيها أخوه سيف الدين .

وفي هذه السنة رحل الأمير سيف الدين إلى الشام ، وكان أخوه نور الدين
 قد خافه واستشعر منه ، وأخوه سيف الدين يكتبه ويستميله ، فلما وصل
 سيف الدين إلى الشام استقرت القاعدة بينهما على أن يجتمعا خارج العسكر السيفي ،
 ومع كل واحد منهما خمسمائة فارس ، فلما كان يوم الميعاد سار نور الدين من حلب
 في خمسمائة فارس ، وصار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس ، فلم يعرف
 نور الدين سيف الدين حتى قرب منه ، فحين عرفه ترجل له ، وقبل الأرض بين يديه ،
 وأمر أصحابه بالعود عنه ، فعادوا ، وقعد سيف الدين ونور الدين بعد أن اعتنقا
 وبكيا ، فقال له سيف الدين : « لم امتنعت من المجيء إلي ، كنت تخافني على نفسك ؟
 [٦٦] والله ما خطر بيالي ما تكره (٣) ، فلمن أريد البلاد ، ومع من أعيش ،
 ومن اعتضد ، إذا فعلت السوء مع أخي وأحب الناس إلي ؟ » فطمأن نور الدين ،

(١) كذا في الأصل ، وفي س (١١١ ب) : « قهيبها وقتل رجالها من الأرمن ،
 وسباناها » .

(٢) إلى هنا تنتهي (ص ١١١ ب) من نسخة س ، وباتنهاها تضررب المصنفات مرة أخرى
 في تلك النسخة ، وتنقطع الصلة بين (ص ١١١ ب) و (ص ١١٢) وبالتالي بين النص
 هنا وبينه هناك في تلك النسخة .

(٣) في الأصل : « تذكره » والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٨) .

وسكن روعه ، وعاد إلى حلب ، وتجهل^(١) وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين ، فأمره سيف الدين بالود وترك عسكره عنده ، وقال له :

« لا غرض لي في مقامك عندي ، وإنما غرضي أن تعلم الملوك والفرنج اتفاقنا ، فمن يريد السوء بنا يكف عنه » ، فلم يرجع نور الدين ولزمه إلى أن قضيا ما كانا عليه ، وعاد كل منهما إلى بلده .

وفي سنة اثنين وأربعين وخمسة دخل نور الدين بلد الفرنج ، ففتح مدينة أرتاح^(٢) وعدة حصون .

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسة نازل ملك الألمان^(٣) بجموعه ، ومن انضم إليه من فرنج الساحل مدينة دمشق — وصاحبها مجير الدين آبق بن محمد ، والقيم بأمر دولته معين الدين أنر مملوك جده طفتكين — فزحفوا إلى البلد سادس ربيع الأول ، وقاتلوا أهله قتالا شديداً ، ثم نزل الفرنج على الميدان الأخضر^(٤) ، وضاق الأمر على أهل البلد ، وأيقنوا أن العدو يملكه ، وراسل الأمير معين الدين سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل يدعوه إلى نصرته المسلمين ، فسار إلى الشام ، واستصحب أخاه نور الدين محمود بن زنكي — صاحب حلب — فنزلوا بمدينة حمص ، وأرسل سيف الدين إلى معين الدين يقول له : « قد حضرت ومعى

(١) في الروضتين : « تجهز » .

(٢) هكذا ضبطها (ياقوت ، معجم البلدان) ، وقال إنها حصن منيع من أعمال حلب ، وفي (Dussand, T. H. 223-228) أنها موقع يبعد ١٥ كيلو مترا إلى الشرق من بحيرة الطاكية أنظر أيضا : (CL.Cahen, La Syrie du Nord. PP 141-143) .

(٣) هو « كونراد الثالث Conrad III » امبراطور ألمانيا وقد اشترك معه في قيادة الحملة الصليبية المعروفة بالثانية لويس السابع ملك فرنسا . أنظر (Stevenson, Crusaders in the East.) و (حسن حبشي ، نور الدين والصليبيون) .

(٤) كان هذا الميدان يقع غربي المدينة . أنظر : (Ibn El Qalanisi, Trad. Fran. per Roger Le Tourneau, P. 125) .

كل من يحمل السلاح في بلادى ، فأريد أن تكون نوابى بمدينة دمشق لأحضر وألقى الفرنج ، فإن انهزمت دخلت أنا وعسكرى البلد ، واحتمينى به ، وإن ظفرتنا فالبلى لكم لا ينازعكم فيه أحد . » وأرسل إلى الفرنج يتهددهم إن لم يرحلوا عن البلد وإلا أتيهم . فكفّ الفرنج عن القتال ، وقوى أهل البلد على حفظه ، واستراحوا من الحرب .

وأرسل معين الدين إلى الفرنج الغربا يقول لهم : « إن ملك الشرق قد حضر ، فإن رحلتم وإلا سلمت البلد إليه ، وحينئذ تدمون » . [٦٧] وأرسل إلى أهل الساحل ويقول لهم : « بأى عقل تساعدون هؤلاء علينا وأنتم تعلمون أنهم إن ملكوا مدينة دمشق أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية ، وأما أنا إن رأيت الضعف عن حفظ البلد سلمته إلى سيف الدين ، وأنتم تعلمون أنه إن ملك دمشق لا يبقى لكم معه مقام بالشام » . فأجابوا بالتخلى عن ملك الألمان ، وبذل لهم حصن بانياس ، فاجتمعت الفرنج الساحلية بملك الألمان وخوفوه من استيلاء سيف الدين على دمشق ، وأنه إن ملكها لا يكون لهم به طاقة ، ولم يزالوا به حتى رحل عن دمشق ، وتسلموا بانياس ، ورجع ملك الألمان إلى بلاده ، وقد ذكرناه .

وفي هذه النوبة قتل شاهنشاه بن نجم الدين ^(١) أيوب جد جد مولانا السلطان الملك المنصور ^(٢) — صاحب حماة ، خلد الله سلطانه ^(٣) — على باب دمشق ، قتلته الفرنج المحاصرون للبلد ، ودُفن بالشرف ظاهر مدينة دمشق ، وخلف ولدين ،

(١) في الأصل : « جاك الدين » وهو خطأ واضح .

(٢) هو الملك المنصور الثانى حكم حماة من سنة ٦٤٢ إلى سنة ٦٨٣ . وقد خدمه مؤلف هذا الكتاب وعين قاضيا لقضاء حماة في عهده . وله ألف هذا الكتاب .

(٣) لهذا الدطاء أهمية خاصة فهو يمين على تحديد تاريخ تأليف هذا الكتاب . ومنه نستبين أن هذا الجزء من الكتاب كتب بعد سنة ٦٤٢ وهى السنة التى ولى فيها المنصور الثانى حكم حماة . أنظر ما فى ص ٢ ، هامش ٢ و ص ٩٩ هامش ٤

هما : الملك المظفر تقي الدين عمر ، والملك المنصور عز الدين فروخ شاه ، وهو أبو الملك
الابجد مجد الدين بهرام شاه — صاحب بعلبك — .

ذكر استيلاء نور الدين محمود بن زنكى — رحمه الله — على حصن العزيمة

لما خرج ملك الألمان إلى دمشق كان معه ولد الأدفونش (١) وكان جده
هو الذى فتح طرابلس الشام ، فأخذ ولد الأدفونش حصن العزيمة ، وأظهر أنه يريد
أخذ طرابلس ، فأرسل القومص إلى نور الدين محمود ومعين الدين يدعوهما إلى قصد
العزيمة وأخذها ، فقصداهما من دمشق ، واستمدا سيف الدين غازى ، فأمداهما بعسكر
كبير مع الأمير عز الدين الدييسى فقطع جزيرة ابن عمر ، فنازلوا حصن العزيمة
وبه ابن الأدفونش وضايقوه ، وتقدم إليه النقايون فنقبوه ، وتسلموا الحصن ،
وأخذوا ابن الأدفونش وكل من بالحصن ، وأخربوه وعادوا عنه .

كسرة الفرنج بيغرى (٢)

وفى هذه السنة — أعنى سنة ثلاث وأربعين وخمسة — تجمع الفرنج بمكان
يقال له يغرى ليقصدوا أعمال حلب ، فقصدهم نور الدين محمود بن زنكى ، فالتقوا
واقتلوا قتالا شديداً ، فكسر الفرنج كسرة قبيحة ، وقتل أكثرهم ، وأسر جماعة
[٦٨] من مقدميهم ، ولم ينج منهم إلا القليل ، وأرسل من الغنيمة والأسرى

(١) كذا فى الأصل ، وفى (ابن الأثير : السكامل ، ج ١١ ، ص ٥٠) : « ولد الفتن
صاحب طليطلة وهو من أولاد أكابر ملوك الفرنج وكان جده هو الذى أخذ طرابلس الشام
من المسلمين » ، والاسم عند ابن الأثير أقرب إلى الصحة فهو تعريب « Alfonso » .

(٢) ذكر : (Dussaud: T. H. P. 436.) أنها تقع إلى الشرق من دريساك .

إلى أخيه سيف الدين غازي وإلى الخليفة الإمام المقتني لأمر الله ، والسلطان مسعود ابن محمد بن ملكشاه .

وفي هذه الواقعة قال أبو عبد الله محمد بن صغير بن القيسراني قصيدة يمدح بها نور الدين محمود — رحمه الله — .

أولها : ياليت أن الصدف مصدود ! أولا ، فليت النوم مردود
إلى متى تعرض عن مغرم في خدء للدمع أخذود
ومنها : وكيف لا يثنى^(١) على عيشنا الـ محمود ، والسلطان محمود
وصارم الإسلام لا يثنى إلا وشلو الكفر مقدود
مناقب لم تك^(٢) موجودة إلا ونور الدين موجود
وكم له من وقعة يومها — عند ملوك الشرك — مشهود
والقوم : إما صرّ هق صرّعة ، أو موثق بالقّد مشدود
حتى إذا عادوا إلى مثلها قالت لهم هيئته : عودوا

وفي سنة أربع وأربعين وخمسة قصد سيف الدين غازي بن زنكي — صاحب الموصل — دارا ، وكانت لوالده عماد الدين ، فلما قُتل أخذها الأمير حسام الدين تمرش بن إيل غازي بن أرتق — صاحب ماردین — ، ولما دخلت هذه السنة قصدها سيف الدين فملكها ، واستولى على كثير من بلد ماردین بسببها ، ثم قصد ماردین وحصرها ، ثم راسله صاحب ماردین وزوجه ابنته ، فرحل سيف الدين عن ماردین ، وعاد إلى الموصل ، وجّهزت الخاتون ابنة حسام الدين ، وصُفّرت إليه ، فوصلت إلى الموصل وهو مريض ، فتوفى ولم يدخل بها .

(١) في الأصل : « تثنى » والتصحيح عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٥١) ، وفي (الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٥) : « ثنى » ، وانظر آياتنا أخرى من القصيدة في المرجعين السابقين .

(٢) في الأصل : « لم تكن » .

ذكر وفاة سيف الدين غازي بن زنكي

ابن آق سنقر - رحمه الله -

لما عاد سيف الدين إلى الموصل عرض له مرض حاد ، فاستدعى له من بغداد
أوحد الزمان أبو البركات البغدادي^(١) - صاحب المعتبر في الحكمة - فحضر
عنده ، ورأى شدة مرضه ، فعالجه فلم ينجح له فيه دواء ، فتوفي آخر جمادى الآخرة
من هذه السنة [٦٩] - أعني سنة أربع وأربعين وخمسة - فكانت مدة
ولايته ثلاث سنين وشهراً وعشرين يوماً ، وكان جميل الصورة ، وكان عمره نحو
من أربع وأربعين سنة ، لأن مولده كان سنة خمسة ، ودفن بالمدرسة التي بناها
بالموصل ، وخلف ولداً ذكراً رباه عمه نور الدين محمود ، وزوجه ابنة أخيه قطب الدين
مودود بن زنكي ، فتوفي ولد سيف الدين شاباً ، وانقرض عقبه .

ذكر سيرة سيف الدين - رحمه الله -

كان جواداً كريماً شجاعاً ، وهو الذي بنى المدرسة الآتابكية بالموصل ، وقفها
على الفريقين الحنفية والشافعية ، بنى رباطاً للصوفية ، وكان مقصداً للشعراء ، فقصده
شهاب الدين الخيصر بيض^(٢) ، وامتدحه بقصيدة أولها :

(١) هو أوحد الزمان أبو البركات هبة الله بن علي بن ملكا البهلي لأن مولده يله ،
البغدادي لاقامته في بغداد ، كان يهودياً وأسلم . أنظر ترجمته في : (ابن أبي أصيبعة : طبقات
الاطباء ، ج ١ ، ص ٢٧٨ - ٢٨٠) .

(٢) هو شهاب الدين أبو الفوارس سعد بن محمد بن سعد بن صفي التيمي المعروف بحمص
بيض ، شاعر مشهور ، توفي في بغداد ليلة الأربعاء سادس شعبان سنة ٧٤٤ هـ . ويقال إنه
سمى حمص بيض لأنه رأى الناس يوماً في حركة مزججة وأمر شديد ، فقال : ما للناس في حمص
بيض ، فبقى عليه هذا القب ، ومعنى هذين العظمين الشدة والاختلاط . أنظر ترجمته في : (ابن
خلكان : الوفيات ، ج ٢ ، ص ١٠٦ - ١٠٨) .

إلامَ براك المجدد^(١) في زِيٍّ شاعرٍ وقد نَحَلْتُ شوقاً فروعُ المنابرِ
فوصله بألف دينار سوى الخلع .

وكان سيف الدين يحمل على رأسه السنجق^(٢) ، ولم يكن يفعل ذلك أبوه
ولا أحد من أصحاب الأطراف ، فلما فعل ذلك اقتدى به غيره ، وألزم الجند
أن لا يركب أحد إلا بالسيف في وسطه ، والدبوس^(٣) تحت رقبته .

ذكر استيلاء قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى على الموصل

لما توفي سيف الدين غازي كان قطب الدين مودود مقيماً بالموصل ، فاتفق الوزير
جمال الدين محمد بن علي الأصفهاني والأ مير زين الدين علي كوجك صاحب إربل والمقدم
على الجيوش علي تملك قطب الدين ، فاستحلفوه وحالفوا له ، وأركبوه إلى دار السلطنة ،
وزين الدين ماش في ركابه ، وتسلم جميع ما كان بيد سيف الدين من البلاد ، وتزوج
الخاتون^(٤) ابنة حسام [الدين] نمرتاش بن إيلغازي بن أرتق صاحب مardin ،

(١) في الأصل : « الدهر » ، والتصحيح عن : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٢) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٦٥) .
(٢) السنجق راية صغيرة صفراء ، وقد أصبح هذا التقليد الذي استنه سيف الدين غازي ،
وهو رفع السنجق على رأس الملك ، من رسوم الملك في مصر في عهدى الأيوبيين والمماليك .
أنظر : (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٨) .

(٣) الدبوس — والجمع دبائيس — آلة حربية ، عرفها صاحب (محيط المحيط) بأنها
« مراوة مدمسكة الرأس ، وكلابرة من النحاس في طرفها كتلة صغيرة » ، وقد وصفها
(Dozy: Supp. Dict. Arab.) وصفاً أقرب إلى الدقة هو : "massue, casse-tête, longue
d'environ deux pieds et terminée par une tête revêtue de fer, qui a environ
trois pouces de diamètre".

(٤) هي نفس الخاتون التي كان قد خطبها سيف الدين غازي ومات قبل أن يدخل بها فتزوجها
أخوه قطب قطب الدين مودود .

فُولد له منها سيف الدين غازى وعز الدين مسعود وغيرها ، وكانت هذه المرأة يحل لها أن تظهر بخمسة عشر ملكا من أبائها وأجدادها وأخوتها وبنى أخوتها وأزواجها وأولادها وأولاد أولادها ، وأشبهت من النساء فى ذلك فى الزمن القديم عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، فإنه كان يحل لها أن تظهر لثلاثة عشر خليفة ما بين أب وجد وأخ وابن أخ وولد أخ وزوج ، وفى زمننا [٧٠] هذا ربيعة خاتون بنت نجم الدين أيوب لم تمت حتى رأت من أولاد أخيها جماعة كبيرة كل منهم ملك على طرف من الأطراف .

ذكر استيلاء نور الدين محمود بن زنكى على سنجار

لما ملك قطب الدين الموصل كان أخوه نور الدين بحلب ، وهو أكبر منه ، فكتبه بعض الأمراء وطلبوه إليهم ، منهم المقدم والدمشقي الدين بن المقدم ، وكان دزداراً بسنجار (١) فسار نور الدين جريداً فى سبعين فارساً من أكابر دولته ، منهم الأمير أسد الدين شيركوه بن شاذى ، ومجد الدين أبو بكر بن الداية ، فوصل إلى ما كسين (٢) فى ستة أنفس فى يوم شديد المطر ، ولم يعرفه الذين بالباب ، فأرسلوا إلى الشحنة ، وأخبروه أنه وصل نفر من الأجناد كأنهم تركمان ، فلم يتم القاصد كلامه حتى وصل نور الدين ، فحين رآه الشحنة قبل يده وخرج عن الدار ، فترها نور الدين حتى لحق به أصحابه ، فسار مجداً إلى سنجار ، فوصلها وليس معه إلا نفر يسير ، ونزل ظاهر البلد وألقى نفسه على محفورة صغيرة من شدة تعب ، وأرسل إلى المقدم دزدار القلعة يعرفه بوصوله ، وكان المقدم قد استدعى من الموصل ، لأن

(١) ذكر ياقوت أنها مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين كل من الموصل ونصيبين ثلاثة أيام ، وهى فى لطف جبل طاك وفى وسطها نهر جار .

(٢) بلد بالخابور قريب من رحبة مالك بن طوق من ديار ربيعة . (ياقوت : معجم البلدان) .

مكاتبته لنور الدين كانت قد بلغتهم ، فأرسلوا إليه ، فتوقف عدة أيام فلم يصل إليه نور الدين ، فسار إلى الموصل وترك ابنه شمس الدين محمد بسنجار ، وقال له : « أنا أتأخر في الطريق ، فإن وصل نور الدين فأرسل من يعلمني » ، فلما فارق سنجان وصل نور الدين ، فلما علم شمس الدين بوصوله أرسل قاصداً إلى أبيه بالخبر ، وأنهى الحال إلى نور الدين ، فخاف فوات الأمر ووصل القاصد الذي سيره شمس الدين ابن المقدم إلى أبيه ، فأدركه بتلّ يَعْفَر^(١) ، فعاد إلى سنجان وسلمها إلى نور الدين ، وكاتب الأمير فخر الدين فر أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كَيْفَا^(٢) يستنجد به ، وبذل له قلعة الهيتم ، فسار إليه ، فلما سمع قطب الدين الخبر جمع المساكر ، وصار نحو سنجان ، ونزل بتلّ يَعْفَر .

ذكر الصلح بين قطب الدين وأخيه نور الدين

ورد سنجان إلى قطب الدين

[٧١] ولما نزل قطب الدين بتلّ يَعْفَر راسل زين الدين على كُوجِك وجمال الدين — وزير قطب الدين — نور الدين أخاه ، وأنكروا عليه إقدامه على أخذ ما ليس له ، وتهددوه بقصد ، وأخذ البلاد من يده قهراً إن لم يرجع اختياراً ، فأجاب : « إني أنا الأكبر وأنا أحق أن أدير أخى منكم ، وما جئت إلا لما تابعت إلى كتب الأمراء بذكرون كراهمهم لولايتكم عليه ، فحقت أن يحملهم الغيظ والآنفة على أن يخرجوا البلاد من أيدينا ، وأما تهديدكم إياي بالقتال

(١) هكذا تسميه الخاصة ، وتسميه العامة « تلّ أعفر » ، وقيل إن أصله « التلّ الأعفر » لونه فغير بكثرة الاستعمال وطلب الحقة . وهو قلعة وربيض بين سنجان والموصل في وسط واد فيه نهر جار . (ياقوت : معجم البلدان) .

(٢) قال ياقوت إنها بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر ، وهي كانت ذات جانبين وعلى دجلتها قطرة .

فأنا ما أقاتلكم إلا بجندكم ، وكان قد هرب إليه جماعة من الأجناد فخافوا من مخامرة الأمراء عليهم إذا لقوه ، فأشار الوزير جمال الدين بالصلح ، وقال : « نحن نظهر للسلطان والخليفة أننا تبع لنور الدين ، ونور الدين يظهر للفرنج أنه يحكمنا ، ويتهددهم بنا ، فإن كاشفناه وحاربناه ، فإن ظفر بنا طمع فينا السلطان ، وإن ظفرنا به طمع فيه الفرنج ، ولنا بالشام حصص ، وله عندنا سنجار ، فهذه أنفع لنا من تلك ، وتلك أنفع له من هذه ، والرأي تسليم حصص إليه ، وأخذ سنجار منه » . فاتفق رأي الجماعة على ذلك ، وسار جمال الدين إلى نور الدين ، فأبرم معه الأمر ، وتسلم حصص ، وسلم سنجار إلى أخيه ، وعاد نور الدين إلى الشام ، فأخذ ما كان له بسنجار من المال .

ولما تسلم قطب الدين سنجار أقطعها لزين الدين على كوجك ، واتفقت كلمتهم ، واتحدت آراؤهم ، وطلب نور الدين جمال الدين فامتنع ، واعتذر باحتياج قطب الدين إليه ، واستغنى نور الدين عنه برأيه ومعرفته ، فأطلق له نور الدين عشرة آلاف دينار كل سنة تحمل إليه ليصرفها في مصالحه ، فكان نائبه بالشام يقبضها كل سنة ، ويشتري له بها أسرى من الفرنج ويطلقهم .

ذكر قتل البرنس صاحب أنطاكية وكسرة الفرنج

وفي هذه السنة — سنة أربع وأربعين وخمسةائة — قصد نور الدين الدين بن زنكي — رحمه الله — حصن حارم — وهو للفرنج — فخرَّب رِبْضَه ، ونهب سواده ، ثم رحل إلى إنب (١) فحاصره ، فحشد البرنس صاحب أنطاكية (٢) ، فلقيه نور الدين .

(١) في الأصل : « انت » وقد صححت وضبطت بمد مراجعة ابن القلائى ، وذكر ياقوت

إنها حصن من أعمال عزاز من نواحي حلب .

(٢) هو « ريمون دى بواتيه » .

[٧٢] واقتلوا قتالا شديداً ، وانهزم الفرنج أقبح هزيمة ، وقتل منهم خلق كثير ، وأسر مثلهم . وقتل البرنس صاحب أنطاكية ، وكان عاتياً من عتاة الفرنج ، وعظيماً من عظمائهم ، فملك بعده والده بيمند (١) — وهو طفل — فتزوجت أمه (٢) برجل من الفرنج ليدير ولدها الطفل إلى أن يكبر ؛ ثم قصد نور الدين الفرنج مرة [أخرى] ، فجمعوا ولقوه فقتل منهم وأسر ، فكان من جملة الأسرى زوج أم بيمند ، فمدح الشراء نور الدين ، فمن مدحه : أبو عبد الله محمد بن صغير بن القيسراني بقصيدة أولها :

هذي العزائمُ لا ما تدعى القُضْبُ	وذى المكارمُ لا ما قالت الكتبُ
وهذه الهممُ اللاتي إذا خُطِبتُ	تعرّت خلفها الأشعارُ والخطبُ
صاغت يابن عماد الدين ذرّوتها	براحةٍ للساعي دونها التعبُ
ما زال جِذْك يبنى كل شاهقةٍ	حتى بنى قبةً أوتادها الشهبُ
أغرّت (٣) سيوفك في الأفرنج راجفةً	فواذ رومية الكبرى لها يجبُ
ضربت كبشهم منها بقاصمة	أودى لها الصُلبُ وانحطت لها الصُلبُ
طهرت أرضَ الأعدى من دماهم	طهارةً كل سيف عندها (٤) جنبُ
حتى استطار (٥) شرارَ الرّندِ قادحُه	فالهربُ تُضرم والآجال تُحتطبُ
من كان يغزو بلادَ الشّركِ مكتسباً	من الملوك ، فنورُ الدين محتسبُ

(١) في الأصل « سمد » بدون نقط ، وما هنا عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٨) وهو بومند الثالث .

(٢) هي « كونستانس » وقد تزوجت في مناصرا اسم « رينو دي شاتيون » . أنظر : (حبشي : نور الدين والصليبيون ، ص ٨٤) .

(٣) في الأصل : « أغرب سيوفك في الأفرنج راجمة » والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٩) .

(٤) في الأصل : « عنهما » ، والتصحيح عن المرجع السابق .

(٥) الأصل : « استطار » والتصحيح عن المرجع السابق .

ذو غُرَّةٍ ما مَنَّمَتْ وَاللَّيْلُ مَعْتَكِرٌ إِلَّا تَمَزَّقَ عَنْ شَمْسِ الضَّحَى الْحَجَبُ
أَفْعَالُهُ كَأَسْمِهِ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ وَوَجْهُهُ نَائِبٌ عَنْ وَصْفِهِ الْقَبُ
ومدحه آخر (١) بقصيدة أولها:

أَقْوَى الضَّلَالُ وَأَقْفَرُ عِرْصَاتُهُ وَعَلَا الْهَدَى وَتَبَلَّجَتْ قَسَمَاتُهُ (٢)
وَأَنْتَاشَ دِينَ مُحَمَّدٍ مَحْمُودُهُ مِنْ بَعْدِ مَا غَلَبَتْ (٣) دُمَا عِبْرَاتُهُ
رَدَّتْ عَلَى الْإِسْلَامِ عَصْرَ شَبَابِهِ وَثَبَّاتُهُ مِنْ دُونِهِ ، وَثَبَّاتُهُ
[٧٣] أَرَسَى قَوَاعِدَهُ وَمَدَّ عِمَادَهُ صُغْدًا وَشَيْدَ سَوْرَةٍ سَوْرَاتُهُ
وَأَعَادَ وَجْهَ الْحَقِّ أَبْيَضَ نَاصِعًا أَصْلَاتُهُ ، وَصِلَاتُهُ ، وَصَلَاتُهُ
وفي هذه السنة توفي معين الدين أنر القيم بتدبير دولة مجير الدين آبق بن محمد
— صاحب دمشق — .

ذكر فتح أقامية

وفي سنة خمس وأربعين وخمسمائة سار نور الدين محمود بن زنكي — رحمه الله —
إلى حصن أقامية — وهو للفرنج — قاتل من به ، وضيق عليهم ، فاجتمع الفرنج
وساروا نحوه ليرحلوه عنه ، فلم يصلوا إلا وقد ملكه وملاه ذخائر وسلاحا ورجالا
وجميع ما يحتاج إليه ، فلما بلغه سير الفرنج رحل عنه ، وقد فرغ من أمره ،
وسار للقائهم ، فحين رأوا قوة عزمه ، وأن الحصن قد ملك ، عدلوا عن طريقه ،
ودخلوا بلادهم .

(١) هو الشاعر أحمد بن منير . أنظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٦٠) .

(٢) الأصل : « نسبته » والتصحيح عن المرجع السابق .

(٣) كذا في الأصل ، ولعلها « هكت » .

ذكر انهزام نور الدين من الفرنج

في سنة ست وأربعين وخمسة مائة جمع نور الدين — رحمه الله — عساكره ، وسار إلى بلاد جوسلين بن جوسلين صاحب تل باشر وعين تاب وعزاز ، وكان جوسلين أشد الفرنج شجاعة وأقوام بأساً وأصحهم رأياً وأعظمهم مكيدة ، فجمع جمعا كثيراً من الفرنج وسار نحو نور الدين ، فالتقوا ، فانهزم المسلمون وقتل منهم وأسرى خلق كثير ، وكان من جملة الأسرى سلاح دار^(١) نور الدين ، فأخذه جوسلين ومعه سلاح نور الدين ، وسيّره إلى الملك مسعود^(٢) بن قَلِج أرسلان بن سليمان ابن قُطْلُش السلجوقي — صاحب بلاد الروم — وقال له : « هذا سلاح زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما هو أعظم منه » ، وبلغ ذلك نور الدين فعظم عليه .

ذكر وقوع جوسلين في أسر نور الدين — رحمه الله —

ثم شرع نور الدين في أعمال الحيلة على جوسلين ، فأرغب جماعة ممن معه من التركان ، ووعدهم الوعود الجميلة إن أتوه بجوسلين أسيراً أو عقيراً^(٣) ، فأدلوا عليه العميون ، فاتفق أنه خرج متصيّداً فظفر به طائفة منهم فوعدهم بمال جزيل إن أطلقوه ، فأجابوه إلى الإطلاق إن حضر المال ، فأرسل في إحضاره ، فمضى بعضهم [٧٤] إلى الأمير مجد الدين بن الداية — النائب بحلب — وأعلمه الحال ، فسبّر عسكراً ، فكبسوا أولئك التركان ومعهم جوسلين ، فأخذوه أسيراً وأحضره إلى نور الدين .

(١) سلاح دار أى ممسك أو صاحب سلاح السلطان ، وله الاشراف على السلاح خاناه السلطانية ، ويختار عادة من بين الأمراء القدامى . (صبيح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٨) .

(٢) حكم بين سنتي ٥١٠ و ٥٥١ . أنظر : (Zambaur Op. Cit. P. 143) .

(٣) « عقير » أى جريح . (اللسان) .

وذكر الأمير مؤيد الدولة بن منقّر أن أسر جوسلين إنما كان في سنة خمس وأربعين وخمسة ، وذكر أن صورة أسره أنه خرج من مدينة تل باشر ، وسار في الليل فأدركه النوم ، فنزل ومعه نفر يسير من أصحابه ، وقال لباقي أصحابه : « انطلقوا فانا ألحقكم » ونزل فنام ، فموت به سرية من التركان اتفاقاً ، فانهزم أصحابه ، وأخذ جوسلين أسيراً ، وهم لا يعرفونه ، فاجتازوا به من الغد على رجل أرمني ، فجاء وقبل يده ، فقالوا له التركان : « من هذا ؟ » فقال : « هذا جوسلين صاحب تل باشر » ، فلما عرفوه احتفظوا به ، وبلغ خبره إلى مجد الدين أبي بكر بن الداية — النائب بحلب — فأحضر التركان وأعظام حتى أراضاه ، وأخذ جوسلين وتركه عنده ، فلما وصل نور الدين إلى حلب كحل جوسلين وأهلكه .

ذكر فتح تل باشر

وكتب النواب بتل باشر في هذه السنة نور الدين — أعنى سنة ست وأربعين وخمسة — في أن يتسلمها ، وكان نور الدين — رحمه الله — نازلاً بدمشق ، فكتب إلى مجد الدين أبي بكر بن الداية لمضى إليها ويتسلمها ، فمضى إليها وتسلمها يوم الخميس خمس بقين من ربيع الأول من السنة ، ثم تسلم عين تاب وعزاز وتل خالد وقورس والراوندان و برج الرصاص وحصن البارة وكفر سود وكفر لانا (١) في مدة قريبة ، وسنذكر ذلك . وفي أسر جوسلين يقول محمد بن صغير بن القيسراني من قصيدة :

كما أهنتُ الأقدارُ للقمص أسره وأسعدُ قرْنٍ من حواه لك الأسرُ

(١) هذه كلها هي القلاع والمدن والحصون المحيطة بتل باشر من أملاك جوسلين . وقد أضاف إليها (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٥٨) : « دلوك ومرعش ونهر الجوز وغير ذلك من أعماله » . ولشريف بها جيماً انظر : (ياقوت ، معجم البلدان) .

طغى وبغى^(١) عدوا على غلوائه فأورثه البغى العداوة والكفر
وأمت عزاز كاسمها بك عزة تشق على الشرين لو أنها وكر
كأنى بهذا العزم لا فل حذو فأقصاه بالاقصى وقد قضى الأمر
[٧٥] فسر وأملك^(٢) الدنيا ضياء وبهجة فبالفق الداجى [إلى^(٣)] إذا السنا فقر
وقد أصبح البيت المقدس طاهرا وليس سوى جارى الدماء له طهر

ذكر كسرة الفرنج بدلوك^(٤) وفتحها

وفى سنة سبع وأربعين وخمسة تجمعت الفرنج وحشدت فارسهم وراجلهم
وساروا نحو نور الدين محمود بن زنكى — رحمه الله — وهو ببلاد جوساين لينموه
من تملكها وأخذها ، فوصلوا إليه وهو بدلوك ، ، فوقع المصاف بها ، واقتلوا قتالا
شديداً ، وصبر الفريقان عليه ، فانكسر الفرنج ، وقتل منهم وأسر عدد كثير ،
وملك دُلُوك واستولى عليها .

ذكر استيلاء محمود بن زنكى على مدينة دمشق

ونخرج الملك عن بيت طُغتكين

آخر من ملك دمشق من بيت الأمير ظهير الدين أتابك طُغتكين الأمير
مجبر الدين آبق بن جمال الدين محمد بن تاج الملوك^(٥) بورى بن طغتكين ، وكان القيم

(١) الأصل : « طفاوبغا » .

(٢) كذا فى الأصل ، ولعلها : « واملا » .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٨) .

(٤) هكذا ضبطها ياقوت وقال إنها بليدة من نواحي حلب بالمواصم .

(٥) فى الأصل لفظ « بن » زائدة بين « تاج الملوك » و « بورى » .

بتدبير أمره معين الدين أتر مملوك جده ، وكان الحكم له ، وليس لمجير الدين إلا مجرد الاسم ، ثم توفي معين الدين سنة أربع وأربعين وخمسة .

ولما كانت هذه السنة — وهي سنة سبع وأربعين وخمسة — نازل الفرنج عسقلان — وهي للمصريين — فأخذوها وكان نور الدين لما نازل العدو عسقلان يتأسف إذ لا يمكنه الوصول إليهم ، ودفعهم عنها بسبب توسط دمشق بينه وبينهم ، فلما ملكها العدو وقوا وطعموا في ملك دمشق ، واستضعفوا بمجير الدين ، وتابعوا الفارة على أعماله ، وأكثروا القتل بها والنهب والسبي ، وأفضى الأمر بالمسلمين إلى أن جعل الفرنج على دمشق قطيعة في كل سنة ، وكان رسولهم يجيئ وبجبيها من البلاد ، ثم اشتد البلاء حتى أرسل الفرنج واستعرضوا عبيدهم وإماءهم الذين نهبوا من سائر بلاد النصرانية ، وخبروهم بين المقام عند مواليهم والعود إلى أوطانهم ، فمن أحب المقام تركوه ، ومن أحب وطنه سار إليه ، وقلت حرمة مجير الدين عند أهل دمشق إلى أن حصروه في القلعة مع إنسان من أكابر أهل البلد يقال له مؤيد الدين ابن الصوفي .

ولما اتصل ذلك بنور الدين لحقته الحمية ، وخاف من [٧٦] استيلاء العدو على بلاد المسلمين ، وأهمه أهل دمشق ، وعمل الحيلة في ملكها حيث علم أنه إن قصدها ورام أخذها بالقلبة استمال صاحبها الفرنج واستعان بهم على حربه ، فاستمال نور الدين حينئذ مجير الدين صاحبها ولاطفه وأظهر مودته وواصله بالهدايا والتحف حتى وثق به ، ثم كان في بعض الأحيان يقول له : « إن فلاناً من الأمراء قد كاتبني في تسليم البلد إلى » ، فيبعد مجير الدين ذلك الأمير ويأخذ إقطاعه ، وفعل ذلك مراراً حتى أبعد مجير الدين عنه أكثر الأمراء ، وبقي عنده أمير يقال له عطاء بن حفاظ السلي ، وكان شهماً شجاعاً ، فنوّض إليه مجير الدين أمر دولته ، وكان نور الدين

لا يتمكن معه مما يريد ، فاتفق أن مجير الدين قبض عليه وقتله ، فتم غرض نور الدين إلى دولته ، وكاتب الأحداث بدمشق ووعدهم بالإحسان إليهم واستمالهم إليه ، ثم سار إلى دمشق وحصرها ، فأرسل مجير الدين إلى الفرنج وبذل لهم الأموال ، ووعدهم تسليم بعلبك إليهم إن نجدوه ورحلوا نور الدين عنه ؛ فجمعوا فارسهم وراجلهم ، ولم يجتمع جمهم إلا وقد تسلّم نور الدين البلد .

وكان صورة تسلمه له أن الأحداث ناروا وفتحوا الباب الشرقى فدخله نور الدين وملك البلد ، وحصر مجير الدين في القلعة ، وراسله في التسليم ، وبذل له إقطاعاً من جلته حصص ، فأجاب إلى ذلك ، وسلم قلعة دمشق إلى نور الدين ، وسار إلى حصص ثم إنه راسل أهل دمشق ليسلموا إليه البلد ، وعلم نور الدين بذلك ، فأخذ منه حصص ، وسلم إليه بالس ، فلم يرضها ، وسار عنها إلى بغداد وأقام بها ، وابتنى داراً بالقرب من مدرسة النظامية ، وتوفى بها ، وصفت المالك بالشام لنور الدين .

وذكر ابن الأثير أن فتح تل بآخر كان في هذه السنة ، وأن نور الدين بعث إلى حسّان — صاحب منبج — في أن يتسلمها فتسلمها .

وكنا حكينا عن ابن منقز أن تسلمها كان في سنة ست وأربعين ، وما ذكره ابن الأثير هو الأصح ، فإنه ذكر أنه لما ورد عليه رسل النواب بتل بآخر يبذلون التسليم إليه كان نور الدين نازلاً على دمشق ، ومنازلة الماء كانت في هذه السنة .

ذكر منازلة نور الدين — رحمه الله — حارم

[٧٧] وفي سنة إحدى وخمسين وخمسمائة حاصر نور الدين محمود بن زنكي — رحمه الله — قلعة حارم وهي لبينند — صاحب أنطاكية — ؛ فجمع الفرنج وسار إلى لقائه ، فممنوها منه ، وكان في الحصن رجل من دهاة الأفرنج يرجعون إلى رأيه

وعقله ، فأرسل إليهم يقول لهم : « إننا نقدر على حفظ القلعة ، وليس بنا ضعف ، فلا نخاطروا باللقاء ، فإنه إن هزمكم أخذها وغيرها ، والرأى مطاولته ، فأرسلوا إليه وصالحوه على أن تعطوه نصف أعمال حارم . واصطلحوا على ذلك ورحل عنهم .

وفي سنة اثنين وخمسين وخمسمائة كانت الزلزلة العظيمة التي هدمت حماة وشيزر ، وهلك تحت الردم بنو منقذ^(١) الكنانيون — أصحاب شيزر — فبادر إليها نور الدين فملكها ، وأضافها إلى ممالكه ، وكانت هذه الزلزلة عظيمة جداً ، أهلكت حماة وشيزر ، وذكر بعض من أدركها أنه قال بعض معلى الكتاب : « كان عندى خلق من الصبيان هلكوا كلهم ، فما جاء أحد من أقاربهم سأل عن هلاك من هلك له » ، وهذا يدل على أنها أهلكت أقارب أولئك الصبيان كلهم ، وكانوا بنو منقذ اجتمعوا ذلك اليوم فى مكان ، وعندهم قرد يلعب بين أيديهم ، فوقع البناء عليهم فأهلكهم كلهم ، ولم يسلم إلا ذلك القرد ، فإنه هرب إلى بستان هناك من شباك الدار التي كانوا فيها ، فسلم وحده ، وارتدم الحصن الذى لهم حتى كأنه لم يكن .

ذكر استيلاء نور الدين على بعلبك

وفي هذه السنة — سنة اثنين وخمسين وخمسمائة — ملك نور الدين بعلبك ، وقد ذكرنا تملك عماد الدين بن زنكى لها ، ثم تسليم نائبه بها نجم الدين أيوب بن شاذى بعلبك إلى صاحب دمشق ، فاستناب بها رجلا يقال له ضحّاك البقاعى^(٢) ، فلما ملك

(١) لاستيفاء أخبار شيزر وحصنها وأخبار الزلازل وأخبار بنى منقذ أنظر : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٨٢ — ٨٣) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٠٤ — ١٠٥) و (محمد حسين : أسامة بن منقذ) و (طاهر النعسانى : أسامة بن منقذ) .

(٢) نسبة إلى بقاع بعلبك . (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٨٥) .

نور الدين دمشق امتنع ضحكاً بعلبك ، ولم يمكن نور الدين محاصرتها لقربها من الفرنج ، وخاف إن حاصرها يسلمها ضحكاً إليهم ، فتلطف الحال معه إلى أن عوّضه عنها وتسلمها ، وفي ذى الحجة من هذه السنة توفي عز الدين الديسي صاحب جزيرة ابن عمر ، وهو من أكبر الأمراء العمادية .

[٧٨] ذكر استيلاء نور الدين على مدينتي بصرى وصرخد

كانت صرخد بيد الأمير أمين الدولة كُشْتِكِين^(١) من جهة الأمير ظهير الدين أتابك طُغْتِكِين ، وكان بصرى التيتاش^(٢) غلام أمين الدولة ، فتوفي أمين الدولة في ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسة ، فصار غلامه التيتاش إلى صرخد فملكها ، واجتمعت له بصرى وصرخد ، وأظهر المشاقة لصاحب دمشق ، وسار إلى الفرنج يستنجد بهم ، فسار الأمير معين الدين أنر مقدم الجيوش بدمشق إلى تلك الناحية ، فلما خرج الفرنج لنصرة التيتاش ، وهو معهم ، سار إليهم معين الدين فكسروهم ، وعادوا مخذولين إلى بلادهم ، ومعهم التيتاش ، ونزل الأمير معين الدين على صرخد وبصرى في ذى القعدة سنة إحدى وأربعين وخمسة ، وأقام محاصراً لها شهرين فملكها ، وانفصل التيتاش عن الفرنج ، وعاد إلى دمشق بغير أمان ، وكان في أيام ولايته قد قبض على أخيه خطلخ فكحله ، وأخرجه من عنده ، فلما وصل التيتاش إلى دمشق حاكمه أخوه خطلخ وكحله بالشرع قصاصاً ، ولما ملك الأمير معين الدين قلعتي بصرى وصرخد ، سلم صرخد إلى الأمير مجاهد الدين

(١) أمين الدولة كُشْتِكِين نائب قلعتي بصرى وصرخد ، ولاء عليهما الأتابك طُغْتِكِين ، أنشأ المدرسة الأميلية في دمشق للفقهاء الشافعية ، توفي سنة ٥٤١ هـ . أنظر : (النعمى . الدارس في تاريخ المدارس ، ص ١٧٨ وما بعدها) .

(٢) كذا في الأصل ، وهو في (ابن الفلاني : ذيل تاريخ دمشق) : « التوتاش » و « اليوناس » ؛ وفي : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٠) : « التوتاش » .

بُرْزَان بن يامين^(١) الكردي ، وسلم بصرى إلى حاجبه فارس الدولة صرخيك^(٢) ،
ثم توفى مجاهد الدين بُرْزَان بصرى خذ ليلة ثاني صفر سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، فملكها
بعده ولده سيف الدين محمد بن بُرْزَان ، فأخذها منه نور الدين — رحمه الله —
بعد امتناع ، وعوضه عنها حصن أبي قبيس ، وقتل فارس الدولة صرخيك صاحب
بصرى في المحرم سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، قتله ابن الحاجب جواه^(٣) زوج ابنته ،
فأخذها نور الدين — رحمه الله — وولّى فيها نوابه .

ذكر خروج أمير أميران^(٤) بن زنكى على أخيه نور الدين

وفي سنة أربع وخمسين وخمسمائة مرض نور الدين — رحمه الله — بقلعة حلب ،
واشتد مرضه ، وأرجف الناس بموته ، فجمع أخوه الأصغر أمير أميران بن زنكى
الناس ، وحصر قلعة حلب ، وكان الأمير أسد الدين شيركوه بن شاذى بمحصر ،
وهو مقطعا ، فسار إلى [٧٩] دمشق ليتغلب عليها ، وبها أخوه^(٥) نجم الدين أيوب
ابن شاذى ، فأنكر عليه نجم الدين ذلك وقال : « أهلكتنا ، والمصلحة أن تعود

(١) في الأصل هنا وفيما يلي : « بران بن مامين » ، والتصحيح هنا عن : (النعمى :
الدارس ، ج ١ ، ص ٤٥١ ، هامش ٢) حيث ذكر الناشر أن الاسم صحيح بعد مراجعة
الكتابة المنقوشة على عتبة باب المدرسة المجاهدية الجوانية التي أنشأها باسمه في دمشق . وهو
مجاهد الدين أبو الفوارس بران بن علي بن محمد من الأكراد الجلالية وهي طائفة منهم ، بلادهم
في العراق بنواحي دقوقا من أعمال بغداد ، وكان أحد مقدمي الجيش بالشام في دولة نور الدين
وقاب بصرى ، وتوفى سنة ٥٥٥ هـ . أنظر ترجمته في : (المرجع السابق) و (ابن الفلانى :
القبيل ٥ ص ٣٥٩) و (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٢٣) .

(٢) كذا في الأصل ، وفي : (النعمى : المرجع السابق ، ص ٤٥٢) : « صرخك »
ولم يستطع الناشر ضبط الاسم .

(٣) كذا في الأصل ولم يستطع الناشر ضبط الاسم .

(٤) هو نصره الدين محمد بن زنكى ، ويقال له أيضاً « أمير ميوان » .

(٥) في الأصل : « أخيه » .

إلى حلب مجدداً ، فإن كان نور الدين حياً خدمته في هذا الوقت ، وإن كان قد مات فأننا في دمشق تفعل ما تريد من تملكها ، فماد إلى حلب مجدداً وصعد القلعة ، وأجلس نور الدين في شباك يراه الناس ، وكلهم فلما رأوه حياً تفرقوا عن أخيه أمير أميران ، فسار إلى حران فملكها ، فلما عوفي نور الدين قصد حران فهرب أخوه أمير أميران وترك أولاده بالقلعة ، فملكها نور الدين وسلمها إلى الأمير زين الدين علي كوجك بن بكتكين — صاحب إربل ونائب أخيه قطب الدين مودود ابن زنكي بالموصل — .

ثم سار نور الدين إلى الرقة ، وبها أولاد أميرك الجاندار ، وهو من أعيان الأمراء العمانية ، وكان قد توفي وبقي أولاده ، فشنع فيهم جماعة من الأمراء ، فغضب ، وقال : « هلا شفعم (١) في أولاد أخي لما أخذت منهم حران ، وكانت الشفاعة فيهم من أحب الأشياء إلى » ، ولم يشفعهم وأخذها منهم .

ذكر وفاة المقتفي (٢) لأمر الله وسيرته

قد ذكرنا خلع السلطان مسعود للراشد بالله ، وإقامة المقتفي لأمر الله للخلافة ، ولما تولى الخلافة أحسن السيرة ولم يتعرض لمحاربة أحد ، ولا لتجنيد أجناد ، حسب ما اشترطه السلطان مسعود عليه ، ثم راسله السلطان ليتصل بأخته فاطمة بنت محمد بن ملكشاه ، فأجابه إلى ذلك ، وعقد العقد بدار الخلافة على صداق مبلغه مائة ألف دينار ، ثم حملت الجهة من همدان إلى بغداد ، وصحبها قاضي القضاة ،

(١) في الأصل : « تشفموا » والتصحيح عن : (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٩٥) .
(٢) انظر ترجمته في : (ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ١٩٧) و (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٩٦) و (سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٢٣٤ — ٢٣٥) و (ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٣٢) و (السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٠ — ٢٩٣) .

وامتوزر المقتنى يحيى بن هُبَيْرَة ، فأقام حشمة الدولة ، ثم توفى السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بباب همدان يوم الأربعاء تاسع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، فاضطربت الدولة السلجوقية بموته ، وكثر الخلف بين ملوكها ، فحينئذ تفرد الخليفة المقتنى لأمر الله بأمر العراق ، وطرد عنه نواب السلجوقية ، وبني سور بغداد ، وجنّد الجنود ، وجمع العساكر ، وقام وزيره [٨٠] عون الدين أبو المظفر يحيى بن هُبَيْرَة بأعباء مملكته حق القيام ، فقصد بغداد السلطان محمد شاه ابن محمود بن ملكشاه طالبا من الخليفة أن يخطب له بالسلطنة ، فامتنع الخليفة من ذلك فجمع السلطان الجموع من الأطراف ، واستعان بالأمير قطب الدين مودود ابن عماد الدين زنكى — صاحب الموصل — ، فسير إليه عسكرا مقدمهم زين الدين على كُوجَك بن بكتكين صاحب إربل ، فنازل السلطان محمد شاه بغداد من يوم السبت ثمانى عشر المحرم سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة إلى يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الأول من هذه السنة ، ونصب على بغداد المنجنىقات والسلام ، فلم ينل غرضا ، وظهر من الخليفة المقتنى لأمر الله من الشجاعة والثبات وبذل العطاء مالا مزيد عليه ، ولما طال الحصار ولم ينل السلطان محمد شاه غرضا رحل عن بغداد خائبا ، واتفقت وفاة السلطان سنجر بن ملكشاه — عم القوم — صاحب خراسان ، وكانت الخطبة مستمرة له ببغداد ، فقوى أمر الخليفة بالعراق ، وقامت حشمة الدولة العباسية ، ورجعت إلى أحسن ما كانت عليه ، وكان المقتنى لأمر الله فاضلا حسن العقيدة ، وله شعر حسن من جملته :

قالت أحبك ، قلت : كاذبة ، غُرِّى بذا مَنْ ليس يفتقد
لو قلت لي : أشنالك ، قلت : أجل ، الشيخُ ليس يحبه أحدُ

ورُوي أنه وقف يوماً على ظاهر مشهد علي بن أبي طالب — رضى الله عنه — بالنجف ، وكان قد عزم على الدخول إليه لزيارته ، فمنعه وزيره عون الدين بن هُبَيْرَة (١) من ذلك ، وصدفه عنه بأقوال قالماله ، فتمثل المقتفى بأبيات منجم بن نويرة ، وأشار إلى جهة القبر ، وهو واقف خارج سور المشهد :

لقد لامنى عند القبور على البكا رفيقٍ لتُذرافِ (٢) الدموعِ السوافكِ
وقال : أتبكي كُلَّ قبرٍ رأيته لِقَبْرِ نوى بين اللوى (٣) طالداً كادكِ؟
أمن أجل مَيِّتٍ واحدٍ أنت نائحٌ على كل قبرٍ أو على كل هالكِ
فقلتُ له : إن الأسى يبعثُ الأسى ، ذرونى ، فهذا كله قبرُ مالكِ

ثم قال مشيراً بأصبعه إلى القبر : « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، [٨١] اللهم أنت قلتَ وقولك الحق : « وأتوا البيوت من أبوابها » ، وهذا باب من أبوابك ، اللهم فاغفر لى به كل خطية ، واقض لى به كل حاجة ، وأكفنى بركة كل منهم ، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت » ، وانصرف . وكانت وفاة المقتفى لأمر الله يوم الأحد ثانى ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وكانت مدة خلافته أربعاً وعشرين سنة ، وثلاثة أشهر ، واثنين (٤) وعشرين يوماً ، وعمره ست وستون سنة .

(١) هو عون الدين أبو الظفر بحى بن هبيرة ، توفى سنة ٥٦٠ هـ ، انظر ترجمته فى : (ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٧٦ — ٢٧٩)

(٢) فى الأصل : « بتذراف » .

(٣) فى الأصل : « بين الثرى والدكادك » .

(٤) فى (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٩٦) و (ابن الجوزى : المرجع السابق) : « وستة عشر يوماً » .

ذكر بيعة المستنجد بالله

وفي هذا اليوم يبيع ببغداد للخليفة المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتدى ،
بنص من أبيه عليه ، وبإيعه عمومته وبنو عمه ، وأقرّ الوزير عون الدين أبا المظفر
يحيى بن هبيرة على وزارته ، وكان له معظماً مكرماً لأن والده أوصى إليه بذلك ، وبلغ
من تربيته أن بعضهم حكى ، قال : « دخلت الدار فوجدت الخليفة المستنجد بالله ،
وبين يديه وزيره يحيى بن هبيرة ، والخليفة ينشده شعراً لنفسه يمدح به وزيره ، وهو :

صَفَتْ نُعْمَتَانِ ، خَصَّتَاكَ وَعَمَّتَا ،	فَذَكِّرْهُمَا حَقَّ الْقِيَامَةِ يُذَكِّرُ : (١)
وَجُودُكَ وَالْدُنْيَا إِلَيْكَ فَتِيرَةٌ ،	وَجُودُكَ وَالْمَعْرُوفُ فِي النَّاسِ يُشْكِرُ
قُلُوبُ رَامٍ يَا يَحْيَى مَقَامَكَ جَعَفَرُ	وَيَحْيَى لَكُفَا عَنْهُ يَحْيَى وَجَعَفَرُ
وَلَمْ أَرَ مِنْ يَنْوِي لَكَ الشَّرَّ يَا أَبَا أَل	مُظَفَّرٌ إِلَّا كُنْتَ أَنْتَ الْمُظَفَّرُ

ذكر حصر نور الدين مدينة حارم

وفي سنة سبع وخمسين وخمسمائة جمع نور الدين محمود بن زنكى — رحمه الله —
المساكر وسار بهم إلى حارم ، فحصرها وجد في قتلها ، فامتنت عليه لخصائنها وكثرة
من بها من فرسان الفرنج وشجعانهم ومقاتيلهم ، ولما علم الفرنج منازلة نور الدين حارم
جمعوا فارسهم وراجلهم واستعدوا وحشدوا ، وساروا نحوه ليرحلوه عنها ، فلما قاربوه
طلب منهم المصاف ، فلم يجيبوا إليه ، وراسلوه ، وتلطفوا معه الحال ، فلما رأى عجزه
عن أخذ الحصن وأنهم (٢) لا يجيبونه إلى المصاف عاد إلى بلاده .

(١) لى (ابن الجوزى ، ج ١٠ ، ص ٢١٤) : « ينسر » .

(٢) فى الأصل : « وأنه » .

ذكر هزيمة نور الدين من الفرنج

وفي سنة ثمانية وخمسين وخمسمائة [٨٢] جمع نور الدين — رحمه الله —
المساكر ، قتل بالبقعة ، تحت حصن الأكراد ، عازماً على دخول بلادهم ، ومنازلة
أطرابلس ؛ فبينما الناس في بعض الأيام في خيامهم وإذا بصلبان الفرنج وراء الجبل
الذي عليه الحصن ، فكبسوا المسلمين ، ووضعوا فيهم السيف ، وأكثروا فيهم القتل
والأمر ، وقصدوا خيمة نور الدين محمود ، فخرج من ظهر خيمته عجلاً بغير قباء ، فركب
فرساً (١) هناك للنوبة ، ولسرعته ركبته وفي رجله الشبحة (٢) ، قتل إنسان
من الأكراد قطعها ، فنجى نور الدين ، وقتل الكردي ، فسأل نور الدين من بعد
ذلك عن مخافيه فأحسن إليهم جزاء الفعلة .

وكان أكثر القتل في السوق ، وسار نور الدين إلى حمص ، قتل ظاهرها ،
وأحضر ما يحتاج إليه من الخيام فنصبها على بحيرة قدس ، وكان الناس يظنون
أنه لا يقف دون حلب ، واجتمع إليه كل من نجا من المعركة ، وأرسل إلى دمشق ،
وأحضر الأموال والدواب والأسلحة والخيام وجميع ما يحتاج إليه ، وفرق ذلك
على من سلم ، ومن قُتل أقر إقطاعه على أولاده ، ومن لم يكن له أولاد فبلى بعض
أهله ، فعاد المسكر (٣) في مدة قريبة كأنه لم يفقد منه أحد ؛ فرحه الله وقُدس
روحه ، وهكذا فلتكن الملوك .

(١) في الأصل : « فرس » .

(٢) كذا في الأصل ، وفي (الإنسان) : « الشبحة العود » ، ولعل المقصود أن رجل
الفرس كانت لاتزال مربوطة إلى التود .

(٣) بعد هذا اللفظ في الأصل : « كأنه لم يفقد منه أحد » وقد حذفها الناشر لأنها
تكرار من الناسخ يخل بالمعنى .

ولما انهزم العسكر الإسلامي عن الفرنج — لعنهم الله — ظنوا أنهم لا يقوم لهم قائمة بعدها ، وصمموا على قصد حمص وأخذها ، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها ، قالوا : « لم يفعل هذا إلا وعنده من القوة أن يمنعنا » ، وأكثرت نور الدين من الخرج ، فذكر أنه قسم في يوم واحد مائتي ألف دينار سوى غيرها من الدواب وال سلاح وتخيما ، وتقدم إلى الديوان أن يحصروا الجند ، ويسألوا كل واحد عن الذي أخذ منهم ، فكلما ذكر شيئاً أعطوه عوضه ، فحضر بعض الجند وادعى شيئاً كثيراً علم بعض النواب كذبه فيما ادعاه لمعرفتهم بحاله ، فأرسلوا إلى نور الدين وأنبهوا إليه القضية واستأذنوه في تحليفه على ما ادعاه ، فخرج الجواب : « لا تكذبوا عطاءنا ، فإنني أرجو الاجر والثواب [٨٣] على قليله وكثيره . »

ومن أحسن ما يؤثر عنه أنه قال له أصحابه : « إن لك في بلادك إدارات كثيرة ورسالات عظيمة للفتهاء والفقراء والصوفية والقراء ، فلو استعنت الآن بها لكان أمثل » ، فنضب وقال : « والله إنني لا أرجو النصر إلا بأوائك ، فإنما ترزقون وتنصرون بضغائنكم ، كيف أقطع رسالات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطئ ، وأجرفها إن من لا يقاتل عني إلا إذا رأي ، بسهام قد تخطئ وتصيب ؟ ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم ، كيف أعطيه غيرهم ؟ » فسكتوا .

وراسات الفرنج نور الدين في معنى المهادنة ، فامتنع ، ففترقوا في بلادهم ، وفي هذه الواقعة يقول مذهب الدين بن أسعد الموصلی (١) المدرس بحمص قصيدة منها :

(١) هو أبو الفرج عبيد الله بن أسعد بن علي بن عيسى الموصلی الحمصي المعروف بابن الدهان . النقيب الشافعي الشاعر وينتسب بمذهب الدين ، توفي سنة ٥٥٩ هـ . ترجم له (ابن تفری بردی : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٦٥ — ٣٦٦) قال : « كان فصيحاً فقيهاً فاضلاً أديباً شاعراً غلب عليه الشعر واشتهر به ، وله ديوان صغير وكله جيد ، ورحل البلاد وهدح بمصر الوزير الصالح علاء الدين بن رزبك وغيره » ، أنظر أيضاً : (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٢٨) .

ظبي^(١) المواضي وأطراف القنا الذيل
وكافل^(٢) لك كاف^(٣) ما نحاوله
وما يعيبك ما نالوه^(٤) من سلب
وإنما أخلدوا حيناً إلى خدع
واستيقظوا ، وأراد الله غفلتكم
قناً لقاً ، وقسى غير مورة
ما يصنع الليث — لا ناب ولا ظفر —
هلا وقد ركب الأسد المصور وقد
ضامن^(٥) لك ما حازوه من نفل
عز^(٦) وحزم^(٧) وبأس غير منتقل^(٨)
بالخل ، قد تؤسر الأساد بالخليل
إذ لم يكن لهم بالجيش من قبل
لينفذ القدر المحتوم في الأزل
والخليل غارية^(٩) ترعى مع الهمل
بما حواله : من عنبر ومن وعل
سلو الظبي تحت غابات من الأسل

ذكر مسير أسد الدين شيركوه الأول إلى مصر

ولما كانت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وصل أمير الجيوش أبو^(٦) شجاع شاور
ابن مجير السعدي إلى دمشق ، وذلك لست مضين من ربيع الأول ، مستنصراً بنور
الدين علي ضرغام بن سوار الملقب بالمنصور ، وكان تغلب على الوزارة وأخرج شاوراً
منها ، وقتل ولده طياً ، والخليفة يومئذ العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله بن يوسف
ابن أبي الميمون عبد المجيد [٨٤] الحافظ لدين الله . والحكم للوزراء ، من قهر

(١) في الأصل : « ظبا » .

(٢) في (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٢٨) : « وعزم » .

(٣) في المرجع السابق : « منتحل » .

(٤) في نفس المرجع : « ما حازوه » .

(٥) في (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٢٨) : « غارية » .

(٦) في الأصل : « نصر بن شجاع ، وهو خطأ واضح ، واسمه بالكامل : « أبو شجاع
شاور بن مجير ابن تزار بن عشار بن شاس السعدي » انظر ترجمته في : (ابن خلكان :
الوفيات ج ٢ ، ص ١٥٦ — ١٦٠) .

بالسيف أخذها ، وانخافا ، بمصر تحت قهرهم ، وكان الأمر كذلك من أيام المستنصر بالله معذ بن الظاهر .

وشرط شاور لنور الدين أنه إن مَرَّ معه العسكر ليقوى بهم على خصه ضرغام ، وينزع الوزارة منه ، أن يكون لنور الدين حصة من البلاد ، ويكون شاور متصرفا تحت أمره ونهيه واختياره ، فتردد نور الدين — رحمه الله — في إجابته ، فتارة يقوى عزمه على ذلك طلبا للزيادة في الملك وليقوى على عدو الدين ، فإن لم يكن له — رحمه الله — همة إلا جهادهم ، وتارة يثنى عزمه خوفا على العساكر من خطر الطريق بسبب توسط الفرنج بينه وبين الديار المصرية .

ثم إنه قوى عزمه ، وصم على إجابة شاور إلى ملتصقه ، واستخار الله سبحانه في ذلك ، فتقدم إلى أسد الدين بالتجهيز للمضي مع شاور ، واستصحب معه العساكر ، وساروا في صحبته شاور ، وسار معها نور الدين إلى طرف بلاد الإسلام مما يلي بلد الأفرنج في بقية العسكر ، ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين .

وكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين ، ثم طارق أسد الدين نور الدين ، وسار بمن معه إلى الديار المصرية ، وكانت الطريق إذ ذاك شرقي الكرك والشوبك ، على عقبة أيلة (١) إلى صدر (٢) وسويس ، ثم إلى البركة (٣) التي على باب القاهرة .

(١) مدينة على ساحل بحر القلزم وهي المعروفة اليوم باسم العقبة اختصاراً . انظر أخبارها في : (ياقوت : معجم البلدان) و (المقرئ : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٩٨ — ٣٠٠) .

(٢) هكذا ضبطها ياقوت ، وقال إنها قلعة خراب بين القاهرة وأيلة .

(٣) هي بركة الجب ، وقد عرفها (المقرئ : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٦٥ — ٢٦٧) بقوله : « هذه البركة في الجهة البحرية من القاهرة على نحو بريد منها ، عرفت أولاً بحج عميرة ، ثم قبل لها أرض الجب ، وعرفت اليوم ببركة الحجاج من أجل نزول حجاج البر بها عند مسيرهم من القاهرة وعند عودهم .. إلخ » .

ولما قارب أسد الدين مصر خرج إلى لقائه ناصر الدين أخو الضرغام بساكر مصر ، فلقبهم ، فانهزم ناصر الدين وعاد إلى القاهرة مهزوما ، ووصل أسد الدين فنزل على القاهرة في أواخر جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، فخرج الضرغام من القاهرة سلخ الشهر ، فأدرك وقتل عند مشهد السيدة نفيسة بنت الحسن ابن زيد بن الحسن بن علي — رضوان الله عليهم — ، وبقي مطروحا يومين ، ثم نُحِل ودُفِن بالقرافة ، وقتل أخوه أيضاً .

ونُحِل على شاور خلع الوزارة في مستهل رجب من السنة المذكورة ، وأعيد إلى الوزارة وتمكّن منها ، وأقام أسد الدين [٨٥] بظاهر القاهرة ، وغدر به شاور ، ورجع عما كان وافق نور الدين عليه ، وأرسل إليه يطلب منه الرجوع إلى الشام ، فامتنع أسد الدين ، وطلب منه ما وقع الاستقرار عليه ، فلم يجبه شاور ، فلما رأى أسد الدين إصرار شاور على القدر ، وأرسل نوابه إلى مدينة بلبس ، فتسلوها ، وحكم على الأعمال الشرقية ، فأرسل شاور حينئذ إلى الفرنج يستمدّهم ، ويخوفهم من نور الدين إن ملك الديار المصرية ما يطيب لهم معه مقام ، وكان الفرنج لما سمعوا بتوجه عساكر نور الدين إلى الديار المصرية قد خافوا خوفا شديداً ، وأيقنوا بالهلاك ، وأن بلادهم تستأصل ، فلما وصلتهم رسل شاور يدعومهم إلى مساعدتهم سروا بذلك ، وبادروا إليه .

ذكر وصول الفرنج إلى الديار المصرية

ومحاصرتهم أسد الدين بلبس

فسارعوا إلى تلبية شاور ، وطعموا في الديار المصرية ، وتجهزوا — بعد وقوع الاتفاق بينهم وبين شاور — على مال كثير يحمله إليهم إن رحلوا عسكر نور الدين عن البلاد .

ولما بلغ نور الدين — رحمه الله — توجهُ الفرنج إلى مصر سار بالمسكر إلى طرف بلادهم ليمتنعوا عن المسير ، فلم يمنعه ذلك ، لعلمهم أن الخطر في تلك أسد الدين مصر أكثر ، فتركوا في بلادهم من يحفظها من نور الدين ، وتوجه ملك القدس في بقية عساكره إلى ديار مصر ، واستعان بجمع كثير من الفرنج الذين كانوا قد وصلوا لزيارة البيت المقدس ، فلما قارب الفرنج مصر قصد أسد الدين شيركوه مدينة بلبس وأقام بها هو وعسكره ، وتحصن بها ، واجتمعت العساكر المصرية والفرنج ، ونازلوا بلبس وحصروها ، وحماها أسد الدين وعسكره ثلاثة شهور ، مع أن سورها من طين ، وليس لها خندق يحميها ، وجد في قتالهم بكرة وعشية ، فلم ينالوا منها غرضاً .

ذكر وقوع الصلح بين أسد الدين والمصريين والفرنج

فبينما هم يجتذون في حصار بلبس إذ أتاهم الجند بكثرة الفرنج على حارم ، وتلك [٨٦] نور الدين لها ، ومسيره بعد ذلك إلى بانياس لأخذها ، فعظم ذلك عليهم ، وخافوا على البلاد فراسلوا أسد الدين في الصلح وتسليم ما أخذه من البلاد إلى المصريين ، فقبل ذلك ، لأن الأقوات قلت عليه ، وعلم عجزه عن مقاومة الفريقين ، فصالحهم ، وخرج من بلبس في ذي الحجة من هذه السنة ، فذكر من شجاعته وشهامته التي لم يسمع بمثلا أن أصحابه خرجوا بين يديه ، وخرج خلفهم ويده لَتٌ (١) حديد ، وهو يحكي ماقتهم ، والمسلمون من المصريين ، والفرنج ، ينظرون إليه ويتمجبون منه ، فأتاه إفرنجي من القربا (٢) ، وقال : « أما تخاف

(١) لفظ فارسي ، وجمه « لتوت » ، ومعناه القدوم أو الناس الكبيرة . انظر :

(محيط المحيط) و (Dozy : Suppl. Dict. Arab) .

(٢) يقصد أنه إفرنجي من الوافدين من أوروبا ، لا من الفرنج المستقرين في الشام .

أن يغدو بك هؤلاء المصريون والفرنج ، وقد أحاطوا بك وبأصحابك ، فلا يبقى منكم بقية . فقال أسد الدين : « لينهم ، لو فعلوا حتى كنت زى ما أقفل ، كنت والله أضع فيهم السيف ، فلا يُقتل منا رجل حتى يقتل رجلاً ، وحينئذ يقصدهم نور الدين وقد ضعفوا وفنيت شجعانهم ، فيملك بلادهم ، ويهلك من بقى منهم ، والله لو أطاعوني هؤلاء لخرجت إليكم أول يوم ، ولكنهم امتنعوا » ، فصلب الفرنجى على وجهه وقال : « كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم في وصفك وخوفهم منك ، والآن قد عذرتناهم » .

ثم سار أسد الدين إلى الشام سالماً ، وكان الفرنج قد وضعوا له في الطريق رصداً ليأخذوه ، فلم بذلك ، فعاد عن تلك الطريق ، ففى ذلك يقول عمارة بمدحه من قصيدة :
أَخَذْتُمْ عَلَى الْإِفْرِنجِ كُلَّ ثَنِيَّةٍ وَقُلْتُمْ لِأَيْدَى الْخَلِيلِ مُرِّى عَلَى مُرِّى
لَئِنْ نَصَبُوا فِي الْبَرِّ جِسْرًا فَإِنَّكُمْ عَبَرْتُمْ بِيَحْرٍ مِنْ حَدِيدٍ عَلَى الْجِسْرِ (١)

ووصل أسد الدين إلى نور الدين ، وفى عود الوزارة إلى شاور بعد عزله عنها يقول عمارة بن على اليمنى ، بمدحه من قصيدة :

فَنُصِرَتْ فِي الْأَوَّلِ بِضَرْبِ (٢) زَلْزَالٍ لِأَقْدَامٍ ، وَهِيَ شَدِيدَةُ الْإِقْدَامِ
وَنُصِرَتْ فِي الْآخِرِ بِضَرْبِ صَادِقٍ أَضْحَى يَطِيرُ بِهِ غُرَابُ الْهَامِ
[٨٧] أَدْرَكَتْ نَارًا ، وَارْتَجَعَتْ وَزَارَةٌ نَزْعًا بِسَيْفِكَ مِنْ يَدَى خِرْغَامِ

وفى حصار بلبس والانتصار على أسد الدين شيركوه ، يقول عمارة من قصيدة بمدح بها العاضد ووزيره شاور أولها :

إِنَّ السَّعَادَةَ قَدْ أَظَلَّ زَمَانُهَا وَافْتَرَّ عَنْ ثَغْرِ الْهَنَا أَلْوَانُهَا

(١) ورد هذان البيتان فى : (عمارة : النكت المصرية فى أخبار الوزراء المصرية ، ج ١ .

س . ٨٠) .

(٢) فى (المرجع السابق ، ص ٨٩) : « برعب » . وهناك آيات كثيرة أخرى هى بقية القصيدة .

وإفك أول عامها بمسرة
 مجداً بنى عبد المجيد فإنكم
 كم آية رؤيت ، لكم أسرارها
 وهب الخلافة شارككم في اسمها
 فكأنما تأويلكم أرواحها
 نظقت بآية نصركم من شيركوه^(١)
 أخبرتمونا عنه قبل مجيئه
 وكأن علم الحاديات^(٢) وديعة
 تاني الأمور وقد سطرتم ذكرها
 لا النطر أهداها ولا رمضاتها
 من دوحه نبوية أغصانها
 آل الوصي ، والورى إعلانها
 أو ليس فرق بينكم فرقانها
 وكأنما تفسيركم أبدانها
 سير يزيد على السماع عيانها
 أخبار صدق صح عنه بيانها
 مخزونة ، وصدوركم خزائنها
 فيكون بعد حديثكم حدثانها

ومنها^(٣) في مدح شاور :

ولقد دُفعت إلى ثلاث^(٤) نوائب
 فعصاة غزية غادرتها
 وعصاة رومية عاشرتها
 وعصاة مصرية بك^(٥) أصبحت
 خلصت كل قبيلة من ضئها
 أشبهت نوحاً مدةً وهدايةً
 كادت تشيب لهولها ولذاتها
 وأجل ما ترجوه منك أمانها
 فتأذبت وتهذبت أذهاها
 فوق البرية راجعاً ميزانها
 لما التوت وتعدت عقداها^(٦)
 في أمة متزايد طغيانها

(١) في الأصل : « في شيركو » والتصحيح عن : (ديوان عماره ، ص ٣٦٨) .

(٢) في الديوان : « الكائنات » .

(٣) بهذا اللفظ يتقابل النص مرة أخرى مع نسخة س في أول (ص ١٢٧) .

(٤) في س (ص ١٢٧) : « بك » بدون نقط والتصحيح عن : (ديوان عماره ،

ص ٣٦٩) .

(٥) في س (ص ١٢٧) « بك » .

(٦) في : (عماره : النكت المصرية ، ج ١ ، ص ٨٣) : « اشطانها » .

ونداركت بلبيس منك عواطف يسع الزمان وأهله غفرائها
 [٨٨] أقست لولا حسن رأيك لاغتدى الـ ناقوس في بلبيس وهو أذائها
 بلد لو انهدمت قواعد سورة (١) بيد النصارى لم يعد بنيائها
 ومنها في عود الوزارة إليه :

كانت وزارتك القديمة مشرعاً صفواً ، ولكن كدّرت غدراؤها
 غصبت رجال تاجه وسريه من بعد ما سجدت له تيجانها
 أخلى لهم (٢) دنت الوزارة عالماً أن سوف يتزع بينهم شيطانها (٣)
 قد كان أودع (٣) في الرقاب صنائماً كفرت به ، فأبادها (٤) كفرائها

ذكر فتح حارم وكسر الفرنج

لما قصد الفرنج ديار مصر — كما تقدم ذكره — أراد نور الدين — رحمه الله —
 قصد بلاد الفرنج ليعودوا عن مصر ، فاستعد للجهاد ، وكاتب أخاه قطب الدين مودود
 ابن عماد الدين زنكي — صاحب الموصل — وقرا أرسلان (٥) بن داود بن سقمان بن
 أرتق — صاحب حصن كيفا والديار الجزيرية — ، ونجم الدين ألب أرسلان بن تمرناش
 ابن إيلغازي بن أرتق — صاحب مardin — وأصحاب الأطراف يدعوم إلى مساعدته
 على الجهاد ، فجمع قطب الدين مودود عساكره وسار إلى نجدة أخيه ، وأما فخر الدين

(١) في س : « سورها » .

(٢) في س : « احلام » « وبسطانها » .

(٣) في س : « أصنع » .

(٤) في الأصل : « فأرداها به » ، والتصحيح هن : (المرجع السابق ، ص ٨٤) .
 واقى رواء المؤلف هنا أبيات مختارة ، والقصيدة في (الديوان) و (النكت) أكثر أبياتاً ،
 فانظرها هناك .

(٥) في الأصل : « قرأ أرسلان » ، وما هنا هن : س (ص ١٢٧)

صاحب الحصن فقال له ندماؤه وخواصه : « على أى شئ عزمت (١) ؟ » فقال :
« على القعود ؛ فإن نور الدين قد تحشف (٢) من كثرة الصوم والصلاة ، فهو كل يوم
يلقى نفسه في وقعة ، والناس معه في المهالك » ؛ فواقته أصحابه على هذا الرأي ؛
فلما كان الغد أمر أصحابه بالتجهز للغزاة ، فقال له أصحابه : « ما عدا مما (٣) بدا ؟
فارقناك بالأمس على حال ونرى منك اليوم على (٤) ضدها » ؛ فقال : « اعلّموا
أن نور الدين قد سلك معي طريقا إن لم أنجده خرج أهل بلادى عن طاعتي ، وأخرج
البلاد عن يدي ، فإنه قد كاتب زهادها وعبّادها يذكر لهم ما لقي المسلمون (٥)
من الفرنج وما نالهم من القتل والأسر ، ويستمدّهم الدعاء ، وطلب منهم أن يحشّوا
المسلمين على الغزاة ؛ [٨٩] وقد قعد (٦) كل واحد منهم ومعه أصحابه وأتباعه
يقرأون كتب نور الدين ويكونون ، ويؤمنونني ويدعون عليّ ، ولا بد من السير
إليه » ثم إنه تجهز وسار إليه .

وأما صاحب ماردین فإنه سیر إليه عسكريا [وكذلك سار إليه كل من كان به] (٧) ،
ولما اجتمعت العساكر عند نور الدين — رحمه الله — نازل جرم ونصب عليها
المجانيق ، فاجتمع من بقى في الساحل من الفرنج ، وجاءوا إليه في جموعهم ، ومعهم
بمئذ صاحب أنطاكية وابن جوسلين وغيرهما ، وقصدوا نور الدين — رحمه الله —
فرحل عن جرم إلى أرتاح ، وطمع في أن يتبعوه فيتمكن منهم يبعدهم عن بلادهم .

(١) في س (٢٢ ب) : « قد عولت » .

(٢) في س : (٢٧ ب) : « تشف » .

(٣) في س : « فيها » .

(٤) في س : « الآن ضدها » .

(٥) في الأصل وفي (س) : « المسلمين » .

(٦) في س (س ٢٧ ب) : « مدمه » بدون نقط .

(٧) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (س ٢٧ ب) .

إذا لقوه ، فساروا ونزلوا على عَمٍّ (١) ، ثم علموا عجزهم عن لقاءه ، فعادوا إلى حارم ، فتبعهم نور الدين في عساكره ، فلما تقاربوا اصطفوا للقتال ، فحمل الفرنج على مينة المسلمين — وفيها عسكر حلب وصاحب الحصن — فانهزموا ، وتبعهم الفرنج ، فأبعدوا عن راجلهم ، فحينئذ عطف الأمير زين الدين على كوجك في عساكر الموصل على راجل الإفرنج فأفناهم قتلا وأسرا ، فعادت خيالاتهم الذين ساقوا وراء المهزمين خوفا على راجلهم ، فلما عادوا عاد المهزمون ، وحملوا على الإفرنج ، وأحدق المسلمون بهم من كل جانب ، واشتدت الحرب ، وقامت على ساق ، فتمت الهزيمة على الفرنج ، وأنزل الله سبحانه [وتعالى] نصره على المسلمين وأسر من الفرنج ما لا يُحصى ، ومن جملة الأسرى : صاحب أنطاكية ، والقومص صاحب طرابلس ، وابن جوسلين ، وقتل منهم ما يزيد على عشرة آلاف [فارس وراجل (٢)] .

وسار نور الدين — رحمه الله — إلى حارم ، فقتلها لتسع بقين من رمضان من هذه السنة ، — أعنى سنة تسع وخمسين وخمسمائة — وأشار عليه أصحابه بالمسير إلى أنطاكية لملكها ، فخلوها من يحميها ويدفع عنها ، فامتنع ، وقال : « أما المدينة فأمرها سهل ، وأما القلعة فهي منيعة لا تؤخذ إلا بعد حصار طويل ، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية فيسلموها إليه ، ومجاورة يميند أحب إلينا من جوار ملك الروم » . ثم أطلق نور الدين يميند صاحب أنطاكية على أن يحمل أموالا كثيرة وأسرى من المسلمين أطلقهم .

(١) كذا في الأصل ، وهي في س (٢٧ ب) : « غم » ، وهم قرية من أعمال حارم وتقع في منتصف الطريق تقريبا بين حلب وأنطاكية ، انظر : (ياقوت : معجم البلدان) و (ابن الشحنة : تاريخ مملكة حلب ، ص ١٦٧) .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (ص ١٢٨) .

وفي هذه السنة توفي جمال الدين محمد بن [٩٠] على الأصفهاني^(١) وزير قطب الدين مودود بن [عماد الدين^(٢)] زنكي — صاحب الموصل — ، وكان عظيم القدر جواداً حسن السيرة ؛ ولما توفي نُحِلَ إلى مكة — حرمها الله تعالى — وطيف بنعشه حول الكعبة المعظمة ، ثم حُلَّ إلى المدينة فُدْفِنَ بها في تربة بنيت له قريباً من الحجرة المقدسة — على ساكنها [أفضل^(٣)] الصلاة والسلام .

٣) ذكر فتح بانياس

كانت بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسة — كما ذكرنا^(٤) — ، ولما فتح نور الدين — رحمه الله — حارم أذن للعساكر الموصالية والديار بكريّة بالعود إلى بلادهم ، وأظهر أنه يقصد طبرية ، فجعل الفرنج همّهم حفظها ، فسار مُجِدّاً إلى بانياس لعلّه بقلة المانعين لها ، فنارلها وضايقها ، ومعه أخوه الأمير نصرة الدين أمير أميران بن [عماد الدين^(٤)] زنكي ، — [وكان قد عاد إلى خدمة أخيه نور الدين ، وقد رضى عنه نور الدين وأعطاه ما أراد^(٤)] — فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه ، فقال له نور الدين : « لو كشف لك عن الأجر الذي أعدّ لك لتميت ذهاب الأخرى » .

وجدد — رحمه الله — في حصارها ، فحشد الفرنجُ وجعوا ليمنعوه منها ، ففتحها قبل أن يتكامل جمعهم ، وملك القلعة وملاها ذخائر ورجالا ، ثم عاد إلى دمشق ، وكان في يده خاتم يسمى الجبل بنص ياقوت من أحسن الجواهر لكبره وحسنه ، فسقط من يده في شعرا بانياس ، وهي كثيرة الأشجار ، ملتفة الأغصان ، فلما أبعدوا

(١) انظر ترجمته في : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١١٥) .

(٢) ماين الحاصرتين زيادة عن : س (ص ١٢٨) .

(٣) ماين الرقبن غير موجود في س .

(٤) ماين الحاصرتين زيادات عن : س (ص ٢٨ ب) .

عن المكان الذي ضاع فيه [الخاتم ^(١)] علم به [نور الدين ^(١)] ، فأعاد بعض أصحابه في طلبه ، ودلّهم على المكان الذي كان آخر علمه وعهده به ، فعادوا فوجدوه ، فقال بعض الشعراء بمدحه من قصيدة [أولها ^(١)] :

إِنْ يَمْتَرِي الشُّكَّاءُ فَيْكَ بِأَنْكَ ۖ سَهْدِي مُطْفِئِي ^(٢) جَرَّةَ الدِّجَالِ
فلعودة الجبل الذي أضلته بالأمس بين غياظٍ وجبال
لم يُنْطِها إِلَّا سَلِمَاتٌ ، وقد نلتَ النِّي ^(٣) بموشك ^(٤) الإعْجَالِ
زجر جرى لسرير مالك إنه كسريه عن كل جذع ^(٥) عل
فلو البحارُ السبعة استهويتهُ وأمرته ^(٦) ، قدفنه في الحال

[قال : وفي سنة ستين وخمسة مات الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة ، ذكر القاضي شهاب الدين ^(٧) في تاريخه ، قال : كان الوزير ابن هبيرة عالماً ورعاً عفيفاً محباً لأهل العلم محسناً إليهم ، وزير الخليفتين] ^(٨) .

- (١) ما بين الحاصرتين زيادات من : س (ص ٢٨ ب) .
(٢) في الأصل : « فتطى » وفي س (٢٨ ب) : « وتطى » ، والتصحيح عن : (الروشتين ، ج ١ ، ص ١٤٠) .
(٣) في الروشتين : « الرقاء » ، وفي (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١١٤) : « نبت الربا بموشك الإعجال » .
(٤) في الأصل وفي (س) : « بموسك » وما هنا من الروشتين .
(٥) في الأصل : « جد » وفي الروشتين : « جذر » ، وما هنا عن (س) .
(٦) في الأصل وفي (س) : « وأمرته لقدفنه » ، والتصحيح عن الروشتين .
(٧) القاضي شهاب الدين هو شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي أبو شامة ، وتاريخه هو « كتاب الروشتين في أخبار الدولتين » . انظر ترجمة ابن هبيرة بهذا التاريخ (ج ١ ، ص ١٤١) .
(٨) ما بين الحاصرتين زيادة أضفناها عن س (ص ٢٨ ب) ، وبها تنتهي الصفحة ويضطرب النص مرة أخرى في تلك النسخة ، وبالتالي تنقطع الصلة بينه وبين نص النسخة الأصلية (ك) .

[٩١] ذكر فتح حصن المنيطرة

وفي سنة إحدى وستين وخمسمائة فتح الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي — رحمه الله — حصن المنيطرة ، وكان بيد الفرنج ، سار إليه جريدة ، وانتهز^(١) الفرصة فيه ، وجد في قتاله عنوة وقهراً ، وقتل من به ، وسبي^(٢) وغنم غنيمة كثيرة ، وفكر القاضي بهاء الدين بن شرار — رحمه الله — أن الواقعة كانت سنة اثنتين وستين وخمسمائة .

ذكر مسير أسد الدين شيركوه بن شاذي

المسير الثاني إلى مصر

وفي سنة اثنتين وستين وخمسمائة سبر الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي — رحمه الله عليهما — أسد الدين شيركوه إلى مصر لملكها ، وذلك لما ثبت في نفسه من غدر شاور به ورجوعه عما كان وقع من العهد والاتفاق عليه ، وسبر معه جمعاً من الأمراء ، فبلغت عدتهم ألفي فارس ، وذلك في شهر ربيع الأول من السنة ، وسار معه نور الدين إلى أطراف البلاد خوفاً من معركة (كذا^(٣)) الأفرنج .

(١) أمام هذا اللفظ بالهامش معناه بالغة اللاتينية : (captavit occasionem) . ويبدو أن كاتبها واحد من المستشرقين الذين قرأوا هذه النسخة بمكتبة جامعة كامبردج .

(٢) في الأصل : « سبا » .

(٣) كذا في الأصل ، ولا يستقيم بها المعنى ، وصيغة (ابن الأثير) : « خوفاً من أحداث يتجدد عليهم فيضف الاسلام » .

وكان صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن نجم الدين أيوب بن شاذي مع عمه أسد الدين في هذه السفرة ؛ وفي ذلك يقول عَرَقَلَّة (١) الدمشقي بمدح صلاح الدين ، وجرى بملكه الفال ، والفال موكل بالمنطق :

قُولِ وَالْأَتْرَاكُ قَدْ أَزْمَعَتْ مصر إلى حَرْبِ الْأَعَارِبِ
رَبِّ كَمَا مَلَكَتْهَا يَوْسُفُ الْ صَدِيقَ مَنْ أَوْلَادِ يَعْقُوبِ
يُمَلِّكُهَا فِي عَصْرِنَا يَوْسُفُ الْ صَادِقُ مَنْ أَوْلَادِ أَيُّوبِ
مَنْ لَمْ يَزَلْ ضَرَّابَ هَامِ الْعِدَى حَقًّا ، وَضَرَّابَ الْعَرَّاقِيبِ

ثم سار أسد الدين — رحمه الله — إلى الديار المصرية (وترك بلاد الافرنج عن يمينه فوصل الديار المصرية) (٢) ، وعبر النيل عند أطفيح (٣) بالجانب الغربي ، ونزل بالبلاد الجزيرية ، وتصرف في البلاد ، وأقام بها نيفا وخمسين يوما .

وأرسل شاور — وزير العاضد — يستنجد بالفرنج ، فأتوه على الصعب والذلول ، وحملهم على ذلك أمران : أحدهما الطمع في تملك الديار المصرية ، والثاني الخوف من تملك الساكر النورية لها ؛ وعلموا أنه إن ملكها نور الدين — رحمه الله — واستضافها إلى [٩٢] البلاد الشامية لم يبق لهم بالبيت المقدس والشام مقام ، وأنه يستأصلهم وتصير بلادهم في وسط بلاده ؛ ولما وصلوا مصر اجتمعوا بالساكر المصرية وعبروا إلى الجانب الغربي .

(١) هو حسان بن نمير الكلبي أبو الندى الشاعر المعروف بمرقلة الدمشقي ، كان شيخاً خليفاً أعور مطبوعاً لطيفاً ظريفاً ، اختص بالسلطان صلاح الدين وله فيه مدائحه ، توفي سنة ٥٦٧ هـ . انظر : (ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٦٤) و (سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٢٨٦ — ٢٨٧) .

(٢) هذه الجملة كتبت في هامش الأصل وأشير إلى مكانها بالثن بعلامة .

(٣) اطفيح حالياً قرية من قرى مركز الصف بمديرية الجزيرة ، وهي مدينة قديمة كانت تسمى في العصر اليوناني « افروديتوبوايس » . انظر : (مصاحفة المساحة : فهرس مواقع الأمكنة) و (على مبارك : الخطط ، ج ٨ ، ص ٧٧ — ٧٨) .

ذكر واقعة البابين

وكان أسد الدين شيركوه قد سار بالعساكر في الصعيد إلى أن بلغ إلى مكان يعرف بالبابين^(١)، فسارت الفرنج والمصريون خلفه، فأدركوه به في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة؛ وكانت جواسيسه قد أخبروه بكثرة عدد الفرنج والمصريين وقوتهم؛ فجمع أصحابه واستشارهم، فكلهم أشاروا عليه بعبور بحر النيل إلى الجانب الشرقى والعود إلى الشام، وقالوا: «إن نحن انهزمنا فإلى من نلتجئ؟ وبمن نحتسئ؟ وكل من في هذه الديار من جندي وفلاح عدو لنا». فقام أمير من مماليك نور الدين يقال له شرف الدين برغش — صاحب الشقيف — وكان شجاعا وقال: «من يخاف القتل والأسر فلا يخدم الملك، بل يكون في بيته مع امرأته، والله لئن عدنا إلى نور الدين من غير غلبة وبلاء نُعذر فيه ليأخذن أموالنا وما معنا من الإقطاع^(٢) والجامكية^(٣)، وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منه من يوم خدمناه وإلى يومنا هذا، ويقول: تأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم، وتسلمون مثل مصر إلى الكفار». فقال أسد الدين: «هذا الرأي، وبه أعمل».

وقال ابن أخيه صلاح الدين يوسف ابن أيوب مثله؛ وكثر الموافقون، واجتمعت الكلمة على القتال، وأقاموا بمكانهم حتى وصل الفرنج والمصريون وهم على تعبيتهم، فجعل أسد الدين الأثقال في القلب، لا ليتكرر بها لأنه لا يمكنه تركها في مكان آخر خوفا من أن تنهب؛ وجعل صلاح الدين في القلب وقال له ولن معه: «إن المصريين والفرنج يجعلون حملتهم على القلب، فإذا حملوا عليكم

(١) قرية كانت تقع جنوب مدينة النيا.

(٢) هذا نص قيم له قائمته عند دراسة نظام الإقطاع في عهد نور الدين وعند الأتابكة عموما.

(٣) الجامكية — والجمع جامكيات وجوامك — الراتب. انظر: (Dozy: Supp. Dict. Arab.)

فلا تصدقوهم القتال ، ولا تهلكوا أنفسكم ، واندفعوا من بين أيديهم ، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم » ؛ واختار هو من شجعان عسكره جمعا يثق بهم ، ويعرف [٩٣] صبرهم في الحرب ، ووقف بهم في الميمنة ، فما اصطفوا للحرب ، حمل الفرنج على القلب ، فقاتلهم من به قتالا يسيرا ، ثم انهزموا بين أيديهم غير متفرقين ، وتبعهم الفرنج ، وحينئذ حل أسد الدين بمن معه على من تخلف من الدين حملوا من المسلمين والفرنج — الفارس والراجل — فهزمهم ، ووضع السيف فيهم ، وأثنى وأكثر من القتل والأسر .

فلما عاد الفرنج من أثر المهزمين ، ورأوا عسكرهم مهزوما ، والأرض منهم قفرا انهزموا أيضاً ، ونصر الله المسلمين .

ذكر استيلاء أسد الدين شيركوه على الاسكندرية

ثم سار أسد الدين — رحمه الله — إلى ثغر الاسكندرية ، وجبى ما في طريقه من القرى ، ووصل إلى الاسكندرية ، فسلمها أهلها إليه — لميائهم إلى مذهب السنة وكراهتهم لرأى المصريين — ، فاستتاب بالاسكندرية ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وعاد إلى الصعيد ، فملكه وجبا أمواله ، وأقام به حتى صام شهر رمضان .

ذكر محاصرة الفرنج لصلاح الدين يوسف بالاسكندرية

وعاد الفرنج والمصريون بعد الوقعة إلى القاهرة ، وأصلحوا عساكرهم ، وجمعوا ثم ساروا إلى الاسكندرية فحاصروا صلاح الدين ، واشتد الحصار وقل الطعام بها ، فصبر أهلها على ذلك ، ولما بلغ ذلك أسد الدين سار من الصعيد إليهم ، وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان .

ذكر وقوع الصلح بين أسد الدين والفرنج والمصريين

ثم راسل المصريون والفرنج أسد الدين يطلبون الصلح ، وبذلوا له خمسين ألف دينار ، فأجابهم إلى ذلك بشرط أن الفرنج لا يقيمون في البلاد ، ولا يملكون منها قرية واحدة ، فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا ، وعاد إلى الشام .

وتسلم المصريون الاسكندرية في منتصف شوال ، وعاد أسد الدين إلى دمشق لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة ، واستقر بين الفرنج والمصريين أن يكون لهم بالقاهرة شحنة ، وتكون أبوابها مع فرسانهم وبأيديهم ، ليمتنع نور الدين من إنفاذ عسكر إليهم ^(١) ، ثم عاد الفرنج [٩٤] إلى بلادهم ، وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم .

وكان الكامل شجاع بن شاور قد أرسل إلى نور الدين مع بعض الأمراء ينهى محبته وولاءه ، ويسأله الدخول في طاعته ، وضمن عن نفسه أنه يجمع بمصر الكلمة على طاعته ، وبذل له مالا يحمله كل سنة ، فأجابه إلى ذلك ، فحل إلى نور الدين مالا جزيلا .

ذكر فتح صافيثا والعزيمة

وفي هذه السنة — أعني سنة اثنتين وستين وخمسمائة — سار قطب الدين مودود ابن عماد الدين زنكي إلى أخيه الملك العادل نور الدين محمود ، وجعا العساكر

(١) أضاف (ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٢٢) و (أبوشامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٤٣) نصا آخر هاما من نصوص هذه المأهدة ، وهو : « ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار » .

ودخلا بلاد الفرنج ، فاجتازوا على حصن الأكراد (١) ، فأغاروا ونهبوا وسبوا ، ونزلوا عرقة ، وحاصروا حلب ، وأخذوها وخربوها ، وسارت المساكر إلى بلادهم يمينا وشمالا تُغير وتُخرب ؛ وفتحوا العزيمة وصافينا ، وعادوا إلى حصن ، فصاموا بها رمضان ، ثم ساروا إلى بانياس ، وقصدوا حصن هونين ، فانهزم الفرنج عنه ، فأخربوه ، فوصل إليه نور الدين من القد ، فهدم سورته جميعه ، وأراد الدخول إلى بيروت ، فتجدد في المساكر خُلف أوجب التفريق ؛ وعاد قطب الدين إلى الموصل فأعطاه نور الدين الرقة .

وفي هذه السنة حصى غازي بن حسان المنبجي بمنبج (٢) ، وكانت قد صارت له بعد أبيه إقطاعا من نور الدين ، فسير إليه عسكريا فحصره ، وأخذها منه ، وأقطعها أخاه قطب الدين ، فأعطاهما ينال بن حسان ، فبقي فيها إلى أن أخذها منه صلاح الدين سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

وفيهما توفي فخر الدين قرأ أرسلان (٣) بن داود بن سُفْيان بن أرثق — صاحب حصن كيفا — وأكبر ديار بكر ، ولما اشتد مرضه أرسل إلى الملك العادل نور الدين يقول له : « بيننا صحبة في جهاد الكفار ، أريد أن ترعى بها ولدي » ؛ ثم توفي

(١) حصن منبج على الجبل الذي يقابل حصن من جهة الغرب وهو جبل الجليل ، وذكر (ياقوت) أن بعض أسراء الشام كان قد بنى في موضعه برجاً وجعل فيه قوماً من الأكراد طليعة بينه وبين الفرنج ، وأجرى لهم أرزاقاً ، فتدبروها بأهاليهم ثم خافوا على أنفسهم في غارة فجعلوا يمحسونه إلى أن صار قلعة حصينة منعت الفرنج عن كثير من غاراتهم فنازلوه فباعه الأكراد منهم ورجعوا إلى بلادهم وملكه الفرنج . ثم يقول : وبينه وبين حصن يوم . انظر

أيضاً : (G. Demombynes : *La Syrie a l'Epoque des Mamelouks*. P. 112)

(٢) إحدى مدن العواصم ، وذكر (ياقوت) أنها مدينة كبيرة كان عليها سور مبني بالحجارة بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ .

(٣) ولي حكم حصن كيفا من سنة ٥٣٩ إلى سنة ٥٦٢ هـ . انظر : (Zambaur : Op.

فملك بعده ولده نور الدين (١) محمود بن قرا أرسلان ، فقام الملك العادل نور الدين بنصرته والنبأ عنه ، فأراد قطب الدين مودود بن زنكي — صاحب الموصل — قصده ، فأرسل إليه أخوه نور الدين ومنعه ، وقال : « إن قصده أو تعرضت إلى بلاده منعتك قهراً » ، فامتنع من قصده .

ذكر فراق الأمير زين الدين على كوجك قطب الدين مودود ابن زنكي صاحب الموصل

[٩٥] كان زين الدين على كوجك بن بكتكين هو النائب عن قطب الدين بالموصل والمتحكم في دولته ، وكانت بيده إربل ، وفيها بيته وأولاده وخزائنه ، وكانت أيضاً بيده شهرزور وجميع القلاع التي معها ، وجميع قلاع الهكارية ، ومنها قلعة الهمادية ، وبلد الحميدية ، وتكريت ، وسنجار ، وحران ، فأصابه طرش وعى في سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، فلما عزم على مفارقة الموصل إلى إربل سلم جميع ما كان بيده من الأعمال إلى قطب الدين ، وبقى معه إربل حسب ، وكان شجاعاً عادلاً حسن السيرة ميمون النقيبة ، لم ينهزم في حرب قط ، وكان كريماً كثير العطاء للجند ، ولما توجه إلى إربل توفي في هذه السنة ، وصارت إربل بعده لولده زين الدين ، ثم توفي على مرج عكا وهو في خدمة السلطان الملك الناصر صلاح الدين ، فملكها بعده أخوه مظفر الدين كوكبوري إلى سنة ثلاثين وستمائة ، فملكها الخليفة المستنصر بالله ، وصارت نوابه فيها ، وملكها المستعصم بالله ، إلى أن ملكها التتر (٢) الملاعين حين ملكوا البلاد .

(١) ولي الحكم في حصن كيفا من سنة ٥٦٢ — ٥٨١ هـ . انظر المرجع السابق .
(٢) لهذا النص أهمية خاصة ، فهو يدل على أن المؤلف كان يكتب هذا الجزء من كتابه بعد سنة ٦٥٦ هـ وهي السنة التي استولى فيها هولاكو على بغداد وقتل الخليفة المستعصم ، ثم أرسل قائداً من قواده لمهاجمة إربل والاستيلاء عليها ؛ انظر : (دائرة المعارف الإسلامية — الترجمة العربية — ، مادة إربل ، وما بها من مراجع) .

ذكر استيلاء الملك العادل نور الدين على قلعة جعبر

كان السبب في تملك نور الدين لها أن صاحبها شهاب الدين مالك العقيلي نزل يتصيد فأخذه بنو كلب أسيراً ، فحملوه إلى نور الدين — رحمه الله — في رجب سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، فاعتقله وأحسن إليه ، ورغبه في المال والإقطاع ليسلم إليه القلعة ، فلم يفعل ، فعُدل إلى الشدة والعنف وتهده ، فلم يفعل ، فسير إليها نور الدين الأمير فخر الدين مسعود بن علي بن الزعفراني ، فحصرها مدة ، فلم يظفر بطائل ، فأمدهم بعسكر ، وجعل على الجميع مجد الدين أبا بكر بن الداية ، فلم يحصل على غرض ، فأخذ صاحبها بطريق اللين ، وأشار عليه أن يأخذ عوضاً عنها ، فقبل ذلك ، وتسلمها ، وتسلم سرّوج وأعمالها ، والملاحاة التي في بلد حلب ، وباب ، وبزاعة^(١) ، وعشرين ألف دينار معجلة ، وكانت قلعة جعبر بيد هؤلاء القوم من حين سلمها إليهم جلال الدولة ملكشاه ، وقد ذكرناه في موضعه . وكان استيلاء نور الدين عليها سنة أربع وستين وخمسمائة .

ذكر مسير أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية

[٩٦] المسير الثالث

وكان السبب في ذلك أن الفرنج كانوا قد دخلوا ديار مصر مرتين ، واطلعوا على عورتها ، وكان لهم بالقاهرة شحنة ، وأبوابها مسلمة إليهم ، وبالقاهرة جماعة من شجعانهم وأعيان فرسانهم ، فحكموا على المسلمين حكماً جائراً ، وركبهم بالاذى الشديد ، فلما رأوا تمكنهم من البلاد ، وأنه ليس بها راد ولا عن أخذها صاد كاتب

(١) جاء في (ابن الشحنة : الدور للفتح ، ص ١٧٢) أن « الباب » و « بزاعة » قريتان عظيمتان بل مدينتان صغيرتان في كل واحدة منهما منبر وخطيب ، وهما من أهماء حلب ، أما الباب فهي أكثر عمارة من بزاعة .

الفرنج الذين بالقاهرة ملكهم بالشام المعروف بمُرِّي^(١)، وكان ذا شجاعة ومكر ودهاء، يستدعونه لتملكها، وأعلموه خلوها من الممانع، وهوتوا أمرها عليه، وكاتبه أيضاً جماعة من أعيان المصريين كانوا أعداء لشاور، منهم: ابن الخياط^(٢)، وابن قرجله^(٣)، فشاور الملك فرمان الفرنج وذوى الرأى منهم، فكل منهم أشار بقصدها وملكها، فقال لهم: «الرأى أنا لا نقصدها، فإنها طعمة لنا، وأموالها تساق إلينا، نتقوى بها على نور الدين، وإن نحن قصدناها لتملكها فإن صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحها لا يسلموها إلينا، ويقاثلوننا دونها، وبمحامهم الخوف منا على تسليمها لنور الدين، ولئن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام». فلم يقبلوا قوله، وقالوا: «إنه لا مانع منها ولا محامى، وإلى أن يتجهز نور الدين ويسير إليها نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها، وحينئذ يتمنى نور الدين السلامة». فوافقهم على كره، وتجهز للسفر، وأظهروا أنهم يريدون قصد حمص.

وسمع نور الدين بتجهيزهم فجمع عساكره، وتجهز للقائهم وتأهب، ثم سار الفرنج من عسقلان إلى الديار المصرية.

(١) هو «أمريك الأول Amalric I» ملك بيت المقدس، وتسميه الراجع العربية. «مرى» أو «همورى»، وقد ولى الملك بعد وفاة أخيه «بلدوين الثالث Baldwin III» الذى لم يقب. انظر: (Ranciman: A History of the Crusades. Vol. 2. The Kingdom of Jerusalem and the Frankish East. 1100 - 1187. PP. 362. ff).
(٢) هو يحيى بن الخياط، كان من قواد الدولة فى عهد وزارة الصالح طلائع بن رزيك، ثم أصبح من رجال شاور: بل أصبح استفسلار المساكر فى أول عهده، ولكنه اختلف معه فى عهد وزارته الثانية وخرج عليه فى قوس يطلب الوزارة لنفسه، فأخضع حركته الكامل بن شاور. انظر: (عمارة، النكت المصرية، ص ٣٥ و ٦٩ و ٧٨ و ٣١٩ و ٣٤٨)، (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ٢٢٦).

(٣) ورد ذكره فى (النكت المصرية ص ٤٩٥) عند الحديث عن المؤامرة الكبرى ضد صلاح الدين التى اشترك فيها عمارة، قال: «وكاتبوا سناناً صاحب الحبشية بأن الدعوة واحدة والسكامة واحدة... وكان الرسول خاك ابن قرجلة» أنظر أيضاً: (أبو شامة: الروضتين، ج ١، ص ١٧٠).

ذكر منازلة الفرنج بلبيس وملكهم لها

فوصلوا إلى مدينة بلبيس فنازلوها وملكوها غرة صفر من هذه السنة — سنة أربع وستين وخمسة — قهّبوا أهلها ، وقتلوا وسبوا وأسروا ، ثم رحلوا عنها .

ذكر منازلة الفرنج القاهرة

ونازلوا القاهرة عاشر صفر وحصروها ، فامتنع أهل البلد واستحصنوا خوفاً أن تملكها [٩٧] الفرنج ، فيسيروا فيهم سيرتهم في أهل بلبيس ، فقاتلوا ، وبذلوا الجهد في الحفظ .

ذكر إحراق مصر

وأمر شاور بإحراق مصر ، وأمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة ، وأن ينهب البلد ، فانتقلوا ، وبقوا على الطرق ، ونُهبت مصر ، وافتقر أهلها ، وذهبت أموالهم ونعمهم ، وذلك في تاسع صفر قبل نزول الفرنج على القاهرة بيوم واحد ، فبقيت النار تعمل في مصر أربعة وخمسين يوماً إلى خامس ربيع الآخر ، واشتد الأمر ، وعظم الخطب ، وضاق الحصار ، وخيف البوار ، وعلم شاور عجزه وضعفه ، وأن البلاد ذاهبة لا محالة ، فسلك طريق التملح ، وأرسل إلى ملك الإفرنج مُرّياً يذكر له مودته ومحبة ، وأن هواه معه ، وتخوفه من نور الدين ، وأن المسلمين لا يوافقونه على التسليم ، ويشير بالصلح وأخذ مال ، لئلا يسلم البلاد إلى نور الدين .

ذكر وقوع الصلح بين شاور والفرنج

فأجابه مُرّى إلى الصلح على ألف ألف دينار، يجعل البعض ويؤخر الباقي؛ ورأى الفرنج أن المصلحة في ذلك لئلا يتدارك نور الدين البلاد ويأخذها، فمَجَّل لهم شاور مائة ألف دينار، وماطل بالباقي خداعاً ومكرًا، وسبَّ الكتب إلى نور الدين مُسَوِّدَةً وفي طيها ذوائب نساء أهل القصر مجزوزة، وواصل الكتب إليه مستغزاً ومستنصراً، ويقول: «إن لم تبادر ذهبت البلاد»، وأرسلها مع نجابين — يتلو بعضهم بعضاً — وأقام منتظراً ما يرد عليه من نور الدين، وهو مع ذلك يدافع الفرنج ويماطلهم.

ووردت مكاتبة العاضد لدين الله إلى نور الدين في هذا المعنى، وبذل له — إن وصل — ثلث البلاد، وأن يكون أسد الدين شريكه مقبلاً عنده في عسكر، وإقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث الذي لنور الدين.

ولما وردت الرسل إلى نور الدين بذلك كان بحلب، فأرسل إلى أسد الدين شريكه — وكان بحمص، وهي إقطاعه — يستدعيه، فلما خرج القاصد من حلب متوجهاً إلى أسد الدين وجده قد وصل إلى حلب، لأنه كان أيضاً قد أتته كتب المصريين يحثونه على سرعة الوصول إليهم، فلحرص أسد الدين على التجهز إلى الديار المصرية سار من حمص إلى حلب، فوصلوا في ليلة واحدة، فأمره نور الدين بالتجهيز [٩٨] إلى مصر والسرعة في ذلك، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة، وحكّمه في العساكر والخزائن، فاختر من العسكر ألفي فارس، وجمع من التركمان ستة آلاف فارس.

ونذب الملكُ العادلُ نورُ الدين صلاحَ الدين أبا المظفر يوسف بن أيوب ابن شاذى أن يمضى مع عمه إلى الديار المصرية ، فكره ذلك صلاح الدين ، فروى عنه القاضي بهاء الدين بن سراج — قاضى حلب رحمه الله — قال : لقد قال لى السلطان — يعنى صلاح الدين — « كنت أكره الناس فى الخروج فى هذه الوقعة ، وما خرجت مع عمى باختيارى » ، قال : وهذا منى قوله سبحانه « وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ » .

قال عز الدين بن الأثير — رحمه الله — فى تاريخه الطامل : « أحب نور الدين مسير صلاح الدين ، وفيه ذهاب بيته ، وكره صلاح الدين المسير ، وفيه سعادته وماله » قال : « فلقد حكى لى صلاح الدين ، قال : لما وردت الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين — رحمه الله — أحضرنى وأعلمنى الحال ، وقال : تمضى إلى عمك أسد الدين بمصر مع رسول إليه تأمره بالحضور ، وتمثله أنت على الإسراع ، فما يحتمل الأمر التأخير .

قال : ففعلت ، فلما فارت حلب ، على ميل منها ، لقيناه قادماً فى هذا المعنى ، فقال له نور الدين : تجهز المسير ، فامتنع خوفاً من غدرهم أولاً وعدم ما ينفقه فى المساكر ثانياً ، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال ، وقال له : إن تأخرت عن المسير إلى مصر ، فالصاحبة تقتضى أن أسير أنا بنفسى إليها ، فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج ، ولا يبقى معهم مقام بالشام ولا غيره ، قال : فالتفت إلى عمى أسد الدين وقال : تجهز يا يوسف ، قل : فكأنما ضرب قلبى بسكين ، قهلت : والله لو أعطيتُ ملك مصر ماسرت إليها ، فلقد قاسيت بالاسكندرية من المشاق بها ما لا أنساه أبداً ، فقال عمى لنور الدين : لا بد من مسيره معى ، فترسم له ، فأمرنى نور الدين وأنا استقبله ، فانقضى المجلس ، ثم جمع أسد الدين المساكر

من التركان وغيرهم ، ولم يبق [٩٩] غير المسير ، فقال لى نور الدين : ولا بد من مسيرك مع عمك ، فشكوتُ إليه الضائقة وقلة الدواب وما احتاج إليه ، فأعطاني ما تجهزت به ، وكأنما أساق إلى الموت ؛ — وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته — ، فسرتُ معه . فلما توفي أعطاني الله من الملك ما كنت أتوقعه .

ثم سار نور الدين وأسد الدين من حلب إلى دمشق فوصلها سلخ صفر ، ثم رحلا إلى رأس الماء ، وأنفق نور الدين لكل فارس عشرين ديناراً ، وأضاف إلى أسد الدين جماعة من الأمراء ، ومنهم ثملوكه عز الدين جورديك — وهو الذى لما توفي نور الدين كان نائباً عنه بقلمه حاة — ، والأمير غرس الدين قليج — والد الأمير سيف الدين وعماد الدين — ، وشرف الدين برغش ، وعين الدولة الياروق ، وقطب الدين ينال بن حسان — صاحب منبج — ، وغيرهم .

ثم (١) سار أسد الدين شيركوه من رأس الماء منتصف ربيع الأول .

ذكر قدوم أسد الدين شيركوه مصر

ورحيل الفرنج عنها

ولما قرب أسد الدين — رحمه الله — من الديار المصرية رحل الفرنج عنها خائبين ، وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم ، لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، ووصلت الاخبار بذلك إلى نور الدين — رحمه الله — ، فأمر بضرب البشائر (٢) في البلاد الإسلامية ، فإنها كانت أجل الفتوح (٣) وأعظمها ، إذ لو استولى العدو — لعنه الله — على الديار المصرية لاستولى على سائر الخطة الإسلامية .

(١) بهذا اللفظ تبدأ (ص ١١٦) من نسخة س ، وبذلك تعود للمقارنة بين نصي النسختين .

(٢) في الأصل : « المشايير » وما هنا عن : س (ص ١١٦) .

(٣) في س : « الفتوحات » .

وكان وصول أسد الدين — رحمه الله — إلى القاهرة لأربع مضي من ربيع الآخرة من هذه السنة ، — أعني سنة أربع وستين وخمسة — ، ودخل إلى القصر ، واجتمع بالعاقد (١) لدين الله ، وخام عليه ، وعاد إلى مخيمه بالخلعة العاضدية ، وفرح به أهل مصر ، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والإقامات الوافرة .

ذكر مقتل شاور (٢)

وأقام شاور يتردد إلى أسد الدين شيركوه ، وكان قد وعده بمال في مقابلة ما خسره من النفقة ، فلم يوصل إليه شيئاً ، وقيل إنه ماطله في تقرير ما بذل (٣) له من المال والإقطاع [١٠٠] للعساكر ، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين ، وذكر أنه كان [شاور (٤)] قد عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأمراء ، ويقبض عليهم [فيها (٤)] ، قتهاه ابنه الكامل ، وقال : « والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفنَّ أسد الدين » . فقال أبوه : « والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً » ، قال : « صدقت » ، ولئن نُقُتِل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نُقُتِل وقد ملكتها الفرنج ، وليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على [أسد الدين (٤)] شيركوه ، وحينئذ لو مشى العاقد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً ، ويملكون الفرنج البلاد . فترك [شاور (٤)] ما كان عزم عليه واجتمع أسد الدين وأصحابه على الفتك بشاور لأنهم علموا أن الفرنج متى وجدوا فرصة

(١) في س : « بالخليفة العلوي العاقد » .

(٢) هذا العنوان غير موجود في س .

(٣) في س (ص ١١٦) : « في القى استقر بينهما من المال . . الخ » .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س .

أخذوا البلاد ، وإن ترددهم إليها في كل وقت لا يفيد ، وإن شاور يلعب بنا (١) تارة وبالفرنج أخرى ، وإنهم إن قتلوه واستولوا على البلاد حفظوها من عدو الدين ، وقيل إن صلاح الدين وعز الدين جرديك اتفقا على ذلك ، وشاورا أسد الدين في ذلك ، فتهاهما عنه ؛ وقيل إن أسد الدين سير الفقيه ضياء الدين عيسى (٢) إلى شاور يشير عليه بالاحتراس (٣) ، وقال : « أخشى عليك ممن عندي من الناس » ؛ فركب شاور منبسطاً على عادته واسترساله ، وكان يركب على قاعدة الوزراء بالطبل والبوق والعلم ، وكان أسد الدين قد توجه لزيارة قبر الشافعي — رحمة الله عليه (٤) — بالقرافة (٥) ، فقصده شاور مخمّ أسد الدين ليجتمع به على العادة ، فصادفه صلاح الدين يوسف ابن أيوب والامير عز الدين جرديك — رحمهم الله — ومعهم جمع من المعسكر ، فقدموه وأعلموه أن أسد الدين في الزيارة ، فقال : « نمضي إليه » ، فسار — وهما

(١) في س : « بهم » .

(٢) هو الفقيه أبو محمد ضياء الدين عيسى بن محمد بن عيسى الهكاري ، كان في مبدأ أمره يشتغل بالمدرسة الزجاجية بحلب ، ثم اتصل بالأمير أسد الدين شيركوه فعينه إماماً له ، وأتى معه إلى مصر وكانت لعيسى اليد السكبري في إقناع أمراء الجيش النوري بمصر لتولية صلاح الدين الوزارة لما ضده بعد موت عمه أسد الدين ، وأصبح منذ ذلك الحين واحداً من كبار الأمراء الصلاحية ، وكان عيسى فقيهاً وجندياً مجاهداً ، يلبس زى الأجناد ويتم بهامة الفقهاء ، وقد أسره الفرنج وبقي في الأسر إلى أن اقتداء صلاح الدين بمبلغ كبير من المال . وتوفي في ذي القعدة سنة ٥٨٥ هـ . انظر : (ابن خلكان ، الوفيات ، ج ٣ ، ص ١٦٥ — ١٦٦) .

(٣) في س (١٦٦ب) : « بالاحتراز على نفسه » .

(٤) في س : « رضى الله عنه » .

(٥) خطة من خطط القسطنطين الأولى كانت لبني غصن بن يوسف بن وائل من المفاخر ، وقرافة بطن من المفاخر ، نزلوها عند الفتح فسميت بهم ، قال (ياقوت) : وهي اليوم مقبرة أهل مصر وبها أبنية جليلة ومحال واسعة وسوق قائمة وشاهد للصالحين وترب الأكاير مثل ابن طولون والناذراني وبها قبر الامام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي في مدرسة للفقهاء الشافعية . وقد أصبح هذا اللفظ علماً يطلقه المصريون إلى اليوم على كل مقبرة تدفن الموتى في أي مكان وفي أي مدينة من مدنها .

معه — قليلاً، فأخذ صلاح الدين بتلايينه (١)، وأمر العسكر أن يقبضوا على أصحابه، ففروا، ونهبهم العسكر، وألقى شاور عن فرسه، ولم يتمكن قتلهم بغير أمر أسد الدين، فذهبوا به إلى خيمة مفردة، فسجنوه بها، ووكل به من يحفظه بها، وعلم أسد الدين الحال فعاد من القرافة مسرعاً، ولم يتمكن إلا إتمام ما عملوه، وجاء رسول العاضد لدين الله في الوقت، وهو أحد الخدم [١٠١] الخواص (٢)، ومعه (٣) توقيع يتضمن: « [أنه (٤)] لا بد من [أخذ (٤)] رأسه »، جرياً على عادتهم في وزرائهم، في تقرير قاعدة من قوى منهم على صاحبه، ففرض عنقه وحمل رأسه إلى القصر، وذلك سابع ربيع الآخر.

ودخل أسد الدين القاهرة، ورأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خاف منه على نفسه، فقال لهم: « إن أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور »، فقصدوها الناس قهيوها، وتفرقوا عنه.

ذكر استيلاء أسد الدين شيركوه على الديار المصرية

وتقلده وزارة العاضد

ثم خلع العاضد على أسد الدين خلع الوزارة، فلبسها، وسار، ودخل القصر، وفوضت إليه الوزارة والتقدم على الجيوش، ولُقِّبَ الملك المنصور أمير الجيوش؛

(١) كتب في هامش الأصل معنى هذه العبارة باللغة اللاتينية هكذا (Vestis quae circa Jugutu)

(٢) إلى هنا تنهى (ص ١١٦ ب) من نسخة س، وبعدها يعود الاضطراب في ترتيب الملاحظات.

(٣) بهذا اللفظ تبدأ (ص ١٢٩) من نسخة س.

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة من س.

وقصد دار الوزارة (١) قترلها ، واستقر في الأمر ، ولم يبق له منازع ولا منازي
وكتب له منشور بالإنشاء الفاضلي أوله :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله وولَّيه [عبد الله (٢)] [أبي محمد الإمام
العاقد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد الأجل الملك المنصور سلطان الجيوش
ولي الأئمة ، بحجر الأمة ، أسد الدين ، كافل قضاة المسلمين ، وهادي دعاة المؤمنين ،
أبي الحرث شيركوه — العاضدي — عضد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه
أمير المؤمنين ، وأدام قدرته ، وأعلى كلمته : سلام عليك ، فإنه بحمد (٣) إليك الله
الذي لا إله إلا هو ، ويسأله (٣) أن يصلي على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين
[صلى الله عليه (٢)] وعلى آله الطاهرين ، والأئمة المهديين ، وسلم تسليماً
[كثيراً (٢)] . »

ثم مضمون بقية (٤) المنشور تفويض أمور الخلافة إليه ، والقيام بأعباء حفظها ،
والذب عنها ، والتوصية بتقوى الله تعالى ، والعمل بفرائضه ، والانتباه عن مناهيه ،
وإلى غير ذلك من الوصايا ، أعرضنا عن ذكرها لطولها .

(١) ذكر المقرئ ، الخط ، ج ٢ ، ص ٣٠١ — ٣٠٤) أن هذه الدار أنشأها الأفضل
شاهنشاه بن بدر الجمالي ، ولهذا كان يقال لها أيضاً الدار الأفضلية ، وكانت تقوم بجوار القصر
الكبير الشرق تجاه رجة باب العبد ، وما زال وزراء الفاطميين أرباب السيوف من عهد الأفضل
يسكنون بدار الوزارة إلى أن زالت الدولة فاستقر بها تلك الناصر صلاح الدين ثم من تلاه
من ملوك الأيوبيين وصاروا يسمونها الدار السلطانية ، وأول من انتقل عنها وسكن بالقلمة
الملك الكامل محمد ، وجعلت منذ ذلك الحين منزلاً لضباط الرسل .

(٢) ما بين الحاصرين زيادة عن : (صبح الأعشى ج ١٠ ، ص ٨٠) .

(٣) في س (١١٢٩) : « فاني أحمد » ، « نسأله » .

(٤) ورد نص هذا المنشور كاملاً في : (صبح الأعشى ج ١٠ ، ص ٨٠ — ٩٠)
مراجعه هناك ، وانظر أيضاً نفس المرجع ، ص ٦ : (ابن الحنبلي : شفاء القلوب ، ص
١٨ — ١١٠) .

وكتب العاضد في هذا^(١) المنشور بخطه :

« هذا عهد لم يُعهد لوزير مثله ، فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لملها^(٢) ،
والحجة عليك . عند الله ، بما^(٣) أوضحه لك من مرشد سبله^(٤) ، فخذ كتاب
أمير المؤمنين بقوة ، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزّت خدمتك إلى بنوة النبوة ،
واتخذ^(٥) للفوز سبيلاً ، ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها [١٠٢] وقد جعلتم
الله عليكم كفيلاً^(٦) . »

ولما انتظمت الأمور لأسد الدين بالديار المصرية أقطع البلاد للعساكر التي^(٧)
قدمت معه ، وصالح الدين — رحمه الله — ابن أخيه ، مباشر الأمور مقرر لها ،
وبيده زمام الأمر والنهي .

ومدح الشعراء أسد الدين ، فمن مدحه عماد الدين أبو حامد محمد بن محمد^(٨)
الأصفهاني الكاتب من قصيدة سيرها إليه من الشام ، وهو في خدمة نور الدين
— رحمه الله — :

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب كم راحة جُنيت من دوحة التعب

(١) في س : « في طرة » وقد ورد نص هذا التوقيع في : (صبح الأعشى ج ٩ ،
ص ٤٠٦ — ٤٠٧)

(٢) النص في : (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٤٠٦) هو : « وتقلد أمانة
رآك الله تعالى وأمير المؤمنين أهلاً لملها » .

(٣) في الأصل : « وبما » والتصحيح عن : (س) و (صبح الأعشى) .

(٤) في س : « سبله » .

(٥) في : (صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٤٠٧) « واتخذ أمير المؤمنين » .

(٦) السورة ١٦ (النحل) ، الآية ٩١ (ك) .

(٧) في الأصل : « الذي » .

(٨) انظر ترجمته في : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٤ ، ص ٢٣٣ — ٢٣٨) و (الصندي :

الوفاء بالوفيات ، ج ١ ، ص ١٣٢ — ١٤٠) و (النيمى : الفراس في تاريخ المدارس ،

ج ١ ، ص ٤٠٨ — ٤١٢) و (مقدمة خريدة النهر للمعاد ، الجزء الأول من القسم الأول

— شعراء مصر — نشر أحمد أمين وشوقي ضيف وإحسان عباس) .

نادى فعرف خير ابن بخير أب
من المدى في العلى ما حُزّت بالحب
عنها الملوك فطالت سائر الرتب
ميسراً فتح بيت القنص عن كتب
فتح البلاد ، فبادر نحوها وثب
والدين من عزيمه في جعل الحب
والقلب في شجن ، والنفس في شجب
حمر المنايا بها مرفوعة الحجب
أرى سلامتها من أعجب العجب (٢)
في شكرنا ما به الإسلام عنك (٣) حي
فقت فيهم مقام الوالد الحبيب
بما دهاهم ، فقد باتوا على نيب
وكم قضيت لحزب الله من أرب
إسلام حتى سعوا للقصد والطلب
في الحشر من أفضل الطاعات والقرب
لما دعا الشرك : هذا قد تعزز بي
إلا لنيل رضا الرحمن بالنصب
وفي ذويه وقوع النار في الخطب
نصرت نصر رسول الله بالرعب

يا شيركوه بن شاذي الملك دعوة من
جري الملوك ، وما جازوا بركضهم
تمل من ملك مصر رتبة قصر
فتحت مصر ، وأرجو أن تصير بها
قد أمكنت أسد الدين الفريسة من
أنت الذي هو فرد من بسالته ،
في حلق ذي الشرك من عدوى سطاك شجاء ،
زارت بني الأصفر البيض التي لقيت
وإنها نقد (١) من خلفها أسد
لقد رفعتنا إلى الرحمن أيدينا
يشكو (٤) إليك بنو الإسلام يثمنهم
في كل دار من الإفرنج نادبة
من شر شاور أقتدت العباد ، فكم
هو الذي أطمع الإفرنج في بلد الـ
وإن ذلك عند الله محتسب
[١٠٣] أذله الملك المنصور منتصراً ،
وما غضبت لدين الله منتقماً
وأنت من وقعت في الكفر هيبته
وحين سرت إلى الكفار فانهزموا

(١) النقد جنس من الغنم تمار الأرجل قباح الوجوه تكون بالبحرين ، وقيل هي غنم
منار حجازية ، (السال) .

(٢) بهذا اللفظ تنتهي (ص ٢٩ ب) من نسخة ص ، ثم يضطرب بعد ذلك ترتيب الصفحات
في تلك النسخة وبالتالي تنقطع الصلة بين النسخ هناك وبين المتن هنا (نسخة ك) .

(٣) في (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٩) : « منك » .

(٤) نص الروضتين : « شكاً » .

يا محي الأمة الهادي بدعوتِهِ
لما سَعَيْتَ لوجه الله مُرْتَقِبًا
أعدتْ نعمة مصر نعمة ، فعدتْ
أركبتْ رأسَ سنات رأسَ ظالمها
رُدَّ الخِلافةَ عباسيةً ، ودَعِرَ الـ
لا تَقْطَعَنَّ ذَنْبَ الْأَفْقَى وَتُرْسَاهَا ،
للرُّشْدِ كل غوى منهم وَغِي
نَوَابَهُ ، نلتَ عفوا كُلَّ مُرْتَقِبٍ
تقول لكم نكث (١) الله في التوب
عدلا ، وكنتَ لوزرٍ غيرَ مُرْتَكِبٍ
دَعِيَّ فيها يصادِفُ شرٌّ مُنْقَلَبٍ
فالحرْمُ عندي : قطعُ الرأسِ والذَّنْبِ .

وفي قتل شاور وتولى أسد الدين . الوزارة يقول عرقلة الدمشقي الشاعر ويمدح
صلاح الدين يوسف بن أيوب وأخاه الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب من قصيدة :
لقد فاز بالملك العقيم خليفةً
كان ابن شاذي والصلاح وسيفه
هو الأسد الضاري الذي جلَّ خطبهُ ،
بني وطني ، حتى لقد قال صحبهُ (٢)
فلا رَحِمَ الرحمنُ تربةَ قبرِهِ
له شيركوه العاضدُ وزيرُ
علي ، لديه شبرٌ وشبيرُ (٣)
وشاورُ كلبٌ للرجال عَقُورُ
على مثلها كانت الاعمى يدورُ
ولا زال فيها مُنْكَرٌ ونَكِيرُ

ذكر وفاة أسد الدين شيركوه بن شاذي — رحمه الله —

ذكر القاضي بهاء الدين بن شراذ — رحمه الله — في تاريخه أن أسد الدين
كان كثير الأكل شديد المواظبة على اللحوم الغليظة ، تتواتر عليه التخم والخوانيق ،
وينجو منها بعد معاناة شديدة عظيمة ، فأخذه مرض شديد واعتراه خنوق (٤) عظيم

(١) كذا في الأصل ، ولعلها : كم من .

(٢) شبر وشبير اسمان للحسن والحسين ولدي علي بن أبي طالب ، فقد جاء في (السان) :
شبر وشبير ومشبر م أولاد هارون على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، ومعناها بالعربية : حسن
وحسين ومحسن ، وبها سمي على أولاده شبر وشبير ومشبرا يعني حسنا وحسينا ومحسنا .

(٣) النسخ في (الروشتين ، ج ١ ، ص ١٥٧) : « قائل » .

(٤) الخناق أن يحدث في البلع ضيق ، يقال له خوانيق ، وهو مخنوق . (الحوارزمي :

مفاتيح العلوم ، ص ٩٧) .

فقتله ؛ وقيل بل توفي فجأة ، وكانت وفاته يوم السبت [١٠٤] لثمان بقين من جمادى الآخرة من هذه السنة — سنة أربع وستين وخمسة — فكانت وزارته شهرين وخمسة أيام .

ذكر استيلاء صلاح الدين يوسف بن أيوب — رحمه الله — على الديار المصرية ، وتقلده وزارة العاضد .

ذكر القاضي برهاء الدين أن الوصية كانت إليه من عمه أسد الدين ، وأنه لما فُوض إليه الأمر تاب عن شرب الخمر ، وأعرض عن أسباب اللهو ، وتقمص لباس الجِد والاجتهاد ، وما عاد وما زاد إلا جدًّا إلى أن توفاه الله إلى رحمته .

قال : « ولقد سمعته — رحمه الله — يقول : لما يسّر الله تعالى الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل ، لأنه أوقع ذلك في نفسي » .

وذكر عن برهاء الدين أنه لما توفي أسد الدين كان بمصر جماعة من أكابر الأمراء النورية ، منهم : عين الدولة الياروقى (١) ، وقطب الدين خسرو بن التليل ، — وهو ابن أخى ابن أبى الهيجا الهذبانى صاحب إربل وقد ذكرناه — وسيف الدين على بن أحمد المشطوب ، — وكان جده صاحب قلاع المكارية — وشهاب الدين الحارمى — خال صلاح الدين — ، وكل منهم تطاول إلى الأمر ورام التقدم ، فأرسل العاضد من القصر يستدعى صلاح الدين لينخاع عليه ويوليه الوزارة ، وكان الذى حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين ، وعلم أنه إذا ولى وليس له عسكر ولا رجال كان تحت يده وحكمه ، ولا يجسر على المخالفة ؛ وأنه يضع على العسكر الشامى من يستميلهم إليه ، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين ، وتعود البلاد

(١) لعل النسبة هنا إلى « الياروقية » وهى محلة بظاهر حلب . أنظر : (الروضتين .

إليه ، وعنده من المساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين ، فامتنع صلاح الدين ، وضعت نفسه عن هذا المقام ، فألزم به ، وأحضر إلى القصر ، وخلعت عليه خلع (١) الوزارة ، ولُقِّب الملك الناصر ، وعاد إلى دار الوزارة ، وهي الدار التي كان بها عمه ، فلم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء ولا خدموه ، فقام بأمره الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري ، وما زال بسيف الدين علي بن أحمد المشطوب حتى أماله إليه ، وقال : « إن هذا الأمر لا يصل إليك مع (٢) وجود عين الدولة وشهاب الدين الحارمي وابن تليل » ، ثم قصد به شهاب الدين وقال : « إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك ، وملكه لك ، وقد استقام الأمر له ، فلا تكن أول من يسعى [١٠٥] في إخراجه عنه ، فلا يصل إليك » ، ولم يزل به حتى استحلفه له .

واجتمع بعد ذلك بقطب الدين وقال له : « إن صلاح الدين قد أطاعه الناس ولم يبق غيرك وغير الياروقي ، وعلى كل حال فالجامع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد ، فلا يخرج الأمر عنه إلى الأتراك » ، ووعدته زيادة في إقطاعه ، فأجاب وحلف .

(١) ورد في (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٣) وصف كامل لهذه الخلع التي خلعت على صلاح الدين عند تواجته الوزارة ، وقد آثرنا نقله هنا لأهميته : « وكانت خلعة الوزارة : حمالة بيضاء تيسى بطرز ذهب ، وثوب ديبق بطرازي ذهب ، وجبة تحتها سقلاطون بطرازي ذهب ، وطيلسان ديبق بطراز دقيق ذهب ، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار ، وسيف على مجوهر قيمته خمسة آلاف دينار ، وفرس حبر صفراء من مراكب الماضد قيمتها ثمانية آلاف دينار لم يكن بالديار المصرية أسبق منها ، وطوق ، ونمخت ، ومرفسار ذهب مجوهر ، وفي رقبة الحجر مشدة بيضاء ، وفي رأسها مائتا حبة جوهر ، وفي أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر ، وقصبة ذهب في رأسها طالعة مجوهر ، وفي رأسها مشدة بيضاء بأعلام ذهب ، ومع الخلعة عدة بققج ، وعدة من الخيل ، وأشياء أخر » .

(٢) في الأصل : « إلا مع » وقد حذفت « إلا » ليستقيم المعنى . راجع : (النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٧) .

ثم اجتمع بالياروقى — وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعا — ، فلم ينفع فيه رقاؤه ولا نفث فيه سحره ، وقال : « أنا لا أخدم يوسف أبدا » . وعاد إلى نور الدين ومنعه غيره ، فأنكر عليهم فراقه له .

وذكر عماد الدين الطائب في كتابه المعروف بالبرق السامى : « أن أسد الدين لما توفى ومضت له التعزية اختلفت آراء الأمراء واختلفت آراؤهم ، ثم اجتمعت كلمتهم على عقد الأمر لصالح الدين ، وألزموا العاضد — صاحب القصر — بتوليته ، فولاه وزارته ، وكتب له منشور^(١) بالإشياء الفاضلى ، من جملة :

« فأنت راضعٌ دَرَّه وناشئةٌ حَجَرِه ، وظهور الخيل مواطنك ، وظلال الخيام مساكنك ، وفي ظلمات قساطله^(٢) تجلى محاسنك . وفي أعقاب نوازة تتلى مناقبك^(٣) ، فشَّر له عن ساق من القنَّا ، وخُضَّ فيه بحوافر^(٤) الظُّبَا ، واحلُل في عقد كلمة الله وثيقات الجبى^(٥) ، وأَسِلِ الوِهَادَ بدم العدا ، وارفع برءوسهم الرُّبَا ، حتى يأتى الله بالفتح الذى يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذخوراً لأيامك ، ومشهوداً لك يوم مقامك » .

وكتب العاضد لدين الله فى طرته^(٦) بخطه :

« هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، وحُجَّتُهُ عند الله سبحانه عليك ، فأوفِ بهدك ويمينك ، وخذ كتاب أمير المؤمنين يمينك ، وبمن مضى بمجدنا رسول الله

(١) هذه فقرة قصيرة من المنشور ، وقد أوردناها بينها (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ١٦١) أما نص المنشور كاملاً فقد ورد فى : (صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٩١ — ٩٨) فراجع هناك فهو وثيقة هامة . وورد فى : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٣) أن منشور الوزارة هذا كان ملفوفاً فى ثوب من الأطلس الأبيض .

(٢) فى صبح الأعشى : « مشاكاه » .

(٣) فى صبح الأعشى : « ميامنك » .

(٤) فى المرجع السابق . « بحرا من » .

(٥) فى نفس المرجع : « واحل فى عقدة كلمات الله سبحانه وثيقات الجبى » .

(٦) ورد نص ما كتبه العاضد فى الطرّة فى : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦١ — ١٦٢)

و (صبح الأعشى ، ج ٩ ، ص ٤٠٧) .

— صلى الله عليه وسلم — [أحسن] (١) أسوة ، [ولمن بقى بقربنا سلوة] (١) وَتِلْكَ الدَّارُ
الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ، وَالْمَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ « (٢) .

وهذا آخر منشور كتب عنهم ، وانقرض أمرهم ، وانقضت عرى دولتهم .

وفي هذا التاريخ ابتداء الدولة الأيوبية ، وأخذت الدولة المصرية في الوهن
والضعف والانحطاط إلى أن انقرضت بالكلية بعد سنتين على ما سذكركه
— إن شاء الله تعالى —

ورثي عماد الدين الكاتب أسد الدين — رحمه الله — بقصيدة عزى بها أخاه
نجم الدين [١٠٦] أيوب وولده الأمير ناصر الدين محمد بن شيركوه ، وهنأها بملك
الملك الناصر صلاح الدين الديار المصرية :

ما بعد يَوْمِكَ . للمعنى المذنب	غيرُ العويلِ وحسرةِ المُتأسِّفِ
ما أجراً الحدنان كيف عدا (٣) على الآ	سد الخوف سـطاً ، ولم يتوقفِ
مَنْ ثَابِتٌ دُونَ الْكُفَاةِ سِوَاهُ ؟ إِنْ	رَأَتْ بِهِمْ أَقْدَامُهُمْ فِي الْمَوْقِفِ
مَنْ ذَا رَأَى الْأَسَدَ الْمَهْصُورَ فَرِيضَةً	أَمْ أَبْصَرَ الصَّبِيحَ الْمُنِيرَ وَقَدْ خَفِيَ ؟
مَا كَانَ أَسْنَى الْبَدْرِ لَوْ لَمْ يَسْتِرْ	مَا كَانَ أَبْهَى الشَّمْسِ لَوْ لَمْ تُكْشَفِ !
أَيَّامُ عَمْرِكَ لَمْ تَزَلْ مَقْسُومَةً	لِللَّهِ : بَيْنَ تَعَبُّدٍ وَتَعَرُّفِ
مَنْهَجاً لِعِبَادَةٍ ، أَوْ تَالِيَاً	مِنْ آيَةٍ ، أَوْ نَظَرَاً فِي الْمُصْحَفِ
فَجَعَ النَّدَا وَالْبَاسُ مِنْكَ بِحَاتِمٍ	وَبِحَيْدَرٍ ، وَالْعِلْمُ مِنْكَ بِأُخْتَفِ
بِالْمَلِكِ قُزْتُ ، وَخُزَّتْهُ عَنْ قُدْرَةٍ ،	وَمَضَتْ عَنْهُ بِسِيرَةِ الْمُتَعَفِّ
وَوُصِفَ يَا أَسَدَاً لِدِينِ مُحَمَّدٍ	مَدْحاً بِمَا مَلَكَ بِهِ لَمْ يُوصَفِ

(١) أضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة المرجعين السابقين .

(٢) السورة ٢٨ (القصص) ، الآية ٨٣ ك .

(٣) في : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٢) « سطا » .

وَقَفَّوْتَ آثَارَ الشَّرِيعَةِ كُلَّهَا ، وقد اهتدى من للشريعة يقتفى
أَنْفَيْتَ مِنْ دُنْيَاكَ حِينَ عَرَفْتَهَا ؟ فَلَوَيْتَ وَجْهَ الْعَارِفِ الْمُسْتَكْفِ (١)
يَا نَاصِرَ الدِّينِ اسْتَعِمْ بِتَصَرُّفٍ مُدْنٍ إِلَى مَرْضَاةِ رَبِّ مَزَلِفٍ
وَتَعَزَّزْ نَجْمَ الدِّينِ عَنْهُ مُنْهَنًا أَبَدَ الزَّمَانِ بِمَلِكٍ مِصْرَ ، وَيُوسُفَ
لَا نَسْتَطِيعُ سِوَى الدَّعَاءِ ، فَكَلَّمْنَا — إِلَّا بِمَا فِي الْوُسْعِ — غَيْرُ مُكَلَّفٍ

ولما ملك الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب — رحمهما الله — مصر
كتب إلى بعض أصدقائه وأودائه بالشام كتابا أوله :

« أَيُّهَا الْغَائِبُونَ عَنِّي وَإِنْ كُنْتُ تَمَّ لِقَابِي بِذِكْرِكُمْ جِيرَانَا
إِنِّي مَذْفُودٌ فَقَدْتُمْ لَأَرَاكُمْ بَعِثُوا الضَّمِيرَ عِنْدِي عِيَانًا »

فأجابه ، والشعر والترسل لعماد الدين الأصفهاني :

[١٠٧] « أَيُّهَا الظَّاعِنُونَ عَنَّا (٢) وَقَابِي مَسْهُم (٣) مَا يَفَارِقُ الْأَشْجَانَا (٤)
مَلِكُوا مِصْرَ مِثْلَ قَلْبِي ، وَفِي هَذَا ، وَفِي تِلْكَ (٥) أَصْبَحُوا سُكَّانَا
فَاعْدِلُوا فِيهَا ، فَإِنَّكُمْ الْيَوْمَ مَلِكْتُمْ عَلَيْهِمَا سُلْطَانَا
لَا تَرَوْعُوا بِالْهَجْرِ قَلْبَ مُحِبٍّ أَوْرَثْتُهُ أَوْصَابَهُ (٦) الْخَلْقَانَا
حَبِذَا مَهْدٌ قَضِينَا بِهِ الْعَيْشَ شَسْ ، وَكُنَّا بِرَّيْعِهِ جِيرَانَا (٧)

(١) في الروضتين : « التَّكْفِ » .

(٢) في الروضتين : « عَنِّي » .

(٣) في الروضتين : « لَا » .

(٤) في الروضتين : « الْأَطْلَانَا » .

(٥) في الروضتين : « وَمَاتِيكَ » .

(٦) في الروضتين : « رَوَاتِهِ » .

(٧) هذه القطوعة ينقصها بيتان يليان هذا البيت الأخير ، أوردهما صاحب الروضتين

(ج ١ ، ص ١٦٢) ، وهما :

إِذَا وَجَدْنَا مِنَ الْحَوَادِثِ أَمَانًا وَأَخَذْنَا مِنَ الْخَطُوبِ أَمَانًا
وَرَتْنَا مِنَ الْغَيِّ فِي رِيَاضٍ وَسَكَنَّا مِنَ الْغَايِ جَنَانًا

وبعد : فإن وفود الهناء ، وأمداد الدعاء ، متواصلة على الولاء ، صادرة عن محض الولاء ، إلى على جنابه المأنوس ، ومنيع كنفه المحروس ، فليهنه الظفران بالملك وبالعدو ، وفرع هضاب المجد والعلو ، وكيف لا يكون النصر مساوقاً لدين هو صلاحه ، والتأييد موافقاً لمزم هو (١) نجاحه وفلاحه .

فَالشَّامُ يُغَبِّطُ مِصْرًا مُذْ حَلَّتْ بِهَا كَمَا الْفِرَاتُ عَلَيْكُمْ بِحَسْبِ الْبَيْلَا
نَلْتَمُ مِنَ الْمُلْكِ عَفْوًا مَا الْمُلُوكُ بِهِ عُتِنُوا قَدِيمًا وَرَامُوهُ فَمَا نَيْلَا «

وثبتت قدم الملك الناصر صلاح الدين في الملك ورسخ ملكه ، والخطبة مع ذلك على المنابر بالديار المصرية للخليفة العاضد ، وبعده للملك العادل نور الدين ؛ فالملك في الظاهر له ، ولا يتصرف صلاح الدين إلا عن أمره ، والمكاتبة ترد عليه من نور الدين : « بالأمير الاسفهلار (٢) » ، ويكتب نور الدين اسمه قبل علامته (٣) تعظيماً لنفسه ، ولا يُفرد به بالمكاتبة ، بل يكتب إليه : « الأمير الاسفهلار صلاح الدين ، وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا » .

(١) الأصل : « موافقاً به نجاحه » ، والتصحيح عن الروضتين .

(٢) انظر ما فات هناك ٢ ، هامش ١ .

(٣) العلامة مصطلح خاص يكتبه الخليفة أو السلطان بيده على الرسائل أو الأوامر أو السجلات الصادرة عنه ، ولا تصدر هذه الوثائق على اختلافها إلا بعد كتابة هذه العلامة ، وكان كل خليفة أو سلطان أو ملك يتخذ لنفسه مصطلحاً خاصاً ليكون علامته ، وقد يكون توقيعاً باسمه أو آية قرآنية أو قولاً مأثوراً إلخ . وهذه العلامة هي التي تطورت في أواخر العصر المملوكي وفي العصر العثماني فأصبحت تعرف « بالظفر » . أنظر : (القريري ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٦٧ — ٣٦٨) حيث يشير إلى « الظفر » و « العلامة » بقوله : « وكان في الدولة السلجوقية يسمى ديوان الانشاء بديوان الظفر » ، وإليه ينسب مؤيد الدين الظفرائي . والظفر هو طرة المكنون ، فيكتب أعلى من البسملة بقلم غليظ ألقاب الملك ، وكانت تقوم عند مقام خط السلطان بيده على الناحية والكتب ويستغنى بها عن علامة السلطان ، وهي لفظة فارسية .

أنظر أيضاً : La : (C. Cahen : la Tughrâ Seljukide. Journal Asiatique, 1945 ; La Correspondance de Diyā ad- Din Ibn al-Athir. B. S. O. S. V. XIV. Part 1.) و (القريري : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٤٤ ، هامش ١) .

ثم شرع صلاح الدين في استمالة قلوب الناس إليه ، ويبذل من الأموال ما كان أسد الدين جمعه ، وطلب من العاضد شيئاً يخرج به ، فلم يمكنه منه ، فقال الناس إليه وأحبوه ، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه ، وضمف أمر العاضد .

ثم بلغ نور الدين أن الفرنج قد اجتمعت لتسير إلى مصر ، فأمد نور الدين صلاح^(١) الدين بعسكر فيهم الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب — وهو أكبر من صلاح الدين — وقال له نور الدين لما أراد أن يسيره إلى أخيه : « إن كنت تسير إلى مصر [١٠٨] وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد ، فلا تسر ، فإنك تفسد البلاد ، وأحضر ك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه ، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائم فيها مقامى ، وتخدمه بنفسك كما تخدمنى ، فسر إليه ، واشدد أزره ، وساعده على ما هو بصدده » ، فقال : « أفعل معه من الخدمة والطاعة ما يصل إليك إن شاء الله تعالى » ، فكان كما قال .

ذكر وقعة السودان بالقاهرة

وكان بالقاهرة خصى^٢ يقال له مؤمن الخلافة^(٢) ، وكان متحكما في القصر ، ولما ثقلت وطأة الملك الناصر على أهل القصر ، وعلموا أن دولتهم زائلة بسببه ، أحبوا الراحة منه ، فأجمعوا على مكاتبة الفرنج ليصلوا إلى البلاد ، فإذا خرج صلاح الدين إلى لقاءهم قبضوا على من بقى من أصحابه بالقاهرة ، واجتمعوا هم والفرنج

(١) في الأصل : « صلاح » .

(٢) اسمه الكامل : « مؤمن الخلافة جوهر » وكان أحد الأساقفة المحكين بالقصر .

انظر : (الفريزى ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٢) .

على حربه وحرب أصحابه واستئصالهم ، ويكون بعد ذلك البلاد بينهم وبين الفرنج يقتسمونها ، فسير مؤتمن الخلافة رجلا وحده (١) كتابا إلى الفرنج ، فخرز عليه نعله ، وظنوا أن ذلك يخفى عن صلاح الدين والمسلمين (٢) ، « وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » (٣) .

فاتفق أن ذلك القاصد لما عبر بالبئر البيضاء (٤) رآه رجل تركماني وعلى القاصد خلقان ، وفي يده النعلان اللذان (٥) أخفيت فيهما المكاتبه ، وليس فيها أثر شيء ، فأنكرهما التركماني ، فأخذهما ، وأحضرهما إلى صلاح الدين ، ففتقهما فوجد مكاتبه الفرنج فيهما من أهل القصر ، فأخذ صلاح الدين الكتاب ، وقال : « دلوني على كاتب هذا الخط » ، فدلوه على رجل يهودي ، فلما أحضره ليسأله ويعاقبه ويقابله ، نطق بالشهادتين واعتصم بهما ، واعترف أنه كاتب الكتاب عن أهل القصر ، فأخفى صلاح الدين الحال ، واستشعر مؤتمن الخلافة ، وخاف على نفسه ، ولازم القصر لا يخرج منه ، فإذا خرج لم يُبعد ، وصلاح الدين معرض عن ذكره البتة ، منقض عنه ، لا يأمر فيه بيسط ولا قبض ، فاسترسل حينئذ وظن أنه لا يقدم عليه ، وكان له قصر .

(١) في الأصل : « وأصحابه » ولا يستقيم المعنى بها ، وقد صححت بعد مراجعة : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٢٩) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٨) .
(٢) بين كلمة « المسلمين » والآية القرآنية لفظ « دبابا » ولا معنى لها لحذفت .
(٣) السورة ٩ (التوبة) ، الآية ٣٢ (م) .

(٤) ذكر (المقرئزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢) أنها قريبة من بلبس ، هذا ويستفاد مما ورد في (صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٧٦) عند الكلام عن مراكز البريد وعن الطريق بين القاهرة وغزة أن هذه البئر كانت واقعة بين بلدتي الخانكة وبلبس ، وقد حقق المرحوم محمد رشدي بك موقعها ، قال في : (الاجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٤٤ ، هامش ٢) : « وبالبحث عن موقعها تبين لي أن مكانها اليوم عزبة أبي حبيب الواقعة في حوض البيضاء بأراضي ناحية الزواهل بمركز بلبس ، ولا يزال اسم البيضاء والنسوب إليه هذه البئر يطلق على الحوض المذكور » .

(٥) في الأصل : « الذين » .

بقرية على شاطئ النيل بقرب قليوب تعرف [١٠٩] بالخرقانية^(١) ، ذات منزله وبساتين ، فخرج إليها للقتله ، فلما علم صلاح الدين أرسل إليه جماعة من أصحابه فاغتالوه من مأمنه ، وقتلوه وأتوا برأسه ، وذلك يوم الأربعاء لحس بقين من ذى القعدة من هذه السنة — أعنى سنة أربع وستين وخمسة — .

فلما قُتل غار السودان^(٢) عبيد القصر وثاروا ، وكانوا يزيدون على خمسين ألفاً ، وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه ؛ فلما ثاروا أنهض^(٣) إليهم الملك الناصر صلاح الدين أبا الهيجاء السمين ، ووقعت الحرب بين الفريقين — بين القصرين بالقاهرة — واشتد القتال بين الفريقين ، واستمر ذلك يومين ، وصاروا كلما لجأوا إلى محلة أحرقت عليهم ، وكانت لهم محلة عظيمة على باب زويلة ، تعرف بالمنصورة ،^(٤) فأرسل صلاح الدين إليها من أوقع الحريق فيها على أموالهم وأولادهم وحرعهم ، فلما أتاها الخبر بذلك ولوا منهزمين ، وركبتهم السيوف ، وأخذت عليهم

(١) ذكر (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٠ ، ص ٩٧) أنها قرية صغيرة من مديرية القليوبية من قسم قليوب واقعة على الشط الشرقى للنيل في الشمال الغربى لقرية أبى النيط بنحو نصف ساعة ، ومنها إلى القناطر الخيرية نحو ثلث ساعة ، وأبنيتها ريفية وبها جامع بمنارة وذكر أنها كانت تسمى في العصر الفاطمى « الخرقانية » .

(٢) أشار (المقريزى فى الحطط ، ج ٣ ، ص ٣) إلى بعض الفرق السودانية التى شاركت فى هذه الواقعة ، وهى : « الطائفة الريحانية ، والطائفة الجيوشية ، والطائفة الفرجية ، وغيرهم من الطوائف السودانية ، ومن انضم إليهم بين القصرين » .

(٣) فى الأصل « نهض » ولا يستقيم بها المعنى . وقد صححت بمد مراجعة : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٨) ، فالنص هناك نقلا عن العماد : « ثار أصحاب صلاح الدين إلى الهيجا ، ومقدمهم الأمير أبو الهيجا » .

(٤) ذكر هذه المحلة (المقريزى فى الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٩) باسم « الحارة المنصورة » . قال : « هذه الحارة كانت كبيرة منسعة جداً ، فيها عدة مساكن للسودان ، فلما كانت واقعهم فى ذى القعدة سنة ٦٤٤ هـ أمر صلاح الدين يوسف بن أيوب بتخريب المنصورة هذه وتنقية أثرها » تخريبها خطيبا بن موسى الملقب صارم الدين ، وعملها ستانا . ثم حدد مكانها فى (ص ٣٠) قال : « وكان موضع المنصورة على يمنة من ملك فى الشارع خارج باب زويلة . هى إلى جانب الباب الحديد الذى يعرف اليوم بالقوس عند رأس التنجبية فيها بينها وبين الهلاية . »

أفواه السكك ، فطلبوا الأمان بعد أن كثر فيهم القتل ، فأجيبوا إلى ذلك ؛ وذلك يوم السبت لليلتين بقيتا من ذى القعدة ، فمضوا إلى الجزيرة ، فعبر إليهم الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أوب — أخو السلطان — في طائفة من العسكر فأبادهم بالسيف ، فلم يبق منهم إلا الشريد ، وضعف أمر العاضد بالكلمية وتلاشى أمره ؛ وأمر صلاح الدين بتخريب محلة السودان ، وأعنى أثرها ، فخرَّبها بعض الأمراء واتخذها بستاناً ؛ وأصبح أمر السودان كأن لم يكن قط ^(١) ، ففي ذلك يقول عماد الدين الكاتب بمدح صلاح الدين ، وسبِّرها إليه من الشام :

بالمُلكِ الناصر استنارتْ	— في عصرنا — أوجهُ الفضائل
على من حقه فروضٌ	شُكراً لما جاد من نواقل
يوسفُ مصرَ الذي إليه	تَشُدُّ آمالنا الرواحل
أجريتْ نيلين في زراها :	نيل نجيع ، ونيل نائل
وما نفيتَ السودانَ حتى	حكمتَ البيضَ في المقاتل
[١١٦] صيرتَ رَجَبَ الفضاءِ ضيقاً	عليهم كفه بمائل ^(٢)
وكلُّ رأى منهم كراء	وأرضُ مصرَ كلام واصل
وقد خلَّتْ منهمُ المغاني	وأقترتْ منهمُ المنازل

(١) أورد القرظي في كتابه (الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٩) نصاً هاماً يشير إلى مكانة السوهمانيين في الجيش الفاطمي ومبلغ ما كان لهم من نفوذ ، وكيف تتبعهم صلاح الدين في الصيد بعد هذه الوقعة إلى أن قضى على نفوذهم نهائياً ، قال : « وكان للسودان بديار مصر شوكة وقوة ، فتبهم صلاح الدين ييلاد الصيد حتى أقام بعد أن كان لهم بديار مصر في كل قرية ومحلة وضيفة مكان مفرد لا يدخله وال ولا غيرة ، احتراماً لهم ، وقد كانوا يزيدون على خمسين ألفاً ، وإذا ثاروا على دزير قتلوه ، وكان الفرار بهم عظيماً لا متداد أيديهم إلى أموال الناس وأهاليهم ، فلما كثر بنهم وزاد تمديهم أهلهم الله بذنوبهم . . الخ » .

(٢) الأصل : « كفة الحابل » ، وما هنا عن : (الروستين ، ج ١ ، ص ١٧٨) ، وقد وردت هذه القصيدة أيضاً في : (القرظي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٩ — ٣٠) ، وهي هناك أكثر أبحاثاً فانظرها

وما أُصِيبُوا إِلَّا بِظَلٍّ فَكَيْفَ لَوْ أَمْطَرُوا بِوَابِلٍ !
 وَالسُّودُ بِالْبَيْضِ قَدْ أُبْيَحُوا (١) فَهِيَ بِوَادِيهِمْ نَوَازِلُ
 مُؤْتَمِنُ الْقَوْمِ خَانَ حَتَّى غَالَتْهُ مِنْ شَرِّهِ غَوَائِلُ
 عَامِلُكُمْ بِأَنْخَلْنَا فَأَضْحَى وَرَأْسُهُ فَوْقَ رَأْسِ عَامِلِ
 يَأْمُجِلَ الْبَحْرَ بِالْأَيْدَى قَدْ آتَى أَنْ تَفْتَحَ السَّوَاهِلُ
 فَقَتَّسَ الْقَدَمَ مِنْ خَبَاثِ أَرْجَاسٍ كَفَرُ غُثْمٍ أَرَاذِلُ

وذكر عمار الدين أنه وصل في هذه المدة كتاب من الملك الناصر صلاح الدين
 إلى بعض أصحابه بدمشق ، وضمنه هذا البيت :

وانثر دُرَّ الدَّمْعِ مِنْ قَبْلِ أَيْضًا وَقَدْ حَالَ مَذْغَبُكُمْ فَأَصْبَحَ يَاقُوتَا
 فَنَظَّمْتُ فِي الْجَوَابِ أَيْيَاتَا مِنْهَا :

هَنِيئًا لِمَنْ كُنَ يَوْسُفُ مَلِكُهَا بِأَمْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ قَدْ كَانَ مَوْقُوتَا
 وَمَا كَانَ فِيهَا قَتْلُ يَوْسُفَ شَاوِرَا بِمَائِلٍ إِلَّا قَتْلُ دَاوُدَ جَالُوتَا
 وَقُلْتُ لِقَلْبِي أَبْشُرِ الْيَوْمَ بِالْمَنَى قَدْ نَلَيْتَ مَا أَمَلَيْتَ ، بَلْ حَزَتْ مَا شِئْنَا
 وَلَمَّا وَقَعْتَ هَذِهِ الْوَاقِعَةَ تَلَا شَيْءٌ أَمْرَ الْعَاضِدِ خَلِيفَةِ مِصْرَ ، إِلَّا أَنَّ الْخُطْبَةَ بَاقِيَةً لَهُ ،
 وَبَعْدَهُ لِنُورِ الدِّينِ ، فَخَسِي لِي الْأَمِيرَ حَسَامَ (٢) الدِّينِ بْنِ أَبِي عَلِيٍّ قَالَ :

« كَانَ جَدِّي فِي خِدْمَةِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ صَلَاحِ الدِّينِ ، فَخَسِي أَنَّهُ لَمَّا وَقَعَتْ هَذِهِ
 الْوَاقِعَةُ شَرَعَ صَلَاحُ الدِّينِ كُلَّ يَوْمٍ يَطْلُبُ مِنَ الْعَاضِدِ شَيْئًا مِنَ الْخَلِيلِ وَالرَّقِيقِ

(١) الْأَصْلُ : « الْجَوَا » وَمَا هُنَا عَنِ الرُّوسِيِّينَ ، وَفِي الْخَطِّطِ : « تَنْحُوا » .

(٢) كَانَ الْأَمِيرُ حَسَامُ الدِّينِ بْنِ أَبِي عَلِيٍّ قَائِدًا مِنْ كِبَارِ قَوَادِ الدَّوْلَةِ فِي عَهْدِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ
 نَجْمِ الدِّينِ أَيُّوبَ وَنَائِبَ السُّلْطَانَةِ فِي عَهْدِهِ ، كَمَا كَانَ صَدِيقًا حَمِيمًا لِلْمَوْلَى ابْنِ وَاصِلَ ، وَسَيُنْقَلُ
 عَنْهُ فِيمَا يَلِي الْكَثِيرَ مِنْ أَخْبَارِ الدَّوْلَةِ وَأَسْرَارِهَا وَخَاصَّةً فِي عَهْدِ الصَّالِحِ نَجْمِ الدِّينِ ، وَهَذَا أَوَّلُ
 حَدِيثٍ يُنْقَلُ عَنْهُ ، وَهُوَ مِنَ الْأَخْبَارِ الَّتِي يَنْفَرِدُ ابْنُ وَاصِلَ بِإِرَادِهَا ، وَقَدْ نَقَلَهُ عَنْهُ (أَبُو الْحَاسَنِ :
 النُّجُومُ الزَّاهِرَةُ ، ج ٥ ، ص ٢٢٩) .

والأموال ، ليقوى بذلك ضعفه ، قال : فسيرتني يوما إليه أطلب منه فرساً ، ولم يبق عنده إلا فرس واحد ، فأتيت [١١١] إليه وهو راكب في بستانه المعروف بالكافوري^(١) ، الذي يلي القصر الغربي^(٢) ، قلت : صلاح الدين يعلم عليك ، ويطلب منك فرساً ، فقال : ما عندي إلا الفرس الذي أنا راكبه ، ونزل عنه ، وشقَّ خفيّيه ، ورمى بهما ، وسلم إلى الفرس ، فأتيت به صلاح الدين ، ولزم العاضد بيته ، ولم يعد لركوب حتى كان منه ما كان .

ذكر منازلة الفرنج دمياط وعودتهم عنها خائبين

ولما ملك صلاح الدين — رحمه الله — الديار المصرية ، واستقرت قدمه بها ، واستقرت بها المساكن النورية ، أيقن الفرنج بالهلاك ، وأيقنوا أن بلاد الساحل من المسلمين على شفا جرف هار ، وأنهم إن لم يتداركوا الأمر وإلا ذهبت البلاد

(١) ذكر هذا البستان (المقريزي : الحطط ، ج ٣ ، ص ٣٩) عند كلامه عن « خط الكافوري » ، قال : « هذا الخط كان بستاناً من قبل بناء القاهرة وتملك الدولة الفاطمية لدار مصر ، أنشأه الأمير أبو بكر محمد بن طنج الاخشيد ، وكان بجانبه ميدان فيه الخيول وله أبواب من حديد ، فلما قدم جوهر القائد إلى مصر جعل هذا البستان من داخل القاهرة وعرف ببستان كافور ، وقيل له في الدولة الفاطمية البستان الكافوري ، ثم اختط مساكن بعد ذلك . وقد حقق المرحوم محمد رمزي بك مكان هذا البستان في القاهرة الحالية في تعليقاته على كتاب النجوم الزاهرة (ج ٤ ، ص ٤٨ ، هامش ٢) فقال إنه كان بستاناً كبيراً واقعاً قبل إنشاء القاهرة في المنطقة التي تسمى اليوم من الشمال بشارع أمير الجيوش الجواني ، ومن الغرب بشارع الخليج المصري ، ومن الجنوب بشارع السكة الجديدة ، ومن الشرق بشارع الخردجية وبين القصرين والنخارين . ولما خرب هذا البستان وبني في مكانه الدور والمساكن وغيرها أصبح خط الكافوري قاصراً فيما بعد على المنطقة التي تسمى اليوم من الشمال بشارع أمير الجيوش الجواني ، ومن الغرب بشارع الشعرائي البراني ، ومن الجنوب بشارع الخرنفش ، ومن الشرق بحارة برجوان .

(٢) كان موضعه حيث البيمارستان المنصوري (ومستشفى قلاوون لمرمى يشغل جزءاً منه الآن) وكل المساكن التي تجاوره إلى الخليج . انظر : (النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٦٦ ، هامش ١) .

من أيديهم ، فكاتبوا افرنج صقلية [والاندلس] ^(١) وغيرهم ، واستمدوهم واستنصروهم
لدين النصرانية ، وأمدوهم بالأموال والرجال والسلاح ، واعتدوا للنزول على دمياط ،
فوصل إلى دمياط الفرنج والروم من داخل البحر ، واستصحبوا معهم المنجنقات ^(٢)
والدبابات ^(٣) وآلات الحصار وغير ذلك ، واشتد أمر الفرنج بالشام لما قدم فرنج

(١) ما بين الحاصرتين عن الكامل لابن الأثير ، والروضتين . والمعروف أن أموري عندما
أدرك خطورة استيلاء نور الدين على مصر أرسل يستنجد بمسيحي أوروبا جميعاً . ولكنهم تقاءحوا
من تجديده لأسباب مختلفة . فلجأ إلى مانويل امبراطور الدولة البيزنطية ، فإبى دعوته ،
ولهذا كانت الحملة على دمياط تتكون من جيش أموري الصليبي وأسطول بزنطى ضخم . لمعرفة
أخبار هذه الاتصالات وموقف البيزنطيين في الحملة انظر : (حسن حبشي : نور الدين
والصليبيون ، ص ١٢٤ — ١٤٠) .

(٢) المنجنق — بفتح الميم وكسر هـ — أو المنجوق ، أو المنجقيق ، والجمع : مجانيق
ومناجيق ومنجنقات ، لفظ أعجمى معرب فهو في اللاتينية (Mangonellus) ، وفي الفرنسية
(Mangonneon) وفي الإنجليزية (Mangonel) ، وهو آلة من آلات الحصار في العصور
الوسطى ، يقوم مقام المدفع الحالى ، وإن كانت قذائفه من الحجارة ، وقد وصفه صاحب صبح
الأعشى (ج ٢ ، ص ١٤٤) بأنه « آلة من خشب له دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه
ثقيل وذنبه خفيف ، تجمل كفة المنجنق التى يحمل فيها الحجر يجذب حتى ترفع أسافله الأعلى
أطالیه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفة فيخرج الحجر منه ، فإصاب شيئاً إلا أهلكه . وقد
ذكر (مرضى بن على بن مرضى الطرطوسى) في مخطوطته «تبصرة أرباب الأبواب في كيفية النجاة
في الحروب من الأسواء .. الخ» التى ألفها خصيصاً لسلطان صلاح الدين الأيوبي أن المنجنقات
على عهده كانت ثلاثة أنواع : « فنها العربى وهو أيقن مصنوطاتها ، وأوثق معمولاتها ، ومنها
التركي وهو أقلها كلفة وأحصرها ، ووثنة ، ومنها الفرنجى » ثم وصف هذه الأنواع جيئاً وصفاً
دقيقاً مشفوعاً بالرسوم . وقد نشر مقتطفات من هذه المخطوطة مع ترجمة فرنسية وتعليقات قيمه
الأستاذ كلود كاهن . انظر : (Claude Cahen: Un Traité D'Armurerie Composé pour
Saladin. Extrait du Bulletin d'Études Orientales, Damas, Tome XII. 1947-1948.)
هذا ويوجد أيضاً في : (الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٩١ — ١٩٣) وصف
ممنع للمنجنق وطرق استعماله . انظر كذلك : (الجوالقي : العرب ، ص ٣٠٥ — ٣٠٧)
و (نهمان ثابت : الجندية في الدولة العباسية ، ص ١٩٠ — ١٩٣) و (المقرئى : اتعاظ
الحنفا ، نشر الشياك ، ص ١١٩ ، هامش ٣) .

(٣) جاء في (السان) أن «الدبابة آلة تتخذ من جلود وخشب ، يدخل فيها الرجال ويقربونها
من الحصن المحاصر لينقبوه وتقيم ما يرمون به من فوقهم ، سميت بذلك لأنها تدفع فتدب ،
وقد قرئ (مرضى بن على) بينها وبين الأبراج والستائر ، ووصفها جيئاً وطرق صنعها في كتابه =

الغرب إلى دمياط ، فسر قوا حصن عكار من المسلمين ، وأسروا صاحبها ، وكان مملوكا لنور الدين يقال له خطلمخ (١) الجمدار ؛ وكان وصول الفرنج إلى دمياط في صفر سنة خمس وستين وخمسمائة .

وكان سبق إلى دمياط الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ابن أخي السلطان ، وكذا شهاب الدين خاله ، فدخلا دمياط ، وتابع إليهما صلاح الدين الأمداد والنجد في البحر ، وأمدهما بالسلاح والمال والذخائر ، واتصل على دمياط حصار الفرنج وضايقوها ، وتابع صلاح الدين رسله إلى الملك العادل نور الدين — رحمه الله — يشكو إليه ما هو فيه من المخاوف ، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الفرنج ، وإن سار إليها خافه المصريون في مخافيه ومخافى عسكره بالسوء ، وخرجوا عن طاعته ، وصار الفرنج أمامه والمصريون خلفه ، فجهز إليه نور الدين العساكر أرسالا ، كلما تجهزت طائفة أرسلها ، فسارت إليه يتلو بعضها بعضها . ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر ودخل بلاد الفرنج ، [١١٢] قتها وأغار عليها واستباحها ، لتحرك الفرنج إلى حفظ البلاد الشامية ويشتغلوا عن دمياط ؛ وذكر أنه بلغ من اهتمام نور الدين بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرئ

= المؤلف الذكر . انظر : (C. Cahen: Op. Cit. P.18-19) كذلك وصفها (الحسن عبدالله : آثار الأول ، ص ١٩٢) بقوله : « هي آلة سائرة تتخذ من الحشب الثخين المتلوز ، وتغلف بالبود والجلود المنقعة في الخل لدفع النار ، وتركب على عجل مستديرة ، وتحرك فتتجر ، وربما جعلت برجا من الحشب ، ودبر فيها هذا التديير ، وقد يدفعا الرجال فتندفع على البكر » وقد وصف (المعاد الأصفهاني : الفتح النقي) بأحدى دبابات الفرنج بأنها « كانت دبابة عظيمة هائلة ولها أربع طباق ، وهي خشب ورصاص وحديد ونحاس » . انظر المراجع المذكورة في الحاشية السابقة ؛ (المفريزي في السلوك ، ج ١ ، ص ٩٦ ، حاشية ٨) و (Dozy: Suppl. Dict. Arab.) هذا وقد كتب قارىء في هامش الأصل معنى هذا اللفظ باللاتينية وهو (mufeuos machinas bellicas) .

(١) في الأصل : « خلطلمخ » وقد صحح الاسم بعد مراجعة (الروضتين ، ج ١ ص ١٨٠) وهو يسميه هناك « العلامدار » لا « الجمدار » .

بين يديه جزء من حديث كان له به رواية ، فجاءه في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم ، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يتبسم لينم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث ، فغضب من ذلك ، وقال : « إني لأستحي من الله تعالى أن يراني مبتسماً والمسلمون محاصرون بالفرنج » .

وذكر أن إماماً لنور الدين رأى ليلة رحل الفرنج عن دمياط في منامه النبي — صلى الله عليه وسلم — وقال له : « أعلم نور الدين أن الفرنج رحلوا عن دمياط في هذه الليلة » ، قال : فقلت : « يارسول الله لا يصدقني ، فاذكر لي علامة يعرفها » ، [قال] : قل له « بعلامة ما سجدت على تل حارم » ، وقلت : يارب انصر دينك (١) ، ولا تنصر محموداً ، من محمود الكلب حتى ينصر ؟ ! قال : « فانتبهت ، ونزلت إلى المسجد ، وكان من عادة نور الدين أن ينزل إليه بغلس ، ولا يزال يركع فيه حتى يصلي الصبح » ، قال : « فتعرضت له ، فسألني عن أمرى ، فأخبرته بالمنام ، وذكرت له العلامة كلها ، إلا أنني لم أذكر لفظ الكلب » ، فقال نور الدين : « إذكر العلامة كلها » وألح عليّ ، فقلت لها ، فبكي ، وصنق الرؤيا . وأرخت تلك الليلة ، فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة » .

ولما رأى الافرنج تتابع الأمداد إلى دمياط من القاهرة والشام ، ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وإخراؤها (٢) رجعوا خائبين ، وكان مدة مقامهم

(١) في الأصل : « دينك » وهو خطأ واضح ، لم يكن تصحيحه يحتاج إلى الإشارة إليه في الهامش ، لولا أن القارئ الفرنجي الذي اعتاد أن يسجل بعض شروحه باللاتينية على هوامش المخطوطة لم يظن للقراءة الصحيحة لفظ ، وفهمه على أنه « دين » ، وشرحه باللاتينية هكذا : (Canla gregis, mandre) ؛ وفي (اللسان) : الدين حظيرة من قصب تعمل للغنم ، قال كانت من خشب فهي زرب . فتأمل !!

(٢) في الأصل : « وغربها » والتصحيح عن الروضتين .

على دمياط خمسين يوما ، وكان رحيلهم لتسع بقين من ربيع الأول سنة
خمس وخمسين وخمسمائة .

وأنفق صلاح الدين في هذه النوبة أموالا عظيمة ، وذُكر عنه أنه قال :
« ما رأيت أكرم من العاضد ، أرسل إلى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار
مصرية سوى الثياب وغيرها » ، وُسِّرت الكتب إلى الشام بالبشارة برحيل الفرنج ،
فكتب نور الدين إلى العاضد صاحب مصر يهنئه برحيل الفرنج عن دمياط ، وكان
قد ورد عليه كتاب [١١٣] من العاضد يستقيل فيه من الأتراك خوفا منهم ،
ويطلب الاقتصار على صلاح الدين وخواصه وأزواجه ، فكتب إليه (١) نور الدين
يمدح (١) الأتراك ، ويأمله أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم إلا لعله بأن قنطاريات (٢)
الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك ، وأن الفرنج لا يخافون إلا منهم ، ولولاهم
لزاد طمعهم في الديار المصرية ، ولعل الله سبحانه وتعالى يُيسر بهم فتح
بيت المقدس .

ومما مدح به الملك الناصر صلاح الدين بعد رحيل الفرنج ما كتب إليه به
عماد الدين الكاتب — رحمه الله — من قصيدة (٣) مخلصها :

كَأَنَّ قَلْبِي وَحُبَّ مَالِكُهُ بِمِصْرَ وَفِيهَا الْمَلِكُ يُوسُفُهَا

(١) في الأصل : « إلى » و « مدح » ، والتصحيح عن : (الروضتين ج ١ ، ص ١٨١) .
(٢) القنطارية نوع من الرمح ، وهي لفظ من أصل يوناني (κοντάριον = Kontarion) وسُميت
هكذا لأنها تصنع من نوع من الخشب يحمل هذا الاسم باليونانية . وقد وصفها (مرضى بن علي)
وصفا دقيقا في كتابه السالف الذكر ، قال : « وبنو الأصفر ومن جالسهم من الروم يمتدون
رماحا من الخشب الزان والشوح وما شاكله ويسمون القنطاريات ، وليست بالطويلة ، ويطعنون
بها ، ومن فرسانهم من يقربس بها ، وهو أن يجعل طرفها في قربوس سرجه ويطعن ، وأسلتها
تصار عراض كهيئة البليطة وما جرى مجراها » . أنظر : (C. Cahen : Un Traité :
D'Armurerie Composé pour Saladin P.P 11, 155) (Dozy. Supp. Dict. Arab)

(٣) وردت هذه الأبيات في : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨٢) ، أما القصيدة كاملة
فوجودة في : (الهاد الأصفهاني : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج ١ ص ٩ — ١١) وقد
استغنا بهذين المرجعين لتصحيح الأبيات وضبطها وشرحها .

هذا يسلب القواد يظلمني ، وهو بقتل الأعداء ينصفها
 الملك الناصر الذي أبدا بعز سلطانة يشرفها
 قام بأحوالها ، فدبرها حسنا ، وأثقلها بخنقها
 بعدله والصالح يعمرها ، وبالندی والجبل يكتفها
 من دنس الغادرين يرحضها ، ومن خبات العدى ينظفها
 وإنه في السماح حاتمها ، وإنه في الوار أحسنها
 يوسف مصر التي (١) ملاحها جاءت بأوصافه تعرفها
 كتب التواريخ لا يزيتها — إلا بأوصافه — مصنفها
 وحطت (٢) دمياط إذ أحاط بها من رجوم (٣) البلاء يقدفها
 لاقت غواة الفرنج خبيثتها فزاد — من حسرة — تأسفها
 أوردت قلب (٤) القلوب أرشية من القنا للدماء تنرفها (٥)
 وليتها سفكها فعاملها عاملها (٦) والسنان مشرفها (٧)
 يمضي لك الله في قتالهم عزيمة للجهاد ترهقها

(١) في الأصل : « الذي » .

(٢) في الأصل : « وحط » ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٣) في الأصل : « من رجوم » والتصحيح عن المرجعين السابقين .

(٤) القلب جمع قلب وهو البئر ؛ والأرشية الجبال ، وهي جمع وشاء .

(٥) في الأصل : « تصرفها » ، وما هنا عن المرجعين السابقين .

(٦) حامل الرع صدره ؛ والعامل الوالى .

(٧) مشرف الشيء ما يعلوه ؛ والشرف كذلك القائم على الأمر .

ذكر وصول الملك الأفضل نجم الدين أيوب بن شاذى

والد السلطان إلى مصر

[١١٤] ثم أرسل السلطان الملك الناصر صلاح الدين إلى الملك العادل نور الدين — رحمه الله — يطلب أن يرسل إليه والده نجم الدين أيوب ، فجهّز نور الدين وسير معه عسكراً ، واجتمع معهم من التجار خلق كثير ، وانضاف إليهم من كان له مع صلاح الدين أنس وصحبة ، ثم خاف نور الدين عليهم من الفرنج ، فسار إلى الكرك في عساكره ، فحصره وضيق عليه ، ونصب عليه المجانيق ليشغل الفرنج عنهم ، فأتاه الخبر أن الفرنج قد جمعوا وحشدوا وساروا إليه ، فسار نور الدين نحوهم ، فرجعوا عنه القهقري ، وسلك نور الدين وسط بلادهم بحرق وينهب ما على طريقه من القرى ، إلى أن وصل إلى عَشْرًا (١) ، فحجم بها وأقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم ، فلم يبرحوا مكانهم ، وأقام هو حتى أتاه خبر الزلزلة العظيمة التي وقعت في هذه السنة ، فرحل .

وهذه الزلزلة (٢) هي المعروفة بزلزلة حلب التي هدت أكثر منازلها ، وكانت عظيمة جداً ، وكان تأثيرها في حلب وبلادها نظير تأثير الزلزلة التي كانت بحماة سنة اثنين وخمسين وخمسمائة — التي قدمنا ذكرها —

ووصل الملك الأفضل نجم الدين أيوب — رحمه الله — إلى القاهرة في الرابع والعشرين من رجب من هذه السنة — أعني سنة خمس وستين وخمسمائة — ، وخرج العاضد — صاحب القصر — لاستقباله ، وبالع في احترامه والإقبال عليه .

(١) هكذا ضبطها ياقوت وقال إنها موضع بحوران من أعمال دمشق .

(٢) حدثت هذه الزلزلة في ثاني عشر شوال . انظر أخبارها بالتفصيل في : (ابن الأثير :

الكامل ٢ ج ١١ ، ص ١٣٢ — ١٣٣) و (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨٤) .

واتفق لأيوب مع ولده صلاح الدين يوسف شبيه ما اتفق ليعقوب مع ابنه يوسف — عليهما السلام — حين قدم على ولده ، ووجده متملكا للديار المصرية ، وقال : « ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِينَ (١) » . وذكر أنه لما خرج ولده الملك الناصر صلاح الدين والخليفة العاضد إلى لقائه ، واجتمعا به قرأ بعض المقرئين : « وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ (٢) » — الآية —

ولما اجتمع صلاح الدين بأبيه سلك معه من الأدب ما جرت به عادته ، وفوض إليه الأمر كله ، فأبى ذلك عليه أبوه وقال له : « يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفو له ، فلا ينبغي أن تغير مواقع السعادة » [١١٥] فخكمه في الخزان بأمرها ، وأنزله اللؤلؤة (٣) المطلة على خايج القاهرة ، فأنشده يوما ابن أبي حصينة (٤) وغض من خلفاء مصر :

(١) السورة ١٢ (يوسف) ، الآية ٩٩ ك .

(٢) السورة ١٢ (يوسف) ، الآية ١٠٠ ك .

(٣) اللؤلؤة منظر من مناظر الفاطميين كانت تعرف بقصر اللؤلؤة ، ويشرف من شرقيه على البستان الكافوري ، ومن غربيه على الخليج ، وصفه (القريري : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ إلى ٣٥٠) بأنه كان من أحسن القصور وأعظمها زخرفة ، أنشأ هذه المنظر العزيز بالله ثم هدمها الحاكم ثم جددوها الظاهر ؛ ومكانها اليوم تبعا لتحقيقات محمد رمزي (النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٤٦ ، هامش ٢) مدرسة الفرير التي بشارع الشراني البراني على رأس شارع الخرنفش بقسم الجمالية . أنظر أيضاً : (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٢ ، ص ١٢٨) .

(٤) هو يحيى بن سالم بن أبي حصينة الأحمدي ، ترجم له (المعاد الأصفهاني : الحريرة ، قسم شعراء مصر ، ج ٢ ، ص ١٥٧) فقال إنه من أهل مصر ، وجده من أهل المرة بالشام ، من نسب الشاعر المعروف ، ثم أورد له بعض شعره ، وقد ذكر ناشر الحريرة أن لهذا الشاعر ترجمة في (ابن سعيد : المغرب ، الجزء الثاني ، الورقة ١٧٣) و (ابن حجر : التجريد ، الورقة ٢٥٧) . وقد ترجم صاحب الحريرة لأبيه سالم بن مفرج بن أبي حصينة في (نفس المرجع ، ص ١٠٧ — ١٠٨) . أنظر أيضاً : (عمارة : النكت المصرية ، ص ٢٩٢) وفي (النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٧٥) ترجمة لشاعر آخر من نفس الأسرة ، فقد قال في وفيات سنة ٤٥٦ هـ : « توفي الحسن بن عبد الله بن أحمد أبو الفتح الحلبي الشاعر المعروف بابن أبي حصينة ، كان فاضلا شجاعا فصيحاً يخاطب بالأمر » .

يَا مَالِكَ الْأَرْضِ لَا أَرْضِي لَكَ طَرَفًا
 قَدْ عَجَّلَ اللَّهُ هَذِي إِنْ دَارَ تَسْكُنُهَا ،
 تَشَرَّفْتَ بِكَ عَمَّنْ كَانَ يَسْكُنُهَا
 كَانُوا بِهَا صَدَقًا ، وَالِدَارُ لَوْلَاةُ ،
 مِنْهَا ، وَمَا كَانَ فِيهَا لَمْ يَكُنْ طَرَفًا
 وَقَدْ أَعَدَّ لَكَ الْجَنَّاتِ وَالْفُرَفَا
 فَالْبَسْ بِهَا الْعِزَّ ، وَلَتَلْبَسَ بِكَ الشَّرَفَا
 وَأَنْتَ لَوْلَاةُ صَارَتْ لَهَا صَدَقًا

فرد عليه عماره (١) بن علي البني الشاعر ، وكان يتعصب لخلفاء مصر ،
 لاصطناعهم إياه وإحسانهم إليه ، فقال :

أَمِيتَ (٢) يَا مَنْ هِيَ السَّادَاتِ وَالْخُلَفَا
 جَعَلْتَهُمْ صَدَقًا حَلُّوا بِلَوْلَاةِ
 وَإِنَّمَا هِيَ دَارٌ ، حَلَّ جَوْهَرُهُمْ
 فَقَالَ : لَوْلَاةُ ! عُجْبًا يَهْجِيهَا ،
 فِيهِ بُسْكَانُهَا (٣) الْآيَاتُ إِذْ سَكَنُوا
 وَالْجَوْهَرُ الْفَرْدُ نَوْرٌ ، لَيْسَ يَمُرُّهُ
 لَوْلَا تَجَسُّهُ فِيهِمْ (٤) لَكَانَ عَلَى
 فَالْكَلْبُ - يَأْكُلُ - أَسْنَى مِنْكَ مَكْرَمَةٌ ، (٥) لَأَنْ فِيهِ حِفَاطًا دَائِمًا وَوَفَا
 وَقُلْتَ مَا قُلْتَهُ فِي ثَلَبِهِمْ سَخَفًا
 وَالْعُرْفُ : مَا زَالَ سُكْنَى (٦) اللُّوْلُو الصَّدَقَا
 فِيهَا ، (٧) وَشَفَّ فَأَسْنَاهَا الِذَى وَصَفَا
 وَكَوْنِهَا حَوَتْ (٨) الْأَشْرَافَ وَالشَّرَفَا
 فِيهَا ، وَمَنْ قَبَاهَا قَدْ أَسْكَنُوا الصُّحُفَا
 — مِنَ الْبَرِيَّةِ — إِلَّا كُلُّ مَنْ عَرَفَا
 ضَعْفَ الْبَصَارِ لِلْأَبْصَارِ مَخْطِطًا
 فَالْكَلْبُ - يَأْكُلُ - أَسْنَى مِنْكَ مَكْرَمَةٌ ، (٩) لَأَنْ فِيهِ حِفَاطًا دَائِمًا وَوَفَا

(١) أشير إلى اسم الشاعر — في الأصل — بعلامة ، وكتبت أمامه في الهامش هذه الجملة
 اللاتينية : (Vide plura de hoc poeta infra pag. 128.) ويشير كاتب هذه الجملة من الفرنج
 إلى قصيدة أخرى لهارة وردت في ص ١٢٨ من المخطوطة وهي القصيدة التي رثى بها عماره الفاطميين .
 (٢) في الأصل : « ألت » والتصحيح عن : (عماره : النكت المصرية ، ص ٢٩٢)
 و (المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٥١) .

(٣) في الأصل : « كن » والتصحيح عن المرجعين السابقين .
 (٤) في الأصل : « بها » ، والتصحيح عن المرجعين السابقين .
 (٥) في الأصل : « حلت » والتصحيح عن المرجعين السابقين .
 (٦) في الأصل : « فمهم بسكنايها » ؛ وفي الخطط « فمهم بسكنام » ؛ وما هنا صيغة « النكت » .
 (٧) كذا في الأصل وفي (النكت) ؛ وفي (الخطط) : « فيه » .
 (٨) كذا في الأصل وفي (الخطط) ؛ وفي (النكت) : « معروفة » .

وفي هذه السنة — أعني سنة خمس وستين وخمسمائة — سار الأمير شهاب الدين محمد بن إلياس ابن إياغازي بن أرْتُق — وكانت له البيرة — في عسكره ، — وهم مائتا (١) فارس — إلى خدمة الملك العادل نور الدين محمود — رحمه الله — ، وهو نازل بعُشْتَرَا ، فلما وصل إلى اللبوة من أعمال بعلبك ، وكان قد ركب متصيِّداً ، فصادف ثلاثمائة فارس من الفرنج قد ساروا للإغارة على بلاد الإسلام ، فوقع بعضهم على بعض ، واقتتلوا ، وصبر الفريقان ، وكثر القتل فيهم ، فانهزم الفرنج ، واستولى عليهم القتل والأسر ، فلم يسلم منهم من يُعتد به ، ثم سار شهاب الدين بالأسرى ورؤوس القتلى إلى نور الدين ، فركب هو وعسكره إلى لقائه ، واستعرض الأسرى ورؤوس [١١٦] القتلى ، فرأى فيها رأس مقدّم الاسبتارية (٢) ، صاحب حصن الأكراد ، وكان معظماً عند الفرنج .

ذكر وفاة قطب الدين مودود بن زنكي

صاحب الموصل

وفي ذي الحجة من هذه السنة توفي قطب الدين مودود بن زنكي بن آق سنقر — صاحب الموصل — وكان مرضه حاداً ، ولما اشتد مرضه أوصى بالملك بعده لولده عماد الدين زنكي بن مودود ، فلم يتم أمره ، على ما سند كره إن شاء الله تعالى .

(١) في الاصل : « مايتي » .

(٢) هذه هي التسمية العربية لطائفة الفرسان المستباليين ، وهو تحريف ظاهر لفظ الانجليزى (Hospitallers) أو الفرنسى (Hospitalliers) ، وكان يطلق في عصر الحروب الصليبية على طائفة من الفرسان الدينيين ، وقد أسس هذه الطائفة (Blessed Gerard) في سنة ١٠٩٩ م بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس . وكانت الدار التي يسكنها هؤلاء الرهبان (Hospice) موجودة قبل ذلك في بيت المقدس وتتخذ مأوى للحجاج والمرضى من المسيحيين ، وتشبه هذه الطائفة في كثير طائفة فرسان المعبد (Templiers) التي عرفها العرب باسم « الداوية » ، وقد لعب فرسان هاتين الطائفتين دوراً خطيراً في الحروب الصليبية انظر: (king: Knights Hospitallers) (pp. 1-22) و (محمد فريد أبو حديد : صلاح الدين الأيوبي وعصره ، ص ١٠٤ ، هامش ١) .

ذكر سيرته — رحمه الله —

كان من أحسن الملوك سيرة ، وأعفهم عن أموال الرعية ، محسناً إليهم ، كثير الإِنعام عليهم ، محبباً عند الصغير والكبير منهم ، وكان سريع الانفعال للخير ، بطيئاً عن الشر ، جم المناقب ، قليل المعائب ، وجرت واقعة عجيبة ينبغي أن تتعظ بها ، حدث الشيخ عز الدين بن الأثير عن والده ، قال : « كنت أتولى جزيرة ابن عمر لقطب الدين كما علمت ، فلما كانت قبل موته ييسر ، أتاني كتاب من الديوان (١) بالموصل ، يأمرون بمساحة جميع بساتين العقيمة ، وهي قرية تحاذي الجزيرة وبينهما دجلة ، ولها بساتين كثيرة ، بعضها يُمسح فيؤخذ منه عن كل جريب (٢) شيء معلوم ، وبعضها عليه خراج ، وبعضها مطلق من الجميع ، وكان لي فيها ملك » ، فكتبت أقول : « إن المصلحة أن لا يُغَيَّرَ على الناس شيء ، وما أقول لأجل ملكي ، فإنني أنا أُمسح ملكي ، وإنما أريد أن يدوم الدماء من الناس لهذه الدولة » ، فجاءني كتاب النائب يقول : « لا بد من المساحة » ، قال : فأظهرت الأمر ، وكان بها قوم صالحون ، لي بهم أنس ، وبيننا وبينهم مودة ، فجاءني الناس كلهم ، وأولئك معهم ، يطلبون المراجعة ، فأعلمتهم أنني راجعت ، وما أجبت إلى ذلك ، فجاءني منهم رجلان أعرف صلاحهما ، وطلبا مني معاودة المخاطبة ثانياً ، ففعلت ،

(١) كان لفظ « الديوان » يطلق أحياناً في ذلك العصر على موظف أو موظف الديوان

كما يتضح من النص هنا .

(٢) الجريب هنا مقياس للأرض ، ومقداره عشر قصبات في عشر قصبات ، على أنه قد يختلف باختلاف المكان والزمان : والجريب في الأصل مكبال ، وسعته ما يكنى من الحب لبذر مساحة معينة ، ومن هنا سميت تلك المساحة باسم الجريب . انظر : (الماوردي : الأحكام السلطانية) و (المقرئ ، إفاضة الأمانة ، ص ٥١ و ٦٣) و (Enc. Isl. Art: Djarib) وما بها من مراجع .

فأصروا على المساحة ، ففرقهما الحال ، قال : « فما مضى إلا عدة أيام وإذا قد جاءني الرجلان ، فلما رأيتهما ظننت أنهما يطلبان المعاودة ، فعجبت منهما ، وأخذت أعتذر إليهما ، فقالا : ما جئنا إليك في هذا ، وإنما جئنا نعرفك أن حاجتنا قد قضيت » ، قال : « فظننت أنهما قد أرسلنا إلى المحصل من يشفع لهما » ، قلت : « من الذي خاطب في هذا [١١٧] بالموصل ؟ » فقالا : « إن حاجتنا قد قضيت من السماء ، ولكافة أهل العقيمة » ، فظننت أن هذا مما حدثنا به نفوسهما ، ثم قاما عني ، فلم يمض غير عشرة أيام ، وإذا قد جاء كتاب من الموصل ، يأمران فيه بإطلاق المحبسین والمساحة والمكوس ، ويأمران بالصدقة . ويقال إن قطب الدين — يعني السلطان — مريض على حال شديدة ، ثم بعد يومين أو ثلاثة جاءنا الكتاب بوفاته ، فعجبت من قولها ، واعتقدته كرامة لهما ، قال : فصار والدي بعد ذلك يكثر إكرامهما واحترامهما ويزورهما .

ذكر استيلاء سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي

على الموصل

كان النائب بالموصل والقيم بأمور الدولة بعد زين الدين على كُوجك فخر الدين عبد المسيح ، وكان خادما لقطب الدين ، وكان يكره عماد الدين لأنه (١) كان طوع عمه (١) نور الدين ، لكثرة مقامه عنده ، ولأنه كان زوج ابنته ، وكان نور الدين يُبغض فخر الدين عبد المسيح ، واتفق فخر الدين والخاتون (٢) ابنة حسام الدين تَمْرُتاش [بن] إيلغازي — والدة سيف الدين — على صرف الملك عن عماد الدين

(١) الضمير هنا يعود على قطب الدين .

(٢) هي صفية خاتون وكانت زوجة لقطب الدين مودود ، انظر عنها ومن أبيها :

(Zambaur Op. Cit. PP. 33, 136. 227).

إليه ، فأجلس في الملك سيف الدين بن غازي بن قطب الدين مودود ، ورحل عماد الدين زنكي بن مودود إلى عمه نور الدين مستنصراً به ، وكان عمر قطب الدين لما توفي قريباً من أربعين سنة ، ومدة ملكه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفاً .

وفي هذه السنة توفي الأمير مجد الدين بن الداية ، وهو رضيع نور الدين ، وكان أعظم الأمراء منزلة عنده ، وكان له من الإقطاع حارم ، وقاعة جعبر ، فرداً ما كان إليه إلى أخيه شمس الدين بن الداية .

ذكر استيلاء الملك العادل نور الدين — رحمه الله —

على الموصل ، وإقرار ابن أخيه سيف الدين عليها

ولما بلغ نور الدين — رحمه الله — وفاة أخيه قطب الدين بالموصل ، واستيلاء عبد المسيح واستبداده بالأمور أنف من ذلك وعظم عليه ، وكان شديد البغض لعبد المسيح — كما ذكرنا — فقصده الرقة ، في سنة ست وستين وخمسة ، فقتلها على عوض أعطاه النائب بها .

ومكي عمار الدين الطائب — رحمه الله — قال : « استدعاني نور الدين — ونحن بظاهر الرقة — ، وقال لي : قد أنست بك ، وأمنت إليك ، وأنا غير مختار للفرقة ، لكن المهم [١١٨] الذي عرّض لا يبلغ الغرض فيه غيرك ، فتمضي إلى الديوان العزيز جريدة ، وتُنهي إليه أني قصدت بيتي وبيت والدي ، فأنا كبيره ووارثه ، وتأخذ لي منه إذناً في ذلك ، وأنا ممثّل لما يرد عليّ منه ، وأمر الأمير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه أن يسيرني إلى الرحبة في رجال من عنده ،

وسرت منها إلى البرية غربي الفرات بخفير من بني خفاجة ، فوصلت ، وقضيت الحاجة ، ورجعت من عند الخليفة المستنجد بالله — وهو يحاصر سنجار — .

ولما ملك نور الدين الرقة سار إلى الخابور فملكه جميعه ، ثم ملك نصيبين ، وأقام بها بجميع العساكر ، فأتاه نور الدين محمود بن قرا أرسلان الأرتقي — صاحب الحصن — ، واجتمعت عليه العساكر ؛ ثم سار إلى سنجار فحاصرها ، ونصب عليها المجانيق ، وكان بها عسكر كثير من الموصل ، فكاتبه عامة الأمراء الذين بالموصل يحثونه على السرعة إليهم ليسلموا البلد إليه ؛ وأشاروا بترك سنجار ، فلم يقبل منهم ، وأقام حتى ملك سنجار وسلمها إلى ابن أخيه عماد الدين زنكي بن مودود ؛ ثم سار إلى الموصل فأتى إلى بلد ، وعبر دجلة من مخاضة عندها إلى الجانب الشرقي ، ثم سار حتى وصل شرقي الموصل على حصن نينوى ، ودجلة بينه وبين الموصل ؛ وبوصوله — أعنى وصول نور الدين — سقط من سور الموصل بدنة كبيرة .

وكان فخر الدين عبد المسيح قد سيره عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود إلى أتابك إيلدكز — صاحب بلاد الجبل وأذربيجان — ، وأراد يستنجدوه ، فأرسل إيلدكز رسولا إلى نور الدين ينهاه عن قصد الموصل ، ويقول له : إن هذه البلاد للسلطان ، ولا سبيل لك عليها ، فلم يلتفت نور الدين إلى رسالته ، وكان بسنجار ، فسار إلى الموصل ، وقال للرسول : « قل لصاحبك أنا أرفق بيني أخى منك ، فلا تدخل نفسك بيننا ، وعند الفراغ من إصلاحهم يكون الحديث معك على باب همدان ، فإنك قد ملكت نصف بلاد الإسلام ، وأهملت الثغور ، حتى غلب الكرج^(١) عليها .

(١) الكرج أمة من المسيحيين ، كانت مساكنها بجبال القوقاز المجاورة لتفليس ، ثم استولوا على تفليس من المسلمين سنة ٥١٥ هـ ، ولم يزالوا متمسكين لها إلى أن أغار عليهم جلال الدين خوارزمشاه سنة ٦٢١ هـ واسترد تفليس منهم . انظر : Allen: *History of the Georgian People* PP. 85-112.)

وبليتُ أنا بأشجع الناس — الفرنج — ، وأخذتُ بلادهم ، وأسرتُ ملوكهم ،
فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه ، فإنه يجب علينا الحفظ لما أهلكنا
من بلاد الإسلام ، وإزالة الظلم [١١٩] عن المسلمين . وعاد الرسول بهذا الجواب .

ثم إن الأمراء الذين بالموصل كاتبوا نور الدين وأعلموه عزمهم على الوثوب
بعبد المسيح وتسليم البلد إليه ، ولما علم عبد المسيح بذلك راسله في تسليم البلد إليه
وتقريره على سيف الدين ، ويطلب الأمان وإقطاعا يكون له ، فأجابه إلى ذلك ،
وقال : « لا سبيل إلى لقاءك بالموصل ؛ بل تكون عندي بالشام ، فإنني لم آت لأخذ
البلاد من أولادي . وإنما جئت لأخلص الناس منك ، وأتولى أنا تربية أولادي » ،
واستقرت القاعدة على ذلك ؛ وتسلم نور الدين الموصل ، ودخلها لثلاث عشرة ليلة
مضت من جمادى الأولى من هذه السنة — أعني سنة ست وستين وخمسمائة — ،
ونزل في القلعة ، وولى بالقلعة سعد الدين كُشْتِكِين ، وأبقى بالموصل سيف الدين
غازي بن مودود ، واسم الملك له ، وقسم تركة قطب الدين بين أولاده بمقتضى
الفريضة .

ذكر وفاة الخليفة المستنجد بالله (١)

أبي المظفر يوسف بن المقتنى وسيرته

كنا ذكرنا وفاة المقتنى لأمر الله في سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، ومصير
الخلافة إلى ولده المستنجد بالله أبي المظفر يوسف ، وأنه أقام بوزارته عون الدين

(١) أنظر ترجمته في : (ابن الجوزي : التنظيم ، ج ١٠ ، ص ١٩٢ — ١٩٤ و ٢٣٦)
و (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٣٤ — ١٣٥) و (سبط ابن الجوزي : مرآة
الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٢٨٢ — ٢٨٣) و (ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٧٩ — ٢٨٢)
و (السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٣ — ٢٩٤) و (ابن دحية : التبراس ، ص ١٥٨ — ١٥٩) .

أبا (١) المظفر يحيى بن هبيرة (٢) — وزير والده — ، وكان عنده مظهراً كما كان عند والده ، ثم بعد ذلك جرت مشاحنة بين الوزير عون الدين وأستاذ الدار عضد الدين محمد بن عبد الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء ، واشتد الأمر بينهما (٣) ؛ وكان عضد الدين هذا متمكناً عند الخليفة المستنجد بالله ، فبقى عون الدين مدارياً له مستوحشاً منه [وطلب الإقالة من الخليفة فأقاله ، ولزم بيته (٤)] ، إلى أن توفي الوزير عون الدين ليلة الأحد ثالث عشر جمادى الأولى سنة ستين وخمسمائة .

وكان من أعيان الوزراء ، وكان إقطاعه في ديوان الخلافة (٥) في كل سنة ما يقارب مائة ألف دينار ، ومات وعليه ديون جمّة ، ولم يدخر ملكاً ولا ديناراً ولا درهماً ؛ وكان ابتاع داراً من (٦) صدقة بياب العامة ، فقيل له : باسم من تكتبه ؟ فقال : باسم الوكلاء — أجاهم الله تعالى — يعني وكلاء الخليفة ؛ فقيل له في ذلك ، فقال : « إن كنت في الوزارة فهذه الدار لي وغيرها ، وإذا عُرِضت عنها فأرجو أن أمكن من الإقامة ببعض المساجد » .

وكانت مدة وزارته للخليفين المقتفي والمستنجد ، ست (٧) عشرة سنة (٨) .

(١) في الأصل : « أبو » .

(٢) أنظر ترجمته في : (ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٢١٤ — ٢١٧)

و (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٥ ، ص ٢٧٤ — ٢٨٧) .

(٣) بهذا اللفظ تبدأ ص (١٣٠) من نسخة س . وبذلك نمود للمقارنة بين نصي

النسختين : (ك ، س) .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادات عن س (ص ١٣٠) .

(٥) في س : « الخليفة » .

(٦) في س : « دارين صدقة » .

(٧) في س (١٣٠) : « سبع » .

(٨) يوجد في س (ص ١٣٠) بعد هذا اللفظ الجملة الآتية : « وقد ذكرناه في تاريخ

القاضي شهاب الدين على غير هذه الصورة » .

ثم توفي الخليفة المستنجد [١٢٠] بالله يوم الجمعة سابع ربيع الآخر من هذه السنة — أعني سنة ست وستين وخمسمائة — فكانت خلافته إحدى عشرة سنة ، وشهراً ، وأحد عشر يوماً ، وكان يقظاً (١) شهماً عادلاً حسن السيرة ، وله شعر حسن ، ذكرنا بعضه ، ومما أنشده وزيره عون الدين بن هبيرة له [من قصيدة يقول (٢)] :

كُنْتُ عَدُوًّا مَبْرَزًا صَفْحَتَهُ أَوْ فَسَلْنِي إِذَا لَمْ تَكُ قِرْنِي
فِي اشْتِبَاهِ النَّاسِ وَدَيْنِهِمْ وَمَنَاوَاةِ إِلَيْهَا سَوِيَّ ضَفْنِي
كَمْ عَدُوٍّ زَلَّ (٣) مِنْ ظَهْرِ أَبِي وَصَدِيقٍ أُمُّهُ مَا وَلَدَتْنِي

ذكر البيعة بالخلافة للمستضيء بنور الله

ابن المستنجد بالله

ولما توفي المستنجد بالله بويج بالخلافة ولده الإمام المستضيء بنور الله أبو محمد الحسن بن المستنجد [بالله (٤)] بن القتيبي [لأمر الله (٤)] بن المستظهر في عصر اليوم الذي توفي فيه أبوه — وهو يوم الجمعة سابع ربيع الآخر — البيعة الخاصة ، وعمره إذ ذاك تسع (٥) وعشرون سنة وثمانية أشهر وثمانية أيام ، لأن مولده في ثالث عشر شعبان سنة ست وثلاثين وخمسمائة ، وبويج يوم السبت غد هذا اليوم البيعة العامة ،

(١) مكان هذا اللفظ في س : « شجاعا » .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س .

(٣) س (س ١٣٠) : « نازل » .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادات عن س .

(٥) في س (س ٣٠ ب) : « سبع » ، وما هنا هو الصحيح ، فقد ولد المستضيء

سنة ٥٣٦ ، أنظر : المتن هنا و (السبوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٤) .

وأخذ له البيعة على الناس وزيره (١) عضد الدين بن رئيس الرؤساء ، وأقطع (٢) المستضىء ما كان يجرى في إقطاع ابن هبيرة ، وأقطع قايمار — مملوك والده (٣) — الحلة وأعمالها ، (٤) وأقطع تماش وأخاه أردن — نسيب قايمار (٥) — واسطا وقوشان ، وطوق (٦) قايمار ولقبه ملك العرب ، وسوره (٧) ، ولم يكتف لهم بذلك حتى حمل إليهم من الأموال ما زاد على أمانتهم وآمالهم (٨) .

وبعث إلى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي خلة — وكان بظاهر الموصل — فلبسها ، ثم بعد دخوله الموصل خلماها على ابن أخيه سيف الدين .

وأطلق نور الدين المكوس بالموصل كلها ، وكذلك فعل في سائر ما فتحه من البلاد ، وأمر بإنشاء الجامع النوري بالموصل ، وأقطع جزيرة ابن عمر لابن أخيه سيف الدين غازي ، وكان مدة مقام نور الدين بالموصل سبعة عشر يوما ، ثم رحل إلى الشام ، وفي صحبته فخر الدين عبد المسيح ، فغير اسمه نور الدين ، وسماه عبد الله .

ووصل [١٢١] [نور الدين] إلى حلب في شعبان ، وزوج سيف الدين غازي ابنته ، وفوض القضاء بسنجار ونصيبين والخابور إلى الشيخ شرف الدين عبد الله ابن أبي عصرون ، فولى بها نوابه ، ثم رحل نور الدين إلى دمشق وصام بها شهر رمضان من هذه السنة ، ثم خرج بعد العيد إلى الحميم ثم سار إلى عشترا .

(١) في الأصل : « وأخذ له البيعة على الناس كما كان وزيره ووزير أبيه بعه ابن هبيرة عضد الدين إلخ » ، وفي س (ص ٣٠ ب) : « وأخذ له البيعة على الناس ووزيره ووزير أبيه عضد الدين إلخ » وهو نفس مضطرب المعنى في كليهما ، وقد حذفنا بعض الألفاظ ليستقيم المعنى ، أنظر ترجمة هذا الوزير في : (ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٨٠ — ٢٨٢) ، واسمه بالكامل : « عضد الدين أبو الفرج محمد بن أبي الفتوح عبد الله بن رئيس الرؤساء » .

(٢) ما بين الرقبن غير موجود في س .

(٣) أنظر أخبار قايمار وأقاربه في : (ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٢٥٣ — ٢٥٥) .

(٤) أي ألبسه الطوق والسوار .

وقد ذكر عماد الدين [الطائِب] في البرق أن السرية (١) التي خرجت (٢) لصاحب البيرة باللوبة كانت في هذه السنة بعد نزول نور الدين عَشْرًا ، وروى ابن الدَّبَر أنها كانت في السنة الماضية ، وكان هذا هو الأقرب . والله أعلم بالصواب .

ذكر الأحداث الكائنة بمصر في هذه السنة

— أعني سنة ست وستين وخمسمائة —

وفي هذه السنة حرر (٣) صلاح الدين داراً كانت للمعونة (٤) بمصر مدرسة للشافعية ، ولم يكن بمصر للشافعية ولا لغيرهم مدرسة ، لأن الدولة كانت إسماعيلية ،

-
- (١) في س (ص ٣٠ ب) : « السيرة » ، وما هنا هو الصحيح .
 (٢) في الأصل : « جرت » ، وما هنا عن س ، أنظر أخبار هذه السرية بالتفصيل في : (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٣٢) .
 (٣) في س (ص ٣٠ ب) : « خرب صلاح الدين داراً كانت للمعونة وبنها مدرسة للشافعية » .
 (٤) أشار القريري عند كلامه عن السجون إلى حبسين كان كل منهما يسمى « حبس المعونة » أو « دار المعونة » ، الأول كان بالقسطاط : (الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٠٤) ، والثاني كان بالقاهرة : (الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٤٢) ، والأول هو المقصود هنا ، وقد سميت هذه الدار بالمعونة لأنها بنيت بمعونة المسلمين ينزلها ولائهم ، ثم عرفت بدار القفل ، وكان مكانها قبل جامع عمرو بن العاص بالقسطاط ، ثم جعلت داراً للشرطة واستمرت كذلك إلى أن حولها يانس القريري — صاحب الشرطة في عهد العزيز — إلى حبس عرف بالمعونة وذلك في سنة ٣٨١ هـ . ثم حولها صلاح الدين أول توليته على مصر إلى مدرسة للشافعية ، وقد عرفت هذه المدرسة أول إنشائها « بالمدرسة الناصرية » نسبة إلى الناصر صلاح الدين ، ثم عرفت باسم « مدرسة ابن زين التجار » وهو أول فقيه تولى التدريس بها ، ثم عرفت بعد ذلك « بالمدرسة الشريفة » نسبة إلى الشريف القاضي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الحسين الأرموي قاضي المسكر ، أحد من تولوا التدريس بها . انظر أخبار هذه المدرسة بالتفصيل في : (القريري : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٩٣) و (ابن دقان : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٩٣) ، وقال محمد رمزي في تحقيقاته في (النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٨٥ ، هامش ١) أن هذه المدرسة زالت ، ومحلها اليوم أرض قضاء في الجنوب الشرق من جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة مشغولة بأقنان الجير والفواخير .

ولم يكن لهم ميل إلى شيء من هذه المذاهب ؛ ثم بنى — رحمه الله — دار الغزل (١) مدرسة للمالكية .

وفوض القضاء بالديار المصرية إلى قاضى القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس الهذباني (٢) الشافعى ، فجعل صدر الدين القضاة فى سائر الديار المصرية شافعية ، فاشتهر مذهب الشافعية (٢) واندرس مذهب الإسماعيلية بالكلية ، وانمحي أثره ، ولم يبق أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهر به .

خروج الملك الناصر صلاح الدين إلى الغزاة

ثم خرج صلاح الدين إلى جهاد الفرنج ، وأغار على الرملة وعسقلان ، وهجم رَافض غزة ، ثم عاد إلى القاهرة ، ثم وصله الخبر بخروج قافلة من دمشق فيها أهله ، فأشفق عليها (٣) وخاف عليهم من الفرنج ، فخرج فى النصف من ربيع الأول ، [فالتقى بالقافلة ، وخفرهم إلى مصر بما معهم سالمين ، ثم رد على عقبه (٤)] .

(١) ذكر (المقرئى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٩٣ — ١٩٤) أن موضع هذه المدرسة يعرف بدار الغزل لأنه كان قيسارية يباع فيها الغزل ، ثم هدمها صلاح الدين وبنى مكانها مدرسة للفقهاء المالكية وأوقف عليها الأوقاف الكثيرة أهمها ضيعة بالفيوم ، كان يجمع منها قمح كثير يوزع على فقهاء المدرسة ، ولهذا عرفت بعد ذلك « بالمدرسة القمحية » . انظر عنها أيضا : (ابن دقاق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٩٥) . وقال محمد رشدى فى تحقيقاته (المرجع السابق) إن هذه المدرسة زالت ، ومكانها اليوم أرض قضاء فى الجهة الشرقية من جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة بجوار أقنان الجير والفواخير .

(٢) هذه النسبة تدل على أن هذا القاضى كردى كصلاح الدين ومن نفس القبيلة التى ينتمى إليها ، وتحويل القضاء فى مصر إلى المذهب الشافعى وتعيين قاضى قضاء كردى — والخليفة الفاطمى — لآزك حيا — إجراء له دلالة سياسية واضحة .

(٣) فى ص : « عليهم » .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن ص (١٣١) .

ذكر فتح قلعة أيلة

وكانت بأيلة (١) قلعة في البحر قد حصنها الكفار من الفرنج ، فعمّر لها مراكب ،
وجملها إلى ساحل أيلة على الجمال ، وركبها الصناع هناك ، وشحنها بالمقاتلة ، وزحف
إلى القلعة ، ففتحت في العشر الأول من ربيع الآخر ، واستباح أهلها قتلا وأسرًا ،
وملأها (٢) بالعدد والعدد واجتمع (٣) بأهلها عليها ، ثم سار بهم إلى القاهرة (٤)
فدخلها في السادس والعشرين من جمادى الأولى .

ثم سار في [١٢٢] الثالث والعشرين من شعبان إلى الإسكندرية (٥) ليُشاهدوها
ويرتب قواعدها ، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها .

وفي النصف من شعبان في هذه السنة اشترى الملك المظفر تقي الدين عمر بن
شاهنشاه (٥) بن أيوب بن أخي صلاح الدين منازل العز (٦) وجعلها مدرسة للشافعية ،
ووقف عليها وقفًا جليلًا .

(١) في س (١٣١) : « أيلة » .

(٢) في س : « وملأها من العدد والسلاح » .

(٣) مقابل هذا النص في س : « ثم رجع إلى القاهرة » .

(٤) عن الإسكندرية في عصر صلاح الدين انظر : (جلال الدين الشيباني : الإسكندرية ،

طبوغرافية المدينة وتطورها ، ص ٢٢١ — ٢٢٦) .

(٥) في الأصل : « شاهان شاه » .

(٦) ذكر (القرطبي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٧٦) أن منازل العز بنتها السيدة تغريد
أم العزيز بالله ، ولم يكن بمصر أحسن منها ، وكانت مطلة على النيل لا يحجبها شيء عن نظره ،
وما زال الخلفاء من بعد العز يتداولونها وكانت مدة إقامتهم . ثم قال عند كلامه عن « مدرسة
منازل العز » في : (الخطط ، ج ٤ ، ص ١٩٤ — ١٩٥) أن تقي الدين عمر سكن منازل
العز مدة ثم اشتراها من بيت المال في شعبان سنة ٥٦٦ هـ ، وبناها مدرسة للشافعية . وقال محمد
رضي في تحقيقاته : (النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٨٦ ، هامش ١) إن مكانها اليوم مجموعة
البياني التي تحدد من الغرب بشارع مصر القديمة ، ومن الجنوب مدخل شارع المرحومي ، وحارة
المرافقة وغطقة زاهر ، ومن الشرق جنبنة الجمعى وعظنة الأسرلى ، ومن الشمال شارع القبوة ،
وأما المدرسة نفسها فتعرف اليوم باسم جامع شهاب الدين أحمد المرحومي الذي يتوسط هذه المنطقة
بشارع المرحومي بمصر القديمة .

ذكر إقامة الدعوة العباسية بمصر

وانقراض الدولة العلوية بها

كان الملك العادل نور الدين — رحمه الله — لما تحقق ضعف الدولة المصرية ، وأنه لم يبق لهم منعة كتب إلى صلاح الدين يأمره أن يقطع خطبة العاضد ويخطب للخليفة من بني العباس ، فاعتذر ^(١) صلاح الدين بن أيوب بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الإجابة إلى ذلك لميلهم إلى العلوية ^(١) ، فلم يصغ نور الدين إلى قوله ، وأرسل إليه يلزمه ذلك إلزاماً لا فسحة فيه ، ثم اتفق مرض العاضد ، فاستشار صلاح الدين الأمراء في قطع الخطبة له ، وكيف يكون الابتداء بالخطبة العباسية ، فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها ، ومنهم من خاف من الإقدام على ذلك ، إلا أنه لم يمكنه إلا امتثال [أمر ^(٢)] نور الدين ، وكان قد رحل إلى ديار مصر رجل أعجمي يعرف بالأمير العالم ^(٣) ، فلما رأى ما بهم من الإحجام ، قال : « أنا أبتدى بها » .

-
- (١) المصنف في س (٣١ ب) يختلف قليلاً عنها هنا ، وانمها هناك : « فاعتذر صلاح الدين من وثوب أهل مصر عليه ، وامتناعهم من ذلك لميلهم إلى العلويين » .
- (٢) أضيف ما بين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٤) .
- (٣) ذكر (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٣٨) أن هذا الرجل هو أول من خطب للاستغفر وذكر أنه رآه بنفسه بعد ذلك في الوصل . أنظر أيضاً : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٤) ولكن (ابن الديني : تاريخه باختصار الذهبي ، ونشر الدكتور مصطفى جواد ، ج ١ ، ص ١٤٢) ذكر أن أول من خطب للعباسيين رجل آخر اسمه « محمد بن الحسن بن الحسين ابن أبي الفضاء البجلي أبو عبد الله » التوفي سنة ٥٧٢ هـ . فقد قال في ترجمته له : « وطاد إلى مصر ، واتصل بصلاح الدين سلطان مصر ، وهو الذي خطب للامام المستغفر بمصر ، ونفذه صلاح الدين رسولاً إلى بغداد ، ثم رجع إلى دمشق فبات بها » . أنظر أيضاً : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٣ ، ١٩٥) حيث أورد نص رسالة بقلم القاضي الفاضل ، مرسلة من صلاح الدين إلى الخليفة المستغفر ، يثبت فيها بإقامة الخطبة له بمصر وأن من قام بالخطبة هو حامل الرسالة الخطيب شمس الدين بن أبي الفضاء . انظر أيضاً : (النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٣) و (القرطبي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٠) .

فلما كان يوم الجمعة (١) من المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة صدر المنبر قبل الخطيب ، ودعا للخليفة الإمام المستضى بنور الله ، فلم ينكر [ذلك (٢)] أحد عليه ، فلما كانت الجمعة الآتية أمر صلاح الدين بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد ، وإقامة الخطبة المستضى بنور الله ، ففعلوا ذلك ، فلم يتحرك مخالف لذلك ولا منكر له ، وانتظم الأمر ، وكتب الخطباء في ذلك في سائر الإقليم فخطبوا ، وكان العاضد قد اشتد مرضه ، فلم يُعلمه أهله وأصحابه بذلك ، وقالوا : « إن سلم فهو يعلم ، فلا ينبغي أن ننص عليه هذه الأيام التي قد بقيت من أجله (٣) » .

ذكر وفاة العاضد

ثم توفي العاضد [١٢٣] في يوم عاشوراء من السنة ، وهو آخر خلفاء مصر ، وانقضت مدتهم ، ولكل شيء آخر ، فسبحان المتفرد بالأزلية والابدية .
وزكر ابن الأثير أنه لما اشتد مرض العاضد أرسل إلى صلاح الدين يستدعيه ليوصيه ، فظن أن ذلك خديعة ، فلم يرض إليه ، فلما توفي علم صدقه ، فندم على تخلفه عنه .

(١) في س (٣١ ب) : « أول جمعة » . وكذلك في الروضتين .
(٢) أضيف ما بين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٤) .
(٣) اختلفت الآراء في أسباب موت العاضد ، وهل مات قبل أن تقطع الخطبة باسمه أم بعد ذلك وقد أورد (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٦) — نقلاً عن ابن أبي طي — موجزاً لهذه الآراء ، قال : « . . . وقيل إن العاضد لما اتصل به ما فعل من قطع اسمه من الخطبة ، قال : لمن خطب ؟ قبل له : لم يخطب لأحد مسمى ، قال : في الجمعة الأخرى يخطبون لرجل مسمى . واتفق أنه مات قبل الجمعة الثانية . قيل إنه افكر واستولى عليه الفكر والهم حتى مات . وقيل إنه لما سمع أنه قطعت خطبته اهتم وقام ليدخل إلى داره فمتر وسقط ، فأقام متعللاً خمسة أيام ومات . وقيل إنه امتص فص خاتمه وكان تحت سم فمات . ولما اتصل موته بالملك الناصر قال : لو علمنا أنه يموت في هذه الجمعة ما عصمناه برفع اسمه من الخطبة ، فحكى أن القاضي الفاضل قال للسلطان : لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت ، أشار إلى أن العاضد قتل نفسه . . . » .

وأما مؤلف كتاب الروضتين (١) فإنه حكى في كتابه أنه اجتمع بالأمير أبي الفتوح ابن العاضد وهو محبوس مقيّد سنة ثمان وعشرين وستمائة ، فأخبره أبو الفتوح أن أباه في مرضه استدعى صلاح الدين فحضر ، قال : « وأحضرنا — يعنى أولاده — ونحن صغار ، فأوصاه بنا ، فالتزم إكرامنا واحترامنا » ، ولما توفى العاضد جلس الملك الناصر للعزاء وأظهر البكاء والحزن عليه . ومشى في جنازته إلى قبره ، ثم تسلم القصر بما فيه من الخزائن [والذخائر (٢)] ، والدفاتر والدواوين .

وكان لما جرى لمؤمن الخلافة ما جرى وقتل ، وكل صلاح الدين بالقصر الأمير بهاء الدين قراقوش (٣) الأسدي ، وجعله زمام القصر مقام مؤتمن الخلافة فترتب في القصر فما كان يدخل إلى القصر شيء ولا يخرج منه شيء إلا يمرأى منه ومسمع ، فضاق خناق (٤) أهل القصر بسببه ، فلما مات العاضد احتيط على أهله وأولاده في موضع خارج القصر في مكان أفرد لهم (٥) ، وقرّر لهم شيئاً برسم الكسوة والنفقة

(١) انظر (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٤) .

(٢) ما بين الحاصرتين من ص (١٣٢) .

(٣) قراقوش كلمة تركية معناها الطائر الأسود ، وإن كان ابن خلكان قد ذكر أن معناها « العقاب » ، انظر ترجمته في : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ — ٢٥٥) و (ابن أبي الوفاء : الجواهر المضية في طبقات الحنفية ، ج ٢ ، ص ٤٤٣ — ٤٤٤) ، (النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٧٦ — ١٧٨) . و (الدكتور عبد اللطيف حمزة : كتاب حكم قراقوش) و (القرينى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢ — ٤) .

(٤) كتب كاتب أمام هذا اللفظ بالهامش من الأصل معناه باللاتينية هكذا « خناق

• « funis

(٥) روى صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ١٩٤) عن الأمير أبي الفتوح بن العاضد أن قراقوش « جعلهم في دار برجوان في الحارة المنسوبة إليه بالقاهرة ، وهي دار كبيرة واسعة ، كان عيشهم فيها طيباً ، ثم نقلوا بعد الدولة الصلاحية منها ، وأبعدوا عنها » .

وما يحتاجون إليه ، وجمع الباقين من عمومهم وعثرتهم^(١) في القصر في إيوان ، واحترز عليهم في ذلك المكان ، وأبعد عنهم النساء لئلا يتناملوا ، ثم عرض من بالقصر من الجوارى والعبيد والعدد والآلات والذخائر النفيسة ، فأطلق من ثبتت حرية ، وذهب الباقي من الرقيق ، وأخلى الدور ، وأغلق القصور ، وأخذ ما صلح له ولأهله ولأمرائه وخواص مماليكه وأصحابه من نفائس الذخائر والملابس ؛ ومن جملة ذلك : الدُّرَّةُ اليتيمة ، والياقوتة الغالية القيمة ، والمصنوعات العنبرية ، والأواني الفضية ، والصواني الصينية ، والمنسوجات المغربية^(٢) ، [١٢٤] والمنسوجات^(٣) الذهبية ، وغير ذلك مما لا يقع عليه الاحصاء ؛ وأسرف في العطاء والبذل ، وأطلق البيع بعد ذلك فيما دون ذلك ، واستمر البيع مدة عشر سنين .

وكانت خزانة الكتب^(٤) لهم تزيد على مائة ألف وعشرين ألف مجلدة ، وفيها النفائس من الكتب التي لا يكاد يوجد مثلاً ، ومنها ما هو مكتوب بالخطوط المنسوبة التي لا توجد في خزانة أحد من الملوك ، فحمل من الكتب إلى الشام ثمانية أحمال ، وترك الباقي فبيع بعضه ، وأطلق البعض لمن يختص به .

ونعكَّ صلاح الدين الأملاك التي لهم ، وضربت الألواح على رباعهم ودورهم ،

(١) كتب أمام هذا اللفظ بهامش الأصل معناه باللاتينية هكذا : « عثرة ».

« progenies familia » .

(٢) في س (٣٢ ب) : « الغربية » .

(٣) في الأصل : « الهروجات » وما هنا عن : « الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٤ » .
والمزج نوع من القماش الثمين المنسوج بالذهب . هكذا عرفه (Dozy : Supp. Dict. Arab.)
بأنه : « nom d'une étoffe precieuse, brocarat d'or » .

(٤) لاستيفاء الكلام عن هذه المكتبة وقيمتها انظر : (القرطبي : الخطط ، ج ٢ ،

ص ٢٥٣ — ٢٥٥) و (ابوشامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٠) و (الدكتور حسن ابراهيم - حسن : الفاطميون في مصر ، ص ١٤٠ — ١٤١) .

ثم ملك بعضها خاصته وأمرأؤه ، وبعضها أذن يبيعه ، وتمت آثارهم بالكلية ،
إن في ذلك لموعظة وذكرى لأولى الألباب ، [كما قال بعضهم ^(١)] :

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفت له عن عدوٍ في ثيابِ صديقٍ

وكان جميع من ولي الخلافة منهم بمصر أحد عشر خليفة ^(٢) ، وولى منهم بالمغرب
ثلاثة ، فكانت عندهم أربعة عشر خليفة ^(٢) ، عدة خلفاء بني أمية بالشرق .

وقد تكلم الناس في أنسابهم فأكثرُوا وأطالوا ، فمن مصحح ومبطل ،
والله أعلم بغيبه ، وقد ذكرت ما قيل في ذلك في التاريخ الكبير ^(٣) ، إلا أن الذي
اعتقده وحقته من تواريخ كثيرة أن القوم أدعياء لاحظ لهم في النسب الهاشمي ،
فمن المؤرخين من قال إن جدهم يهودي ^(٤) ، ومنهم من قال إنه من الفرس ، والنسابون

(١) ما بين الحاصرتين عن س (٣٢ ب) .

(٢) في الأصل : « رجلا » ، وما هنا عن س .

(٣) المعروف أن ابن واصل ألف في التاريخ كتابين اثنين : أحدهما مفرج الكروب هذا ،
والثاني ألفه للملك الصالح نجم الدين أيوب ، وسماه « التاريخ الصالح » لأنه كان ينوي تقديمه
إليه ، والمرجح أن هذه الإشارة إلى التاريخ الكبير يتعد بها التاريخ الصالح . وهو تاريخ
عام مختصر أرخ فيه ابن واصل للعالم الاسلامي منذ عهد الرسول إلى سنة ٦٣٧ هـ . وهي السنة
التي تولى فيها الصالح عرش مصر . انظر : (الدكتور جمال الدين الشياك : جمال الدين بن واصل
وكتابه مفرج الكروب) . وهو بحث لم ينشر بعد . و (C. Cahen : La Syrie du nord

à l'Époque de Croisades. p. 70—71)

(٤) تردد القول بانتساب الفاطميين إلى أصل يهودي في كثير من المصادر التاريخية القديمة
وناقش هذا القول كثيرون من المؤرخين المحدثين ، أنظر مثلا : (ابن مالك الحمادي اليمني :
كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ، ص ١٧ — ٢٠) و (الجندی أخبار القرامطة —
ضمن تاريخ اليمن لمارة — ص ١٤٠) و (ابن تفری بردی : النجوم الزاهرة ، ج ١ ،
ص ٧٥) و (السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٣) و (القرزى : أقطاف الخفا ، نشر جمال الدين
الشياك ، ص ٥٥ — ٥٦) و (O'Leary : The Fatimid Caliphate. p. 33—84)

و (B. Lewis : The Origins of Ismailism. p. 68.)

من الفاطميين قد أطنبوا في ذلك وذكروه في كتبهم ، وكتب الشريف المرتضى (١) الموسوى نقيب العلويين وأخوه الرضى (٢) خطهما بالقدح في نسبهم ، وأنهم ليسوا من ولد على بن أبي طالب — رضوان الله عليهم — ، وشهد بذلك أيضاً جماعة من أكابر العلويين (٣) ، ومما يشهد بذلك أن القوم كانوا لا يوصلون نسبهم ، بل ينسبون أنفسهم إلى عبيد الله المهدي ، ثم يقولون : « ابن الائمة المستورين » ، ولو كان نسبهم صحيحاً لصرحوا كما صرح بنو العباس بنسبهم ، وأى حاجة بهم إلى الغفمة ، وغاية ما يقولون إن الثلاثة المستورين كانوا يسترون أنفسهم خوفاً من بنى العباس ، فهم لما ملكوا وقهروا وزال عنهم الخوف كان ينبغي [١٢٥] أن يصرحوا بأسماء أولئك ولا يكتفون ، إذ قد زالت العلة المقتضية للكتم ، ولقد حكي أن رجلاً رمى ورقة إلى بعض خلافتهم (٤) وهرب فلم يعرف ، وكان في الورقة :

(١) أبو القاسم على الشريف المرتضى ، ولد سنة ٣٥٥ وتولى سنة ٤٣٦ ، تولى نقابة الطالبين نيابة عن أبيه — مدة حياته — ثم واپها وحده سنة ٤٠٦ بعد وفاة أخيه الشريف الرضى ، كان شاعراً مجيداً كأخيه ، وله ديوان ومؤلفات في الذهب الشيعى ، انظر : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٣ — ٦) و (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٥٣) وانظر بيان مؤلفاته المطبوعة في : (معجم سر كيبس) .

(٢) أبو الحسن محمد الشريف الرضى ، ولد سنة ٣٥٩ وتولى سنة ٤٠٦ ببغداد . كان شاعراً ممتازاً ، وطبع ديوانه مرتين . انظر ترجمته بالتفصيل في : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٤ ، ص ٤٤ — ٤٨) و (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣ — ٤) و (المقرئى : انماط الحنفا ، ص ٣٨ ، هامش ١) .

(٣) انظر أسماء الذين وقعوا على هذا المحضر العباسى بالقدح في نسب الفاطميين في : (المقرئى : انماط الحنفا ، نصر الشياك ، ص ٤٥ — ٤٦) .

(٤) حدث هذا في عهد الخليفة العزيز بالله ، أول ولاية على مصر . انظر : (النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١١٦) .

[إنا صممنا نسباً منكراً] يُتلى على المنبر في الجامع [(١)]

إن كنت فيما تدعى صادقاً فاكشف لنا عن جدك السابع (٢)

[وإن تُرد تحقيق ما قلته] فانسب لنا نفسك كالطائع [(١)]

أو قنر (٣) الأنساب مستورة وادخل بنا في النسب الواسع

فإن أنساب بني هاشم يقل (٤) فيها طمع الطامع

ولقد صدق كاتب هذه الورقة ، فإنما نجد الأشراف من بني هاشم والعباس (٥) يصلون أنسابهم ويصرحون بها ، وهؤلاء يكتُمونها ، فللكتمان علة لا محالة ، وما أظن إلا أن غرضهم أنهم متى صرّحوا بالنسب بأن زيقهم عند النقاد ، فهذا ما يتعلق بنسبهم .

و [أما (٦)] مذاهبيهم ، فدعوتهم باطنية إسماعيلية ، وعندهم انتشار دعاة الملاحدة للباطنية في الآفاق ، وهذه المقالة معروفة في كتب المقالات والأصول ، فلا معنى لإيداعها كتب التاريخ .

ورأى القوم في الإمامة بعد النبي — صلى الله عليه وسلم — لعلي بن أبي طالب — رضوان الله عليه — ثم للحسن بن علي ، ثم للحسين ، ثم لعلي — بن الحسين —

(١) أضفنا هذين البيتين من : (ابن خلكان : وفیات الأعيان) و (النجوم ، نفس الجزء والصفحة) وإضافتهما ضرورية إذ بهما يتضح المعنى المقصود من الآيات مكملة .
(٢) كذا في الأصل ، والمقصود « بالسابع » هنا : الأئمة الثلاثة المستورين والأئمة الأربعة الذين حكموا في المغرب . وصيغة المرجعين السالفين : « فاذكر أبا بعد الأب الرابع » وهذه الصيغة فيما أرى أصح لأن آباء العزيز إلى الأب الرابع وهو الهدى معروفون ، وتصد الشاعر أن يسأله عن الأئمة المستورين المجهولة أسماؤهم .

(٣) في النجوم : « قنر » .

(٤) في النجوم : « يقصر عنها » .

(٥) هذا اللفظ غير موجود في س .

(٦) ما بين الحاصرتين عن س (١٣٣) ، وهو ضروري لإيضاح المعنى .

زين العابدين ، ثم لابنه محمد الباقر ، — وفارقوا في ذلك الزيدية ، الذاهين إلى إمامة زيد — ، ثم لابن محمد جعفر الصادق بن محمد ، ثم لابنه إسماعيل بن جعفر — ، وفارقوا بذلك الإمامية الاثني عشرية القائلين بإمامة موسى بن جعفر ، وغيرهم من أصناف الإمامية — ، ثم لابن إسماعيل محمد بن إسماعيل ، ثم أنهم اعتقدوا أن الإمامة صارت بعد محمد بن إسماعيل في ثلاثة يسمونهم أئمة ستر ، ولا يبوحدون بأسمائهم ، ولا ينطقون بذكرهم ، والثلاثة من ولد محمد بن إسماعيل ؛ وقد اختلف في أسمائهم اختلافاً كثيراً ثم إنهم قالوا : صارت بعد ذلك للمهدي عبيد الله (١) الظاهر بسجلماسة (٢) من بلاد إفريقية ، وقالوا إن بينه وبين محمد بن إسماعيل ثلاثة أباءهم أئمة الستر ، لم يظهر وأمرهم خوفاً من أعدائهم بني العباس ، ثم قالوا : إن الإمامة صارت بعد ذلك لابنه القائم بأمر الله [١٢٦] أبي القسم محمد ، ثم لابن القائم المنصور بالله إسماعيل ؛ وتوفي المهدي وهذان بالمغرب ، ثم صارت لابن المنصور المعز لدين الله أبي تميم مَعَدَّ (٣) ، وهو أول من ملك الديار المصرية منهم ، دخلها غلامه جوهر في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، وشرع في بناء القاهرة وقصور الخلافة بها .

ثم قدم المعز من الغرب واستقر بقصره في القاهرة في سنة اثنتين وستين وثلاثمائة ، ثم صارت بعده لابنه العزيز بالله أبي المنصور نزار بن مَعَدَّ ، ثم لابنه الحاكم بأمر الله أبي علي المنصور ، ثم لابنه الظاهر لإعزاز دين الله أبي الحسن علي ، ثم لابنه المستنصر بالله أبي تميم مَعَدَّ بن الظاهر بن الحاكم ؛ وطالت مدة خلافته حتى بلغت ستين سنة ، ولم يل الخلافة أحد هذه المدة ؛ وهؤلاء كلهم على عمود النسب

(١) في س (٢٣ ب) : « ابن عبد الله » ، وما هنا هو الصحيح .

(٢) ذكر (ياقوت : معجم البلدان) أن سجلماسة مدينة في جنوب الغرب في طرف بلاد السودان ، بينها وبين قاس عشرة أيام .

(٣) في س : « بمصر » وما هنا هو الصحيح .

ثم اختلفت الباطنية من هنا وافترقوا ، (١) وسبب افتراقهم (١) . أن أحد الدعاة
المسمى الحسن الصباح (٢) قدم على المستنصر بالله بمصر ، وطالب أن يكون داعياً له
ببلاد العجم ، فأجابه إلى ذلك ، فسأله عن الإمام بعده ، فذكر أنه قال : إنه ولده
نزار ؛ ولم يكن للمستعلي (٣) إذ ذاك ولد ، فمضى الحسن الصباح (٢) إلى بلاد العجم
فدعا للمستنصر وبعده لولده نزار ، وبث دعوة الباطنية هناك ، فلما توفي المستنصر
كانت الدعوة ببلاد العجم لنزار بن المستنصر وتسمى هذه الفرقة من الباطنية
« النزارية » ، ودعوتهم ببلاد الآلوت (٤) بالعجم ، وببلاد الشام بمصياف (٥)

(١) ما بين الرقنين غير موجود في س .

(٢) في الأصل : « الحسن بن الصباح » . أنظر : (الدكتور طه شرف : دولة النزارية
أجداد أفا خان كما أسسها الحسن الصباح ، القاهرة ، ١٩٥٠) و (محمد عبد الله عنان : تراجم
إسلامية ، شرقية وأندلسية ، ص ٤٢ — ٦٠) و (Von Hammer: Geschichte der Assassinen)
قريباً جيباً صورة واضحة للحسن الصباح ودعوته وملكه وجهاده في سبيل نشر الدعوة
 وإقامة الملك .

(٣) كذا في الأصل ه وهو غير واضح المعنى . إذ أن الحسن الصباح وصل إلى مصر
سنة ٤٦٩ هـ وغادرها في أوائل سنة ٤٧٢ هـ . وكان عمر المستعلي وقتذاك سنتين أو ثلاث
(فقد ولد سنة ٤٦٧ هـ) فكيف يكون له ولد أولاً يكون له في ذلك الحين . وإذا قرئ النص
على أنه « ولم يكن للمستعلي إذ ذاك ولد » فإن المعنى يظل غامضاً كذلك .

(٤) آلوت قلعة جبلية في الشماك الشرق من بحر قزوين ، ومعنى آلوت عش النسر . وكانت
هذه القلعة مقر الاسماعيلية النزارية إلى أن قضى عليهم المغول هناك سنة ٦٥٤ هـ . انظر (دائرة
المعارف الإسلامية ، مادة « آلوت ») .

(٥) هي عند (ياقوت : معجم البلدان) : « مصياف » ثم يقول : « وبمفهم يقول :
مصياف » ويعرفها بأنها حصن حصين مشهور للاسماعيلية بالساحل الشامى قرب طرابلس . ولكن
(R. Dussaud: Topographie Historique de la Syrie ... etc. p. 148 et suiv) يذكر
أن الرسم « مصياف » الوارد في (ياقوت) وحده خطأ . إذ لم يشاركه فيه غيره ، ولكنه
اعتماداً على المراجع الجغرافية الأخرى وعلى النصوص والوثائق التاريخية يذكر أنها
تنطق غالباً « مصياد masyad » ولكنها تكتب في أشكال مختلفة : « مصياث masyath »
و « مصيات masyat » .

وقلاعها لنزار بن المستنصر^(١) وولده ، وإمامهم الذي يعتقدون إمامته يقولون إنه من ولد نزار بن المستنصر^(١) ، والله أعلم بذلك .

ولم يزل هؤلاء الذين ينتسبون إلى نزار ببلاد العجم إلى أن انتهى الأمر إلى آخرهم ، وهو ركن الدين خورشاه^(٢) بن علاء الدين محمد بن الحسن ، فحاصره هلاؤوا^(٣) ملك التتار^(١) — خذلهم الله تعالى — سنة خمس وخمسين وستمائة ، ثم ظفر به هلاؤوا^(١) قتلته ، وقتل من معه من الباطنية الملاحدة ، وبقيت لهم حصون بالشام ، ففتحها السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ملك الإسلام والمسلمين ، وطهر البلاد منهم كما طهرها من سائر الشرك ، وكان نزار [١٢٧] الذي تنسب إليه النزارية ظهر بعد أبيه بالاسكندرية ، فقبض عليه وقتل .

وأما الباطنية المصريون فخالفوا هؤلاء في الإمام بعد المستنصر ، فقالوا : صارت الإمامة بعده للمستعلي بالله أبي القاسم محمد ، ثم لابن المستعلي الأمر بأحكام الله أبي علي المنصور ، ثم لابن عمه الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد بن أبي القاسم أحمد بن المستنصر ، ثم لابن الحافظ الظافر بالله إسماعيل ، ثم لابن الظافر الفاضل بنصر الله عيسى ، ثم لابن عمه العاضد لدين الله أبي محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ .

(١) ما بين الرقين غير موجود في س .

(٢) في الأصل : « خسرو » وقد صحح بعد مراجعة : (دائرة المعارف الإسلامية : مادة « الاسماعيلية ») ، وركن الدين خورشاه هو ابن علاء الدين محمد الثالث بن جلال الدين حسن الثالث . وقد ولي الحكم في آلوت من ذى القعدة سنة ٦٥١ هـ إلى سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) حيث استولى المنول — أثناء تقدمهم نحو الخلافة العباسية — على ملكه ، وقبضوا عليه وقتلوه في نفس السنة : انظر أيضاً : (الدكتور مصطفى طه بدر : محنة الاسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية على أيدي المنول ، ص ١٠٨ ، ١١٦) ، (ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص ٣١٢ — ٣١٤) .

(٣) كذا في الأصل ، والمقصود به « هولاكو » ويرسم هذا الاسم في بعض الكتب العربية الأخرى هكذا : « هلاؤو » .

ثم لما توفى العاضد وزالت دولتهم قالت دعائهم : إن الإمامة بعده لابنه داوود ابن العاضد ، ولقبوه « الحامد لله »^(١) ، ثم توفى داوود هذا في أيام الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب في الحبس ، ثم قالوا إنها صارت بعده لابنه سليمان^(٢) ابن داوود بن العاضد ، وكان هذا سليمان قد أدخلت أمه إلى داوود في الحبس سرّاً فوطئها داوود فحبلت بسليمان ، ثم نُحلت الجارية إلى الصعيد فولدت سليمان ، وترعرع^(٣) وخفي أمره من الدولة الأيوبية عند بعض الدعاة ، فأعلم السلطان به ، وأظنه^(٤) الملك الكامل بن الملك العادل ، فظفر به وحبسه بقلعة الجبل^(٥) ، وسافرت إلى مصر سنة إحدى وأربعين وستمائة ، وكان سليمان هذا حياً ، وصمعت أن دعوة الإسماعيلية المصريين له ، ولهم فيه اعتقاد عظيم ، ورأيت من اجتمع به^(٦) وتحدث معه ، فسأله عنه ، فأخبر^(٧) أنه في غاية الجهل والغباوة ، ثم توفى هذا سليمان بن داوود ابن العاضد بقلعة الجبل في شهر شوال سنة خمس وأربعين وستمائة في أيام السلطان الملك الصالح بن الكامل — رحمه الله — ولم يخلف ولداً ذكراً فيما نعلمه ، وصمعت

(١) لم تنته الأسرة الفاطمية بموت العاضد ، بل بقي منها أفراد لبثوا زمناً في أسر الأيوبيين ولم يستقدروا بأحقبتهم في الخلافة ، وللتعرف على هؤلاء الأفراد وعلى الجهود الفاشلة التي بذلت في سبيل إعادتهم للحكم في بعض الأحيان انظر :

(Casanova : *Les Derniers Fatimides. Mémoires de La Mission Archéologique Française du Caire. Tome VI, 1893. P. P. 415-145*) ;

(S. M. Stern : *The Succession of the Fatimid Imam Al-Āmir, The Claims of the Later Fatimids to the Imamate, And the Rise of Tayyibi Ismailism. Oriens, Vol. 4, no. 2, P P. 193 ff*).

(٢) في الأصل : « ونزع » ، وما هنا عن س (١٣٤)

(٣) في س (٣٤ ب) : « وتطلبه » .

(٤) في س (٣٤ ب) قبل هذا اللفظ الجملة الآتية : « قال صاحب الكتاب جمال الدين

ابن واصل قاضي القضاة بحماة المحروسة » .

(٥) ما بين الرقين يقابله في س : « وتحدثت معه فسألت عنه فأخبرت . . إلخ » وما هنا

هو الصحيح إذ به يستقيم المعنى ولاحظ ما لهذه الجملة من أهمية ، فهي تنص على وجود المؤلف في القاهرة في سنة ٦٤١ هـ ، وزيارته لقلعة أثناء مقامه بها .

بعض من ينتمى إلى مذهبهم يدعى أن له ولداً ذكراً قد أخفى أمره حسب ما كان يخفى سليمان والده ، والله أعلم بحقيقة ذلك .

وبقى منهم رجلان محبوبان بقلعة الجبل بالقاهرة المحروسة ، شيخان ، جدهما (١) العاضد ، [١٢٨] وكان أحدهما واسمه القاسم قد بلغه أنى صفت تاريخاً (٢) لسلطان الملك الصالح ، وذكرت فيه أخبار هؤلاء القوم وما قاله النسابة فيهم ، وأن بعضهم قال إن أصلهم من اليهود ، قطعت يوماً إلى القلعة المحروسة ، ودخلت على باب الحبس والقاسم بن ابن العاضد هذا قاعد على بابه ، فسأل عني ، فعرفت بي ، فاستدعاني ، فأتيته ، فقال : « أنت ذكرت أن نسبنا يرجع إلى اليهود ؟ » فحجبت منه ، وما أمكنني له إلا الاعتراف بذلك ، وأحلت الأمر على أقوال المؤرخين [فسكت (٣)] .

وبالجملة فمذاهب القوم رديئة مخالفة لكتاب الله تعالى وسنة رسوله — صلى الله عليه وسلم — وما كان عليه السلف الصالح ، واعتقادهم في الإلهيات ينزع إلى رأى المتفلسفة ، وإنما سموها باطنية ، لأنهم ينزلون القرآن على معاني موافقة لأهيم ، ويصرفونه عن ظاهره ، ولهم في هذا الباب حديث كثير وخطب طويل ، وقد انتدب جماعة من أعيان العلماء للرد عليهم ، منهم : الشيخ أبو حامد الغزالي — رحمه الله —

(١) في الأصل وفي س (٣٤ ب) : « أحدهما » ، وقد صححت كما بالمتن ليستقيم المعنى . وهذا نص نادر هام انفراد ابن داصل فيه بذكر بعض الحقائق عن بقايا الأسرة الفاطمية بعد زوال الدولة ، وفي (الروضتين) و (الخطاط للمقرئى) نصوص أخرى تتصل بالموضوع ، وقد أفاد من هذه النصوص جيماً (Casanova) في بحثه السالف الذكر ،
 (٢) يشير إلى (التاريخ الصالحى) وهو الكتاب التاريخى الثانى للمؤلف .
 (٣) ما بين الحاصرتين عن س (٣٤ ب) .

فإنه رد عليهم في كتاب له سماه : « المستظهرى ^(١) » ، حكى فيه صورة مذهبهم ، وبالغ في الرد عليهم والنقض لآقاويلهم .

وكان عمارة بن على البنى شديد التعصب لهم ، لأنه قدم عليهم من اليمن فأحسنوا إليه وخولوه ، فرعى ذلك ووفى لهم ، والإنسان — كما قيل — صنية الإحسان ، ولم يكن على مذهبهم ، وإنما كان شافعيًا سنيًا ، فلما زال أمرهم رثاه بأحسن ^(٢) الشعر ، وذب عنهم باللسان إذ لم يمكنه التنب عنهم باليد ، ثم لما تحرك جماعة في عود الأمر إليهم ، كان من جملة المساعدين على ذلك ، شكرًا لهم على إحسانهم إليه ، فأدى به ذلك إلى أن شق — على ما سذكروه إن شاء الله تعالى — ، فمن جملة قوله فيهم برئهم بقصيدة ^(٣) ، ذكرناها بجملة ما لفرط حسنها وهي :

رَمِيتَ يَا دَهْرُ كَنْتَ الْمَجْدِ بِالشَّلَلِ وَجِيْدَهُ بَعْدَ حُسْنِ الْحَلَى بِالْعَطَلِ
سَعَيْتَ فِي مَنْهَجِ الرَّأْيِ الْعَثُورِ فَإِنْ قَدَرْتَ مِنْ عَثَرَاتِ الدَّهْرِ ^(٤) فَاسْتَقِلْ

(١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، أصله من غزالة ، قرية من أعمال طوس ، وكان والده ينزل الصوف ويبيعه . توفي سنة ٥٠٥ هـ . وله مؤلفات كثيرة ، منها هذا الكتاب المثار إليه هنا واسمه : (فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية) أو (المستظهرى) ، أهداه إلى الخليفة المستظهر العباسي ، وقد نشر الاستاذ كولدزير قطعة كبيرة منه ومعه مقدمة طويلة في المذهب الباطني باللغة الألمانية . Goldziher: *Streitschrift des Gazali Gegen die Batiniya-Sekte. Leiden. 1916*).

وانظر أيضاً ترجمة الغزالي في : (ابن خلكان : الوفيات) و (السبكي : طبقات الشافعية ، ج ٤ ، ص ١٠١ وما بعدها) و (الدكتور زكي مبارك : الأخلاق عند الغزالي : و (مركب : معجم المطبوعات العربية) .

(٢) في س : « بالشعر » .

(٣) لتصحيح هذه القصيدة رجعنا إلى الكتب التاريخية المختلفة التي أوردتها ، وخاصة : (ديوان عمارة) و (الروضتين لأبي شامة) و (مباح الأعشى لفلقشندی ، ج ٣ ، ص ٥٢٦ وما بعدها) .

(٤) في (الروضتين) : « البنى » .

جَدَعْتَ مَارِنَكَ الْأَقْنَى ، فَأَنْفُكَ لَا
[١٢٩] هَدَمْتَ قَاعَةَ الْمَعْرُوفِ عَنْ عَجَلٍ
لَهْنِي وَلَهْفَ بَنِي الْأَمَالِ قَاطِبَةً
قَدِمْتُ مَصْرَ فَأَوْلَتْنِي خَلَائِفُهَا
قَوْمٌ عَرَفْتُ بِهِمْ كَسْبَ الْأُلُوفِ ، وَمِنْ
وَكُنْتُ مِنْ وَزَرَاءِ الدَّسْتِ حَيْثُ تَمَّ (٥)
وَنِلْتُ مِنْ عُظَمَاءِ الْجَيْشِ تَكْرِمَةً
يَا عَاذِلِي فِي هَوَى أِبْنَاءِ قَاطِبَةٍ
بِاللهِ زُرْ سَاحَةَ الْقَصْرَيْنِ وَابْكِ مَعِي
وَقُلْ لِأَهْلِيهِمَا : وَاللهِ مَا التَّحَمَّتْ
مَاذَا تُرَى كَانَتْ الْإِفْرَنْجُ فَاعِلَةً
[هَلْ كَانَ فِي الْأَمْرِ شَيْءٌ غَيْرَ قِسَّةٍ مَا

يَنْفُكَ مَا بَيْنَ أَمْرِ (١) الشَّيْنِ وَالْحَجَلِ
سَقَبَتْ مُهَلًّا (٢) ، أَمَا تَمْشِي عَلَى مَهَلٍ ؟
عَلَى فِجْيَعَتِهَا (٣) فِي أَكْرَمِ الدُّوَلِ
مِنَ الْمَكَارِمِ مَا أُرْبَى عَلَى أَمَلِي (٤)
كَهَلِمَا أَنهَا جَاءَتْ وَلَمْ أَسَلِ
رَأْسُ الْحِصَانِ يَهَادِيهِ عَلَى الْكَفْلِ
وَحُلَّةٌ حُرِسَتْ مِنْ عَارِضِ الْخَلَلِ
لَاكَ الْمَلَامَةُ إِنْ قَصَّرْتَ فِي عَذَلِي
عَلَيْهِمَا (٦) ، لَا عَلَى صِفَتِي وَالْجَمَلِ
فِيكُمْ جُرُوحِي ، وَلَا قَرْحِي بِمُتَدَمِّلِ
فِي نَسْلِ [آل] (٧) أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ ؟
مَلَكْتُوَيْنِ حُكْمَ السَّبْيِ وَالنَّفْلِ (٨) ؟

- (١) فِي (الروضتين) : « نَقص » .
(٢) الْمَهْلُ مَا ذَابَ مِنْ صَفَرٍ أَوْ حَدِيدٍ ، وَهَكَذَا فَرَسٌ فِي النَّزِيلِ . (اللسان) ؛ وَ (صَبَّحَ الْأَعْنَى) : « سَقَبَتْ » مُهَلًّا . . . الخ » وَهُوَ اجْتِهَادٌ غَيْرُ مُوَفَّقٍ فِي قِرَاءَةِ النَّصِّ .
(٣) فِي (الروضتين) : « لَجِيْعَتَا » .
(٤) فِي (الروضتين) : « عَلَى الْأَمَلِ » .
(٥) فِي س (١٣٥) : « أُنَا » .
(٦) فِي الْأَصْلِ : « وَنَحْ عَلَيْهِمَا » وَلَا يَسْتَقِيمُ بِهَا الْوِزْنُ ؛ وَمَا هُنَا عَنْ : (الروضتين) وَ (صَبَّحَ الْأَعْنَى) .
(٧) مَا بَيْنَ الْحَاصِرَتَيْنِ عَنْ س (٣٤ ب) ، وَ (الروضتين) ، ج ١ ، ص ٢٢٤ .
(٨) هَذَا الْبَيْتُ غَيْرُ وَارِدٍ فِي الْأَصْلِ ، وَإِنَّمَا وَرَدَ فِي (الديوان) وَ (الروضتين) وَ (صَبَّحَ الْأَعْنَى) .

وقد حَصَلْتُمْ عَلَيْهَا واسمُ جَدِّكُمْ
مررتُ بالقصرِ ، والأركانُ خاليةٌ
فَمِلْتُ عَنْهَا بِوَجْهِهِ (٢) ، خَوْفَ مُنْتَقِدٍ
أَسْبَلْتُ مِنْ أَسْنَى دَمْنَى غَدَاةٍ خَلَّتْ
أَبْكَى عَلَى مَأْثُرَاتِ (٣) مِنْ مَكَارِمُكُمْ ،
دارُ الضَّيَافَةِ كانتْ أَنْسَ وَإِفْدِكُمْ
وَفِطْرَةُ الصَّوْمِ إِنِ اصْغَتْ (٤) مَكَارِمُكُمْ
وَكُسُوةُ النَّاسِ فِي الْفَصْلَيْنِ قَدْ دَرَسَتْ (٥) ،
وَمَوْسِمٌ كَانَ فِي يَوْمِ (٧) الْخَلِيجِ لَكُمْ
وَأَوَّلُ الْمَامِ وَالْعِيدَيْنِ (٨) كَمْ لَكُمْ
وَالْأَرْضُ تَهْتَزُّ فِي يَوْمِ الْقَدِيرِ كَمَا (٩)
[١٣٠] وَالْخَيْلُ تُمَرِّضُ فِي وَشْيٍ وَفِي شَيْءٍ (١٠)

محمدٌ ، وأبوكم خَيْرُ مُنْتَمِلٍ (١)
من الوفودِ ، وكانتْ قِبْلَةُ الْقُبَلِ
من الأعادي ، ووجهُ الْوُدِّ لم يَمَلِ
رِحَابُكُمْ ، وَغَدَّتْ مَهْجُورَةُ السُّبُلِ
حَالُ الزَّمَانِ عَلَيْهَا ، وَهِيَ لَمْ تَحُلِ
وَالْيَوْمَ أَوْحَشُ مِنْ رَمَمٍ وَمِنْ طَلَلِ
تَشْكُو مِنَ الدَّهْرِ حَيْفًا غَيْرَ مُحْتَمَلِ
وَرَثَ مِنْهَا جَدِيدٌ عَنْهُمْ (٦) وَبَلَى
يَأْتِي تَجَمُّلُكُمْ فِيهِ عَلَى الْجَمَلِ
فَبَيْنَ مَنْ وَبَلَ جُودٍ لَيْسَ بِالْوَشَلِ
بَهْتَزُ مَا يَنْ قَصْرِيكُمْ مِنَ الْأَسَلِ
مِثْلَ الْمَرَائِسِ فِي حَلِي وَفِي حَلَالِ

- (١) كَذَا فِي الْأَصْلِ وَفِي (صَبَحَ الْأَعْيَى) : وَفِي (الدِّيْوَانِ) وَ (الرُّوسْنَيْنِ) :
« غَيْرُ مُنْتَقِلٍ » .
- (٢) فِي « الرُّوسْنَيْنِ » : « بَوَجْهِهِ » .
- (٣) فِي الْأَصْلِ وَفِي « الرُّوسْنَيْنِ » وَ « الدِّيْوَانِ » : « مَا تَرَأَتْ » ، وَمَا هُنَا عَنْ :
« صَبَحَ الْأَعْيَى » .
- (٤) فِي « الصَّبْحِ » : « إِذَا اضْهَتْ » .
- (٥) فِي س : « دَنَسَتْ » .
- (٦) فِي « الصَّبْحِ » : « عِنْدَمَ » .
- (٧) فِي « الرُّوسْنَيْنِ » : « كَسَرِ » .
- (٨) فِي « الرُّوسْنَيْنِ » : « وَالْعِيدَانِ كَانَ لَكُمْ » .
- (٩) فِي « الرُّوسْنَيْنِ » : « عِيدَ الْقَدِيرِ بِمَا » .
- (١٠) فِي « الرُّوسْنَيْنِ » : « مِنْ وَشْيٍ وَمِنْ شَيْءٍ » .

وما حملتم^(١) قري الأضياف من سعة الـ
وما خصصتم^(٢) رير^(٣) أهل ماتكم^(٤)
كانت رواتبكم للوافدين ، ^(٥) وللضيـ
ثم الطراز يتنيس الذي عظمت^(٦)
وللجوامع من أخباركم^(٧) نعم^(٨)
وربما عادت الدنيا ، فمقلها^(٩)
والله لا فاز يوم الحشر مبنضكم ،
ولا سقي الماء من حر ومن ظمأ
[ولا رأى جنة الله التي خلقت
أثمى ، وهدي ، والذخيرة لي ،
تالله لم أوفهم^(١٠) في المدح حقهم
ولو تضاعفت الأقوال واستبقت
باب النجاة فهم ، دنيا وآخرة

أطباق إلا على الأكتاف والمجلـ
حتى عمتهم به الأقصى من الملـ
فـ المقيم ، وللطاري من الرسل
منه الصلوات لأهل الأرض والدول
لمن تصدّر في علم وفي عمل
منكم ، وأضحت بكم مخلوطة العقل
ولا نجا من عذاب النار غير ولي
من كف خير البرايا خاتم الرسل
من خان عهد الإمام العاصدين على^(٧)
إذا ارتهنت بما قدمت من عمل
لأن فضلهم كالوايل المظلـ
ما كنت فيهم بحمد الله بالمجل^(٩)
وحبهم فهو أصل الدين والعمل

-
- (١) في (الروضتين) : « ولا حاتم » .
(٢) في (صبح الأعشى) : « أهل مملكة » .
(٣) في (الروضتين) : « لذمتين » .
(٤) في الأصل : « التي عظمت من » ، وفي س (٣٥ ب) : « يلبس الذي » ،
وما هنا عن (الديوان) و (صبح الأعشى) .
(٥) في (الديوان) : « إحسانكم » ، وفي (الصبح) : « إخوانكم » .
(٦) كذا في الأصل وفي (المصبح) ، وفي (الديوان) : « لمقلها » .
(٧) أضيف هذا البيت عن (الديوان) .
(٨) في (الصبح) : « والله لم نوفهم » .
(٩) في س (١٣٦) : « كالحجل » .

نور الهدى ، ومصباح الدجى ومح
 أئمة خلّقوا نوراً ، فنورهم
 والله لا زلت عن حبي لهم أبداً
 [عمارة قلها المسكين وهو على
 خوف من القتل ، لا خوف من الزلزال (١)]
 من نور خالص نور الله لم ينل
 ما أخر الله لى فى مدة الأجل

ولما وردت البشارة على الملك العادل نور الدين — رحمه الله — بالخطبة بمصر
 للإمام المستضى بنور الله أمير المؤمنين سرّاً بذلك ، وكتب إلى سائر الأطراف
 بالبشارة ، وندب القاضي شهاب الدين أبا المعالى المطهر بن الشيخ شرف الدين
 ابن أبى عصرون بهذه البشارة إلى الديوان العزيز ، وأمر كاتبه عماد الدين الأصفهاني
 بإنشاء بشارة تقرأ فى سائر البلاد الإسلامية ، وبشارة أخرى خاصة [١٣١] تقرأ
 بحضرة الإمام فى مدينة السلام .

ونظم عماد الدين قصيدة مشتملة على ذكر الخطبة للدولة العباسية ، ويمدح فيها
 الإمام المستضى بنور الله :

قد خطبنا للمستضى بمصر نائب المصطفى إمام العصر
 وخذلنا لنصرة العاضد العاصد (٢) والقاصر الذى بالقصر
 واتبنا بها شعار بنى العبد ، فاستبشرت وجوه النضر
 وترسنا الدعى يدعو (٣) نبوراً وهو بالذل تحت حجر وحضر (٤)
 وتباهت منابر الدين بالخطبة به لهايمى فى أرض مصر

(١) أضيف هذا البيت عن (الديوان) .

(٢) فى س (١٣٦) : « العاضد والقاصر بالقصر » .

(٣) فى الأصل وفى س (١٣٦) : « يدعو » والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ١ ،

ص ١٩٨) .

(٤) فى الأصل « وخسر » ، وما هنا عن : (الروضتين) .

وَلَدَيْنَا تَضَاعَفَتْ نِعْمُ اللَّهِ
وَاعْتَدَى الدِّينُ ثَابِتَ الرُّكْنِ فِيهِ
وَاسْتَنَارَتْ عَزَائِمُ الْمَلِكِ الْعَا
فَبَنُو الْأَصْفَرِ الْقَوَائِمُ^(١) مِنْهُ
عَرَفَ الْحَقُّ أَهْلَ مِصْرَ ، وَكَانُوا
هُوَ فَتَحَ بَكْرٌ ، وَدُونَ الْبَرَايَا
وَحَصَلْنَا بِالْحَمْدِ وَالْأَجْرِ وَالنَّهْ
وَنَشَرْنَا أَعْلَامَنَا السُّودَ ، قَهْرًا
وَاسْتَعَدَّنَا مِنْ أَدْعِيَاءِ حُقُوقًا
وَالَّذِي يَدْعِي الْإِمَامَةَ بِالْقَا
خَانَهُ الدَّهْرُ فِي مَنَاهُ ، وَلَا يَطُ
مَا يُقَامُ الْإِمَامُ إِلَّا بِحَقِّ
خُلَفَاءِ الْهَدَى ، سَرَاةُ بَنِي الْعَبْدِ
بِهِمُ الدِّينُ ظَافِرٌ مُسْتَقِيمٌ
[١٣٢] كَشْمُوسِ الضُّحَى ، كَمِثْلِ بُدُورِ
قَدْ بَلَّغْنَا بِالصَّبْرِ كُلَّ مُرَادٍ ،
لَيْسَ مُثْرَى الرِّجَالِ مِنْ يَمْلِكُ الْمَا
رَ ، وَجَلَّتْ عَنْ كُلِّ عَدٍ وَخَضِرِ
رَ نَحُوطَ الْجَمَى ، مَصُوبَ الثَّنِيرِ
دِلِ ثُورِ الدِّينِ الْكَرِيمِ الْأَغْرَ
فِي وَجْهِهِ — مِنَ الْحَقَاقَةِ — صُفْرِ
قَبْلَهُ بَيْنَ مُنْكَرٍ وَمُنْفِرٍ
خَصَّنَا اللَّهُ بِإِفْتِحَاحِ الْبِكْرِ
رَ وَطِيبِ الثَّنَا وَحُسْنِ الذِّكْرِ
لِلْعَدَى الزُّرْقِ ، بِالْمَنَابَا الْحَمْرِ
تَدْعَى بَيْنَهُمْ لَزِيدٍ وَعَمْرٍو
هَرَّةً انْحَطَّ فِي حَضِيضِ الْقَهْرِ
مَعَ ذُو اللَّبِ فِي وَفَاءِ الدَّهْرِ
مَا تُحَازُ^(٢) الْحَسَنَاءُ إِلَّا بِمَنْهِرِ
لَسِ ، وَالطَّيِّبُونَ أَهْلُ الظَّهِيرِ
ظَاهِرٌ قُوَّةً ، قَوِيٌّ الظَّهِيرِ
نَمٌ ، كَالشَّعْبِ ، كَالنُّجُومِ الزُّهْرِ
وَبُلُوغُ الْمُرَادِ عُقْبَى الصَّبْرِ
لَ ، وَلَكِنَّمَا أَخُو اللَّبِّ مُثْرَى

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ فِي الرُّوسْتَيْنِ ؛ وَهِيَ فِي س (٣٦ ب) : « الْفَوَاجِر » .

(٢) فِي الْأَصْلِ فِي س : « نَحَار » ، وَمَا هُنَا عَنْ : (الرُّوسْتَيْنِ ، ج ١ ، ص ١٩٨) .

ولهذا لم يَنْتَقِعْ صَاحِبُ الْقَصْرِ وقد شَارَفَ الدُّوْرَ بِدُفْرِ
دَامَ نَصْرُ الْهُدَى بِمُلْكِ بَنِي الْعَبْدِ لَمَسِ حَتَّى يَقُومَ يَوْمَ الْحُشْرِ

ولما وصلت البشارة إلى الديوان العزيز النبوى قوبلت بالإكرام والإعظام
والإنعام التام ؛ وكان وصول البشارة بذلك يوم السبت لثمان بقين من المحرم من هذه
السنة — أعنى سنة سبع وستين وخمسمائة — ، فجلس الوزير عضد الدولة ابن رئيس
الرؤساء فى الديوان ، واستحضر أرباب المناصب والدولة والخواص والأمراء وأشار
إلى كاتب الإنشاء أبى الفرج ابن الأنبارى (١) ، بقراءة مکتوب الملك العادل
نور الدين ، ثم ثنى بمکتوب بَرَزَ بِخَطِ الْخَلِيفَةِ الْمُسْتَضِىءِ بنور الله ، يتضمن الشكر لله
على ما أباحه من عودة الحق إلى مستقره .

وكان مبدأ انقطاع الخطبة العباسية بها سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، وعادت
الخطبة العباسية بها سنة سبع وستين وخمسمائة ، فكان مدة انقطاع الخطبة العباسية
بمصر نحو من مائتى سنة وتسع (٢) سنين .

ووصل إلى الشام جواب البشارة مع عماد الدين صندل (٣) المقتوفى ، وهو إذ
ذاك أستاذ الدار العزيزة ، ولم يرد من بغداد رسول مثله فى جلالته وعظمة قدره ؛
وورد صحبته التشریف الشريف لنور الدين مكملًا بالأهبة (٤) السود والحلل الموشية ،
والطوق الذهب الثقيل ، واللواء (٥) الجليل ؛ وحضر الرسول عند نور الدين ،
وحضر أكابر الدولة والخواص ، وكان يوماً مشهوداً ؛ وقرأ موقى الدين خالد

(١) انظر ما فات هنا ، ص ٥٨ ، هامش ٣

(٢) فى س : « سبع » ، وهو خطأ .

(٣) فى (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٩) : « عماد الدين بن صندل » .

(٤) أهبة الحرب عدتها ، والجمع أمب . (اللسان) .

(٥) فى س (١٣٧) : « الأوَّاء » وما هنا هو الصحيح ، انظر : الروضتين ، ج ١ ،

ابن محمد بن صغير القيسراني (١) كتاب الديوان ، ثم لبس نور الدين الفرجية (٢) ، وتقلد بالسيفين (٣) ، ووضع في عنقه الطوق (٤) ، وخرج راكباً من داخل القلعة واللواء الأسود منشور على رأسه ، وقُدِّم له مركوبان ، أحدهما ركبه ، والآخر كان جنياً [١٣٣] بين يديه ، محلى بحليته ، وجمع له بين تقليدي السيفين الإِشعار بتقليده الاقليمين : الشام والديار المصرية ، وخرج إلى ظاهر دمشق ، ونثر عليه الذهب ، وانتهى في تسميره إلى الميدان الأخضر ، ثم عاد إلى القاعة .

وكان صحبة الرسول تشریفٌ للملك الناصر صلاح الدين جليل كثير ، لكنه دون تشریف نور الدين ؛ فسبّره نور الدين — رحمه الله — إليه ، وسبّره أيضاً خلعاً من عنده برسم الأمراء من أصحابه .

(١) القيسراني نسبة إلى قيسارية بليدة بالشام على ساحل البحر ، وقد ذكر صاحب الروضتين — نقلاً عن البرق الشامي للمهمل — أن خالداً هذا كان بمثابة الوزير لنور الدين ، ولم أعثر له على ترجمة وإنما ترجم (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٤ ، ص ٨٢ — ٨٥) لآية ٤٤ ابن نصر بن صغير القيسراني ، وكان شاعراً مشهوراً ، وتوفي سنة ٥٤٨ هـ .

(٢) عرفها : (Dozy : Dictionnaire Détaillé des Noms des Vêtements. : p. p. 327—334 ; Supp. Dict. Arab). بأنها « نوع من القباء المسترسل ، ويصنع ظالبا اليوم من الجوخ وله أكمام واسعة طويلة تتعدى أطراف الأصابع ، وهي غير مفتوحة او مشقوقة ، "est une robe flottante, faite ordinairement aujourd'hui de drap, à manches amples et longues qui dépassent un peu l'extrémité des doigts, et qui ne sont point fendues".

(٣) ذكر صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ١٩٩) — نقلاً عن البرق الشامي للمهمل الكاتب — أن معنى إرسال الخليفة سيفين لنور الدين إنما هو رمز لتقليده ولاية مصر والشام مما فقد كان المهمل حاضراً الحفل الذي قدمت فيه هذه الخاتم وانتشاريف إلى نور الدين ، قال — فيما رواه عنه صاحب الروضتين — : « سألت عن معنى تقليده السيفين ، فقيل لي : هما للشام ومصر ، ولجميع بين البلادين » وهو ما يؤكد المتن هنا بمدى سطور قليلة .

(٤) ذكر صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ١٩٩) — نقلاً عن البرق الشامي للمهمل — أن وزن هذا الطوق مع أكرته كان ألف دينار من الذهب الأحمر ، وهذا وتشابه النص هنا وفي الروضتين يدل دلالة واضحة على أن مصدرهما الذي ينقلان عنه واحد ، وهو البرق الشامي للمهمل الأصفهانى ، وقد اعترف أبو شامة صراحة بالنقل عنه ، أما ابن واصل فقد نقل دون النص على مرجعه .

ولما وصل الشريف الخليفة إلى مصر لبسه الملك الناصر صلاح الدين — رحمه الله — وركب به ، وذلك في الحادى والعشرين من رجب من السنة المذكورة ، وهى أول خلعة عباسية دخلت مصر بعد انقراض دولة العلوية ؛ ووصل أيضاً إلى مصر أعلام ورايات سود ، وأهـب عباسية للخطباء بسائر الأعمال المصرية ، ففرقها صلاح الدين على الجوامع والمساجد والقضاة والعلماء ، واستقر قدم بنى أيوب بمصر ، واستثبت الملك لهم ، ففى ذلك يقول عرقلة الدمشقى :

أَصْبَحَ الْمَلِكُ بَعْدَ آلِ عَلِيٍّ مُشْرِقًا بِالْمُلُوكِ مِنْ آلِ شَاذِي
وَعَدَا الشَّرْقُ يَحْمِدُ الْغَرْبَ لِلْقَوِّ مِ ، وَمَصْرُ تَزْهُو عَلَى بَغْدَادِ
مَا حَوَّوْهَا إِلَّا بِعَزْمٍ وَحَزْمٍ وَصَلِيلِ الْفُولَادِ فِي الْفُولَادِ
لَا كَفِرْعَوْنَ وَالْعَزِيزِ ، وَمَنْ كَا نَ بِهَا كَاخْطِيبِ وَالْأُسْتَاذِ

وفى هذه السنة — أعنى سنة سبع وستين وخمسة — خرجت من مصر مراكب ، إلى الشام فأخذ الفرنج فى اللاذقية منها مركبتين مملوءتين من الأمتعة (١) والتجار ، وغدروا بالمسلمين ، وكانوا قد هادنوا نور الدين — رحمه الله — ونكثوا ، ولما بلغ ذلك نور الدين راسلهم فى إعادة المركبتين فغالطوه ، واحتجوا بأن المركبتين كان قد دخلهما ماء البحر (٢) لكسر فيها (٢) ، وكانت العادة جارية بأخذ كل مركب يدخله الماء ، وكذبوا فى ذلك ، فلم يقبل مغالطتهم ، وجمع العسكر من الشام والموصل والجزيرة ؛ ووصل ابن أخيه سيف الدين غازى بن مودود إلى خدمته ، ثم بث السرايا نحو أنطاكية وطرابلس ، وحصر هو [١٣٤] حصن عرقا ، وأخرب ربحه ، وأرسل طائفة من العسكر إلى حصن صافيتا وعزيمة ، فأخذوها

(١) فى الأصل : « أمتة التجارة » ، وفى س (٢٧ ب) : « الأمتة والتجار » وما هنا

عن : (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٤٠) .

(٢) هذان اللفظان غير موجودين فى س .

عنوة، [وقتل كل من فيها وسبى^(١)] ، وخرب ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة ، وعادوا إليه وهو بعرة .

وسار [نور الدين] بالمساكر نحو طرابلس فراسله الفرنج وبذلوا له إعادة^(٢) ما أخذوه من المركبين ، وطلبوا تجديد الهدنة ، فأجابهم إلى ذلك ، [وردت المركبان بما فيها إليه ولم ينفذ منها شيء^(٣)] .

ذكر ابتداء الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين

— رحمهما الله تعالى —

وفي هذه السنة أرسل نور الدين إلى صلاح الدين يأمره بجمع المساكر المصرية والمصير بها إلى بلاد الفرنج ، والتزول بها على الكرك ومحاصرتة ، ويجتمعها هناك على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم ، فبرز صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرم من [هذه^(٣)] السنة ، وكتب إلى نور الدين أن رحيله لا يتأخر ، وكان نور الدين قد جمع المساكر وتجهز^(٤) ، فأقام ينتظر ورود^(٥) الخبر من صلاح الدين ورحيله ليرحل هو ، فلما أتاه^(٥) الخبر بذلك رحل من دمشق عازماً على قصد الكرك ، فوصل إليه ، وأقام ينتظر صلاح الدين ، فأناه كتابه يعتذر فيه عن الوصول باختلال أحوال البلاد^(٦) ، وأنه يخاف عليها من البعد عنها ، فعاد إليها ، فلم يقبل نور الدين عذره ورجع .

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١٣٨) ، ومكان هذه الجملة في الأصل : « وكذلك غيرهما » .

(٢) هذا اللفظ غير موجود في س

(٣) ما بين الحاصرتين زيادات من س (١٣٨) .

(٤) في س : « وتجهزوا » .

(٥) هذه الجملة ساقطة من س .

(٦) في س (١٣٨) : « باختلال البلاد وأحوالها » .

قلت : هكذا ذكر بعضه المؤرخين ، ولم يذكر غيره أن نور الدين نازل الكرك في هذه السنة ، بل كلهم ذكر أن نور الدين كاتب صلاح الدين بالمسير إلى الكرك ، فخرج متوجهاً إليها ، ثم عاد ، وكان السبب في عود صلاح الدين أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين (١) .

ولما لم يمثل صلاح الدين أمر نور الدين عظم ذلك عليه ، وعزم على الدخول إلى الديار المصرية وإخراج صلاح الدين عنها ، فبلغ الخبر إلى صلاح الدين فجمع أهله وفيهم والده نجم الدين أيوب ، وخاله شهاب الدين الحارثي ومعهم سائر الأمراء ، وأعلمهم بما قد عزم عليه نور الدين في قصد وأخذ مصر منه ، واستشارهم فلم يجبه أحد منهم بشيء ، فقام ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه [١٣٥] بن نجم الدين أيوب ، وقال : « إذا جاء قاتلناه وصددناه عن البلاد » ، ووافقه غيره من أهله ، فشتهم نجم الدين أيوب ، وأنكر ذلك عليهم غاية الإنكار ، وقال لصلاح الدين : « أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك ، أتظن في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا ؟ » فقال : « لا » ، فقال : « والله لو رأيتُ أنا وهذا خالك نور الدين لم يمكننا إلا أن نترجل إليه ، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا ، فإذا كنا نحن هكذا فكيف يكون غيرنا ؟ وكل من تراه من الأمراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر على الثبات على سرجه ، ولا وسعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه ، وهذه البلاد له ، وقد أقامك فيها ، فإن أراد عزك عزك (٢) ، وأى حاجة له إلى الحجى ؟ يأمر بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ، ويولى بلاده من يريد » ، وقال للجماعة كلهم : « قوموا عنا فنحن

(١) صيغة س مختلف قليلا ، وهي : « بنور الدين فناد إلى مصر ولم يمثل أمر نور الدين ، فلما بلغ نور الدين ذلك عظم عليه . . . إلخ » .

(٢) في س (٣٨ ب) : « فان أراد عزك فأى حاجة . . . إلخ » .

ممالك نور الدين وعبيد: يفعل بنا ما يريد ، ، وتفرقوا على هذا الحال ، وكتب
أكثرهم إلى نور الدين بالخبر ، ولما خلا نجم الدين بابنه صلاح الدين قال له :
« أنت جاهل قليل المعرفة ، تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على ما في نفسك ، فإذا
سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك من أهم أموره وأولاهما بالقصد ،
ولو قصدك لم تر معك من هذا العسكر أحداً ، وكانوا يسلمونك إليه ، وأما الآن بعد
هذا المجلس سيكتبون إليه ويعرفونه قولي ، فتكتب إليه وترسل في هذا المعنى ،
وتقول : « أى حاجة إلى قصدي ؟ نجاب يأخذني بحبل يضعه (١) في عنقي » ، فهو
إذا سمع هذا عدل عن قصدك (٢) واشتغل بما هو أهم عنده ، والآيام تدرج ،
والله كل يوم في شأن » ، فلم صلاح الدين صحة ما أشار به والده [ففعل ما أمره
به (٣)] ، فلما رأى نور الدين الأمر هكذا عدل عن قصده ، واندرجت الآيام
— كما قال نجم الدين (٤) — وكان ما سذكروه إن شاء الله تعالى .

(١) في س : « يصوره » .

(٢) في س : « قصده اليك » .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (١٣٩) .

(٤) المصدر الأصلي لهذه القصة هو (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٣٩) وقد نقلها
عنه مع تغييرات طفيفة (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٣ — ٢٠٤) ، ونص
ابن واصل هنا متفق مع نص أبي شامة . والأستاذ محمد فريد أبو حديد رأى مخالف في هذا
الموضوع . أنظر كتابه : (صلاح الدين الأيوبي وعصره ، ص ٧٣ — ٨١) . والذي نراه
أن ابن الأثير يتلمس المناسبات أحياناً لغرض صلاح الدين ونقده وخاصة عند المقارنة بينه
وبين نور الدين ، وقد يكون لنشأته في الموصل — موطن نور الدين والبيت الأتابكي عمومًا —
أثر في هذا . أنظر وأي الأستاذ جب في هذا الموضوع في : (H.A.H, Gibb : The
Arabic Sources for the Life of Saladin. Speculum, vol. XXV. No. 1 January
1950. pp. 58-74).

ذكر منازلة السلطان الملك الناصر صلاح الدين

— رحمه الله — السكر والشوبك

وفي سنة ثمان وستين وخمسمائة خرج صلاح الدين — رحمه الله — في النصف من شوال قاصداً الغزاة ، ومعه ما هو [١٣٦] برسم الهدية إلى نور الدين ، وهو : الفيل والحمار العتائبة (١) وذخائر وأمتعة من القصر مستحسنة ، وآلات منمنة ، وقطع بلور (٢) ويشم (٣) ، وأوان لا يتصور وجود مثلها ، وثلاث قطع بلكش (٤) أكبرها نيف وثلاثون مثقالا ، والثانية ثمانية عشر ، والآخرى دونها ، ومعه لؤلؤ نفيس ، وستون ألف دينار ، وغرائب من المصنوعات ، وطيب وعطر ، وغير ذلك ؛ فوصل (٥) إلى بلاد السكر والشوبك ، فنازلها ونازل غيرها من الحصون ، فأخرب عماراتها ، وشن الغارات على أعمالها .

(١) المقصود هنا أن هذه واحدة من حمر الوحش المخططة ، وقد ذكر (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٤ ، ص ٢٢ — ٢٣) و (ابن الأثير : الباب في تهذيب الأنساب) أن « العتائي » نسبة إلى « العتايين » وهي إحدى محال بندااه في الجانب الغربي منها ، وكانت إقطاعاً لكتاب — أحد رجال بني أمية — فسميت باسمه ، وقد اشتهرت هذه المحلة بانتاج نوع من النسيج المخطط ومن هنا كان يوصف هذا النوع من الخمر بأنه عتائي تشبهاً له بهذا النسيج . انظر أيضاً (Dozy : Supp. Dict. Arab.) .

(٢) وترسم أيضاً « بلور » وهي مصرية عن اليونانية « Beryllos » لحذف منها سين الاعراب ، ثم وقع فيها القلب . انظر : (ابن الأثير : نخب ذخائر في أحوال الجواهر ، تعليقات الاب انستاس ماري السكرملي ، ص ٦٣ ، هامش ١) .

(٣) ويقال فيه « الشب » وهو حجر ثمين قريب من الزبرجد ، ومنه الأبيض ، والأصفر والورقي — وهو أفضلها — . انظر : (المرجع السابق ، ص ٧٢) و (البروني : كتاب الجواهر في معرفة الجواهر ، ص ١٩٨) .

(٤) جوهر أحمر شفاف يضاهي قائق الياقوت في اللون والرواق ، سمي هكذا نسبة إلى موطنه « بلخشان » حيث يكثر وجوده ، وأهل إيران يسمونه « بذخشان » وهو إقليم يقع في أقصى شرق أفغانستان . انظر : (ابن الأثير : المرجع السابق ، ص ١٥ — ١٥) .

(٥) في س (١٣٩) : « قصد » .

ذكر وصول الهدية المصرية إلى نور الدين

وسير الهدية إلى نور الدين، وكتب إليه بالإشياء الفاضل : « سبب هذه الخدمة إلى مولانا السلطان الملك العادل أعز الله سلطانه ، ومدّ أبدأ إحسانه ، ومكن بالنصر إمكانه ، وشيّد بالتأييد أركانه ، ونصر أنصاره وأعان أعوانه : علم الملوك بما يؤثروه المولى بأن يقصد الكفار بما يقص (١) أجنحتهم ، ويقلّ (٢) أسلحتهم ، ويقطع موادهم ، ويخرب بلادهم ، وأكبر الأسباب المعينة على ما يرومه من هذه المصلحة أن لا يبقى في بلادهم أحد من العربان ، وأن ينتقلوا من ذل الكفر إلى عز الإيمان ، ومما اجتهد فيه عامة (٣) الاجتهاد ، وعدّه من أفضل (٤) أسباب الجهاد ، ترحيل كثير من أنفارهم ، والحرص في تبديل دارهم ، إلى أن صار (٥) العدو اليوم إذا نهض لا يجد بين يديه دليلاً ، ولا يستطيع حيلة ولا يهتدى سبيلاً (٦) .

-
- (١) في الأصل : « يحض » ، وقد صححت بعد مراجعة س والروضتين .
 (٢) في الأصل ، وفي س (١٣٩) : « يقل » ، وفي (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٦) : « ينقل » ، وما هنا قراءة ترجيحها يقتضيها المعنى .
 (٣) كذا في الأصل ، وفي س (١٣٩) : « من الاجتهاد » ، وفي (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٦) : « غاية الاجتهاد » .
 (٤) كذا في الأصل وفي س ، وفي (الروضتين) : « أعظم » .
 (٥) في س : « إلى أن يصير العدو إذا نهض . . الخ » .
 (٦) هذه قطعة من رسالة بقلم القاضي الفاضل أرسلها صلاح الدين إلى نور الدين ليبلغه فيها القصد من خروجه لمهاجمة الكرك والشوبك ، وكانت هذه أول غزوة غزاها صلاح الدين من مصر في أوائل سنة ٥٦٨ هـ وقد أوضح (بهاء الدين بن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٦) الفرض من هذه الغزوة وأهميتها بقوله : « وإنما بدأ بها - أي الكرك والشوبك - لأنها كانت أقرب إليه ، وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية ، وكان لا يمكن أن تصل قانّة حتى يخرج هو بنفسه يبرها بلاد العدو ، فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتصل البلاد بمفها يبيض ، وتسهل على السابلة ، فخرج قاصداً لها لمحاصرها ، وجرى بينه وبين الأفرنج وقعات ، وعاد عنها ولم يظفر منها بشيء » .

ولما وصلت الهدية والرسول إلى نور الدين استقل الهدية واستنزلها ، ولم تقع منه بموقع ، ولكنه أظهر شكر صلاح الدين ، ووصف فضيلته ، وقال : « ما كان بنا حاجة إلى هذا المال ، وهو يعلم أنا ما أنفقنا الذهب في ملك مصر وبنا فقر إلى هذا الذهب ، وما لهذا المحمول في مقابلة ما جدنا به مقدار ، [وتمثل بقول أبي تمام (١)] :

لم يُنْفِقْ الذهبَ المُرَبِّي بِكَثْرَتِهِ عَلَى الحِصَاوَةِ قَرَّرَ إِلَى الذَّهَبِ
لكنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة إلى وفور العدد من الجند ، وقد عمَّ البلاء بالفرنج ، فينبغي أن تقع المساعدة والمعاونة بالامداد ، ثم أخذ يفكر فيما يفعله من هذا المهم .

[١٣٧] قال عماد الدين الطائب في البرق : « وصلت الحمارة ، وكثرت لها النظارة ، والفيل وصل إلينا [في سنة تسع وستين (٢)] ونحن بحلب في الميدان الأخضر ، فأهداه نور الدين إلى ابن أخيه سيف الدين غازي بن مودود — صاحب الموصل — مع شيء من الثياب والعود والعنبر ، فسيّره سيف الدين إلى الخليفة مع تحف وهدايا (٣) ، وسيّر نور الدين الحمارة العنابية إلى الخليفة مع هدايا وتحف سنية (٤) .

وفي هذه السنة أغار العدو على الجولان (٥) ووزلوا محسكين (٦) ، وبلغ ذلك

(١) أضفنا ما بين الحاصرتين عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٦) وذلك للايضاح .

(٢) أضفنا ما بين الحاصرتين من : (الروضتين ، نفس الجزء والصفحة) .

(٣) في س (٣٩ ب) : « مع هدايا وتحف سنية » .

(٤) في س : « مع هدايا عظيمة » .

(٥) في س (٣٩ ب) : « الحولان » ، والجولان قرية . وقيل جبل ، من نواحي دمشق ،

ثم من عمل حوران ؛ (ياقوت ، معجم البلدان) .

(٦) كذا في الأصل ، وفي س ، وفي (الروضتين) ، وفي : (ياقوت : معجم البلدان) :

« محسكين ناحية من أعمال دمشق من جهة حوران » .

نور الدين وهو نازل بالكسوة فرحل إليهم بمساكره ، فرحلوا إلى الفوار (١) ،
ثم إلى الشلالة (٢) ، ونزل نور الدين عشرا ، وبعث عسكرياً إلى أعمال طبرية ،
فأغار عليها ، ولما عادت لحقتها الفرنج عند المخاضة ، فوقفت المقاتلة في مقابلتهم
إلى أن عبرت السرية (٣) ونجت ، ثم رحل نور الدين من عشرا ، ونزل بظاهر ذرا ،
وامتدحه عماد الدين بقصيدة أولها :

رُفِعَتْ (٤) بِنَصْرِكَ رَايَةُ الْإِيمَانِ وَبَدَتْ لِعَصْرِكَ آيَةُ الْإِحْسَانِ
يَا غَالِبَ (٥) الْغُلَبِ الْمُلُوكِ وَصَائِدَ الْـ صَيْدِ اللَّيْثِ وَفَارِسَ الْفُرْسَانِ
يَا سَالِبَ التَّيْجَانِ مِنْ أَرْبَابِهَا حَزْتَ الْفَخَارَ عَلَى ذَوِي التَّيْجَانِ
[ومنها يقول (٦)]:

كم وقعة لك في الفرنج ، حديثها قد سار في الأفاق والبُلدانِ
قُصِتْ (٧) قَوْمَصَهُمْ رِدَاءٌ مِنْ رَدَى وَضَرَبْتَ رَأْسَ بَرْنِيهِمْ بِسِنَانِ
وَمَلَكَتْ رِقَ مُلُوكِهِمْ وَتَرَكَتْهُمْ بِالذُّلِّ فِي الْأَقْيَادِ وَالْأَشْجَانِ (٨)
وَجَعَلْتَ فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالَهُمْ وَسَحَبْتَهُمْ هَوْنًا عَلَى الْأَذْقَانِ (٩)

(١) في س : « الفرات » .

(٢) في س « اللاكة » وفي الأصل : « الشلالة » ، وما هنا عن (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٧) .

(٣) في س : « البرية » .

(٤) كذا في الأصل ، وفي س ؛ وفي : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٧) : « عقلت » .

(٥) كذا في الأصل ، وفي (الروضتين) ، وفي س (٣٩ ب) : « يا غالباً غلب الملوك » .

(٦) ما بين الحاصرتين عن س ، والقصيدة كاملة موجودة في : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٧ — ٢٠٨) .

(٧) في س (١٤٠) : « قومصت قومصهم ردى من ردى » .

(٨) في الأصل ، وفي س : « الأشجان » ، والتصحيح من : (الروضتين) .

(٩) في س : « الأذقاني » و « السلطاني » .

وعلى غناء المشرقية في الطلوع والمهام رقص عوامل (١) المرتين
وكان بين النقع لمع حديدتها ناراً تالتق في خلال دخان
في مازق ورد الوريد مكفل (٢) فيه يرى الصارم الظمان (٣)
ومنها :

غطى (٥) المعاج به نجوم ممائه لتتوب عنه أنجم الخوصان
أنت الذي دون الملوك وجدته ملان من عرف ومن أيمان (٣)
[١٣٨] في بأس عمرو، في بسالة حيدر، في لطق قس، (٤) في تقي (٥) سلطان
سير لو ان الوحي ينزل أنزلت في شأنها سورد من القرآن
فاسلم طويل الممر ممتد المدى (٦) صافي الحياة مخلص السلطان (٧)

ذكر غزوة النوبة

وفي جمادى الأولى من هذه السنة — أعني سنة ثمان وستين وخمسة —
غزا الملك المعظم شمس الدولة فخر الدين توران شاه بن أيوب — آخر السلطان —

-
- (١) كذا في الأصل وفي س، وفي (الروضتين) : « عوالي » .
(٢) يقابل هذا في س : « وكفل فيه يروي الصادي الضمان » .
(٣) كذا في الأصل : وفي س ؛ وفي (الروضتين) : « عرفان » .
(٤) في س « قيس »
(٥) في الأصل : « غطا » و « تقا » .
(٦) كذا في الأصل ، وفي (الروضتين) ، وفي س : « الندي » .
(٧) في س : « السلطاني » .

بلاد النوبة (١) ، وفتح حصناً لهم يدعى إبريم ، وسبى وغنم ، فوجدوها بلاداً قليلة
الجدوى ، فجمع السبي وعاد به إلى أسوان ، وفرّق الغنائم في أصحابه .

(١) أورد صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ٢٠٨ — ٢٠٩) — نقلاً عن ابن أبي علي
المؤرخ الحلبي — حديثاً منفصلاً عن حملة توراتشاه إلى بلاد اليمن ، وهذا الحديث يتضمن
معلومات فريدة وهامة جداً ، ولهذا آثرنا نقله هنا ، قال : « وفيها اجتمع السودان والصييد
من بلاد النوبة ، وخرجوا في أمم عظيمة قاصدين ملك مصر ، وصاروا إلى أعمال الصيد ، وصمموا
على قصد أسوان وحصارها ونهب قراها ، وكان بها الأمير كثر الدولة ، فأنفذ يلم الملك الناصر ،
وطالب منه نجدة ، فأنفذ قطعة من جيشه مع الشجاع البعلبكي ، فلما وصل إلى أسوان وجد الصييد
قد طأدوا عنها بعد أن أخرجوا أرضها فأتبعهم الشجاع والسكندر ، لجرت حرب عظيمة قتل فيها
من الفريقين ظلم عظيم ، ورجع الشجاع إلى القاهرة وأخبر بفعل الصييد وتمكنهم من بلاد
الصيد ، فأنفذ الملك الناصر اخاه شمس الدولة في عسكر كثيف ، فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة ،
فسار قاصداً بلادهم ، وشحن مراكب كثيرة في البحر بالرجال والميرة ، وأمرها بلعاقه إلى بلاد
النوبة ، وسار إليها ، ونزل على قلعة إبريم ، واقتتها بعد ثلاثة أيام وغنم جميع ما كان فيها
من المال والسكر والميرة ، وخلص جماعة من الأسرى ، وأسر من وجده فيها ، وهرب صاحبها ،
وكتب إلى السلطان بذلك ... ثم رجع شمس الدولة إلى أسوان ثم إلى قوص ، وكان في صحبته
امير يقاتل له إبراهيم الكردي ، فطلب من شمس الدولة قلعة إبريم ، فأقطعه إياها ، وأنفذ معه
جماعة من الأكراد البطالين ، فلما حصلوا فيها تفرقوا فرقا ، وكانوا يشنون الغارة على بلاد
النوبة حتى برحوا بهم ، واكتسبوا أموالاً كثيرة حتى عفت أرزاقهم وكثرت مواشيهم ، واتفق
انهم عدوا إلى جزيرة من بلاد النوبة تعرف بجزيرة فبدان (٢) ففرق أمير إبراهيم وجماعة
من أصحابه ، ورجع من بقي منهم إلى قلعة إبريم ، وأخذوا جميع ما كان فيها واخلوها بعد مقامهم
بها سنتين ، فناد النوبة إليها وملكوها ، وأنفذ ملك النوبة رسولا إلى شمس الدولة وهو مقيم
بقوص ، ومعه كتاب يطلب الصلح ومع الرسول هدية — عبد وجارية — فكتب له جواب
كتابه ، وأعطاه زوجي نشاب ، وقال : « مالك عندي جواب إلا هذا » ، وجيز معه رسولا
يعرف بمحمود الحلبي ، وأوصاه أن يكشف له خبر البلاد ليدخلها ، فسار الحلبي مع الرسول
حتى وصل دنقلة — وهي مدينة الملك — قال مسعود : فوجدت بلاداً ضيقة ، ليس لهم زرع
إلا القدر ، وعندهم نخل صفار ، منه أدامهم » ، ووصف ملكهم بأوصاف منها أن قال :
« خرج علينا يوماً وهو عريان ، قد ركب فرساً عربياً ، وقد التف في ثوب أطلس ، وهو أقرع ،
ليس على رأسه شعر ، فأثيت فسات عليه ، فضحك وتفاشى ، وأمرني أن تكوي يدي فكوي
عليها هيئة صليب ، وأسر لي بقدر خمسين رطلا من الدقيق ، ثم صرفني » ، قال : « وأما دنقلة
فليس فيها عمارة إلا دار الملك فقط وباقيها أخصاص » . انظر أيضا :

(P. Casanova : Les Derniers Fatimides. Memoires de la Mission Archeo-
logique Française du Caire. Tome VI, 3, p.p. 415-445).

ذكر وفاة الملك الأفضل نجم الدين أيوب بن شاذي

والد الملوك (١) — رحمه الله —

وفي يوم الاثنين الثامن عشر من ذي الحجة من هذه السنة ركب الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي — والد الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله — بالقاهرة ، فشب به فرسه وتفتطر به ، فحمل عن فرسه ، وعاش ثمانية أيام ثم توفي يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ذي الحجة من السنة ؛ وكان ولده صلاح الدين إذ ذاك غائباً في بلاد الكرك والشوبك على ما ذكرناه ، فبلغه وفاة والده قبل وصوله إلى الديار المصرية ، فاشتد حزنه ، وتأسف حيث لم يحضر وفاته ، وكان [نجم الدين] مولعاً باللعب بالكرة وشدة الركض ، فكان كل من رآه على هذه الصفة يقضى أنه لا يموت إلا [من وقوعه (٢)] عن ظهر الفرس .

ذكر سيرته — رحمه الله (٣) —

كان رحباً جواداً ، كثير البذل ، حسن النية ، جميل الطوية ، وله صدقات ومروءة كثيرة ، واتفقت له سعادة عظيمة ، وما مات حتى رأى في ذريته ما أحب من الملك لهم والسلطان ، ثم عظم ملكهم بعده وانتشر صيتهم ، ولم يملك أحد في عصرهم مثل ما ملكوا ؛ ولما توفي دفن إلى جانب أخيه أسد الدين شيركوه في بيت بالدار السلطانية ، ثم نقلوا بعد سنتين إلى مدرسة بنيت لها [بالمدينة (٤)]

(١) في س : « والد الملك الناصر صلاح الدين » .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٩) .

(٣) هذا العنوان غير موجود في س .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س (٤٠ ب) .

بازاء حجرة النبي — صلى الله عليه وسلم — وسعدا بجوار النبي — عليه السلام —
قم لها بذلك سعادة الآخرة مضافة إلى ما نالاه [١٣٩] من سعادة الدنيا .

ولما (١) حجبت سنة تسع وأربعين وستمائة وقدمت المدينة — على ساكنها
أفضل الصلاة والسلام — رأيت قبريهما بهذه المدرسة .

ورثي (٢) عمارة بن علي البيني — الشاعر — نجم الدين أيوب بقصيدة أولها (٣) :

هي الصدمة الأولى فمن بان صبره	على هول ملقأها تضاعف أجره
ولا بدء من موت وفوت وفرقة	ووجد بقاء العين يوقد بجمره
وما يتلى من يموت حبيبه	بشيء ، ولا يخلو من الهم فكره
ولكنه جرح يمز أنيماله	وكسر زجاج لا يؤمل جبره
أذم صباح الأربعاء فإنه	تبسم عن ثغر المنية فجره
أصاب الهدى في نجمه بمصيبة	تداعى سماك الجوى فيه ونسره
وأقر أهل الأرض من باذل الغنى	إذا قنط (٤) المحتاج واشتد فقره
عشنا أبا الإسلام والمليك والندی	وفارقنا فرد الزمان ووتره
فلا تعذلونا واعذرونا ، فمن بكى	على فقد أيوب فقد بان عذره
رعى (٥) الله نجماً تعرف الشمس أنه	أبوها ونور البدر منها وزهره
وأبقى (٥) المقام الناصري فإنه	لدولتكم كثر الرجاء وذخره

(١) قبل هذا اللفظ في س : « قال القاضي جمال الدين » . وهذه جملة من الجمل الكثيرة المتناثرة في هذا الكتاب والتي يرفقنا فيها المؤلف ببعض أخباره ، ومنها نعلم أنه حج إلى مكة وزار المدينة في سنة ٦٤٩ هـ .

(٢) مقابل هذه الجملة في س : « ورثاها على بن عمارة الشاعر بهذه الأبيات وهي من قصيدة طويلة أولها يقول » .

(٣) في س : « قبض » .

(٤) في الأصل : « رط » و « ابقا » .

أخلص على الأيام أحسن سيرة يموت بها جود الزمان وغدرة
إذا كانت البلوى من الله فليكن من الحزم حمد الله فيها وشكره (١)

ذكر المراسلة بين نور الدين وصلاح الدين

— رحمهما الله تعالى (٢) —

كان نور الدين — رحمه الله — من حين ملكت الديار المصرية يؤثر أن يقرر
له حمل يحمل إليه منها يستعين به على كلف الجهاد ، والأيام تماطله ، وهو ينتظر
من صلاح الدين — رحمه الله — أن يتديه ذلك من تلقاء نفسه ، ويفعل في ذلك
ما يؤثر ، ويريده ، فلما حل صلاح الدين ما تقدم ذكره استقله ولم يعجبه ، فتقدم
حينئذ نور الدين إلى موفق الدين خالد بن القيسراني متولى ديوان الاستيفاء (٣)
أن يمضى إلى الديار المصرية ، ويتقاضى صلاح الدين ، ويعمل أوراقاً بارتفاع الأعمال
المصرية ، ولا يترك في النفس حرازة (٤) من [١٤٠] أمرها ، ثم سار الملك نور الدين
إلى بلبك ثم إلى حمص ثم إلى حلب .

(١) في (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٢) أبيات أخرى من هذه القصيدة .

(٢) هذا العنوان غير موجود في س .

(٣) في س : « الانشاء » .

(٤) في س : « حرازة » . وابن واصل ينقل هنا عن (البرق الشامي للمهمل الأصفهاني) .

انظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٦) ، ونص المهمل يفسر معنى هذا اللفظ وهو : « وتقدم
إلى موفق خالد بن القيسراني أن يمضى ويطلب ويقتضى ويعمل أيضاً بالأعمال المصرية حرازة ،
ولا يبقى في نفوس ديوانه من أسرها حرازة » . الخ » .

ذكر قصد نور الدين — رحمه الله —

بلاد قليج أرسلان

ثم سار نور الدين إلى مملكة السلطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود ابن قليج أرسلان بن سليمان [بن (١)] قُطْلُشِ السلجوقي — صاحب قونية — عازماً على حربه وأخذ البلاد منه ، وسبب ذلك أن ذا النون بن الدانشمند (٢) — صاحب ملطية — قصده عز الدين ، وأخذ بلاده منه ، فسار ابن الدانشمند صاحب ملطية إلى نور الدين مستجيراً به ، وملتجئاً إليه ، فأكرم [نور الدين (١)] نزله ، وأحسن إليه ، وحمل إليه ما يليق أن يُحمل إلى الملك ، وراسل (٣) قليج أرسلان يشفع في إعادة بلاد ذي النون إليه ، فلم يجبه إلى ذلك ، فسار نور الدين وأبتدأ بكيسون (٤) ونهبه ، ومرعش (٥) ومرزبان فملكها وما بينها ، وكان ملكه لمرعش في ذي القعدة من هذه السنة (٥) ، ثم تدير طائفة من عسكره إلى سيواس فملكوها .

فراسل قليج أرسلان نور الدين واستعطفه ، فوقع الصلح بينهما ، وشرط

(١) ما بين الحاصرتين عن س (١٤١) راجع أيضاً : (زامباور : معجم الأنساب والأسماء الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، ص ٢١٦ ، الترجمة العربية) .

(٢) في الأصل — هنا وفيما يلي — : « الدانشمند » وقد صحح الاسم بعد مراجعة : (زامباور : معجم الأنساب ، الترجمة العربية ، ص ٢٢٠ — ٢٢١) وابن واصل ينقل هنا عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٦ — ١٤٧) وكذلك فل صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ٢١٣ — ٢١٤) .

(٣) في س : « وأرسل إلى » .

(٤) كذا في الأصل ، وهي في س : « بكيسون » وما هنا عن ابن الأثير والروضتين .

(٥) ما بين الرقبن ساقط من س .

[نور الدين عليه (١)] أن ينجده بعساكر إلى الفزاة ، ففعل (٢) ، وسُلمت سيواس إلى ذى النون (٣) ، وبقى [ذوالنون] في خدمة نور الدين إلى أن مات نور الدين ، فحينئذ عاد قليج أرسلان إلى البلاد فملكها ، وهي مع ولده إلى اليوم .

والمرتب اليوم بالبلاد وله اسم السلطنة صبي صغير (٤) ، هو ابن ركن الدين ابن غياث الدين كيخسرو بن علا الدين كيخسرو بن كيخسرو بن قليج أرسلان المذكور ، وكان التتر الملاعين قد استولوا على البلاد ، وأبقوا بها ركن الدين والد هذا الصبي ، وهرب أخوه عز الدين كيكاؤس بن كيخسرو إلى ملك الروم صاحب قسطنطينية وهو عنده إلى اليوم ، واستولى على ركن الدين معين الدين [سليمان] البرواناه (٥) ، ثم قتل معين الدين ركن الدين ، وقام بأتابكية ولده الصبي المذكور ، وخطب له بالبلاد ، وملك (٥) البلاد في الحقيقة التتر ، والبرواناه نائبهم بها (٥) .

(١) ما بين الحاصرتين عن س (٤١ ب) .

(٢) مقابل هذه الجملة في س : « وتمطى سيواس وغيرها لدى النون ففعل ذلك » .

(٣) هذا الصبي الصغير هو غياث الدين كيخسرو الثالث ، وقد ولي الحكم في سنة ٦٦٣ هـ وتمره سنتان ونصف سنة ، ولهذا الاستطراد أهمية خاصة فهو يحدد الوقت الذي كان المؤلف — ابن واصل — يكتب فيه هذا الجزء من الكتاب ، وواضح أنه كان يكتبه بعيد سنة ٦٦٣ هـ وهي السنة التي تولى فيها هذا الصبي . أنظر : (زامباور : معجم الأنساب ، الترجمة العربية ، ص ٢١٨)

(٤) أضيف ما بين الحاصرتين عن : (المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٧١ — ٥٧٢) والبرواناه لفظ فارسي معناه في الأصل الحاجب ، وقد أطلق في دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى على الوزير الأكبر . (تعليقات الدكتور زيادة في نفس الصنعة من نفس المرجع) .

(٥) هذه الجملة في س ناقصة ومضطربة المعنى ونصها : « وملك البلاد في الحقيقة (٩)

والبرواناه نايه » .

ذكر الواقعة الكائنة بين مقدم الأرمن والروم

كان مليح بن لاون مقدم الأرمن قد التجأ إلى نور الدين ، وصار في طاعته ، وكانت الدروب وأذنة ومصيصة [وطرسوس ^(١)] بحميتها ملك الروم صاحب قسطنطينية ^(٢) [١٤١] ويضبطها بجنده ، فاستولى عليها مليح بن لاون ، وكسر الروم ، وقتل منهم وأسر ، وساق لنور الدين من مقدمي الروم ثلاثين أسيراً ، فسبّهم نور الدين إلى الخليفة المستضيء بنور الله ، وكتب إليه كتاباً ، من جلته : « قسطنطينية ^(٢) والقدس يجريان إلى أمد الفتح في مضار المنافسة ، وكلاهما في وحشة ^(٣) ليل الظلام المدلم على انتظار صباح المؤانسة ، والله تعالى بكرمه يُدني قطاف الفتحين لأهل الإسلام ، ويوفق الخادم لحيازة مراضى الإمام » .

[وفي آخره ^(٤)] : (فصل في فتح بلاد النوبة والمغرب) : « ومن جملة حسنات هذه الأيام الزاهرة ما تبسر في هذه النوبة ، من افتتاح بعض بلاد النوبة ، والوصول إلى مواضع منها لم تطرقها سذابك الخيل الإسلامية في العصور الخالية ، وكذلك استولى عساكر مصر أيضاً على برقة وحصونها ، ونحسكوا في محكم معاقلمها ومصونها ، حتى بانفوا إلى حدود المغرب ، فظفروا من السؤل بعنقاء مغرب » .

(١) ما بين الحاصرتين عن س (٤١ ب) .

(٢) في الأصل : « قسطنطينية » .

(٣) س : « وجه » ، والتصحيح عن (البرق الشامي للماد ، في : الروضتين ، ج ١ ،

ص ٢١٥) .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن المرجع السابق ، ولائبائها أهمية خاصة لأنها توضح

أن النص التالي الخاص بفتح النوبة وبرقة جزء من نفس الخطاب المرسل إلى الخليفة . هذا وفي الروضتين قطعة أخرى من هذا الخطاب مكملة له .

ذكر دخول قراقوش التقوى بلاد المغرب (١)

وفي هذه السنة مضى قراقوش — غلام الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب — إلى المغرب في طائفة من الترك ، وانضم إليه جماعة من العرب ، واستولى على أطرابلس الغرب وكثير من بلاد إفريقية ، وانضم إلى قراقوش مسعود بن زمام — وهو من أعيان الغرب (٢) به هناك — وكان خارجاً عن طاعة عبد المؤمن بن علي — خليفة المغرب — وأولاده ، فانفقا ، وكثر جمهما ، وحكم قراقوش على تلك البلاد ، وصار معه عسكر كثير ، وجرت (٣) بينهم وبين المغاربة حروب كثيرة ليس هذا موضع ذكرها (٤) ، وقد ذكرتها مفصلة في التاريخ الكبير (٥) .

(١) هذا العنوان غير موجود في س ، وقراقوش التقوى هذا هو غلام تقي الدين عمر بن شاهنشاه ، وهو غير بهاء الدين قراقوش الأسدي السابق ذكره .
 (٢) س : « العرب » . ونس (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٦) — وهو المرجع الذي ينقل عنه ابن واصل هنا — : « مسعود بن زمام المعروف بمسعود البلاط ، وهو من أعيان الأمراء هناك » .
 (٣) ما بين الرقبن ساقط من س (١٤٢) .

(٤) ذكرنا سابقاً ان المروف أن لاين واصل كتاباً آخر في التاريخ هو (التاريخ الصالح) وقد رجعت إليه فلم أجد هذه التفاصيل التي يشير إليها هنا بشأن فتوح قراقوش التقوى في بلاد الغرب ، وهذا يرجع أنه كان لاين واصل كتاب تاريخي ثالث ، يسميه هو هنا « التاريخ الكبير » غير أننا لا نعرف عنه حتى الآن شيئاً . أنظر ماقات هنا ص ٢٠٤ ، هامش ٣ هذا والثابت من المراجع الأخرى أن غزوات قراقوش التقوى للمغرب تعددت في السنوات ٥٧١ و ٥٧٢ و ٥٧٥ و ٥٧٦ و ٥٧٨ و ٥٨٢ ؛ وأن تقي الدين عمر بن شاهنشاه فكر أكثر من مرة في الخروج بنفسه إلى المغرب لإقامة ملك له هناك . لهذا وذاك انظر : (الروشتين ، ج ١ ، ص ٢٤٢ ، ٢٦٠ ، ٢٦٩ — ٢٧٠ ج ٢ ، ص ١٦ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٣٨ ، ٧٠)

ذكر دخول الملك المعظم شمس الدولة فخر الدين توران شاه

ابن أيوب اليمن وتملكه لها (١)

وفي سنة تسع وستين وخمسة سبَّ الملك الناصر صلاح الدين أخاه الملك المعظم شمس الدولة فخر الدين توران شاه بن أيوب إلى بلاد اليمن ليملكها ؛ وكان السبب في ذلك أنه كان صلاح الدين هو وأهله من حين ملكوا مصر خائفين من نور الدين أن يدخل مصر فيأخذها منهم ، فشرعوا في تحصيل مملكة يقصدونها ويملكونها ، وتكون لهم عدة ، فإن أخرجهم نور الدين [١٤٢] من مصر ساروا إليها وأقاموا بها ، فاقضى رأى صلاح الدين أن يسبَّ أخاه إلى النوبة ليملكها ، فسار إليها ولم تعجبه كما ذكرنا ، فلما عاد إلى مصر اقضى رأيه أن يسبَّ إلى اليمن (٢) ،

(١) هذا العنوان ساقط من س .

(٢) هذا الرأى القائل بأن السبب في فتح النوبة ثم اليمن إنما هو تخوف صلاح وأسرته من نور الدين أن يهاجمهم في مصر ويخرجهم منها . أقول إن هذا الرأى مصدره الأول ابن الأثير ، وابن الأثير — فيما يبدو — منهم في كثير مما يكتبه عن العلاقات بين صلاح الدين ونور الدين . أنظر ما فات : ص ٢٢٣ ، هامش ، وأنظر أيضاً (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٥) فهو يقول عند حديثه عن مسير شمس الدولة تورانشاه إلى النوبة : « وكان سبب ذلك أن صلاح الدين وأهله كانوا يعلمون أن نور الدين كان على هزم الدخول إلى مصر ، فاستقر الرأى بينهم أنهم يملكون إما بلاد النوبة أو بلاد اليمن ، حتى إذا وصل إليهم نور الدين لقوه وصدوه عن البلاد ، فإن قووا على منعه أقاموا بمصر ، وإن عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا بالبلاد التي انتصروها » . وفي رأبي أن هذا لا يتفق مع ما ذكره ابن الأثير نفسه في موضع آخر (ص ١٤٨) من أن تورانشاه « استأذن نور الدين في أن يسير إلى اليمن لقصد عبد النبي صاحب زيد لأجل قطع الخطبة العباسية فأذن في ذلك » وقد أكد هذه الحقيقة ابن واصل هنا في المتن بعد سطرين اثنين وإنما ذكر أن الذي استأذن نور الدين هو صلاح الدين . أما الأسباب الحقيقية لفتح اليمن فتجدها في النصوص الكثيرة التي نقلها (أبوشامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٦ — ٢١٧ و ٢٢٠) عن الهامد الأصمهاني وابن شداد ، وابن أبي طي . وفي : (بدر الدين محمد بن حاتم : السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الفز باليمن) والكتاب الأخير لازال مخطوطاً ، وتوجد منه نسخة في دار الكتب المصرية رقم ٢٤١١ .

وكان بها خارجي يقال له عبد النبي ، واسمه فيما ذكر أبو الحسن عمارة :
« علي بن مهدي (١) » ، [و] قد ملك زبيد ، وقطع الخطبة العباسية ، وخطب
لنفسه ، فاستأذن صلاح الدين نور الدين في أن يسير عسكرياً إلى اليمن ويفتحها ،
فأذن له في ذلك .

وكان بمصر عمارة بن علي اليمني — المقدم ذكره — فحسن الملك المعظم قصده
اليمن ، ووصف بلادها له ، وعظمها في عينه ، فزاده ذلك رغبة فيها ، فشرع بتجهز
ويُعِدُّ (٢) الروايا والسلاح ، وغير ذلك من الآلات ، وجند الأجناد ، وجمع وحشد ،
وكان لعمارة مدائح في الملك المعظم ، فما امتدحه به ، وحرّضه فيه على ملك اليمن
قصيدته التي أولها :

الْعِلْمُ مَذٌّ كَانَ محتاجٌ (٣) إِلَى الْعِلْمِ وَشَفْرَةُ السِّيفِ تَسْتَفْنِي عَنْ الْقَلَمِ

= هذا وقد انفرد مؤرخ يمني آخر (باخرمة : تاريخ ثفر عدن ، ج ١ ، ص ١٢٧ — ١٢٨)
بذكر سبب هام من أسباب الفتح الأيوبي لليمن ، وخلاصته أن بعض أمراء اليمن استغاثوا
بالخليفة العباسي من اعتداءات عبد النبي بن مهدي ؛ قال : « خرج (عبد النبي بن علي بن مهدي
صاحب زبيد) في أصحابه إلى جهة أبين ، فحرق أبين ، وقتل أهلها ، وذلك في سنة ٥٥٩ هـ ،
ثم رجع إلى زبيد ، ثم خرج في سنة ٥٦١ هـ في عسكر جرار نحو الخلاف السلجوقي ، فقاتلهم
قتالاً شديداً ، وقتل منهم طائفة ظالمهم من الأشراف ، وفي جملة من قتله وهاس بن ظالم بن يحيى
ابن حمزة بن وهاس السلجوقي — أحد أمراء الأشراف وساداتهم — . . . ويقال إنه لما قتل
الشريف وهاس خرج أحد أخوته إلى بغداد مستنصراً بالخليفة علي عبد النبي بن مهدي ، فبقا
إن الخليفة كتب له إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بأن يجرّد في نصرته عسكرياً
لقتال ابن مهدي ، فجرّد الملك الناصر أخاه شمس الدولة توران شاه بن أيوب ، وأن ذلك كان سبب
دخول الغزاليين . . الخ » .

(١) الهديون أسيرة حكمت زبيد بين سنتي (٥٥٤ — ٥٦٩ = ١١٥٩ — ١١٧٣) ،
وحكم من هذه الأسيرة ثلاثة فقط : علي بن مهدي ، ومهدي بن علي ، وعبد النبي بن علي — وهذا
هو اسمه الصحيح — انظر : (St. Lane-Poole : *Mohammadan Dynasties* p. 96)
(٢) س : « يمدل » .

(٣) في الاصل : « محتاجا » والتصحيح عن س و (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٦)
١ النكت المصرية ، ص ٣٥٢ .

ومنها :

تُرى مسامعُ فخر الدين تَسْمَعُ ما
فإن أصبتُ فلي حظُّ المصيبِ ، وإن
كم (١) تترك البيضَ في الأجفانِ ظامِئَةً
(٢) ومقلَّةُ الجدِّ نحو العزمِ شاختةٌ
فَمَكَكَ الملكُ المنصورُ سَوْمَهَا
أمامَكَ الفتحُ من شامٍ ومن يمنٍ
فأخلقُ لنفسِكَ مُلكاً لا تُضَافُ به
وأنه المُشيرينَ إنْ جَلَّتْ نصيحَتُهُمْ
وأعزِمُ (٤) وصمَّ فقد طالتْ وقد شمتخت (٥)
طَالَ التردُّدُ في إبرامٍ مُنتَقِصٍ

أملأه خاطرُ أفكارى على قلى ؟
أخطأتُ قصْدَكَ فاعذرنى ولا تلمِ
إلى المواردِ في الأعناقِ والقيَمِ (٢)
فترك قوموكَ عن إذرا كما وقمِ
من العراقِ إلى مصر بلا سأمِ
فلا تردُّ رؤسَ الخيلِ باللجمِ
إلى سواك ، وأورِ (٣) النارَ في العلمِ
أو إلّا فانعمِ على العِميانِ بالصمِ
قضيةٌ لفظها السنُّ الأُممِ
في (٦) هذه الحالِ أو في نقضِ مُنبرِمِ

ومنها :

قَرُبُ أمرٍ يَخَافُ الناسُ غَايَتَهُ والامرُ أهْوَنُ فيه منْ يَدٍ لِفمِ

- (١) في الأصل : « لا » وفي س : « لم » والتصحيح عن الروضتين .
(٢) خط صاحب النسخة الأصلية فوضع الشطر الثاني من البيت الثاني أمام الشطر الأول من البيت الأول وبذلك جعل البيتين بيتاً واحداً بعد أن أقطعت الشطرين المرقبين ، وقد صححنا الوضع فيهما بعد مراجعة س (٤٢ ب) .
(٣) في الأصل : « واورى » وفي س : « وادوى » وقد صححت بعد مراجعة : (الروضتين ج ١ ، ص ٢١٧) و (ديوان عمارة ، ص ٦١٩) .
(٤) في الأصل : « وانعم » ، وما هنا عن س (٤٢ ب) و (عمارة : النكت المصرية ، ص ٦٢٠) .
(٥) في الأصل : « سمجت » وما هنا عن س ، والنكت المصرية .
(٦) في الأصل : « من » وما هنا عن (س) والنكت المصرية .

هذا ابنُ نُومَرْتٍ قد كانت بِدَايَتُهُ
[١٤٣] والنَّيْثُ وهو كما قد قيل أَوَّلُهُ
والبدر يبدو هلالاً ثم يَكْشِفُ بال
تنمو قُوَى الشَّيْءِ بالتدرِيجِ إن رُزِقَتْ
حَاسِبٌ ضَيْبِرَكَ عَنْ رَأْيِ (٣) أَتَاكَ وَقُلْ
أَقْسَمْتُ مَا أَنْتَ مِنْ جُلِّ هِمَّتِهِ
وإنما أَنْتَ مَرْجُوٌّ لِوَاحِدَةٍ
كَأَنِّي بِاللَّيَالِي وَهِيَ هَاتِفَةٌ
وَبِالْعُلَى كُلَّمَا لَاقَتْكَ (٤) قَائِلَةٌ

— كما يقولُ الوردى — نَحْمًا عَلَى وَضْعِهِ
فَطَرٌ ، وَمِنْهُ خَرَابُ السَّدِّ بِالْعَرَمِ
أَنْوَارٍ مَا سَتَرَتْهُ قَمَلَةٌ الظُّلَمِ
لَقَى (١) وَيَقْوَى شَرَارُ الزُّنْدِ (٢) بِالضَّرَمِ
نَصِيحَةٌ وَرَدَّتْ مِنْ غَيْرِ مُنْهَمٍ
مَا رَاقَ مِنْ نَعَمٍ أَوْ رَقَ مِنْ نَعَمٍ
بَنَى بِهَا الدَّهْرُ مَجْدًا غَيْرَ مُنْهَدِمٍ
مُذْ صَمٌّ تَمَعُ رِجَالِ دُونَهَا وَعَمِي
أَهْلًا بِمُنْشِرِ آمَالِي مِنَ الرَّمَمِ

ثم سار الملك المعظم شمس الدولة من مصر مستهل رجب من هذه السنة فوصل
إلى مكة (٥) — حرسها الله تعالى — ومنها إلى زيد ، فلما قرب منها قال عبد النبي

-
- (١) في الأصل : « لظفا » ، وما هنا عن : (النكت المصرية ، ص ٣٥٤) .
(٢) في الأصل : « النار » وما هنا عن (س) والنكت .
(٣) في الأصل : « أمر » وما هنا عن النكت والروشتين .
(٤) في الأصل : « لاقيك » وما هنا عن س والنكت المصرية . هذا والتصيدة أطول
مما ورد هنا بكثير ، والآيات المكية يوجد بعضها في : (مكارم : النكت المصرية ،
ص ٣٥٢ — ٣٥٥ و ٦١٩ — ٦٢٠) و (الروشتين ، ج ١ ، ص ٢١٦ — ٢١٧) .
(٥) أورد (سبط ابن الجوزي : سيرة الزمان ، الجزء الثامن ، القسم الأول ،
ص ٣٠٠ — ٣٠١) وصفا شائقا لما فعله توران شاه أثناء مقامه بمكة ولخطوات حملة اليمن بوجه عام ،
وقد آثرنا نقل هذا الوصف هنا لأهميته ، ولأن روايته — سبط ابن الجوزي — يعتبر المؤرخ
الثاني — بعد ابن واصل — المعاصر للأيوبيين ، قال : وقفت على تاريخ بمصر ، فرأيت أن شمس
الدولة لما سار إلى اليمن ، وكان أعيانها قد كتبوا إلى صلاح الدين يسألونه أن يبعث إليهم بعض
أهله ، فلما وصل شمس الدولة إلى مكة سعد صاحبها إلى أبي قبيس ، فتحصن عليه بقلة بناها ،
وأغلق باب السكبة ، وأخذ الفاتيج ، فجاء شمس الدولة فطاف بالبيت ، وصلى ركعتين ، وسعد
إلى باب السكبة وقال : اللهم إن كنت تعلم أني جئت إلى هذه البلاد لصلاح العباد وتمهدها ، =

لاهل زبيد : « كأنكم بهؤلاء وقد حمى عليهم الحر فهلكوا ، وما هم إلا أكلة رأس (١) » ، فخرج إليهم بمسكره ، فقاتلهم الملك المظلم ومن معه ، فلم يثبت أهل زبيد وانهزموا ، ووصل المصريون إلى سور زبيد فلم يجدوا من يمنعهم ، فنصبوا السلام ، وصعدوا السور ، فملكوا البلد عنوة ، ونهبوه وأكثروا النهب ، وأخذوا عبد النبي أسيراً وزوجته المدعوة بالحره (٢) ، وكانت امرأة صالحة

= فيسر على فتح الباب ، وإن كنت تعلم أني جئت لغير ذلك ، فلا تفتحه ، ومد يده لجذب القفل فانفتح ، فدخل شمس الدولة إلى البيت ، وصلى ودعا ، فلما بلغ أمير مكة ذلك نزل إلى خدمته ، وحمل المفاتيح واعتذر : وقال : خفت منك ، والآل فأنا تحت طاعتك ، فقال : إذا أخذت منك مفاتيح مكة فلن أعطيها ؟ ثم خلع عليه وعلى أصحابه ، وطيب قلوبهم . وسار إلى اليمن ، فانهزم عبد النبي بين يديه إلى زبيد ، وكان أبوه المسمى بالمهدي قد فتح البلاد وقتل خلقا كثيرا ، وشق بطون الحوامل ، وذبح الأطفال على صدورهن ؛ وكان يرى رأى القرامطة ، ويظهر أنه داعية لأهل مصر ، ويستتر باليمن ، وكان قد مات قبل دخول شمس الدولة اليمن بسنين ، ومك بعده ولده عبد النبي ، قتل باليمن ما فعله أبوه ، وسي نساءه ، واستبدم . وكان أبوه لما مات بنى عليه قبة عظيمة ، وصفح حيطانها بالذهب الأحمر والجواهر ، ظاهرا وباطنا بحيث لم يعمل في الدنيا مثالا ، وجعل فيها قناديل الذهب وستور الحرير ، ومنع أهل البلد من زبيد إلى حضرموت أن يجيئوا إلى الكعبة ، وأمرم بالحج إلى قبر أبيه ، وكانوا يحملون إليها من الأموال في كل سنة مالا يحمد ولا يحصى ، ويطوفون حولها مثلما يطوفون بالكعبة ، ومن لم يحمل مالا قتله ، وكانوا يقصدونها من الشعر ، فاجتمع فيها أموال عظيمة ، وأقام عبد النبي على الظلم والفسق والنجور ، وذبح الأطفال ، وسفك الدماء ، وسي النساء إلى أن دخل شمس الدولة اليمن ، وجاء إلى زبيد ، فيقال إنه حصر عبد النبي فيها وابنه ، وقيدته وقتله ... ، ويقال إنه انهزم بين يديه ، وجاء إلى قبة أبيه فهدمها ، وأخذ ما فيها من المال والجواهر والفضة ، وكان على سنائة جل ، ونبس القبر ، وأحرق عظام أبيه وذراها في الريح ، ومضى إلى صنعاء ، لحلف شمس الدولة : لا يفتي عنه حق يقتله ويحرقه كما فعل بأبيه ، وسار خلفه فرجع إلى زبيد ، وطاد شمس الدولة إليها ، فظفر به ، فأخذ ما كان معه ، وقتله وصلبه وحرقه ، كما فعل بعظام أبيه .

(١) المؤلف ينقل هنا عن ابن الأثير ، والنس في (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٩) : « كأنكم بهؤلاء وقد حمى عليهم الحر فهلكوا إلا أكلة رام » وهو خطأ مطبعي ، وما بالمتن هنا هو الصحيح ، فقد جاء في (اللسان) : « ويقال : مام إلا أكلة رأس أي م قليل ، يشبههم رأس واحد » .

(٢) في الأصل : « حره » والتصحيح عن ابن الأثير . ويبدو أن لفظ « الحره » كان لقباً تلقب به الأسرات الحاكمة في اليمن ، فقد ظهرت بين نساء الصليبيين باليمن قبل هذا أكثر من سيدة كانت تلقب « بالحره » أو « بالسيدة الحره » .

كثيرة الصدقة ، وكانت إذا حجت وجد عندها فقراء (١) الحاج صدقة دارة
ومعروفاً كثيراً .

ولما أمر الملك المعظم عبد النبي بن محمد صلته إلى الأمير سيف الدولة مبارك
ابن كامل بن منقذ (٢) ، وأمره أن يستخرج منه الأموال ، فأعطاه منها شيئاً
كثيراً ؛ ثم إنه دلم على قبر كان قد صنعه لوالده ، وبني عليه بنية عظيمة ،
وله هناك دفائن كثيرة ، وأعلمهم بها ، فاستخرجت الأموال من هناك ، وكانت
جليلة المقدار ؛ وداتهم [زوجته (٣)] الحرة على ودائع لها ، فأخذ منها مال كثير ؛
ولما ملكت زبيد أقيمت بها . [١٤٤] الخطبة العباسية .

ثم سار العسكر إلى عدن ، وهي على البحر ولها مرسى عظيم ، وهي فرضة الهند
والزنج والحبشة وثمان وكرمان وكيش وفارس وغير ذلك ، وهي منيعة جداً
من جانب البحر والبر ، وكان المتغلب عليها رجل يقال له ياسر ، ولو (٤) امتنع
بها لم يقدرُوا على أخذها (٥) ، لكنه لحينه خرج إلى العسكر ، فباشر قتالهم ،
فانهزم ، وسبقه بعض عسكر الملك المعظم فدخلوا البلد قبل أهله ، وملكوه ، وأخذوا
صاحبه ياسر أسيراً ، وأرادوا نهب البلد فمنعهم الملك المعظم ، وقال : « ما جئنا
لنخرب البلاد ، وإنما جئنا لنملكها ونعمرها وننتفع بدخلها » .

ولما دخلوا عدن كان معهم عبد النبي [صاحب زبيد (٥)] مأسوراً ، فقال :

(١) في الأصل : « لفقراء » وما هنا من س (١٤٣) .

(٢) في س : (. . . بن كافل بن مسدد) ، وما هنا هو الصحيح .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س .

(٤) مقابل هذا في س : « وقد امتنع بها ولم يقدر أحد على أخذها منه » ، وما في الأصل

بقتضيه السياق فهو الصحيح .

(٥) ما بين الحاصرتين عن س (٤٣ ب) .

« سبحان الله ! قد كُتبتُ أعلمتُ أني أدخل عدن في موكب عظيم ، فأنا أنتظر ذلك وأستترُّ به ، ولم أكن أعلم أنني أدخلها على هذه الحالة » .

ولما فرغ الملك المعظم من أمر عدن عاد إلى زبيد ، وحصر ما في الجبل من الحصون ، فملك قلعة تعز ، وهي من أحصن القلاع ، وبها تكون خزائن صاحب (١) زبيد ، وملك الجبل وغيرها من المعاقل والحصون (٢) ، واستناب بعدن الأمير عز الدين عثمان (٣) بن الزنجبيلي ، وبزبيد سيف الدولة مبارك بن منقذ ، وهلك عبد النبي [ويأسر (٤)] في أمره ، وجعل [الملك المعظم] في كل قلعة نائباً من أصحابه ، وأحسن إلى أهل البلاد ، وعدل فيهم ، فعمرت البلاد وأمنت ، [وأما الحرة زوجة عبد النبي فبلغه كثرة صدقتها وخيرها ، فأحسن إليها وأطلقها ، وأقطعها إقطاعاً يقوم بأودها وأود من معها (٥)] .

ذكر غزم جماعة من المصريين على إقامة الدعوة المصرية

وما آل إليه أمرهم

وفي هذه السنة أراد جماعة من شيعة القصر الوثوب بمصر وإقامة الدعوة العلوية ، وردّها إلى ما كانت عليه ؛ وكان منهم عمارة بن علي البني ، وعبد الصمد الكاتب ،

(١) س : « أصحاب » .

(٢) نص س : « وملك ما في الجبل من القلاع والحصون » . وفي (ابن الاثير) : « وملك أيضا قلعة النعكر والجند وغيرها من المعاقل والحصون » .

(٣) س : « الأمير عثمان عز الدين » فقط ؛ هذا ويحمد القاري وصفها تفصيلاً شائفاً لحظ سير الحملة الايوبية في اليمن وقتوحها هناك فيما رواه ابن أبي طي في (الروشتين ، ج ١ ص ٢١٧) وفي مخطوطة : (السمط العالي الثمن ، ص ١٣ — ٦ ب) .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س (٤٣ ب) .

(٥) ما بين الحاصرتين عن س (٤٣ ب) ، وهذا مثل واضح يدل على أن نسخة س — رغم عيوبها الكثيرة ، أفادت بعض الأحيان في إقامة النص وتصحيحه وإكمال ما به من نقص .

والقاضي العويرس ، وداعي الدعاة ابن عبد القوي ، وغيرهم من جند المصريين ورجالهم السودان ، وحاشية القصر ، وواقفهم على ذلك جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده ، فاطلعوا على أسرارهم ؛ وعينوا [١٤٥] الخليفة والوزير ، وتقاسموا الدور والأملاك ، واتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صقلية والشام إلى مصر ، وبذلوا لهم شيئاً^(١) من المال والبلاط ، وكان مقصودهم وما انطوت عليه نيتهم الرديئة أن الفرنج إذا قصدوا البلاد وخرج إليهم صلاح الدين بنفسه نارواهم بالقاهرة ومصر ، وأعادوا الدعوة العلوية ، وعاد من معه من العسكر الذين واقفهم عليه ، فلا يبقى لهم مقام مقابل الفرنج ، وإن كان صلاح الدين يقيم ويرسل المساكر إليهم ، ناروا به ، وأخذوه أخذاً باليد ، لعدم الناصر له والمساعد ، وقال لهم عمارة : « أنا قد أبعدت^(٢) أخاه إلى اليمن خوفاً أن يسد مسده^(٣) ، وتجتمع الكلمة عليه بعده » ؛ فأرسلوا إلى الفرنج بصقلية والشام ، وتقررت القواعد بينهم ، ولم يبق إلا إتمام أمرهم ، فكان ما قدره الله من فضيحتهم وانتهاك سر نيتهم^(٤) ، — لما أراد الله تعالى من سعادة صلاح الدين وظهور أمره — ، أن الفقيه الواعظ زين الدين علي بن نجا^(٥) أدخلوه معهم في سرهم ، فداخلهم وأظهر لهم أنه على رأيهم ، فاطلع على جميع أمورهم ، وجاء إلى صلاح الدين وأظهره على جميع أمورهم ، وكشفها له ، وطلب

(١) في الاصل : « شيء » ، وما هنا من س .

(٢) س : « انتدت » .

(٣) س : « أن يشد عتيده » والمؤلف ينقل هنا عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٩ — ١٥٠) .

(٤) س : « ستر سرهم » .

(٥) هو زين الدين أبو الحسن علي بن إبراهيم بن نجا الدمشقي الحنبلي الواعظ ، توفي بمصر في رمضان سنة ٦٠٠ هـ عن إحدى وتسعين سنة ، انظر ترجمته في : (النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٨٣ — ١٨٤) و (ابن المياد : شذرات الذهب) .

منه ما لابن كامل (١) الداعي من الدور والمقار وكلما له من الموجود والمذكور ،
فبذل له صلاح كل ما طلبه ، وأمره بمخالطتهم ومواطنتهم (٢) على ما يريدون
أن يفعلوه ، وتعريفه بالمتجدد من أمورهم أولاً فأولاً ، فصار يعلمه بكل (٣) ما يتجدد
لهم ، ثم اتفق وصول رسول الفرنج بالساحل إلى صلاح الدين بهدية ورسالة ،
وهو في الظاهر إليه ، وفي الباطن إلى أولئك الجماعة ، فكان يرسل إليهم بعض
النصارى ، وتأتيه رسالهم .

وأتى الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجملة الحال ، فوضع صلاح الدين
على الرسول بعض (٤) من يثق إليه من النصارى ، فدخله ، فأخبره الرسول بالخبر
على الحقيقة .

وقد ذكر في انكشاف [١٤٦] أمرهم أن عبد الصمد الكاتب كان إذا لقي
القاضي الفاضل — رحمه الله — بخدمة ويتقرب إليه ، ويبالغ في التواضع له ، فلقبه
يوماً فلم يلتفت إليه ، فقال القاضي الفاضل : « ما هذا إلا لسبب » ، وخاف أن يكون
قد صار له باطن مع (٥) صلاح الدين ، فأحضر [زين الدين] علي بن نجا الواعظ

(١) هو أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل داعي الدعاة : ترجمته في : (المهاد الأصفهاني :
الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج ١ ، ص ١٨٦ — ١٨٧) و (ابن المهاد : شذرات الذهب ،
ج ٤ ، ص ٢٣٥) .

(٢) س : « وموافقهم » ، والمؤلف هنا ينقل عن (البرق الشامي المهاد الأصفهاني) أنظر :
(الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٩) .

(٣) س : « يعلم صلاح الدين بما يتجدد لهم » .

(٤) هذا اللفظ ساقط من س ، والمؤلف يختصر هنا عن رسالة بقلم القاضي الفاضل — أوردتها
ابن أبي طي — رسالة من صلاح الدين إلى نور الدين يشرح له فيها قصة المؤامرة في تفصيل
شيق هام ، انظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢١) .

(٥) في الأصل : « من » وما هنا عن س (٤٤ ب) والمؤلف يعود هنا فينقل عن (ابن
الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٠) .

وأخبره الحال ، وقال : « أريد أن تكشف الأمر لي » ، فسمى (١) في كشفه فلم يرَ له من جانب صلاح الدين شيئاً ، فعدل إلى الجانب الآخر ، فكشف الحال إليه ، فحضر عند القاضي الفاضل فأعلمه ، فقال له : « تحضر الساعة عند صلاح الدين وتُهيّ الحال إليه » ، فحضر عند صلاح الدين وهو في الجامع ، وذكر الحال ، فأخذ الجماعة وقرروهم ، فأقروا ، فحينئذ قبض عليهم ، وأمر بصلبهم .

وكان عمارة بينه وبين القاضي الفاضل عداوة من أيام العاضد وقبلها ، فلما أراد صلاح الدين صلبه قام القاضي الفاضل وخاطب صلاح الدين في إطلاقه ، فظن عمارة أنه يُحرّض على هلاكه ، فقال لصلاح الدين : « يا مولانا ، لا تسمع منه في حق » ، فغضب القاضي الفاضل وخرج ، وقال صلاح الدين لعمارة : إنه كان [والله (٢)] يشفع لك » ، فندم .

وأخرج عمارة ليصلب ، فطلب أن يمرّ به على مجلس القاضي الفاضل ، فاجتازوا به عليه ، فأغلق بابه ، ولم يجتمع به ، فقال :

عبد الرحيم قد احتجب إن الخلاص من المعجب

ثم صُلب هو والجماعة بين القصرين ، وذلك يوم السبت لليلتين مضتا من شهر رمضان من هذه السنة — أعني سنة تسع وستين وخمسمائة — وأفنى (٣) [صلاح الدين] بعد ذلك من بقي منهم .

قال عماد الدين الأصفهاني : « وكان فيهم داعي الدعاة ابن عبد القوي ، وكان عارفاً بنجاي القصر وكنوزه ، فباد (٤) ولم يسمح بإبدائها ، وبقيت تلك الدفائن مخزونة ،

(١) في الأصل : « فسمّا » .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س .

(٣) في الأصل : « وأفنا » .

(٤) س : « فبات » .

وتلك الخزان مدفونة (١) ، قد دفن دافئها ، وخزن تحت الثرى (١) خازنها ،
إلى أن يأذن الله تعالى في الوصول إليها ، والاطلاع عليها .

واحتيط على ولد العاخذ وغيرهم (٢) من أهله ، وأما الذين ناقوا على صلاح الدين
[١٤٧] من جنده فلم يعرض لهم ، ولا أعلمهم أنه علم بحالهم ، وجمع من أموال الذين
قبض عليهم ما يحمل إلى الشام ليستعين به نور الدين — رحمه الله — على الجهاد ؛
[وكان شيئاً كثيراً من الذهب والفضة وغير ذلك (٣)] .

وكان من جملة الذين أمر صلاح الدين بصلبهم قبالة القصر الموريس وكان قاضى

(١) سن : «مخزونة» و«التراب» ، وما بالمتن يتفق ونس البهادر ، أنظر : (الروضتين ، ج ١
ص ١٢٠) .

(٢) في الأصل : «غيره» وما هنا عن (١٤٥) .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س بعد تصحيحه لغويا ، والذي نلاحظه أن ابن واصل يعتمد هنا
في حديثه عن هذه المؤامرة الخطيرة على المهاد الأصمهانى ، وابن الأثير ، وأبى شامة ؛ وهؤلاء
جميعاً مؤرخون سلبون . ولان أبى طى — وهو مؤرخ شيعى — رواية أخرى تتضمن حقائق
وتفصيلات جديدة هامة عن هذه المؤامرة ، ولهذا آثرنا نقل روايته هنا ، قال : «ولى هذه السنة
اجتمع جماعة من دعاة المصريين والموم ، وتآمروا فيما بينهم خفية ، وبكوا على انقراض دولة
المصريين ، وما صاروا إليه من الدك والفقر ، ثم أجمعوا آراءهم على أن يقيموا خليفة ووزيرا ،
ويعلموا وجاعة عيנם من الامراء وغيرهم ، وأن يكتبوا الفرنج ، وأن يثبوا بالملك الناصر ،
وأدخلوا معهم في هذا الأمر ، ابن مصاك ، وأعدوا جماعة من شيعة المصريين آيلة دينوها ، وكاتبوا
الفرنج بذلك ، وقرروا معهم الوصول إليهم في ذلك الزمان المقرر ، فخانهم ابن مصاك فيها فاهدم عليه ،
ونكث في البين وكثر عنها ، وصار إلى الملك الناصر وعرفه بحيلة ماجرى ؛ قال : فأحضر واحداً
واحداً وقرروا على هذه الحالة ، فأقروا واعترفوا ، واعتذروا بكونهم قطعت أرزاقهم وأخذت
أموالهم ، فأحضر السلطان النساء واستفهام في أسرم ، فأقتوه بقتلهم وصاحبهم وغيرهم ، فأمر بصلبهم ؛
وقيل بأن القدي أذاع سرهم زين الدين على الواعظ ، وطلب جميع مالابن الداعي (كذا) من المقار
والملك ، فأعطاه جميع ذلك ؛ وكان القدي صلبوا منهم : الفضل بن كامل القاضي ، وابن عبد القوى
الداعي ، والموريس وكان قد تولى ديوان النظر ثم القضاء بعد ذلك ، وشيخ ما كاتب السر ، وعبد الصمد
الفتنة — أحد الامراء المصريين — وبجاح الحامى ، ورجل منجم نصرانى أرمنى كان قال لهم
إن أسرم يتم بطريق علم النجوم ، وعمارة البنى الشاعر .

القضاة لهم ، فحكى لى (١) القاضى تاج الدين — المعروف بابن بنت الأعز — قاضى القضاة بالديار المصرية — رحمه الله (٢) — قال : « كان العوريس رأى فى منامه كأن المسيح عيسى بن مريم — عليه السلام — أخرج رأسه له من السماء ، فقال له العوريس : الصلب حق ؟ فقال المسيح — عليه السلام — : نعم الصلب حق ؛ فقصّ العوريس رؤياه على معبر ، فقال المعبر : الذى رأى هذه الرؤيا يُصلب ، لأن المسيح معصوم ، فلا يقول إلا حقا ، ولا يمكن كون ذلك راجعاً إلى المسيح عليه السلام ، لأن القرآن العظيم قد نصّ بأنه لم يُصلب ولم يُقتل ، فبقى أن يكون ذلك راجعاً إلى الرأى ، فهو الذى يُصاب ، فكان الأمر كما قال المعبر » .

وسبّر صلاح الدين كتابا إلى نور الدين يتضمن ذكر القضية (٣) بخط المرتضى ابن قريش ، فاتفق وصول الكتاب إلى دمشق يوم وفاة نور الدين — رحمه الله — فمنه فصل يقول فيه :

« لم نزل نتوسم من جند مصر ، ومن أهل القصر ، بعد ما أزال [الله (٤)] من بدعتهم ، ونَقَضَ من عُرَى دولتهم ، وخَفَضَ من مرفوع كلمتهم ، أنهم أعداء وإن قعدت بهم الأيام ، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمة الإسلام » .

(١) التحدث هنا هو المؤلف ابن واصل ، لأن القاضى ابن بنت الأعز لم يكن معاصرا لصلاح الدين أول هذه المؤامرة ، وإنما ولد سنة ٥٦١ هـ وتوفي سنة ٥٦٦ هـ . انظر أخبار هذا القاضى وترجمته فى : (ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧) و (ابن الهيثم : شذرات الذهب ، وفيات ٥٦٦ هـ) .

(٢) هذا الدطاء يدل على أن ابن واصل كان يكتب هذا الجزء من تاريخه بعد سنة ٥٦٦ هـ ، وهى السنة التى توفي فيها ابن بنت الأعز .

(٣) س : « القصة » .

(٤) ما بين الحاصرتين هن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٠) ، وقد أورد أبو شامة هناك فصولا من هذا الخطاب أطول بكثير مما أورد ابن واصل هنا .

ثم ذكر مكاتبتهم للفرنج وزدد رسالهم إليهم^(١) .

فصل : « والمولى عالم أن عادة أوليائه الاستفادة من أدبه أن لا يسيطوا عقاباً^(٢) . مؤلماً ، ولا يعذبوا عذاباً محكماً ، وهؤلاء القوم لا يزيدهم العفو إلا ضراوة ولا الرأفة عليهم إلا قساوة^(٣) ، فقبضنا على طائفة مفسدة ، وجماعة من هذا الجنس متمردة ، قد اشتملت على الاعتقادات المارقة ، والسرابر المناققة ، فكلاً أخذ الله [تعالى] بذنبه ، فمنهم من أقر طائئماً [١٤٨] عند إحضاره ، ومنهم من أقر عند ضربه ولم يقيم على إصراره ، فانكشفت لنا تقارير مختلفة في المراد ، متفقة في الفساد ، فمنهم من أقام رجلاً من بني عم العاضد ، ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضد ، واختاف هؤلاء في تعيين واحد من ولدين له ، وأما بنو رزك وبني شاور فكل منهم أراد الوزارة لينهم^(٤) من غير أن يكون لهم غرض في تعيين الخليفة . »

فصل : « وفي أثناء هذه المدة كاتبوا سناناً^(٥) صاحب الحشيشية بأن الدعوة واحدة ، والكلمة جامعة ، وأنه ما بين أهلها خلاف يجب به قعود عن نصره ، واستدعوا منه من يقيم على الملوك غيلة ، ويثب عليه مكيدة وحيلة ، فقتل الله بسيف

(١) في الأصل : « إليه » وما هنا عن س (٥ ، ب) .

(٢) في الأصل : « عذاباً » ، وما هنا من (الروضتين) ؛ هذا والنص يختلف هنا أحياناً مما أورده أبو شامة في الروضتين ، لأن المؤلف هنا يختصر ، أما أبو شامة فيورد الفقرات التي ينقلها من نص الرسالة كاملة غير منقومة .

(٣) س : « خسارة » .

(٤) س : « لبيتهم » وهو موافق لما في : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢١) .

(٥) هو راشد الدين سنان بن سامان مقدم إسماعيلية الشام وكان يلقب بالشيخ أو شيخ الجبل ومعنى « الشيخ » هنا السيد أو الرئيس لا الرجل المسن . وقد عرفت هذه الفرقة « بالحشيشية » لأن أتباعها كانوا يتعاطون « الحشيش » . انظر : (محمد عبد الله هنان :

تراجم إسلامية ، ص ٥٥ — ٦٠) و (Casanova : Les Derniers Fatimides. Mémoires de la Mission Archéologique Française du Caire. Tome VI, 3, P. P. 415-445.) .

الشرع المطهر جماعة من الفواة الفلاة ، الدعاة إلى النار ، الحامدين لاثقالهم وأثقال من أضلوه من الفجار ، وشنقوا على أبواب قصورهم ، وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم ، ووقع التابع لاتباعهم ، وشرد طائفة الاسماعيلية ونفوا ، ونودي أن يرحل طائفة كافة الاجناد وحاشية القصر ، وراجل (١) السودان إلى أقصى الصعيد ، وأما من في القصر فقد وقعت الحوطة عليهم ، ورأى المملوك إخراجهم من القصر فإنهم مها بقوا (٢) فيه بقيت مادة لا تنحسم الاطماع عنها ، فإنه قبلة (٣) للضلالة منصوبة ، وبيعة للبدع محجوجة (٤) .

« ومما يطرف به المولى أن ثفر الإسكندرية على غيوم مذهب السنة فيه ، اطلع البحث أن فيه داعية خبيثاً أمره ، محتقراً شخصه ، عظيماً كفره ، يسمى قديداً القفاص ، وأن المذكور مع خوله في الديار المصرية قد فشت في الشام (٥) دعوته ، وطبقت عقول أهل مصر فتنته ، وأن أرباب المعاش فيها يحملون إليه جزءاً من كسبهم ، والنساء يبعثن إليه شطراً [وافياً (٦)] من أموالهن ، ووُجدت في منزلة بالإسكندرية عند القبض عليه والهجوم إليه ، كتب بمجرد (٧) ، فيها خلع العذار ، وضريح الكفر الذي ما عنه اندفاع واعتذار [١٤٩] [ورقاع (٨)]

(١) في الأصل : « ورجل » والتصحيح عن : س (١٤٦) و (الروضتين ، نفس الجزء والصفحة) .

(٢) في الأصل : « بقيوا » والتصحيح عن س والروضتين .

(٣) في الروضتين : « حباله » .

(٤) كذا في الأصل ، وفي (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢١) : « وقد هلك عنها أبو شامة بقوله : « ولعلها محجوبة » .

(٥) كذا في الأصل ، وفي (الروضتين) : « وفي س (١٤٦) : « في اليه » .

(٦) ما بين الحاصرتين عن (الروضتين) .

(٧) هذا اللفظ ساقط من (س) .

(٨) ما بين الحاصرتين عن (الروضتين) .

يُخاطب فيها بما تقشعر منه الجلود ؛ وكان ^(١) يدعى النسب إلى أهل القصر ،
وأنه خرج منه طفلاً صغيراً ، ونشأ على الضلالة كبيراً ^(٢) ، وبالجملة فقد كفى الإسلام
أمره ، وحق به مكروه ، وصرعه كفره .

ذكر شيء من خبر عمارة وشعره

كان عمارة بن علي البيني من الشعراء الفحول المجيدين ، ولم يكن شيعياً ،
وإنما كان فقيهاً على مذهب الإمام الشافعي — رحمه الله — وقتله وفاقوه وحسن
عهده لمن أحسن إليه ، وقد ذكر مباينته لمذهب القوم من قصيدة [يقول ^(٣)] :

أفعلهم في الجود أفعال سُنَّةٍ وإِن خالفوني في اعتقادِ التشيعِ

وذكر هو عن نفسه في كتاب صتم ^(٤) : أنه أقام يزيد ثلاث سنين ، يُقرأ
عليه ^(٥) مذهب الشافعي ، قال : « ولي في الفرائض مصنف يقرأ بالبني » ، وذكر أنه
قدم مكة بعد ذلك في سنة تسع وأربعين وخمسة ، قال : « وفي موسم هذه السنة
توفي أمير الحرمين الشريف هاشم بن قُلَيْثَةَ ^(٥) ، وولي ولده القاسم بن هاشم ،
وألزمني السفارة عنه والرسالة منه إلى الديار المصرية ، فقدمتها في شهر ربيع الأول

(١) هذه الجملة انفرد بها النص هنا ، ولا توجد في (الروضتين) .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س . ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن المستشرق « Derenbourg » قد ذيل كتاب (النكت المصرية) لعمارة بمقتبسات عن عمارة وحياته وشعره نقلها عن المراجع التاريخية المختلفة ، ومن بين هذه المقتبسات صفحات من (مفرج الكروب) وينتهي في نقله عن ابن واصل بهذا البيت من الشعر . انظر : (عمارة النكت المصرية ، ص ٦٠٧ — ٦٢٩)

(٣) الإشارة هنا إلى كتابه « النكت المصرية في أخبار الوزراء المصرية » .

(٤) النص في (النكت ، ص ٢٣) : « وأقيمت في يزيد ثلاث سنين وجماعة من الطلبة يقرؤون عندي مذهب الشافعي والفرائض في الوارث » .

(٥) حكم بين سنتي ١١٣٢ و ١١٥٤ م ، وحكم ابنه القاسم بين سنتي ١١٥٤ و ١١٦١ م .

انظر : (Gerald de Gaury : *Rulers of Mecca* PP. 62, 66) .

سنة خمسين وخمسمائة ، والخليفة بها يومئذ الفاترين الظافر ، والوزير له الملك الصالح
 طلائع بن رزّيك ، فلما حضرت لاسلام عليهما في قاعة الذهب (١) من قصر الخليفة
 أنشدتهما [قصيدة أولها (٢)] :

الحمدُ لايسر بعد العزمِ والهَمِّ	حَدًّا يقومُ بما أوَّات من النعمِ
لا أجحدُ الحقَّ ، عندى للركاب يدٌ	تمنتُ اللّجُم فيها رتبة الخطمِ
قرّبتُ بُعدَ مزارِ العزِّ من نظري	حتى رأيتُ إمام العصرِ من أُمِّ
ورُحْن من كعبة البطحاء والحرمِ (٣)	وفدأ إلى كعبة المعروف والكرمِ (٤)
فهل درى (٥) البيتُ أنى بعد فرقته (٦)	ما سرتُ عن (٧) حرمٍ إلا إلى حرمِ
حيث الخلافة مضروب (٨) مُرادقها	بين النقيضين من عفو (٩) ومن نقمِ
والإمامة أنوارٌ مقدسة	تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلمِ

(١) قاعة الذهب ، ويقال لها أيضاً « قصر الذهب » ، ذكر (ابن تفرى بردى : النجوم
 الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١١٣) أن الذى بناها هو الخليفة العزيز باقة ، وهى إحدى قاعات القصر
 الشرقى الكبير ، وكان يدخل إليه من باب الذهب ومن باب البحر . وموضع هذه القاعة الآن
 — تبأ لتعقيقات المرحوم محمد رمزى ، هامش ٢ من نفس الصفحة بالمرجع السابق — مجموعة
 المباني الواقعة خلف مدرسة النحاسين الأميرية التى بشارع بين القصرين بين شارع بيت القاضى
 وحارة بيت القاضى فى الجزء الواقع خلف المدرسة المذكورة .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن : (النكت المصرية ، ص ٣٢)

(٣) س : « الحرمى » .

(٤) س : « المعروف بالكرم » .

(٥) فى الأصل : « وهل درا » ، وفى س : « فهكذا البيت » ، والتصحيح عن :

(النكت ، ص ٣٢) و (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٥)

(٦) كذا فى الأصل وفى (النكت) ؛ ونص (الروضتين) : « زورته » .

(٧) كذا فى الأصل ، وهى فى (النكت) و (الروضتين) : « من » .

(٨) فى س (٤٦ ب) : « مفرق » .

(٩) فى الأصل : « غمر » وفى س : « عم » ، والتصحيح عن (النكت ، ص ٣٣)

(الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٥) .

[١٥٠] وللنبوة آياتٌ تنصُّ (١) لنا
وللمكارمِ أعلامٌ نُعلمُنا
وللعلى ألسنٌ تُثني بحامدِها
ورايةُ الشرفِ البذاخِ ترفعُها
أقستُ بالفائزِ المعصومِ معتقداً
لقد حمى الدينَ والدنيا وأهلَهُما
اللابسُ الفخرَ لم تنسجْ غلائلهُ
وجودهُ أوجدَ الأيامَ ما اقترحت
قد ملكتهُ العوالى رِقَّ مملكةِ
أرى مقاماً (٥) عظيمَ الشأنِ أو همى
يومٌ من العُمرِ لم يخطرْ على أُملى
ليتَ الكواكبَ تدنو لى فانظما
ترى الوزارةَ فيه وهى باذلةُ
عواطفٍ علمتنا (٦) أن يبينها

على الخفيين (٢) من حُكمٍ ومن حُكمٍ
مدحَ الجزيلين من بأسي ومن كرمٍ
على الحميدين من فِعلٍ ومن شيمٍ
يدُ الرفيعين من بجدٍ ومن همٍ
فوزَ النجاةِ ، وأنجرَ البرِّ فى القسمِ
وزيرهُ الصالحُ الفراجُ للغمِ
إلا يدُ الصنعين (٣) السيفِ والقلمِ
وجودهُ أعدمَ الشاكينَ للعدمِ
تعبُرُ أنفَ الثريا عِزةَ (٤) الشممِ
فى يقطى أنها من جُملَةِ الحلمِ
ولا ترقَّتْ إليه رغبةُ الهممِ
عقودَ مدحٍ ، فما أَرْضى لكم كَلِمى
عند الخلافةِ نصحاءَ غيرَ مُهممِ
قرايةً من جميلِ الرأى لا الرحمِ

(١) كذا فى الأصل وفى س وفى (النكت) ؛ وفى الروضتين : « تفى » .
(٢) كذا فى الأصل ، وفى الروضتين والنكت ، وفى س : « الخفيين » .
(٣) فى الأصل وفى الروضتين : « الصنعين » ، وما هنا عن : (النكت ، ص ٣٣)
(٤) فى الأصل ، وفى الروضتين ، (ج ١ ، ص ٢٢٦) : « غرة » ، وما هنا عن : (النكت ، ص ٣٣) .
(٥) فى الأصل : « مقام » والتصحيح عن س (١٤٧) و (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٦)
(٦) كذا فى الأصل وفى (النكت) ؛ وهى لى (س) و (الروضتين) : « أعلمنا » .

خليفةٌ ووزيرٌ مدَّ عنْهُما ظِلًّا على مُفْرِقِ الإسلامِ والأُممِ -
زيادةُ النيلِ نَقْصٌ عندَ فيضِهما فما عسى تتعاطى مِنَّةُ الدَّيَمِ

قال : « وعهدى بالملك الصالح وهو يستعيدها في حال النشيد مرارا ، والأستاذون
والأمراء (١) يذهبون (٢) في الاستحسان كل مذهب ، ثم أفيضت على الخلع
من ثياب الخلافة مُذهَّبة ، ودفع إلى الصالح خمسمائة دينار ، وإذا بمض الأستاذين (٣)
قد خرج من عند السيدة بنت الإمام الحافظ بخمسمائة دينار أخرى ، وحمل المال معي
إلى منزلي ، وأطلقت لي من دار الضيافة (٤) رسوم لم تُطلق لأحد قبلي ، ونهادتني
أمراء الدولة [١٥١] إلى منازلهم للولائم ، واستحضرني الصالح للمجالسة ، ونظمني
في سلك [أهل (٥)] المؤانسة ، وانتالت على صلاته ، وغمرني برُّه ، ووجدتُ
بمحضرته من أعيان أهل الأدب : الشيخ الجليل أبا المعالي بن الحباب (٦) ، والموفق

(١) النص في (النكت ، ص ٣٤) : « وأعيان الأسراء والكبراء » .

(٢) هذا اللفظ ساقط من س .

(٣) كان كبار القواد من خواص الخليفة في العصر الفاطمي يسمون « بالأستاذين » ، يقول
صاحب (صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٧٧) : « وأجلهم المحكون وم الذين يدورون معاهم
على أحناءهم كما تفعل العرب والمغاربة ، وهم أقربهم إليه ، وأخصهم به ، وكانت عدتهم تزيد
على ألف » .

(٤) ذكر (الفريزي : المخطوط ، ج ٢ ، ص ٣٣٨) أن هذه الدار كانت بحارة برجوان
وتعرف بدار الأستاذ برجوان ، وفيها كان يسكن ، ولما قدم بدر الجمالي إلى مصر بنى هناك
دارا عظيمة سكنها ، ثم سكنها من بعده ابنه الظفر أبو محمد جعفر ، فمرفت بدار الظفر ، وبعد
موته اتخذت دار ضيافة يرسم الرسل الواردين من الملوك ، واستمرت كذلك إلى أن انقرضت
الدولة ، فأُزيل بها السلطان صلاح الدين أولاد العاضد . انظر أيضا (نفس المرجع ، ص ٣٤٣ —
(٣٤٤

(٥) ما بين الحاصرتين عن س و (النكت ، ص ٣٤)

(٦) هو القاضي المجلس أبو المعالي عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الأنجلي السعدي
التميمي ، سمي بالمجلس لأنه كان يجلس الحلفاء الفاطميين مقربا إليهم ، وهو من ذرية بني الأغلب
التميمين أصحاب إفريقية ، تولى ديوان الانشاء بالاشتراك مع الموفق بن الخلال في عهد الخليفة
الفائر ووزارة الصالح طلائع بن رزيك ، وذكر حمارة في (النكت ، ص ٥٩٥) أنه دخل =

أبا الحجاج يوسف بن الخلال [صاحب ديوان الإنشاء^(١)] ، والمهذب أبا محمد الحسن^(٢) بن الزبير ، وما من هذه الحلبة [أحد^(٣)] إلا ويضرب في الفضائل النفسانية والرئاسة الإنسانية^(٤) بأوفر نصيب ، وما زلت أأخذو على طرائقهم حتى نظمتني^(٥) في سلك فرائدكم .

= البين . وتوفي سنة ٥٦١ هـ . انظر ترجمته في : (المهذب : الخريدة ، ج ١ ص ١٨٩ — ٢٠٠) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤١) و (ابن قلاؤنس : الديوان ص ١٠٠ و ١١٥) و (ابن شاعر الكنتي : فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٥٧٧ — ٥٧٩) و (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٥١) و (ابن تفرى بردى : النجوم ، ج ٥ ، ص ٢٩٢ و ٣٧١) و (السبوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٣٢٤) و (الدكتور محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ، ص ٢١٥ — ٢١٨) .

(١) ما بين الحاصرتين (عن عمارة : النكت ، ص ٣٥) . والوفق أبو الحجاج يوسف ابن محمد بن الخلال كان آخر رؤساء ديوان الإنشاء في مصر الفاطمية ، وعليه تخرج القاضي القاضى ثم خلفه على رئاسة هذا الديوان . وقد لبث ابن الخلال متوليا لديوان الإنشاء إلى أن طعن في السن فلزم بيته ، وكان ذلك في عهد وزارة أسد الدين شيركوه للخليفة العاضد . وتوفي ابن الخلال سنة ٥٦٦ هـ . انظر ترجمته وأخباره في : (المهذب : الخريدة ، ج ١ ، ص ٢٣٥ — ٢٧٥) و (ابن خلصان : الوفيات ، ج ٦ ، ص ٢١٩ — ٢٢٤) و (ابن المهذب : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢١٩) و (السبوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٣٢٤) و (الدكتور محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ، ص ٣٤٤ — ٣٤٧) .

(٢) في الأصل : «الحسين» والتصحيح من : س (٤٧ ب) و (المهذب : الخريدة ، ج ١ ، ص ٢٠٤) . وهو المهذب أبو محمد الحسن بن علي بن الزبير ، وقد كان هو وأخوه القاضي الرشيد أحمد بن علي بن الزبير من أشهر شعراء مصر في مصر الفاطمية . وموطنهما الأصلي أسوان ، وسافر كل منهما إلى البين . توفي سنة ٥٦١ هـ . انظر ترجمته في : (المهذب : الخريدة ، ج ١ ، ص ٢٠٤ — ٢٢٥) و (ياقوت : معجم الأدباء ، ج ٩ ، ص ٤٧) و (ابن شاعر الكنتي : فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٢٤٣ — ٢٤٨) و (الادفوى : الطالع السعيد ، ص ١٠٠) و (الدكتور محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ، ص ٢٠٣ — ٢١٠) .

(٣) ما بين الحاصرتين من س و (النكت ، ص ٣٤) .

(٤) هذا اللفظ ساقط من س .

(٥) س : « . . على طريقهم حتى نظمتوني » .

قال [عمارة] : وأنشدت الصالح وهو بالقبر^(١) من دار الوزارة قصيدة منها
[أقول^(٢)] .

دعوا كلَّ بَرَقٍ شَتْمٌ غَيْرَ بَارِقٍ يلوحُ على الفُسطاطِ صادقُ بشرِه
وزوروا المقامَ^(٣) الصالحى فكلُّ مَنْ على الأرضِ يُنسى^(٤) ذِكْرُهُ عندَ ذِكْرِهِ
ولا تجملوا مقصودَكمْ طَلَبَ الغنى فتَجَنُّوا^(٥) على تجدِ الزمانِ وفخرِه
ولكن سلوا منه العلى^(٦) تظفروا بها فكل امرءٍ يُرجى^(٦) على قدرِ قدرِه

قال : ولما جلس شاور في دار الذهب قام الشعراء والخطباء ولغيف الناس
إلا الأقل شاكون^(٧) من بنى رزيك ، وضرغام نائب الباب ، ويحيى بن الخياط^(٨)
اسفهلار^(٩) ، فأنشدته :

زالت ليالى بنى رُزَيْكٍ وانصرمت والحمدُ والذمُّ فيها غيرُ مُنصرِم
كَأَنَّ صَالِحِيَهُمْ يَوْمًا وَعَادِيَهُمْ فى صدرِ ذا الدَّستِ لم يَقَعْدُ ولم يَقْمِ
كنا نَظُنُّ — وبعضُ الظنِّ مائمهٌ — بأن ذلك جَمْعٌ غيرُ مُنْهَزِم
فَهِذْ وَقَعْتَ وَقوعَ النَّسرِ^(١٠) خانهم مَنْ كان مجتمعا فى ذلك الرُّخْمِ

(١) س : « بالقرب » وما هنا يتفق مع (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٦) و (النكت ، ص ٣٥)

(٢) ما بين الحاصرتين عن س و (النكت ، ص ٣٤) .

(٣) س (٤٧ ب) : « مقام » ، وما هنا يتفق ونس (الروضتين و (النكت ، ص ٣٦)

(٤) فى الأصل : « يلسا » و « العلا » .

(٥) فى س : « يقصر » ، وفى الروضتين : « فتخبوا » ، وما هنا يتفق ونس النكت

(٦) س : « يجرى » وما هنا يتفق ونس (الروضتين) و (النكت ص ٣٦) .

(٧) كذا فى الاصل ، وفى (النكت ، ص ٦٩) : « يالون » .

(٨) انظر ماقات ص ١٥٦ ، هامش ٢

(٩) انظر ماقات ص ٢ ، هامش ١

(١٠) س (٤٧ ب) : « الشر » . وما هنا يتفق ونس (الروضتين) و (النكت ، ص ٦٩)

ولم يَكُونُوا عَدُوًّا ذَلَّ جَانِبُهُ (١) وَإِنَّمَا غَرَقُوا فِي سَبِيلِكَ الْغَرِيمِ
وَمَا قَصَدْتُ بِتَعْظِيمِي عِدَاكَ (٢) سَوَى تَعْظِيمَ شَأْنِكَ ، فَأَعَذَرَنِي وَلَا تَلُمْ
وَلَوْ شَكَرْتُ لِيَا لِيَهُمْ مَحَافِظَةً لَعَمَدَهَا لَمْ يَكُنْ بِالْعَدْرِ مِنْ قِسْمِ
وَلَوْ فَتَحْتُ فِي يَوْمٍ بِذَمِّهِمْ لَمْ يَرْضَ فَضْلُكَ إِلَّا أَنْ يَسُدَّ فِي
وَاللَّهُ يَأْمُرُ (٣) بِالْإِحْسَانِ عَارِفَةً مِنْهُ ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ فِي الْكَلِمِ
[١٥٢] قَالَ : فَشَكَرَنِي شَاوِرًا وَأَبْنَاؤُهُ عَلَى الْوَفَاءِ لِبَنِي رَزِيكَ .

ذكر ورود الرسالة النورية إلى صلاح الدين

كنا قد ذكرنا (٤) أن نور الدين — رحمه الله — سبَّحَ موفق الدين خالد بن
القيس راثنى إلى صلاح الدين في « نبي الحمل إلى الشام ورفع » (٥) أوراق بالأعمال المصرية ،
ولما وصل (٦) إلى صلاح الدين ، وأنهى (٧) إليه رسالة نور الدين أطلعه
[صلاح الدين] (٨) على أحوال البلد ، وقال (٩) : « هؤلاء الأجناد ، فأعرضهم وأثبت

(١) س : « جانبهم » وما هنا يتفق ونس (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٦) و (النكت ، ص ٦٩) .

(٢) س : « عدك » وما هنا يتفق ونس (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٧) ، و (النكت ، ص ٧٠) : « سواك - سوى » .

(٣) في الأصل : « وفي س : « ماسر » والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٧) و (النكت ، ص ٧٠) .

(٤) أنظر ما فات هنا ، ص ٢٢٢

(٥) س (١٤٨) : « ووقع » .

(٦) س : « ورد » .

(٧) في الأصل : « وفي س : « أنها » بالألف .

(٨) ما بين الحاصرتين عن س .

(٩) ينقل ابن واصل هنا باختصار عن (البرق الشامى للمهنا) أنظر نصه في : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٩) . وفي نفس المرجع والصفحة رواية أخرى لأبي أبي طي ، آثرنا نقلها هنا لأهميتها والمقارنة ، وهي : « قال ابن أبي طي : وفي هذه السنة وصل رسول نور الدين -

أُجْبِزَهم ، وما يُضَيِّطُ مثلُ هذا الإقليم العظيم إلا بالمال العظيم ، ثم أنت تعرف مصر وعظماؤها ، وأنهم معتادون النعمة الواسعة ، وقد تصرفوا في أُمَّاكن لا يمكن انتزاعها منهم ، ولا يسمحون بأن يُنْقَصَ من ارتفاعها » ؛ ثم أخذ [صلاح الدين] ^(١) في جمع مال يرفعه [إلى نور الدين] ^(١) ، وحصل لخالد من الأموال ما لم يكن في خلدّه . ثم اتفقت وفاة نور الدين — رحمه الله — فكان ما سذكروه إن شاء الله تعالى .

ذكر وفاة الملك العادل نور الدين

ابن زنكى بن آق سنقر — رحمه الله تعالى —

كنا ذكرنا أن نور الدين كان قد عزم على التجهز للسُخول إلى الديار المصرية لأخذها من صلاح الدين ، فإنه رأى منه فتوراً في قصد الفرنج من ناحيته ، ^(٢) وكان يعلم ^(٢) أنه إنما يمتنع صلاح الدين من الغزو للخوف منه والاجتماع به ، وأنه يؤثر

= الوثق بن القيسرائى إلى الديار المصرية ، واجتمع بالسلطان الملك الناصر ، وأنهى إليه رسالة نور الدين ، وطالبه بحساب جميع ما حصله وارتفع إليه من الغل فصعب ذلك على السلطان ، وأراد شق العصى ، لولا ما ثاب إليه من السكينة والعقل ، فأمر بعمل الحساب ، وعرضه على ابن القيسرائى ، وأداء جرائد الأجناد بمبالغ إقطاعهم ، وتعيين جاكياتهم ، ورواتب نلقائهم ، فلما حصل هذه جميع ذلك أرسل معه هدية إلى نور الدين مع الفقيه عيسى . إلخ . ثم نقل ابن أبى طى بعد ذلك ثبنا بمفردات هذه الهدية التي أرسلها صلاح الدين إلى نور الدين ، ولهذا الثبت أهميته لأن ابن أبى طى نقله كما ذكر من « خط الوثق بن القيسرائى » ، ثم عقب عليه بقوله : « وخرجوا بهذه الهدية فلم تصل إلى نور الدين ، لأنهم اتصل بهم وفاته ، فلما ما أعيد ، ومنها ما استهلك ، لأن الفقيه عيسى وابن القيسرائى وضعوا عليهم من نعمهم ، واستبدوا بأكثرها ، وقيل إنها وصلت جميعها إلى السلطان ، لأنه اتصل به خبر موت نور الدين ، فأنقذ من ردها ، قال : وحدثني من شاهد هذه الهدية أنه كان معها عشرة صناديق مالا لم يعلم مقداره » : انظر (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٩) .

(١) ما بين الحاصرتين عن س .

(٢) مكان هذين اللفظين لى س : « وذلك » — والمؤلف ينقل هنا عن (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥١) ، ولاحظ أن المصدر الأول لأخبار الفترة بين نور الدين وصلاح الدين هو ابن الأثير ، وهو يكرر الفكرة ويؤكدّها كلما سنحت له فرصة .

كون الفرنج (١) في الطريق ليمتنع بهم على نور الدين ، فأرسل نور الدين إلى الموصل وبلاد الجزيرة وديار بكر وغيرها يطلب المساكر للغزاة ، وكان عزمه أن يترك (٢) المساكر مع ابن أخيه سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي — صاحب الموصل والشام (٣) — ، ويسير هو بعسكره إلى مصر ، فعاقه القدر المحتوم عن قصده .

ولما كان يوم عيد الفطر من هذه السنة — أعني سنة تسع وستين وخمسة — أمر نور الدين — رحمه الله — بتطهير ولده الملك الصالح إسماعيل ، فاحتفل لهذا الأمر ، وزينت دمشق أياما ، وهنأه كاتبه عماد الدين الأصفهاني بتصيدة أولها :

عيدان : فِطْرٌ وَطَهْرٌ فَتَحَ قَرِيبٌ وَنَصْرٌ
كلاهما لك فيه حقاً هناء (٤) وأجرٌ
[١٥٣] تَجَلَّى عَلَى الطُّهْرِ نَامُ زَكَاهُ مِنْكَ نَجْرٌ (٥)
محمودُ الملكُ العَـادُ لُ الْكَرِيمُ الْأَعْرُ
وبابنه (٦) الملكِ الصَّاحِ لِحِ الْعَبُودِ (٧) تَقَرُّ
مولى به اشتدَّ للدينِ والشريعِ أزرُ
نورٌ تَجَلَّى (٨) عياناً ما دونهُ اليومَ يَشْرُ

-
- (١) صيغة س : « وأنه يؤثر الفرنج كونهم في الطريق » .
(٢) في الأصل : « ينزل » والتصحيح عن المرجع الذي ينقل عنه هنا حرفياً وهو (الكامل لابن الأثير) .
(٣) في الأصل : « بالشام » والتصحيح عن ابن الأثير .
(٤) في الأصل ، ولي س : « حق هناك » ، والتصحيح عن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٧) .
(٥) كذا في الأصل ولي الروضتين ؛ ولي س : « طر » .
(٦) س : « ونأيه » .
(٧) في الأصل : « للعبود » ولي س : « به العبود » والتصحيح عن الروضتين .
(٨) في الأصل ولي س : « تجلا » .

أَضَعَتِ مَسَاعِيكَ غُرًّا كَمَا أَيَادِيكَ غُرُّرُ (١)
وَكُلُّ قَصْدِكَ رُشْدٌ وَكُلُّ فِعْلِكَ بَرٌّ
وَإِنَّ حُبَّكَ دِينٌ وَإِنْ بَغْضُكَ كُفْرٌ
لَنَا بِبَيْتِنَاكَ بُيُوتٌ كَمَا بِبَيْتِنَاكَ يُسْرٌ
وَلِلْمَوَالِسِينَ نَفْعٌ وَلِلْمَعَادِينَ ضُرٌّ

[ومنها يقول] (٢) :

تَمَلَّ تَطْهِيرَ (٣) مَلِكٍ لَهُ الْمُلُوكُ تَخْرِءُ (٤)
وَكَيْفَ يُعْمَلُ لِلطَّا هَرِ الْمُطَهَّرِ طُهُرٌ
يُزْهِى سَرِيْرٌ وَتَاجٌ بِهِ وَدَسْتُ وَصَدْرٌ
هَذَا الطُّهُورُ ظُهُورٌ (٥) عَلَى الزَّمَانِ وَأَمْرٌ
وَذَا الْخَلْقَانُ (٦) خِتَامٌ بِمَسِيكِ طَابَ نَشْرٌ
رُزِقْتَ عُمرًا طَوِيلًا مَا طَالَ لِلدَّهْرِ عُمرٌ

وفي يوم العيد — وهو في يوم الأحد — ركب نور الدين على الرسم المعتاد إلى الميدان الأخضر الشمالي بدمشق لطمن (٧) الخلق ، ورمى القيق (٨) ، وأمر فضربت

- (١) في الأصل ، وفي س : « غر » ، وما هنا عن الروضتين .
(٢) ما بين الحاصرتين عن س ؛ وانظر القصيدة كاملة في : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٧)
(٣) س : « بتطهير » .
(٤) س : « تجر » .
(٥) في الأصل : « ظهور » وفي س : « ظهوراً » والتصحيح عن الروضتين .
(٦) س : « الختام » .
(٧) في الأصل . وفي س (١٤٩) : « ليطمن » والتصحيح عن الروضتين ، وقد نقل صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ٢٢٧) خبر هذا اليوم عن المهاد الكاتب بألفاظه وجمله السجوة ، وابن واصل مختصر هنا نص المهاد .
(٨) القيق : أو القياق — لفظ تركي ، منناه لغة نبات الفرعة المسلية (une courgette) ومنناه اصطلاحاً الهدف الذي كان يستعمل في اللعبة التي عرفت في الشرق في المصور الو-طلى =

له خيمة في الميدان القبلي الأخضر ، وأمر بوضع المنبر ، وخطب القاضي شمس الدين ابن الفرائش ^(١) — قاضي العسكر — بعد أن صلى به ، ثم مدَّ السباط العام ، وأنهب على عادة الترك ، وعاد [نور الدين] إلى القلعة ، ومدَّ خوانه الخاص .

وفي غد هذا اليوم — وهو يوم الاثنين [١٥٤] ثاني شوال — ركب في خواصه وأصحابه ، ودخل الميدان والأمير همام الدين مودود ^(٢) — وهو من أكبر أمرائه — يسأله ، فقال لنور الدين : « هل نكون هنا في مثل هذا اليوم في العام القابل ؟ » . فقال نور الدين : « قل هل نكون هنا بعد شهر ؟ فإن السنة بعيدة » فجري على منطقيهما ^(٣) ما جرى به القدر السابق ، فإن نور الدين لم يصل إلى آخر الشهر ، وهمام الدين لم يصل إلى آخر العام .

= بنفس الاسم — القبق — ، وكان طريقة لعب القبق كما وصفها (Dasy: Supp. Dict. Arab) أن ينصب صار طويل من خشب ، يكون في رأسه شكل قرعة من ذهب أو فضة بمثابة الهدف ، ويكون في القرعة طير حمام ، ثم يأتي اللاعبون المباراة في رمي الهدف بالشباب أو السهام وهم على ظهور الخيل ، فمن أصاب منهم القرعة وأطار الحمام حاز السباق وأخذ القرعة المعدنية لنفسه ، غير أن (القريزي : الخطاط ، ج ٣ ، ص ١٨٠) وصف هذه اللعبة وصفا يختلف عن الوصف السابق بعض الشيء ، ويبدو أن وصف القريزي هو الذي يعنيه المتن هنا ، فنص المتن : « اطمن الحلق ، ورمى القبق » . والقريزي يقول : « والقبق عبارة عن خشبة طالية جدا ، تنصب في براح من الأرض ، ويعمل بأعلاها دائرة من خشب وتقف الرماة بقسيها وترمي بالسهام جوف الدائرة لكي تمر من داخلها إلى غرض هناك » ، تمرينا لهم على إحكام الرمي ، ويبر عن هذا بالقبق في لغة الترك . ثم تحدث بعد ذلك في نفس الجزء والصفحة عن الميدان الذي كان بالقاهرة في العصر المملوك لهذه اللعبة ، ويسمى « ميدان القبق » . انظر أيضا (القريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٨ ، حاشية رقم ٦ للدكتور زيادة) .

- (١) كذا في الأصل ، ولي س ، وفي الروضتين نقلا عن الهاد : « ابن المقدم » .
 (٢) عرف به صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ٢٢٨) نقلا عن الهاد ، قال : « وكان قديما في أول دولته (أي دولة نور الدين) والى حلب » .
 (٣) س : « منطقته » ، وما هنا يتفق ونص (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٨) وهو الصحيح كما يدل عليه المتن فيما يلي .

ثم شرع نور الدين باللعب بالكرة مع خواصه ، فاعترضه برتقش — أمير آخر — وقال له : « باش » ، فحصل عنده غيظ على خلاف عادته في الكرم والحلم ، فزجره وزيره ، ثم ساق ودخل القاعة ، ولم يخرج منها إلا ميتا ، وأصابته (١) علة الخوانيق ، فبقي أسبوعاً في منزله مشغولاً بالنازلة التي نزلت به ، والناس مشغولون بزينة الختان والفرح ، والبلد مزين لظهور الملك الصالح ، فما انتهت الأفراح إلا بحلول المصيبة به رحمه الله .

وأشار عليه الأطباء بالفصد فامتنع ، وكان مهيباً فما روجع ، وحكى الطبيب جمال الدين الرحبي (٢) الدمشقي قال : « امتدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الأطباء ، فدخلنا عليه وهو في بيت صغير بقاعة دمشق ، وقد تمكنت الخوانيق به وقارب الهلاك ، فلا يكاد يُسمع صوته ، فقلت له : كان ينبغي أن لا يؤخر إحضارنا إلى أن يشتد بك المرض إلى هذا الحد ، فالآن ينبغي أن تنتقل إلى مكان فسيح فله أثر في هذا المرض ، وشرعنا في علاجه فلم ينفع فيه الدواء ، وعظم الداء ، ومات عن قريب » .

قال عمار الدين الكاتب (٣) : « كان لنور الدين — رحمه الله — صفة (٤)

(١) س (١٤٩) : « وكان سببه أنه أصابته . . الخ » .

(٢) هو جمال الدين عثمان بن يوسف بن حيدرة الرحبي ، ولد ونشأ في دمشق ، وكان كما يذكر (ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ٢٠١) : أوحده زمانه ، اشتغل بصناعة الطب على والده وعلى غيره ، وأتقنها إتقاناً لا مزيد عليه ، وخدم في البيمارستان الكبير الذي أنشأه نور الدين وبقي به سنين ، وكان يحب التجارة ويمانيها ويسافر بها في بعض الأوقات إلى مصر ، ويأتي من مصر بتجارة ، ولما وصلت التتر إلى الشام في سنة ٦٥٧ هـ توجه إلى مصر وأقام فيها ، ثم مرض وتوفي بالقاهرة في سنة ٦٥٨ هـ .

(٣) روى هذا الخبر أيضاً عن الهامد صاحب الروضتين (ج ١ ، ص ٢٢٨) .

(٤) جاء في (اللسان) : صفة البليان طرته ، ومن معانيها في (محيط المحيط) : السطبة المرتفعة تستعمل للجلوس عليها ، وهذا هو المعنى المقصود هنا ، ومن هذا اللفظ أخذت الكلمة الإنجليزية (sofa) فقد ذكرت المعاجم الإنجليزية أنها من أصل عربي وأن معناها الأريكة أو المقعد الطويل ذي الظهر واليدين (a long seat with stuffed bottom, back, and arms) . انظر أيضاً : (المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٨٧ ، هامش ٢ و Twentieth Century Dictionary .

في لدار التي على النهر الداخل إلى القلعة من الشمال، وكان جلوسه على تلك الصفة في أكثر (١) الاوقات، فلما جاءت سنة الزلزلة بنى بإزاء تلك الصفة بيتاً من الأخشاب، وهو بيت فيه [١٥٤] ويصبح، ويخلو بعبادته، فُدفن في ذلك البيت الذي اتخذ حتى من الحمام، وكانت وفاته يوم الأربعاء حادي عشر شوال من هذه السنة — أعني سنة تسع وستين وخمسمائة — .

وكان صلاح الدين قد استثمر بقصد نور الدين له، فحكى عنه القاضي بهاء الدين ابن سُرَاد — قاضي حلب رحمه الله — قال : « كان يبلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا بالديار المصرية، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن (٢) نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف نرده (٣) إذا تحقق قصده، وكنت أنا وحدي أخالفهم وأقول : لا يجوز أن يقال شيء من ذلك، ولم يزل النزاع بيننا حتى ورد الخبر بوفاته — رحمه الله — . »

قلت : ودفن نور الدين — رحمه الله — بالقلعة مدة، ثم نقل إلى مدرسته التي أنشأها بدمشق، ودفن بها (٤)، وقبره بها معروف يزار .

صفته وسيرته — رحمه الله —

كان أَمْر طویل [القامة (٥)] ليس له لحية إلا في حنكه (٥)، وكان واسع الجبهة، حسن الصورة، حلو البينين .

(١) س : « جميع الأوقات » ، والروشتين : « جميع الأحوال » .
 (٢) الأصل : « يكاشف ونخالف ويشق عصاه ويلقى عسكره بمصاف يرده » ، والتصحيح عن (ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٧) .
 (٣) هذان اللفظان ساقطان من س .
 (٤) ما بين الحاصرتين عن س ؛ وهذا الوصف منقول عن (ابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٥١) ، وعنه نقل أيضاً صاحب الروشتين (ج ١ ، ص ٢٢٨ — ٢٢٩) .
 (٥) س : « إلا قليل شعرات في ذقنه » ، وما هنا يتفق مع الأصل المنقول عنه ، وهو ابن الأثير، كما أنه يتفق أيضاً ونس الروشتين .

وكان مولده سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، فكان عمره قريباً من ثمان وخمسين سنة .

وأما سيرته — رحمه الله — في عدله وزهده^(١) ، وخوفه من الله تعالى ، وجهاده لعدو الدين ، وصدقاته ومعروفه وإحسانه ، وابتغائه لثواب الله تعالى ولدار الآخرة ، فهو أشهر من أن يذكر ، فإني لا أعلم ملكاً بعد الخلفاء الراشدين اجتمع فيه من الصفات الجميلة مثل ما اجتمع فيه — رحمه الله — ؛ ولندكر ما نُقل إلينا من أخباره مما يستدل به على ما ذكرناه ، وإن كان قد بلغ في الوضوح والشهرة إلى حد التواتر .

وأما زهده فالمشهور عنه أنه كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا فيما يخصه من ملك كان قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ، ومن الأموال المرصدة لصالح المسلمين ، يُحضر الفقهاء ويستفتيهم في أخذ ما يحلُّ له من ذلك ، فيأخذ ما يفتونه بحله ، ولا يتعداه إلى غيره ، ولم يلبس حريراً ولا ذهباً ولا فضة ، ومنع من شرب الخمر في جميع بلاده ، ومن إدخالها إلى بلاد ما ، وكان يحدُّ^(٢) [١٥٦] شاربها الحد الشرعي ، وكل الناس عنده فيه سواء .

وحدث شخص كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين أنر زوجة نور الدين — وكان وزيرها — ، قال : «^(٣) كان نور الدين إذا جاء إليها يجلس في المكان المختص به ، وتقوم في خدمته لا تتقدم إليه إلا أن يأذن في أخذ ثيابه عنه ، ثم تعتزل عنه إلى المكان الذي يختص بها ، وينفرد هو ، قارة يطالع رقاع أصحاب الأشغال ، أو مطالعة

(١) في الأصل : « ورعده » وما هنا من س (٤٩ ب) .

(٢) س : « يجهد » .

(٣) هذه الأخبار عن نور الدين وسيرته منقولة عن : (الروضتين ، ص ٦ وما بعدها) . انظر أيضاً : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥١ — ١٥٢) و (سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٠٧ وما بعدها) .

كتاب أناء ويحجب عنه ، ويصلي ويطيل الصلاة ، وله أوراد في النهار ، فإذا جاء الليل وصلى العشاء ونام يستيقظ نصف الليل ، ويقوم إلى الوضوء والصلاة إلى بكرة ، فيظهر للركوب ويشغل بمهام الدولة ، قال : فإنها قلت عليها النفقة ، ولم يكفها ما كان قرره لها ، فأرسلتنى إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها ، فلما قلت له تنكر واحمر وجهه ثم إنه قال : من أين أعطيها ، أما يكفها ما لها (١) ؟ والله لا أخوض نار جهنم في هواها ، وإن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هو لي فبئس الظن ، إنما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم ، ومعدة لفتق إن كان من عدو الإسلام ، وأنا خازن (٢) عليها فلا أخونهم فيها ، ثم قال : لي بمدينة حمص ثلاثة (٣) دكاكين ملكا (٤) قد وهبتها إياها ، فلتأخذها ، وكان يحصل منها قدر قليل .

وكان (٥) له صديق بالجزيرة من الصالحين ، وكان نور الدين يكتابه ويراسله ويرجع إلى قوله ، فبلغه أن نور الدين يدمن اللعب بالكرة ، فكتب إليه يقول له : « ما كنت أظنك تلهو وتلعب وتعدب الخيل لغير فائدة دينية » فكتب إليه نور الدين بخط يده يقول له : « والله ما حملني على اللعب بالكرة اللهو والبظر ، إنما نحن في ثغر ، والعدو قريب منا ، وبيننا نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب ، ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً ، شتاءً وصيفاً ، إذ لا بد من الراحة للجند ، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماماً لا قدرة لها على إدمان

(١) في الأصل : « ما يكفها » والتصحيح عن س بدد مراجعة الروضتين .

(٢) كذا في الأصل ، وفي س (٥٠ ب) ولي الروضتين : « خازنهم » .

(٣) في الأصل : « ستة » ، والتصحيح عن س ، و (الروضتين ، ص ٦) و (مرآة الزمان ، ص ٣٠٧) .

(٤) في الأصل ، وفي س : « ملك » والتصحيح عن الروضتين .

(٥) قبل هذا الخبر في س : « وقال أيضاً هذا الشخص ، وكان رضيع زوجة نور الدين ووزيرها » ، مما يفيد أنه ينقل هذا الخبر عن رضيع زوجة نور الدين ، أما صاحب الروضتين فيرويه ملحوباً إلى ابن الأثير وإنما مع اختلاف يسير في النص .

السير في الطلب ، ولا معرفة لها بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة ، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب ، فيذهب عنها جامها ، وتتمود [١٥٧] سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب ، فهذا والله هو الذي يبعثني على اللعب بالكرة .

وحمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة ، فلم يحضرها عنده ، فوصفت له ، فلم ياتفت إليها ، وبينما هم معه في حديثها إذ قد جاءه رجل صوفي ، فأمر بها له ، فقيل له : « إنها لا تصاح لهذا الرجل ، ولو أعطى غيرها كان أنفع له (١) » ، فقال : أعطوها له ، فإني أرجو أن أعوض عنها في الآخرة » ، فسلمت إليه ، فسار بها إلى بغداد ، فأباعها بستمئة دينار مصرية (٢) ، أو سبعمائة دينار (٣) .

وأما (٤) عدله فذكر أنه كان بدمشق ياب بالكرة فرأى إنسانا يحدث آخر ويشير يده (٥) إليه ، فأرسل إليه وسأله عن حاله ، فقال : « لي مع الملك العادل حكومة ، هذا غلام القاضي ليحضره إلى مجلس الحكم بما كنى على الملك الفلاني » ،

(١) كذا في الاصل ، وفي الروضتين ، وفي س : « كن أصوب » .

(٢) كذا في الاصل ، وفي س ؛ وفي الروضتين : « أميرى » .

(٣) وقد عقب صاحب الروضتين (س ٦) على هذا الخبر بقوله : « قلت : قرأت في حاشية هذا المكان من كتاب ابن الأثير بخط ابن العلي إياها ، قال أعطاها الشيخ الصوفية حماد الدين أبي الفتح ابن حموية بنير طلب ولا رغبة ، فبشها إلى همدان فبيعت بألف دينار » . انظر أيضاً : (مرآة الزمان ، س ٣٠٨) .

(٤) روى صاحب الروضتين (س ٧) هذا الخبر وغيره منسوباً إلى ابن الأثير ، وقد رجعنا إلى تاريخه الكامل فلم نجد هذه الأخبار به ، والرجح أنها نقلت عن كتاب آخر لابن الأثير عن نور الدين ودوانه عنوانه « الباهر » فقد قال ابن الأثير عند ترجمته لنور الدين في الكامل : « وقد طالمت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ، ولا أكثر محرياً منه لذلك ، وقد أتينا على كثير من ذلك في كتاب (الباهر) من أخبار دوانهم ، ولذا ذكرها هنا بهذه اللفظ هايتها من له حكم فيقتدى به . . . إلخ » . والذي أرجحه أن (الباهر) عنوان آخر لكتاب ابن الأثير المعروف « تاريخ أتابكة الموصل » .

(٥) كذا في الأصل ، وفي س « به » ، والتصحيح عن (الروضتين) :

فعاد إليه ، ولم يتجاسر يعرفه ما قال ذلك الرجل ، وكتبه ذلك الأمر ، فلم يقبل منه [نور الدين] غير الحق ، فذكر له قوله ، فألقى الجوكان (١) من يده ، وخرج من الميدان ، وسار إلى القاضي ، وهو إذ ذاك كمال الدين بن الشهرزورى ، وأرسل [نور الدين] إلى القاضي يقول له : « إني قد جئت محاكما ، فاسلك معي مثل ما تسلكه مع غيري » ، فلما حضر ساوى خصمه وحاكمه ، فلم يثبت عليه حق ، وثبت الملك لنور الدين ، فقال نور الدين حينئذ للقاضي ولمن معه : « هل ثبت له عندي حق ؟ » . فقالوا : « لا » ، قال : « اشهدوا أنني قد أوهبته هذا الملك الذي حاكمني عليه ، وهو له دوني ، وقد كنت أعلم أنه لا حق له عندي ، وإنما حضرت معه لئلا يظن أنني ظلمته ، فحين ظهر أن الحق لي وهبته له » .

وذكر (٢) أنه دخل يوماً إلى خزانة بيت المال ، فرأى فيها مالا أنكره ، فسأل عنه ، فقيل : إن القاضي كمال الدين أرسله ، وهو من جهة كذا ، فقال : « إن هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء » ، وأمر برده وإعادته إلى كمال الدين ليرده إلى صاحبه ، فأرسله متولى الخزانة إلى كمال الدين ، فردّه إلى الخزانة ، وقال : « إذا سألك الملك العادل عنه فقل (٣) له عني إنه له » ، فدخل نور الدين إلى الخزانة مرة أخرى ، فرآه ، فأنكره على النواب (٤) ، وقال : « ألم أقل

(١) الجوكان كلمة فارسية معناها المحجن أو الدعا أو الصولجان الذي تفرب به السكرة في اللعبة التي كانت تعرف باسم «السكرة والصوالة» والتي تعرف الآن باسم «البولو Polo» ؛ وكانت الجوكان عصي مدهونة طولها نحو من أربعة أذرع ، وبرأسها خشبة مخروطية معقوفة تزيد نصف ذراع . وكان حامل الجوكان للسلطان يسمى «الجوكندار» . أنظر : (أحمد تيمور باشا : لعب العرب ، ص ٥٥) و (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٥٨) و (المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٣٥ ، هامش ١) و (Dozy : Supp. Dict. Arab) .
(٢) هذا الخبر يرويه أبو شامة في (الروضتين ، ص ٧) أيضا عن ابن الأثير ، ولا وجود له في السكامل .

(٣) في الأصل : « نقول » .

(٤) كذا في الأصل ، وفي الروضتين ، وفي س : « على متولى الخزانة » .

لكم إن المال [١٥٨] يعاد إلى أصحابه ؟ فذكروا له قول كمال الدين ، فردّه إليه ، وقال للرسول : « قل لكمال الدين : أنت تقدر على حل هذا ، وأما أنا فرقتي رقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى ، يُعاد ، قولاً واحداً » . فأعاده (١) .

ونور الدين — رحمه الله — أول من بنى دار الكشف ، ومماها دار العدل ، وكان سبب بنائها أنه لما طال مقامه بدمشق ، وأقام [بها] (٢) أمراؤه — وفيهم أسد الدين شيركوه بن شاذي ، وكان قد عظم شأنه حتى صار كأنه شريك له في الملك — ، فاقنوا الأملاك ، وأكثروا ، وتعدى كل واحد منهم على من يجاوره في قرية أو غيرها ، فكثر الشكاوى إلى القاضي كمال الدين ، فأنصف بعضهم من بعض ، ولم يقدم (٣) على الإنصاف من أسد الدين شيركوه ، فأنهى الحال إلى نور الدين ، فأمر حينئذ ببناء دار العدل ، فلما سمع أسد الدين بذلك أحضر نوابه جميعهم ، وقال : « اعلّموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بدبي وحدي ، وإلا من هو الذي يمتنع على كمال الدين ؟ والله لئن أحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لاصلبته ، فامضوا إلى من كان بينكم وبينه منازعة في ملك (٤) ، فانصلوا الحال معه وأرضوه بأي شيء أمكن ، ولو أتى ذلك على جميع ما أملاك » ، فقالوا له : « إن الناس إذا علموا بهذا اشتطوا في الطلب » ، فقال : « خروج أملاكى عن يدي أسهل على من أن يرانى نور الدين بعين أذى ظالم ، ويساوى بيني وبين آحاد العامة في الحكومة » ، فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم ، وأرضوا خصائهم ، وأشهدوا عليهم .

(١) كذا في الأصل ، وفي الروضتين ، وفي س (٥١ ب) : « فأعاده إلى القاضي ، فردّه القاضي على من أخذ منه » .

(٢) ما بين الحاصرتين عن س و (الروضتين ، ج ١ ، س ٨) ، وقد ذكر صاحب الروضتين أنه نقل هذا الخبر عن ابن الأثير .

(٣) كذا في الأصل ، وفي الروضتين ، وفي س : « بقدر » .

(٤) في الأصل : « ذلك » وما هنا مينة س (٥١ ب) ، والروضتين .

فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل [الحكومات و] (١) الخصومات ، وكان يجلس في الأسبوع يومين (٢) وعند القاضي والفقهاء ، وبقي كذلك مدة فلم يحضر أحد يشكو من أسد الدين ، (٣) فقال نور الدين لكمال الدين : « مالي لا أرى أحداً يشكو من شيركوه ؟ » فعرفه الحال (٣) ، فسجد شكراً لله تعالى ، وقال : « الحمد لله الذي جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا » .

وحكى (٤) مدين الدين محمد بن أحمد بن خالد بن محمد بن القيسرائي ، قال : « انكسر على ضامن (٥) دار الزكاة [١٥٩] مال جم ، وكان الضامن المذكور يُعرف بابن شمام (٦) المحالي ، فحبس ، فباع ما كان يملكه من عقار بما مبلغه ثمانية آلاف دينار سورية (٧) ، وحمله إلى الخزانة ، وبقي في الحبس مطالباً بما بقي عليه .

-
- (١) في الأصل : « لفصل الخصومات » ، وفي الروشتين « لفصل الحكومات » وما هنا صيغة تنوين .
 (٢) النص في : (ضبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١) : « فكان نور الدين يقعد في دار العدل في كل أسبوع أربعة أيام أو خمسة ، ويحضر عنده العلماء والفقهاء ، ويأمر بإزالة الحاجب والبواب ، ويوصل إليه الشيخ الضيف والمعجوز الكبيرة ، ويسأل الفقهاء عما أشكل عليه » .
 (٣) ما بين الرقین ساقط من س ، وإنما اختصره بقوله : « فلم الحاك ، فسجد شكراً . . . الخ » .
 (٤) أوجز صاحب الروشتين (ج ١ ، ص ١١) هذه القصة في كلمات قليلة جداً ، قال : « ورأى له وزيره موفق الدين خالد بن القيسرائي الشاعر في منامه أنه يفضل ثيابه ، وقص ذلك عليه ففكر ساعة ، ثم أمره بكتابة إسقاط المسكوس ، وقال : هذا تفسير منامك » . وهذا مثل يجمع للفرج الكروب مكانة خاصة لما يرويه من أخبار مفصلة عن سراج سابق لم تصلنا ، وقد أهملت المراجع المطبوعة ذكر هذه الأخبار أو نقلتها باختصار لا يفيد الباحث كثيراً .
 (٥) انظر التمریف بوظيفة الضامن في : (ابن عماني : قوانين الدواوين ، طبعة الوطن ، ص ١٠) .
 (٦) في س : (١٥٢) « حمام » .

(٧) لعل المقصود بالدينار السورية : الدينار السورية ، وقد عرفها (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٣٧) بأنها دنانير يوثق بها من البلاد الافرنجية والروم ، وهي دنانير مشخصة على أحد وجهيها صورة الملك الذي تقرب في زمنه ، وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس الحواريين ، ويظهر عنها أيضاً : بالافرنجية — جمع إفرنتي — ، وربما قيل « إفرنجية » .

قال [معين الدين] (١) : وكان جدى خالد بن محمد قريب المنزلة من نور الدين إلى الغاية ، وإليه استيفاء دوايينه بأسرها ، وكتابة الإنشاء ، وإمرة مجلسه (٢) ، وهو المشير والوزير ، والأمور كلها عائدة إليه ، فاتفق أنه حضر بين يدي نور الدين — رحمه الله — يوما بدمشق ، وقال : يا مولانا ، رأيت البارحة في نومي كأن المولى قد نزع ثيابه ودفنهما إلى ، وقال : اغسما ، فأخذتها وغسلتها ، قال : فأطرق (٣) طويلا ، ولم يرفع رأسه إلى ، فندمت على ما قلت ، وخفت أن يكون قد تطير منى ، ونوهم من مذامى ، فخرجت من بين يديه وأنا كئيب ضيق الصدر ، فبقيت بعد ذلك ثمانية أيام لا يطلبني ولا يسأل عني ، فساء [عند ذلك] (٤) ظني ، وفرح من كان يحسدني ، وظن العدو أنه قد ظفري بي ، فدخل على نور الدين وجل من خواصه يعرف بالشيخ إسماعيل المكبس (٥) ، وكان نور الدين يحبه ويقربه كثيرا ، فقال : يا مولانا ، قد حضر من زاد في دار الزكاة خمسة آلاف دينار في السنة ، فأنهره ، وقال : قد أصبحت على سجادتي بعد أداء فريضتي أذكر الله تعالى ، واستفتحت أنت النهار تبشرني بزيادة مكس ، فوجم الشيخ إسماعيل وبقى ساكنا ، ثم قال : اطلبوا لي خالدا ، قال : فحضرت لديه (٦) ، فالتفت إلي متبسما ، وقال لي : قد تفسر منامك ، فقلت بخير إن شاء الله ، فقال [هو خير (٧)] لا تظن تركي لك وعدم استحضاري إياك في هذه الأيام لموجدة عليك أو لوهم حصل عندي من منامك ، بل كنت مفكرا في المذام حتى فتح الله سبحانه وتعالى علي بتأويله ، اعلم أن غسل

(١) ما بين الحاصرتين عن س .

(٢) في س : « وأمره يجلس نور الدين نافذ » .

(٣) س : « فأطرق نور الدين ساعة لما سمع هذا المنام ساعة طويلة » .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س (١١٥٢) .

(٥) في س : « اللبس » .

(٦) في س (٥٢ ج) : « فحضرت بين يديه وأنا خائبا » .

(٧) ما بين الحاصرتين عن س (١٥٢) .

التياب غسل أوساخ الذنوب، ولا ذنب أوسخ^(١) من تناول أموال المكوس ، فلا تترك من يومنا هذا في بلد من بلادى مكماً ولا درهماً تلم أنه يؤخذ بغير حق إلا أمتعته ، واكتب بذلك تواقع تكون مخلدة في البلاد المذكورة ، والتفت إلى الشيخ إسماعيل وقال له : مر أطاق ابن شمام المحالى من محبسه ، ومر^(٢) بإعادة كل ما أخذ منه إليه واسترجاع أملاكه ، [ففعل ذلك^(٣)] ولما عرف ابن شمام المحالى بذلك [١٦٠] اقترح بأن يجعل الذهب الذى أخذ منه فى أطباق ويزف بالطبول والبوقات والمغنيين فى الأسواق ، ليعلم الناس كلهم ذلك ، وقيل ذلك لنور الدين فأجابه إلى ملتصقه ، وأن يخام عليه ، فلبس الخلعة ، وزف المال بين يديه على ما اقترح .

قال معين الدين : وكتب جدى خالد بذلك تواقع ، وجعلها إلى البلاد ، ونسخها كلها :

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله فأنح أبواب الخيرات بعد إغلاقها ، وناهج سبل النجاة لطلابها وطرائقها ، وفارج الكريات بعد ارتاجها^(٤) وإطباقها ، الذى منح أوليائه التوفيق وأوضح لهم دليله ، ونصر أهل الحق وأعان قبيله ، نحمده على جزيل مواهبه وجليل رغائبه ، وبالع هدائيه وسابغ وقايته ، ونسأله أن يصلى على سيدنا محمد الذى أوضح الطرائق ، وفرج المضائق ، وأنجب^(٥) المحجة ، وأوجب الحجة ، وخفف الله بيعته كل إصر ، وجعل أمة خير أمة وعصره خير عصر ، وعلى آله الأكرمين ما أسفر بدر وأنار فجر .

(١) س : « أفسح » .

(٢) س : « وأسر » .

(٣) ما بين الحاصرتين عن س .

(٤) فى الأصل : « ارتجاجها » ، وما هنا صيغة من .

(٥) س : « وأوضح » .

وبعد ، فقد اتضح على الأفهام ، وصح عند الخاص والعام ، ما نفاديه ونراوحيه ،
ونماسيه ونصايجه ، ونشتغل به عامة أوقاتنا ، ونعمل فيه رويتنا وأفكارنا ،
ونستنفذ بالاهتمام به ساعاتنا ولحظاتنا من الاجتهاد في إحياء سنة حسنة (١) ، يكون
لنا أجرها وأجر من عمل بها ، وإماتة سنة سيئة نخاص من عظيم وزرها ووخيم
خزيبها ، وإزالة مظلمة مظلمة وظلمة الجور أسامها ، ومحو سيرة مؤلة أبرم الحيف
أمر اسمها ، ليعم الرعايا لباس (٢) الفضل والامتنان ، ويفيض على البرايا سجال العدل
والإحسان ، ليصبحوا من حياض الأمن دارعين (٣) ، وفي رياض الدعة وادعين ،
لا يجدون للنعم عندهم تبديلا ولا تغييرا ، ولا يروون لصافي شربهم تصريداً ولا تكديرا
ولا يُظلمون نقيرا ، فما يسفر صبح ، ولا يعتكر جنح ، إلا والله علينا نعمة لا نستطيع
الإحاطة بشكرها ، ولا نطبق قدرها لحق قدرها ، فيما يوقنا له من فعل الخيرات ،
ويلهمنا إياه من إزالة المنكرات ، ويهدينا إليه من الأعمال الصالحات ، وينقذنا به من
الموارد المهلكات ، ويوضحه لنا من الطريق إلى رضا (٤) ، ويبعثنا (٥) به على الجد
في عبادته [١٦١] وتقاه ، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا
أن هدانا الله .

وقد علمتم معاشر الرعايا — وفقكم الله ورعاكم — ما كان مرتبا من المظالم
المجحفة بأحوالكم ، والمكوس المستولية على شطر أموالكم ، والرسوم المضيقية عليكم في
أرزاقكم ، والمؤن التي (٦) تساهمكم في منافع أملاككم ، واستمرار ذلك عليكم

(١) هذا اللفظ ساقط من س .

(٢) س : « بالناس » .

(٣) س : « دارعين » .

(٤) س : « لنا إلى طريق ضارة » .

(٥) س : « ويبعثنا به على عبادته ونفاه » .

(٦) س : (٥٣ ب) : « الذي » .

إلى أن فوض الله عز وجل إلينا تدبير أموالكم (١) ، واسترعانا على كبيركم وصغيركم ، فأمرنا بإزالة ذلك عنكم أولاً فأولاً ، ولم نبتغ في إقراره على وجوهه شبهة ولا تأولاً (٢) ، وقد كان بقي من رسوم الظلم ومعالم الجور في سائر الأعمال بولايتنا ما أمرنا بإزالته الآن ، وأضفنا ذلك إلى ما كنا أسقطناه أولاً (٣) ، رافة بكم ولطفاً ، ونخفناً عليكم وعطفاً ، الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ؛ وسندكر ما أزلناه من المظالم والمكوس أولاً وآخراً (٤) من سائر أعمال ولايتنا — عمرها الله — في هذا السجل من الديوان .

قال : ثم كتب بقلم دقيق ما صورته :

« ذكر ما أطلق من الرسوم والمؤون والمكوس والضرائب في سائر أعمال الولاية المحروسة — عمرها الله — شامياً وجزيرتها في تواريخ متقدمة (٢) وفي تاريخ هذا السجل ؛ ورسم إطلاق ذلك كله ، وتعفية آثاره ، وإخاد ناره .

ومبلغ ما يحصل من ذلك كل سنة : خمسمائة ألف وستة وثمانون ألفاً وأربعمائة وسبعون ديناراً نقداً ، الشام ، فمن ذلك :

دمشق — بتواريخ متقدمة [ما هي في هذا الإطلاق (٤)] : مائتا ألف ، وعشرون ألفاً ، وخمسمائة وثلاثة وثمانون ديناراً .

دمشق — في تاريخ هذا الكتاب — : خمسون ألفاً ، وسبعمائة وثلاثون ديناراً .

(١) س : « أموركم » .

(٢) في الأصل : « تأويلاً » وما هنا عن س .

(٣) لهذا السجل أهمية بالغة إذ لم أجده ذكر في المراجع الماصرة الأخرى ، وقد تضمن بياناً تفصيلياً هاماً بالمكوس التي أسقطها نور الدين في سنوات حكمه المختلفة ، وقد وردت في الروضتين إشارات متعددة لحركة إسقاط المكوس سنة بعد أخرى في عهد نور الدين ، انظر : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١١٠ ، ١٥٤ ، ١٦٠) .

(٤) ما بين الحاصرتين من س (٥٣ ب) .

تَدْمُرُ : (١) خمسمائة دينار .

صَرَّخَد : سبعمائة وخمسون ديناراً .

الْقَرَيَتَانِ (٢) والسُّخْنَةُ : خمسمائة دينار .

بَانِيَّاس : ألف ومائتا دينار .

بَعْلَبِكْ وأعمالها : ستة آلاف وتسعمائة (٣) وعشرون ديناراً .

حَمَص وأعمالها : ستة وعشرون ألفاً وأربعمائة وعشرون ديناراً .

حَمَاة وأعمالها : ستة وعشرون ألفاً ، واثنان وتسعون (٤) ديناراً .

حَلَب وأعمالها : ستة وتسعون ألفاً ، ومائة (٥) وستة وثمانون ديناراً (٦) .

سَرَمِين (٧) : ألفان ، وثلاثمائة وستون ديناراً (٦) .

مَعْرَةَ النِّعْمَان : سبعة آلاف دينار .

[١٦٢] كَفَرَطَاب (٨) : ألفا دينار .

(١) هكذا ضبطها (ياقوت : معجم البلدان) وقال إنها مدينة قديمة مشهورة في بركة الشام بينها وبين حلب خمسة أيام .

(٢) قال (ياقوت) هي قرية كبيرة من أعمال حمص في طرف البرية ، بينها وبين سَخْنَة وأَرَاك ، وبينها وبين تدمر مرحلتان .

(٣) س : « سبماية » .

(٤) س : « وسبعون » .

(٥) س : « ومايتي » .

(٦) في الأصل : « دينار » .

(٧) هكذا ضبطها (ياقوت) ولم يعرفها بأكثر من قوله : هي بلدة مشهورة من أعمال حلب .

(٨) بلدة بين المرة ومدينة حلب (ياقوت) .

- عَزَّاز^(١) : ستة آلاف ، وخمسمائة دينار .
- تل باشر^(٢) : ألف وخمسمائة دينار .
- عين باب : تسعة وثمانون دينار .
- بَالِس^(٣) : أربعة آلاف دينار .
- مَنْبِج^(٤) وأعمالها : ثمانية عشر ألفاً ، وخمسمائة وستة وستون ديناراً^(٥) .
- بُزَاعَة^(٦) والباب : ثلاثة آلاف دينار .
- قلعة نَبْجَم^(٧) : ثلاثمائة دينار .
- قلعة جَعْبَر^(٨) : سبعة آلاف ، وستمائة وستة وتسعون^(٩) ديناراً .
- الرقّة : ستة وعشرون ألفاً ، وسبعمائة وثلاثة وستون ديناراً .
- الرُّثَا : ثمانية آلاف ، وخمسمائة دينار .

(١) انظر ماكات هنا ، ص ٤٠ ، هامش ٢

(٢) انظر ماكات هنا ، ص ٤٣ ، هامش ١

(٣) عرفها (ياقوت : معجم البلدان) بقوله : « هي بلدة بالشام بين حلب والرقّة ، كانت على ضفة الفرات الغربية ، فلم يزل الفرات يشرق منها قليلاً قليلاً حتى صار بينهما في أيامنا هذه أربعة أميال » .

(٤) انظر ماكات هنا ، ص ١٥٣ هامش ٢

(٥) في الأصل : « دينار » .

(٦) انظر ماكات هنا ، ص ١٥٥ هامش ١

(٧) عرفها (ياقوت) بأنها قلعة حصينة مطلة على الفرات نحو جبل منحها ربح طامر ، وعندها جسر يبر عليه ، وهي المروقة بجسر منبج ، ويبر على هذا الجسر القوافل من حران الى الشام وبينها وبين منبج أربعة فراسخ .

(٨) انظر ماكات هنا ، ص ١٧ ، هامش ٥

(٩) س : (١٥٤) : « وسبعون » .

- حرَّان : ستة عشر ^(١) ألف ، وسبعمائة واحد وسبعون ديناراً .
- سِنْجَار ^(٢) : سبعة آلاف ، وثمانية دنانير .
- المَوْصِل وأعمالها : ثمانية وثلاثون ألفاً ، ومائة وستة وأربعون ^(٣) ديناراً .
- نصيبين : عشرة آلاف ، وأربعمائة وستة ^(٤) وثمانون ديناراً .
- عَرَبَان ^(٥) : خمسة آلاف وسبعمائة دينار .
- بُطْنَان ^(٦) — من أعمال الخابور ^(٧) — : مائتان وخمسون ديناراً .
- تَبْنِين ^(٨) والارسل ^(٩) : سبعمائة وخمسون ديناراً .
- السَّمْسَمَانِيَّة ^(٩) — من أعمال الخابور — : ألف دينار .

(١) س : « ستة آلاف » .

(٢) انظر ما فات هنا ، ص ١١٨ ، هامش ١

(٣) س : « الموصل وأعمالها : ثلاثون ألف دينار ، وستة وأربعون ديناراً » .

(٤) س : « وأربعمائة وثمانون ديناراً » .

(٥) في الأصل : « عربان » ، وهذا الرسم والضبط عن (ياقوت) حيث عرفها بأنها بلدة بالخابور من أرض الجزيرة .

(٦) في الأصل : « بطانات » ، وهذا الرسم والضبط عن (ياقوت) حيث قال إنه اسم واد بين منبج وحلب وبين كل واحد من البلدين مرحلة خفيفة ، فيه أنهار جارية وقرى متصلة ، قصبتها بزاعة .

(٧) الخابور كما ورد في (ياقوت : معجم البلدان) اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة ، ولاية واسعة وبلدان جمة غالب عليها اسمها ، فكتبت إليه ، من بلاد : قرقيسيا ، وماكين ، والمجدل ، وعربان .

(٨) في الأصل : « تبنين » ، والتصحيح عن (ياقوت) حيث ذكر أنها بلدة في جبال بني عامر المطل على بلد بانياس بين دمشق وصور .

(٩) كذا في الأصل ، ولم أجد لها ذكراً عند ياقوت .

- قَرَقِيسِيَاء^(١) : ألفا دينار .
 السَّكِينُ^(٢) : مائتا دينار .
 ما كَسِين^(٣) : خمسة آلاف دينار .
 المَجْدَلُ^(٤) : ثلاثة آلاف وخمسة دنانير .
 الحَصِينُ^(٥) — بالخابور — : ستمائة وخمسة وثلاثون ديناراً .
 الجَحِشِيَّةُ^(٦) — بالخابور — : مائة (٧) دينار .
 المحُولِيَّةُ^(٨) — بالخابور — : مائة وثلاثة وستون ديناراً .
 الرَّحْبَةُ^(٩) : ستة عشر ألفاً ، وسبعمائة^(١٠) وأربعون ديناراً .
 [وغير ذلك ما عيّنناه خوفاً من الإطالة (١١)] .

- (١) ضبطت بعد مراجعة (ياقوت) حيث ذكر أنها بلد على نهر الخابور قرب رجة مالك ابن طوق على ستة فراسخ ، وعندها مصب الخابور في الفرات ، فهي في مثلث بين الخابور والفرات .
 (٢) اسمها عند (ياقوت : معجم البلدان) : « سكر العباس » ، وهي بلدة صغيرة بالخابور فيها منبر وسوق .
 (٣) أنظر ماقات هنا ، ص ١١٨ ، هامش ٢
 (٤) أنظر الصفحة السابقة ، هامش ٧
 (٥) هكذا ضبطها (ياقوت) : وقال إنها بلدة على نهر الخابور ، ولم يزد .
 (٦) هكذا ضبطها (ياقوت) وقال إنها قرية كبيرة كالدبت من قرى الخابور ، بينها وبين المجدل نحو أربعة أميال .
 (٧) س : « مايتا » .
 (٨) كذا في الأصل ، ولم يذكرها (ياقوت) .
 (٩) ذكر (ياقوت) أن هذا اللفظ يطلق على أكثر من مكان ذكرها جميعاً في معجمه ، ويتضح من وصفه أن الرجة المذكورة هنا هي رجة مالك بن طوق ، وقد حدد موقعها بقوله : بينها وبين دمشق ثمانية أيام ، ومن حلب خمسة أيام ، وإلى بغداد مائة فرسخ ، وإلى الرقة نيف وعشرون فرسخاً ، وهي بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات ، أسفل من قرقيسيا .
 (١٠) س : « وتسماية » .
 (١١) ماين الحاصرتين عن : س (١٣٥٤)

ثم كتب بعد ذلك بالقلم الجافى :

« نَحْقِيقًا لِلْحَقِّ ، وَنَمْحِيقًا لِلْبَاطِلِ ، وَنَشْرًا لِلْمَدْلِ ، وَتَقْدِيمًا لِلصَّالِحِ الشَّامِلِ ، وَإِثَارًا لِلثَّوَابِ الْآجِلِ عَلَى الْحَطَامِ الْعَاجِلِ ، وَتَأْمِيلًا لِحَسَنِ الْخَلْفِ مِنْ اللَّهِ الْكَافِي الْكَامِلِ ، وَنَخْلِيصًا لِلذِّمَّةِ مِنْ دَرَكِ الْمَظَالِمِ ، وَتَنْزِيهًا لِلنَّفْسِ مِنْ دَرَكِ الْمَآثِمِ ، وَاسْتِغْنَاءً مِنْ تَحْمِيلِ الْأَوْزَارِ ، وَاسْتِغْنَاءً بِمَا أَوْلَاهُ اللَّهُ مِنْ سَابِغِ الْمَدَارِ (١) ، وَشُكْرًا لِمَا أَوْلَاهُ مِنَ الْفَضْلِ الْجَسِيمِ وَالْمَنْحِ الْعَمِيمِ ، وَهُدَايَةً إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

فَاعْلَمُوا رِعَاكُمُ اللَّهُ مَا أَمَرَنَاهُ ، وَاسْكُنُوا إِلَى مَا قَرَّرَنَاهُ ، وَاشْكُرُوا اللَّهَ عَلَى مَا سَهَّلَهُ وَسَنَّاهُ ، وَأَجْزَلِهِ مِنْ فَضْلِهِ وَأَسْنَاهُ ، [١ ٦ ٣] وَأَيُّقِنُوا أَنَّ ذَلِكَ [الْإِنْعَامُ] (٢) الْعَامُّ مُسْتَمِرٌّ عَلَى الدَّهْرِ ، وَبَاقٍ إِلَى يَوْمِ النُّشُورِ ، « وَكُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةً طَيِّبَةً وَرَبِّ غُفُورٌ » (٣) ، وَسَبِيلُ كُلِّ وَاقِفٍ عَلَى هَذَا الْمَثَالِ مِنَ الْوَلَاةِ وَالنُّوَابِ وَالْأَصْحَابِ وَالْأَعْمَالِ (٤) وَالْعَمَالِ — أَعَزَّهُمُ اللَّهُ — حَذْفُ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَتَعْفِيَةُ رِسُومِهِ ، وَنَحْوُ آثَارِهِ ، وَدَحْضُ أَوْزَارِهِ ، وَإِزَالَةُ أَوْضَارِهِ ، وَصَوْنُ جَمَالِ الدَّوْلَةِ عَنْ شَيْنِ عَارِهِ ، وَإِطْلَاقُهُ عَلَى الْإِطْلَاقِ مِنْ غَيْرِ تَبْدِيلٍ يَحِلُّ عَقْدَهُ ، وَلَا فُسْخَ يَكْتَرُ وَرَدَّهُ ، « فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » (٥) .

والتوقيع الأعلى : « حُجَّةٌ لِمُضْمُونِهِ وَمُقْتَضَاهُ ، وَلِيُمْتَثِلَ الْأَمْرُ فِيهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

(١) س (٥٤ ب) : « سَابِغِ الْإِدَارِ وَالْمَدَارِ » .

(٢) مَا بَيْنَ الْحَاصِرَتَيْنِ عَنْ س .

(٣) السورة ٣٤ (بَا) ، الْآيَةُ ١٥ (ك) .

(٤) هَذَا الْفِظُ سَاقِطٌ مِنْ س .

(٥) السورة ٢ (الْبَقَرَةُ) ، الْآيَةُ ١٨١ (م) .

وكتب بالمشافهة الكريمة — شرفها الله تعالى — في مستهل شهر الله الأحب ،

رجب سنة سبع وستين وخمسة .

قال معين الدين — رحمه الله — : « وكل بلد من البلاد المذكورة فصلٌ

في التوقيع جهات ما أطلق من مكوسه (١) ، ولكنني اقتصرت على ذكر الجمل طلباً للاختصار .

وأما (٢) شجاعته وبسالته : فكان من أقوى الناس بدنًا وقلبًا ورأيًا ومكيدة ،

وذكر أنه لم يُرَ على ظهر فرس أشد منه ، كأنما خلق عليه ، لا يتحرك

ولا يتزلزل ، وكان من أحسن الناس لعباً بالكرة ، يجرى الفرس ويتناولها بيده

في الهواء ويرميها إلى آخر الميدان ، وكانت يده لا ترى والجوكان (٣) فيها ، بل تكون

في كم قبائه (٤) ، استهانة باللعب ، وكان إذا حضر الحرب أخذ قوسين وثَرَ كَشَيْن (٥)

(١) بهذا لو كان معين الدين هذا قد أورد تفاصيل المكوس التي ألفيت ولم يكتف بالجل ،

فكان قد قدم للباحثين وثيقة من أندر وأقيم الوثائق لدراسة هذا النوع من الفرائب في الشام قبل عصر نور الدين .

(٢) وردت أخبار شجاعته أيضا في : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٨ وما بعدها) مع اختلاف

يسير ، تقديمًا أو تأخيرًا ، إجماعًا أو إطنابًا ؛ وفي (سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٠٩ — ٣١٠) .

(٣) انظر ما فات ص ٢٦٧ ، هامش ١

(٤) جاء في (محيط المحيط) أن القباء ثوب يلبس فوق الثياب ، وقبل يلبس فوق القميص ،

ويتمنطق عليه ، جمه أقبية ؛ والقباء المقدار ، وقد كان نخر الدين بن شيخ الشيوخ — أحد

كبار رجال الدولة في عهد الملك الكامل والصالح الأيوبيين — أول من ترك لبس الهامة

ولبس الشربوش والقباء . انظر أيضا : (القرطبي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٦١)

و (القرطبي : نحل عبر النحل ، نشر الشياخ ، ص ٨٥ هامش ٥) .

(٥) كذا في الأصل ، وفي في س (١٥٥) : « تركاشين » ، والرمضان صبيحان :

« ترَكتش » و « تركاش » ، والجمع « تراكتش » . والتركتش لفظ فارسي معناه الجمبة أو

الكنانة التي توضع فيها الشباب أو القسي . انظر (Dozy : Supp. Dict. Arab) و (القرطبي :

السلوك ، تعليقات الدكتور زيادة ، ج ١ ، ص ٣٧١) . ويقال أيضا « جنود متركشة »

أي يحملون جبهات الشباب .

يبشر القتال بنفسه ، فكان يقول : « طالما تعرضتُ للشهادة فلم أدركها » ، وسمعه
 الفقيه قطب الدين النيسابورى يقول ذلك ، فقال له : « بالله لا تخاطر بنفسك
 وبالإسلام والمسلمين ، فإنك عمادهم ، ولئن أصبت والعياذ بالله فى معركة ، لا يبقى
 من المسلمين أحد إلا أخذ السيف ، وأخذت البلاد والإسلام » . قـدـل له :
 « يا قطب الدين ، ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ قبل من حفظ البلاد والإسلام ؟
 ذلك الله الذى لا إله إلا هو » .

ومن آرائه الحسنة ما كان يعتمد فى أمر أجناده ؛ فإنه كان إذا توفى أحد
 وخلف ولداً ذكراً أقر الإقطاع عليه ، فإن كان الولد كبيراً استبد بنفسه ،
 وإن كان صغيراً رتب معه رجلاً عاقلاً يثق إليه ، فيتولى أمره إلى أن يكبر ،
 فكان الأجناد يقولون : [١٦٩] « هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد ، فنحن
 نقاتل عليها » ، وكان ذلك من أعظم الأسباب لصبر الجند فى المشاهد والحروب
 بين يديه ؛ وكان أيضاً ثبت أسماء أجناد كل أمير فى ديوانهم : دوابهم وسلاحهم
 خوفاً من حرص بعض الأمراء وشحه أن يحمله ذلك على أن يقتصر على بعض ما هو
 مقرر عليه من العُدَد ، وكان يقول : « نحن كل وقت فى النفير ، فإذا لم يكن أجناد
 كافة الأمراء كاملي العُدَد دخل الوهن على الإسلام » (١) .

(٢) وأما صدقاته ومعروفه وإحسانه فذكر عماد الدين الطائى ، قال : « حسبنا
 ما تصدق به على الفقراء فى شهر فزاد على ثلاثين ألف دينار » ، وكانت عادته فى
 الصدقة أن يحضر جماعة من أمثال البلد من كل محلة ويسألهم عن يعرفون فى جوارهم

(١) هذا نص هام وقيم لدراسة نظام الإقطاع ونظام الجيش فى دولة الأتابكة بوجه عام ،
 وفى دولة نور الدين بوجه خاص .

(٢) وردت أخبار صدقاته وإحسانه فى : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١١) نقلاً عن العهد
 الكاتب وابن الأثير ؛ وفى (سبط ابن الجوزى ، المرجع السابق ، ص ٣١٢) .

من أهل الحاجة ، ثم يصرف إليهم صدقاتهم ، وكان يرسم نفقته الخاصة (١) في كل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطاس مصرية (٢) في كسوته ونفقته وحوادثه المهمة ، حتى أجرة خياطه ، وجامكية طباخه ، ويستنفل منه ما يتصدق به في آخر الشهر .

وأما ما كان يهدى إليه من هدايا الملوك وغيرهم ، فإنه كان لا يتصرف في شيء منه لا قليل ولا كثير ، بل كان إذا اجتمع منه شيء يصرفه ، ويخرجه إلى مجلس القاضي ، فيحصل ثمنه (٣) ، ويصرف في عمارة المساجد المهجورة ، وتقدم بإحصاء ما في محال دمشق من المساجد [الخراب] (٤) فأناف على مائة مسجد ، فأمر بعمارة ذلك كله ، وعين له وقوفاً ، ولما أسقط نور الدين الجهات المحظورة (٥) والمكوس — غير السجن — وقال لكامل الدين القاضي : « انظر أنت في ذلك ، فأحمل أمور الناس فيها على الشريعة » ، ولم يكن نور الدين يحاسب القاضي كمال الدين على شيء من الوقوف ، ويقول : « أنا قد قلّدتُه أن يتصرف فيها بما يجب ، ثم ما فضل من مصارفها وشروط واقفيها يصرف في بناء الأسوار وحفظ الثغور » .

و بنى (٦) — رحمه الله — أسوار بلاده جميعها وقلاعها ، فمنها : حلب ، وحماة ، وحمص ، ودمشق ، وبارين ، وشيزر ، ومنبج ، وغيرها من القلاع والحصون ، وحصنها

(١) في الأصل : « نفقة الخاص » والتصحيح عن (امرأة الزمان ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣١٢)

(٢) هذا اللفظ غير موجود في س ولا في الروضتين .

(٣) س (٥٥ ب) : « فيبيعه ويحصل ثمنه » .

(٤) ما بين الحاصرتين عن س ، وفي (الروضتين ، ج ١ ، ص ١١) و (امرأة الزمان ،

ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣١٢) : « المساجد المهجورة » .

(٥) في الأصل ، وفي س : « المحظورة » وما هنا عن الروضتين .

(٦) أخبار ما بناء من الحصون والقلاع واردة في : (الروضتين ، ج ١ ، ص ٩ — ١٠)

تقلا عن ابن الأثير .

وأحكم بناها، وأخرج عليها الأموال [١٦٥] الجليلة ، وبني المدارس الجليلة
للحنفية والشافعية ، فمن ذلك :

المدرسة النورية (١) بدمشق التي فيها قبره (٢) .

وكذلك بحلب (٣) وبحمص (٤) ، وبحماة (٥) له مدرستان : إحداهما للحنفية ،
والأخرى للشافعية .

وبني الجوامع في أكثر البلاد . فجامعه بالموصل (٦) في نهاية الحسن والانتان .

(١) ذكر (النعمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ٦٠٦) هذه المدرسة
باسم المدرسة النورية الكبرى مميّزاً لها عن مدرسة أخرى أنشأها نور الدين كذلك في دمشق،
وتعرف باسم المدرسة النورية الصغرى (ص ٦٤٨) . وذكر النعمي أن نور الدين بنى
المدرسة الكبرى في سنة ٥٦٣ هـ ثم عقب على ذلك بقوله : « وفيه نظر ، إنما أنشأها ولده
المك الصالح إسماعيل » ثم نقله من القلعة بعد فراغها ، ودفن بها . وقال ناشر الكتاب
الأستاذ جعفر الحسني في تعليقاته إن هذه المدرسة لا تزال طامرة إلى يومنا ، وهي في سوق
الحياطين ، وفيها ضريح نور الدين . انظر أيضاً : (كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ،

ص ٩٧) و (Souvaget : *Monuments Historiques de Damas*. p. 53).

(٢) وصف (ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٨٤) مدرسة نور الدين وقبره وصفاً طريفاً ،
قال : « ومن أحسن مدارس الدنيا مدرسة نور الدين — رحمه الله — ، وبها قبره
— نوره الله — وهي قصر من القصور الأنيقة ينصب فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم
ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة إلى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار ، فتغار الأبصار في حسن
ذلك للنظر ، فكل من يبصره يجدد الدماء لنور الدين — رحمه الله — » .

(٣) كانت مدرسته في حلب تعرف كذلك باسم « النورية بناها سنة ٥٤٤ هـ (كرد علي :
خطط الشام ، ج ٦ ، ص ١٠٥) وأنظر أيضاً : (ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٥٣) .

(٤) ذكر (ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٥٨) أنه لم يكن بحمص أثناء زيارته لها غير مدرسة
واحدة قلعتها هذه .

(٥) انظر (ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٥٧) و (كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ،
ص ١٢٧) .

(٦) قال (ابن جبير ، ص ٢٣٥) عند كلامه عن الموصل : « والمدينة جامان ، أحدها
جديد ، والآخر من عهد بني أمية » .

و بنى الجامع (١) الذى على شط العاصى بحجة — وهو جامع حسن — وإلى جانبه
بهارستان (٢) من إنشائه .

و بنى بدمشق وحلب بهارستانين (٣) فى غاية الحسن، ووقف عليهما الوقوف الجليلة .
و بنى الربط والخانات للصوفية فى جميع البلاد ، وأدرّ عليهم الإدارات
الجليلة الكثيرة ، وكان يُحضر مشايخ الصوفية ويُقرّبهم ويُدّينهم ويتواضع لهم .
و بنى أيضاً الخانات فى الطرق ، فأمن الناس ، وحفظت أموالهم ، وباتوا فى الشتاء
فى كن من المطر .

و بنى أيضاً الأبراج على الطرق بين المسلمين والفرنج ، وجعل فيها من يحفظها ،
ومعهم الطيور الهوادي ، فإذا رأوا من العدو أحداً أرسلوا الطيور ، فأخذ الناس
حذرهم ، واحتاطوا لأنفسهم ، ولم يبلغ العدو منهم غرضاً .

وكان — رحمه الله — عنده أهل العلم فى محل عظيم ، وكان يجمعهم عنده للبحث
والنظر ، واستقدمهم إليه من البلاد الشاسعة ، فمن جملة من قدم عليه : الفقيه
قطب الدين الشافعى ، فبالغ فى إكرامه والاحسان إليه ، فحسبه بعض الأمراء عنده ،
فقال منه [يوما عند نور الدين] (٤) ، فقال له نور الدين : « يا هذا إن صح ما تقول —
فله حسنة تغفر له كل زلة تذكرها ، وهى العلم والدين ، أما أنت وأصحابك ، ففيكم
أضعاف ما ذكرت ، وليست لكم حسنة تغفرها ، ولو عقلت (٥) لشغلك عيبك

(١) انظر وصف هذا الجامع فى (كرد على : خطط الشام ، ج ٦ ص ٦١) .

(٢) قال (كرد على ، ج ٦ ، ص ١٦٦) عند كلامه عن هذا البارستان : « وهو الآن
شبيه بالمندرس يستعمله بعضهم السكنى ، وذهبت أوقافه إلا قليلا » .

(٣) انظر وصف البهارستان النورى بدمشق فى المرجع السابق (ص ١٦٢) ، ووصف
البهارستان النورى بحلب فى نفس المرجع (ص ١٦٥) .

(٤) ما بين الحاصرتين عن الروضتين ، وقد أضفناه للإيضاح .

(٥) فى س : « ولو تثبت » .

عن غيرك ، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم ، أفلا نحتمل سيئة هذا إن صحت مع وجود حسنة ؟ مع أنني والله لا أصدقك فيما تقول ، وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء (١) لاوذيнок ، فكف عن أذيته .

وبنى بدمشق داراً للحديث (٢) ، وأوقف عليها وقفاً كثيرة ، وهو أول من بنى داراً للحديث فيما سمعنا به .

وبنى في كثير من بلاده مكاتب للأيتام ، [١٦٦] وأجرى عليهم وعلى معلمهم الجرايات الوافرة .

وبنى مساجد كثيرة ، ووقف عليها وعلى من يقرأ [بها] (٣) القرآن [وقفاً جليلاً] (٤) . وحكى ابن الأثير [في تاريخه الكامل] (٥) : أنه أحصيت أوقاف نور الدين فكانت في كل شهر تسعة (٥) آلاف دينار سورية ، ليس فيها غير ملك صحيح شرعى باطناً وظاهراً ، وأنه وقف ما انتقل إليه [من إرث والده] (٦) أو وزن ثمنه ، أو ما غلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمه .

(٧) وكان مع هذه الفضائل شديد الوقار ، عظيم الهيبة ، ضابطاً لناموس الملك مع أصحابه وأجناده إلى غاية لا مزيد عليها .

(١) هذا اللفظ ساقط من س .

(٢) أنظر أخبار هذه الدار في (النعمى : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٩٩ وما يليها) .

(٣) ما بين الحاصرتين هن : (الروضتين ، ج ١ ، ص ١٠)

(٤) ما بين الحاصرتين عن س (٥٦ ب) ، وانظر أيضاً : (ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٢) .

(٥) كذا في الأصل ، وفي : (ابن الأثير ، نفس الجزء والصفحة) ، وفي (الروضتين ص ١٠) ، أما س ففيها : « تسع عشر ألف دينار مصرية » .

(٦) ما بين الحاصرتين عن س ، ولا وجود له في ابن الأثير أو في الروضتين .

(٧) وردت أخبار هيئته ووقاره في الروضتين (ص ١٠) نقلاً عن ابن الأثير ، ولا وجود لها في الكامل .

وكان إذا جلس لا يجلس أحد إلا بإذن ، إلا الأمير نجم الدين أيوب بن شاذى — رحمه الله — ، وأما من عداه كأسد الدين شيركوه ، ومجد الدين بن الداية ، وغيرها ، فإنهم كانوا يقفون بين يديه إلى أن يتقدم إليهم بالقعود ، وكان (١) مجلسه — فيما روى — كصفة مجلس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مجلس حكم وحياء ، وهكذا كان مجاسه لا يذكر فيه إلا العلم والدين ، وأحوال (٢) الصالحين ، والمشورة فى أمر الجهاد ، وقصد بلاد العدو .

ولو أخذنا نعدد ذكر مناقبه (٣) ومآثره لطال الكلام واتسع الشرح ، وفيما أوردناه من ذلك كفاية .

ولما توفى نور الدين — رحمه الله — رثاه عماد الدين الكاتب بقوله :

عجبتُ من الموت كيف اهتدى (٤) إلى ملكٍ فى سجايا ملكٍ !
وكيف نوى الفلكُ المستديرُ فى الأرضِ ، والأرضُ وسطَ ذلكَ ؟ !
وبقوله :

يا مَلِكاً أَيْامُهُ لَمْ تَزَلْ لِفَضْلِهِ فَاضِلَةً فَاخِرَةً
غاصتْ بِمَجُورِ الْجُودِ مَدَّةً غُيِّبَتْ أُنْمُوكَ الْقَابِضَةُ الزَّاخِرَةَ
مَلَكْتَ دُنْيَاكَ وَخَلَفَتْهَا وَمِيرَتْ حَتَّى تَمْلِكَ الْآخِرَةَ

(١) وردت فى هامش س (٥٦ ب) بخط مخالف لأحد قراء النسخة هذه الجملة : « أخطأ الناقل لهذا اللفظ ، فإن مجالس الأنبياء أجل وأعظم من أن تشبه بمجالس الملوك » .
(٢) س : « أقوال » .

(٣) توجد ترجمة طويلة وافية لنور الدين فى (النجمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٦٠٦ — ٦١٦) وقد اعتمد فيها المؤلف على كثير من المؤرخين السابقين له ومنهم ابن واصل فى كتابه هذا مفرج الكروب .

(٤) كذا فى الأصل ، وفى س ، وفى (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٨) : « أنى » .

وبقوله من قصيدة :

لقد سدر الملك العا دل يبكي الملك والمدل
وقد أظلمت الآفاق لا شمس ولا ظل
ولما غاب نور الدين عنا أظلم الحفل
[١٦٧] وزال الخصب والخير وزاد الشر والمحل
ومات البأس والجود وعاش اليأس والبخل
وعزّ النقص لما ن أهل الفضل والفضل
وهل ينفق ذو العلم إذا ما نفق الجهل
وما كان لنور الدين لولا كجده (١) مثل

(١) كذا في الأصل ، وفي : (الروشتين ، ج ١ ، ص ٢٣١) ؛ وفي س (١٥٧) : « فقهه » .

فهرس الموضوعات

للجزء الأول

من

كتاب مفرج الكروب في أقباء بني إيوب

لابن واصل

فهرس الموضوعات

صفحة	
٢— ١	مقدمة المؤلف
٦— ٣	ذكر نسب بني أيوب
١٠— ٧	ذكر ابتداء أمر نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه
١٨— ١١	ذكر ابتداء الدولة الأتابكية
٢٠— ١٩	ذكر استيلاء الأمير قسيم الدولة آق سنقر الحاجب على مدينة حلب
٢٥— ٢٠	منازلة قسيم الدولة حمص واستيلاؤه عليها
٢٧— ٢٥	ذكر مقتل الأمير قسيم الدولة آق سنقر
٢٧	ذكر سيرة الأمير قسيم الدولة — رحمه الله —
٣١— ٢٨	ذكر أخبار عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر — رحمه الله —
٣١	ذكر تولى الأمير عماد الدين زنكي شحنة بغداد
٣٤— ٣١	ذكر استيلاء عماد الدين زنكي على الموصل
٣٥— ٣٤	ذكر استيلاء عماد الدين على جزيرة ابن عمر
٣٦— ٣٥	استيلاء عماد الدين زنكي على نصيبين
٣٦	استيلاء عماد الدين زنكي على سنجار والخابور
٣٦	استيلاؤه على حران
٤٠— ٣٧	ذكر استيلاء الشهيد عماد الدين زنكي على مدينة حلب
٤٣— ٤١	ذكر استيلاء الأمير عماد الدين على مدينة حماة
٤٦— ٤٣	ذكر قبض الأمير عماد الدين على ديس بن صدقة المزيدي صاحب الحلة
٥٢— ٤٧	ذكر الوقعة الكائنة بين الخليفة المسترشد بالله وبين عماد الدين زنكي
٥٣— ٥٢	ذكر منازلة الخليفة المسترشد بالله مدينة الموصل
٥٣	استيلاء شمس الملوك صاحب دمشق على حماة وأخذها من عماد الدين

صفحة	
	ذكر الوقعة بين عماد الدين وصاحب حصن كيفا سنة
٥٤	ثمان وعشرين وخمسة
٥٤	استيلاء عماد الدين على قلعة الصور
٥٥	استيلاء عماد الدين على قلاع الأكراد الحميدية
٥٧— ٥٥	استيلاء عماد الدين على قلاع الهكارية
٥٨— ٥٧	منازلة عماد الدين دمشق
٦٤— ٥٨	ذكر مقتل المسترشد وخلافة الراشد بالله
	ذكر قدوم السلطان محمود بن مسعود بن محمد إلى بغداد وهروب
٦٦— ٦٥	الراشد بالله وعماد الدين زنكي إلى الموصل
٧١— ٦٧	ذكر البيعة بالخلافة المقتنى لأمر الله بن المستظهر بالله
٧٢— ٧١	منازلة عماد الدين مدينة حصن
٧٤— ٧٢	ذكر فتح قلعة باريك وكسر الفرنج — لعنهم الله —
٧٥— ٧٤	ذكر فتح المعرة وكفر طاب
٧٦	ذكر خروج ملك الروم إلى بلاد الاسلام
٧٧— ٧٦	ذكر استيلاء عماد الدين على حصن
٧٩— ٧٧	ذكر منازلة الروم حلب ثم شيزر
	ذكر توجه القاضي كمال الدين بن الشهرزوري إلى السلطان مسعود
٨١— ٧٩	في معنى الروم واستنجاهه به عليهم
٨٣— ٨١	ذكر تخذيل عماد الدين بين الفرنج والروم حتى رحلوا خائبين
٨٤	ذكر استيلاء عماد الدين زنكي على حران ثانيا
٨٥— ٨٤	ذكر استيلاء عماد الدين زنكي على شهرزور وأعمالها
٨٦— ٨٥	ذكر استيلاء عماد الدين زنكي على بعلبك
٩٠— ٨٧	ذكر منازلة عماد الدين زنكي دمشق
٩٢— ٩٠	ذكر الاتفاق بين السلطان مسعود بن محمد وبين عماد الدين زنكي
٩٤— ٩٣	ذكر فتح الرها
٩٦— ٩٥	ذكر مقتل نصير الدين جعفر النائب بالموصل
٩٦	ذكر رحيل عماد الدين عن البيرة وتملك المسلمين لها

صفحة	
٩٧	ذكر استيلاء زين الدين على كوتك على إربل
٩٨ — ٩٩	ذكر منازلة عماد الدين قلعة جبر
	ذكر مقتل الشهيد عماد الدين أتابك زنكي بن آق سنقر
٩٩ — ١٠٠	— رحمه الله —
١٠٠ — ١٠٦	ذكر سيرة وصفه — رحمه الله —
	ذكر ما كان من الملك ألب أرسلان الحفاجي ولد السلطان بعد قتل
١٠٦ — ١٠٩	عماد الدين
١٠٩ — ١١٠	ذكر أخبار الأيام النورية
١١٠ — ١١٤	ذكر عصيان الرها وعودها إلى المسلمين
١١٤	ذكر استيلاء نور الدين محمود بن زنكي — رحمه الله — على حصن العزيمة
١١٤ — ١١٥	كسرة الفرنج بغيري
١١٦	ذكر وفاة سيف الدين غازي بن زنكي بن آق سنقر — رحمه الله —
١١٦ — ١١٧	ذكر سيرة سيف الدين — رحمه الله —
١١٧ — ١١٨	ذكر استيلاء قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي على الموصل .
١١٨ — ١١٩	ذكر استيلاء نور الدين محمود بن زنكي على سنجار
١١٩ — ١٢٠	ذكر الصلح بين قطب الدين وأخيه نور الدين ، ورد سنجار إلى قطب الدين
١٢٠ — ١٢٢	ذكر قتل البرلس صاحب الطاكية وكسرة الفرنج
١٢٢	ذكر فتح أقمية
١٢٣	ذكر انهزام نور الدين من الفرنج
١٢٣ — ١٢٤	ذكر وفود جوسلين في أسر نور الدين — رحمه الله —
١٢٤ — ١٢٥	ذكر فتح تل بامر
١٢٥	ذكر كسرة الفرنج بدلوك وفتحها
	ذكر استيلاء محمود بن زنكي على مدينة دمشق ، وخروج الملك عن
١٢٥ — ١٢٧	بيت طفتكين
١٢٧ — ١٢٨	ذكر منازلة نور الدين — رحمه الله — حارم
١٢٨ — ١٢٩	ذكر استيلاء نور الدين على بعلبك
١٢٩ — ١٣٠	ذكر استيلاء نور الدين على مدينتي بصرى وصرخد

صفحة	
١٣٠—١٣١	ذكر خروج أمير أميران بن زنكي على أخيه نور الدين . . .
١٣١—١٣٣	ذكر وفاة المقتدى لأمر الله وسيرته
١٣٤	ذكر حصر نور الدين مدينة حارم
١٣٥—١٣٧	ذكر هزيمة نور الدين من الفرنج
١٣٧—١٣٩	ذكر مسير أسد الدين شيركوه الأول إلى مصر
١٣٩—١٤٠	ذكر وصول الفرنج إلى الديار المصرية ، ومحاصرتهم أسد الدين بلبليس
١٤٠—١٤٣	ذكر وقوع الصلح بين أسد الدين والمصريين والفرنج
١٤٣—١٤٦	ذكر فتح حارم وكسر الفرنج
١٤٦—١٤٧	ذكر فتح بانياس
١٤٨	ذكر فتح حصن المنيطرة
١٤٨—١٤٩	ذكر مسير أسد الدين شيركوه بن شاذي المسير الثاني إلى مصر
١٥٠—١٥١	ذكر واقعة البابين
١٥١	ذكر استيلاء أسد الدين شيركوه على الاسكندرية
١٥١	ذكر محاصرة الفرنج لصلاح الدين يوسف بالاسكندرية
١٥٢	ذكر وقوع الصلح بين أسد الدين والفرنج والمصريين
١٥٢—١٥٤	ذكر فتح صافينا والعزيمة
١٥٤	ذكر فراق الأمير زين الدين على كوجك قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل
١٥٥	ذكر استيلاء الملك العادل نور الدين على قلعة جعبر
١٥٥—١٥٦	ذكر مسير أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية المسير الثالث
١٥٧	ذكر منازلة الفرنج بلبليس وملكهم لها
١٥٧	ذكر منازلة الفرنج القاهرة
١٥٧	ذكر إحراق مصر
١٥٨—١٦٠	ذكر وقوع الصلح بين شاور والفرنج
١٦٠—١٦١	ذكر قدوم أسد الدين شيركوه مصر ، ورحيل الفرنج عنها
١٦١—١٦٣	ذكر مقتل شاور
١٦٣—١٦٧	ذكر استيلاء أسد الدين شيركوه على الديار المصرية ، وتقلده وزارة الغاضد

صفحة	
١٦٨—١٦٧	ذكر وفاة أسد الدين شيركوه بن شاذى — رحمه الله — . . .
	ذكر استيلاء صلاح الدين يوسف بن أيوب — رحمه الله —
١٧٤—١٦٨	على الديار المصرية وتقلده وزارة العاضد
١٧٩—١٧٤	ذكر وقعة السودان بالقاهرة
١٨٤—١٧٩	ذكر منازلة الفرنج دمياط ، وعودتهم عنها خائبين
	ذكر وصول الملك الأفضل نجم الدين أيوب بن شاذى — والد السلطان
١٨٨—١٨٥	— إلى مصر
١٨٨	ذكر وفاة قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل
١٩٠—١٨٩	ذكر سيرته — رحمه الله —
١٩١—١٩٠	ذكر استيلاء سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى على الموصل
	ذكر استيلاء الملك العادل نور الدين — رحمه الله — على الموصل ،
١٩٣—١٩١	وإقرار ابن أخيه سيف الدين عليها
١٩٥—١٩٣	ذكر وفاة الخليفة المستنجد بالله أبى المظفر يوسف بن المقتدى وسيرته
١٩٧—١٩٥	ذكر البيعة بالخلافة للمستضى بنور الله بن المستنجد بالله
	ذكر الأحداث الكائنة بمصر فى هذه السنة — أعنى سنة ست وستين
١٩٨—١٩٧	وخمسائة —
١٩٨	خروج الملك الناصر صلاح الدين إلى الغزاة
١٩٩	ذكر فتح قلعة أيلة
٢٠١—٢٠٠	ذكر إقامة الدعوة العباسية بمصر ، وانقراض الدولة العلوية بها
٢٢١—٢٠١	ذكر وفاة العاضد
٢٢٣—٢٢١	ذكر ابتداء الوحشة بين نور وصلاح الدين — رحمهما الله تعالى —
	ذكر منازلة السلطان الملك الناصر صلاح الدين — رحمه الله —
٢٢٤	السكر والشوبك
٢٢٨—٢٢٥	ذكر وصول الهدية المصرية إلى نور الدين
٢٢٩—٢٢٨	ذكر غزوة التوبة
	ذكر وفاة الملك الأفضل نجم الدين أيوب بن شاذى والد الملوك
٢٣٠	— رحمه الله —

صفحة	
٢٣٠—٢٣٢	ذكر سيرته — رحمه الله —
٢٣٢	ذكر المراسلة بين نور الدين وصلاح الدين — رحمهما الله تعالى —
٢٣٣—٢٣٤	ذكر قصد نور الدين — رحمه الله — بلاد قليج إرسال .
٢٣٥	ذكر الواقعة الكائنة بين مقدم الأرمن والروم
٢٣٦	ذكر دخول قراقوش التقوى بلاد المغرب
	ذكر دخول الملك المعظم شمس الدولة نحر الدين توران شاه ابن أيوب
٢٣٧—٢٤٣	وتملكها
	ذكر عزم جماعة من المصريين على إقامة الدعوة المصرية وما آل
٢٤٣—٢٥١	إليه أمرهم
٢٥١—٢٥٧	ذكر شيء من خبر عمارة وشعره
٢٥٧—٢٥٨	ذكر ورود الرسالة النورية إلى صلاح الدين
٢٥٨—٢٦٢	ذكر وفاة الملك العادل نور الدين بن زنكي بن آق سنقر — رحمه الله —
٢٦٣—٢٨٦	صفته وسيرته — رحمه الله —
٢٨٩—٢٩٤	فهرس الموضوعات للجزء الأول من الكتاب

